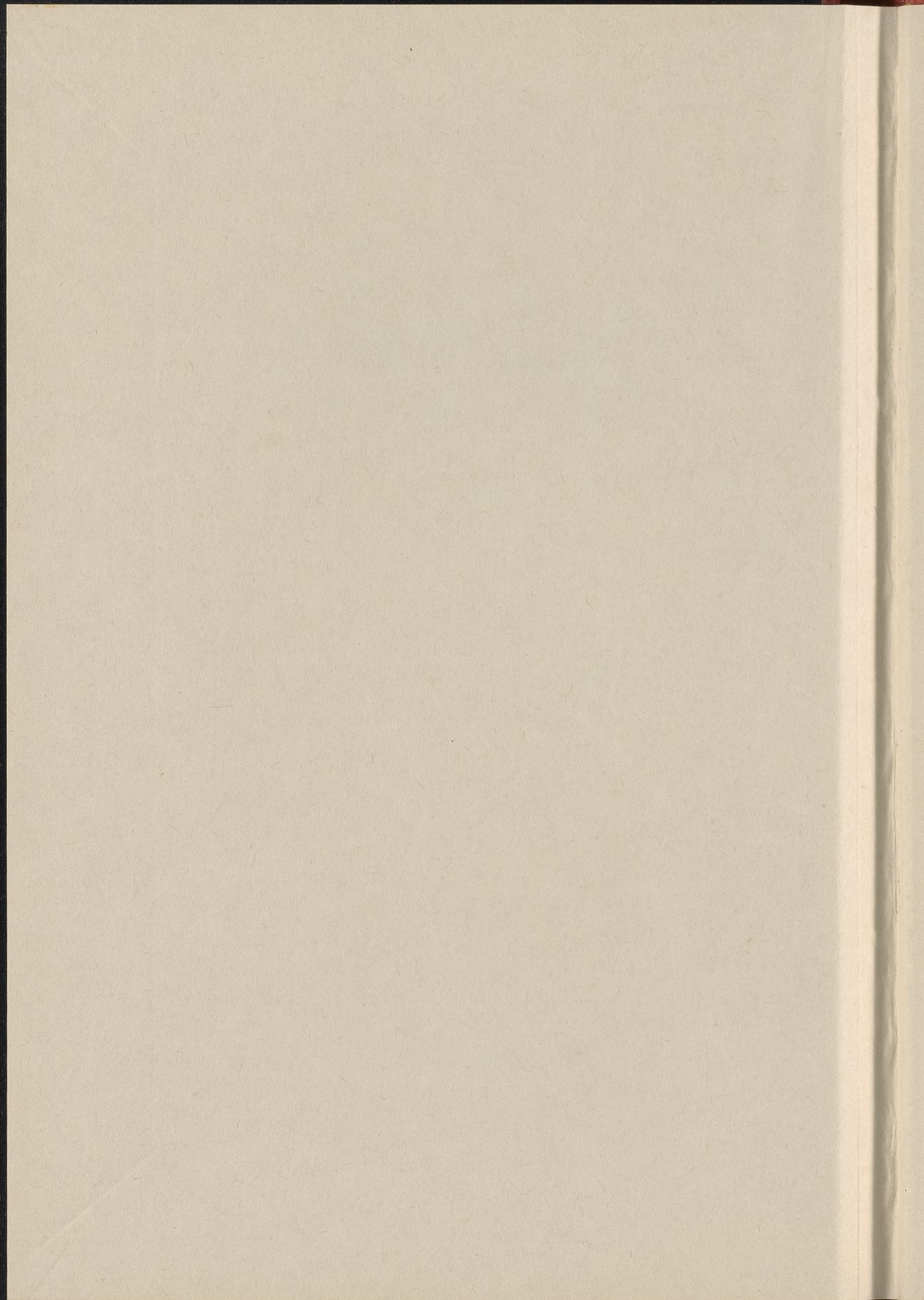
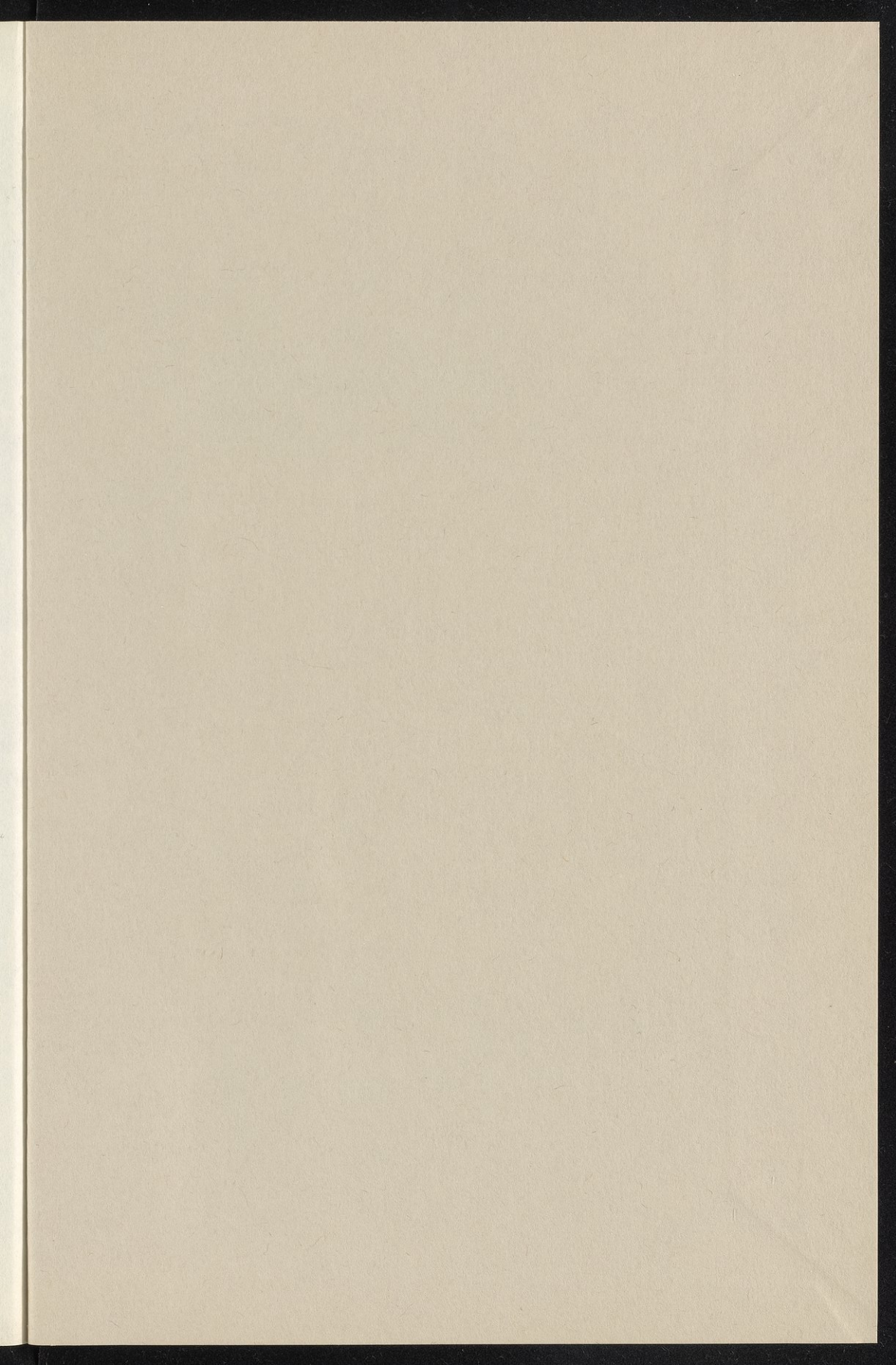


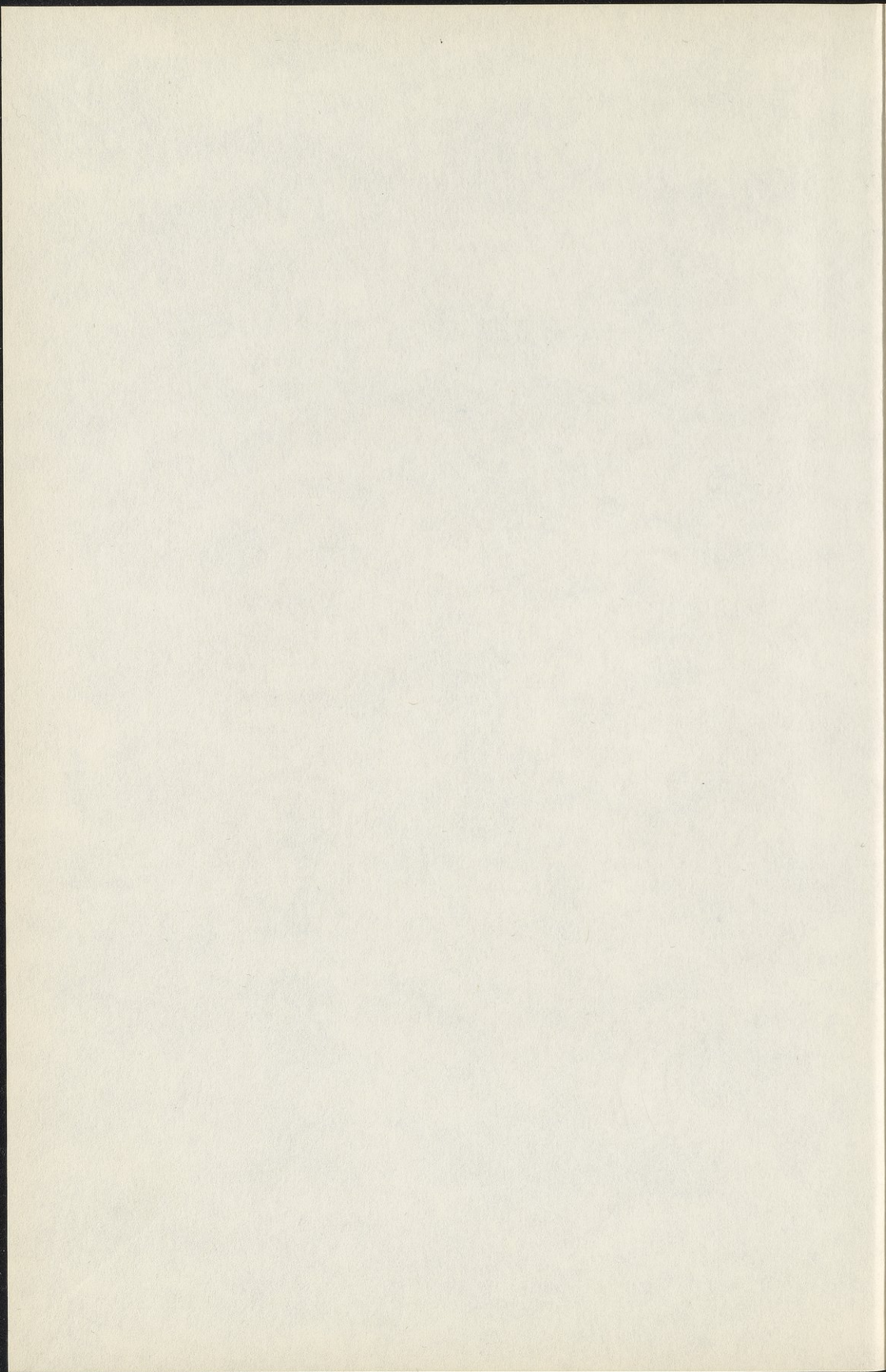
THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

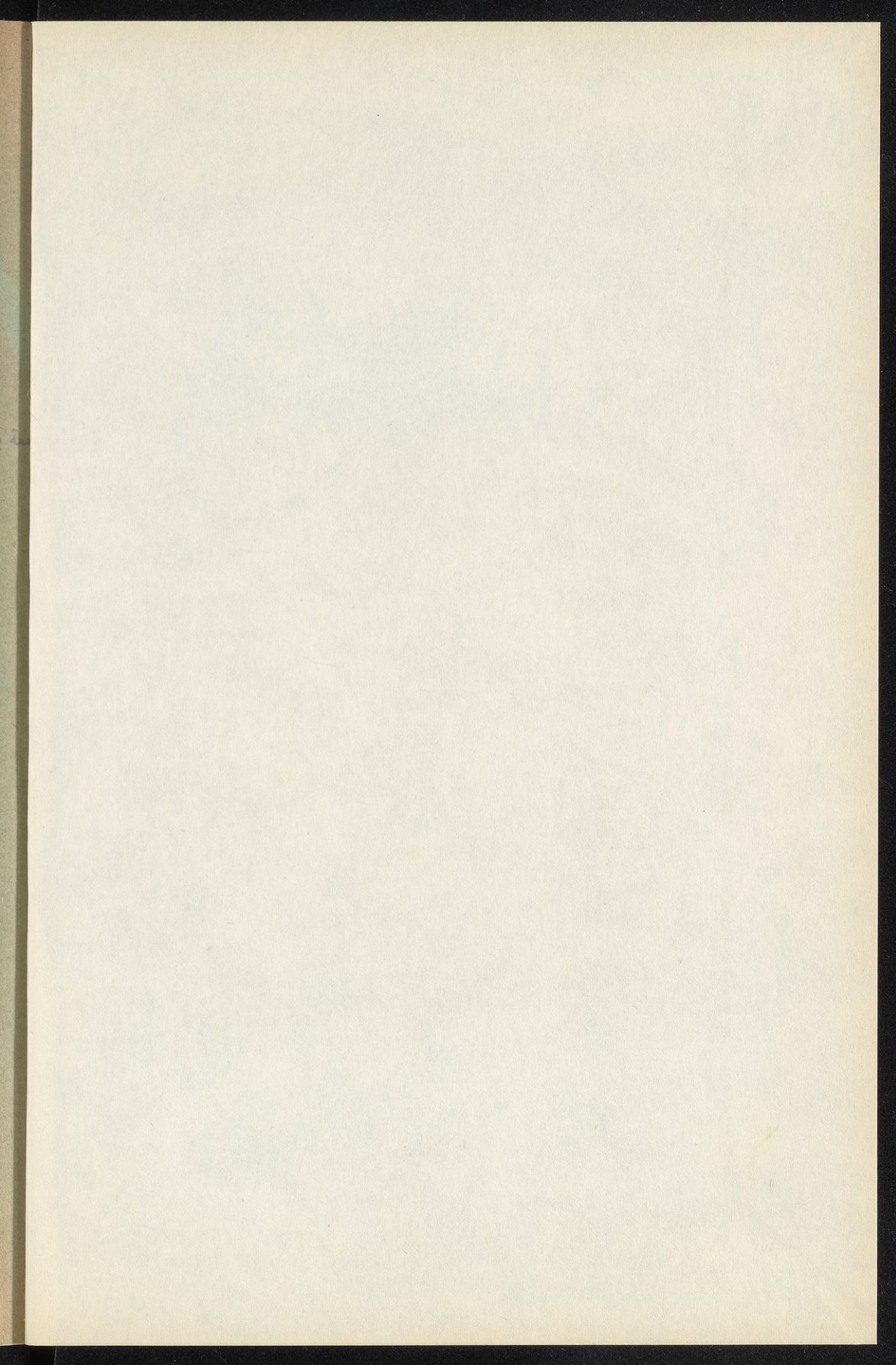


GENERAL LIBRARY









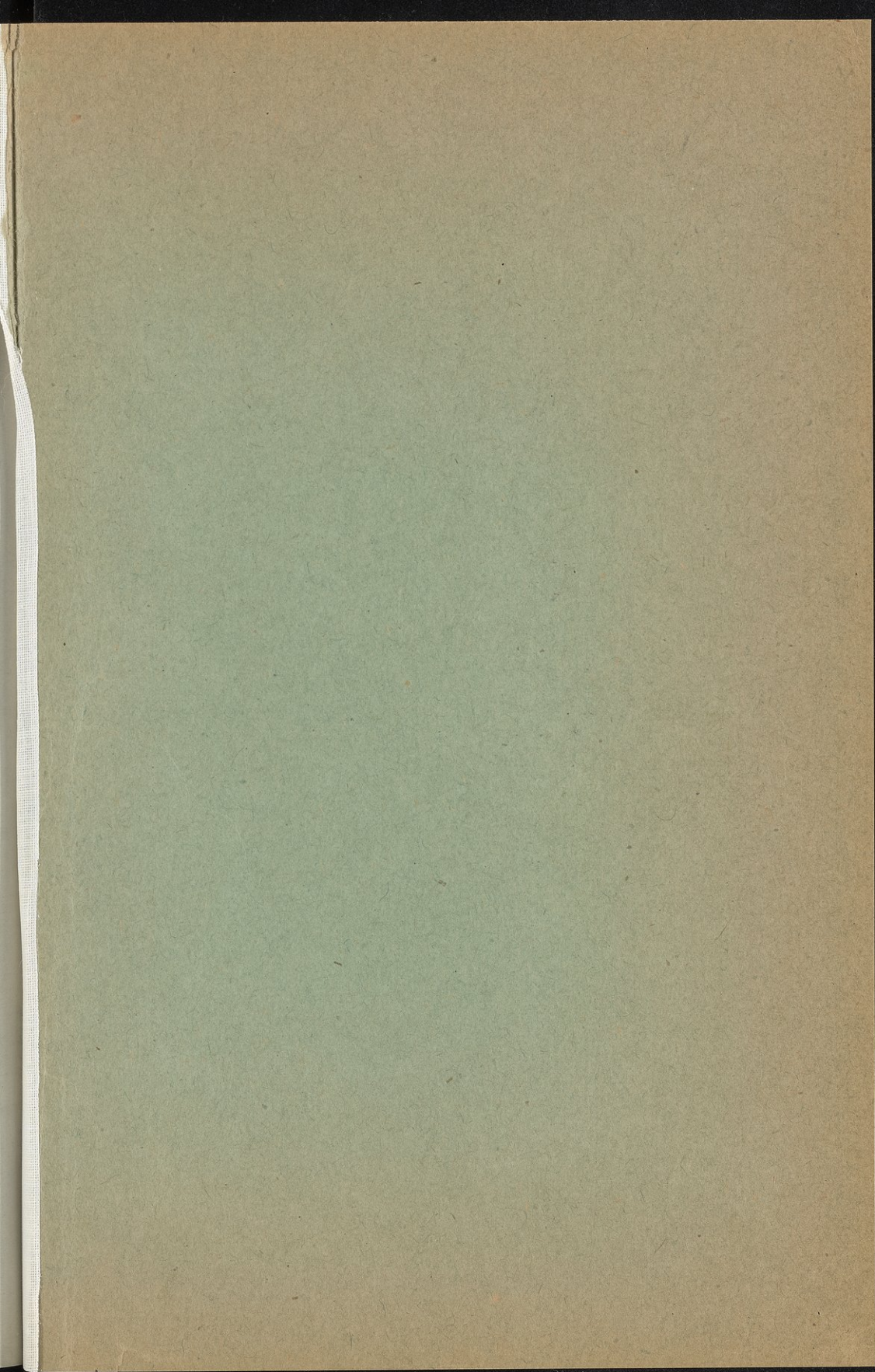
الدكتور
منعبر مناو

الواقع الفكري

والمجتمع العربي الجديد

هل يستطيع العرب فهم ماضيهم وتقييم ماضيهم
والانطلاق نحو مستقبل افضل .. ؟

الطبعة الاولى



الدكتور
متعب مناف

المكتبة المركزية
لجامعة بغداد

الواقِعُ الفِكْرِيُّ والمجتمَعُ العَرَبِيُّ الجَدِيدُ

هل يتّضح العرب فهم ماضيهم وتقييم حاضرهم
والأزْدِفاف نحو مستقبل أفضل؟

الطبعة الأولى ١٩٦٦

DS

63

• M 8

فكرنا ان قولنا
في كتابنا اننا نريد
ان يكون لنا
كتابنا

تهمة

يهر المجتمع في الوطن العربي اليوم في مرحلة ينتقل بها من طور ذي قيم زراعية في الفكر والحياة الى طور تغلب عليه القيم الصناعية وما يتصل بها من علاقات ونظم ومؤسسات اجتماعية تسهل عملية التفاعل في المجتمع الجديد .

ومن المؤكد أن الوطن العربي يحتل موقعاً استراتيجياً فريداً ، فإذا نظرنا الى خارطة العالم القديم المكون من (آسيا وأفريقيا وأوروبا) نرى ان الارض العربية تمثل القلب بالنسبة لهذه القارات الثلاث ، ومن الطبيعي ان استراتيجية الموقع الجغرافي للوطن العربي ساعدت الى حد كبير على تبوؤ المجتمع العربي لمركز حضاري حساس تمثل في التيارات الفكرية التي وفدت وانفعلت ثم تفاعلت وخرجت ثانياً لكي تؤكد اصالة العرب الحضارية ، فقد تربع الفكر العربي على كرسي الصدارة الحضارية في العالم لعدة قرون واستطاع ان يمد الفكر العالمي بوجه عام والفكر الاوربي بوجه خاص بالمواد الاولية الغنية التي اعتمد عليها في بناء صرح الحضارة التي نعيشها في القرن العشرين .

ولم يخطأ (هارولد لامب) حين أكد أن الفكر الحضاري الاوربي مدين بشكل خاص لمصباح المدنية الذي رفعه العرب . وهذا القول يصدق على فترة القرون الوسطى التي كانت فيها أوروبا ضحية للتنصب في الحياة والعقيدة في الوقت الذي بلغ فيه الفكر العربي الاسلامي أوجه في النضج ممثلاً فيما كتبته (ابن خلدون) و (ابن رشد) في المغرب و (الامام الصادق) و (الغزالي) في المشرق . ولا تعدو الحقيقة اذا قلنا بان مقدمة ابن خلدون كانت المنطلق الفكري الذي بدأت منه أوروبا فقد أكد المؤرخ الايطالي « فيكو » : بان التاريخ يمثل خلاصة الاجتماع الانساني وان الاحداث ما هي الا نتائج للعلاقات الاجتماعية بعد تفاعلها مع الطبيعة والمستقبل . وقد توسعت هذه النظرة على يد

الانسكلوبيديين و « او كست كومت » الذي انتهى بها الى وضع قانونه ذي المراحل الثلاث والذي أكد ان الفكر الانساني قد مر خلال العصور الطويلة بمراحل ثلاث :-

أ - المرحلة الغيبية :- وهي تلك المرحلة التي كان الفكر الانساني فيها يفسر ما يعترضه من الظواهر الطبيعية والاجتماعية حسب موجبات غيبية تجمع تحت عنوان (القضاء والقدر) •

ب - المرحلة الميتافيزيقية :- وهي تلك الفترة التي كان فيها الفكر الانساني يفسر الظواهر المحيطة به بارجاعها الى علل مخزونة في عالم وراء عالمنا المحسوس يطلق عليه اسم (العالم الميتافيزيقي) •

ج - مرحلة العلم الحديث : وفي هذه المرحلة بدأ الفكر الانساني ينظر الى ما حوله من ظواهر (الطبيعة والمجتمع) نظرة موضوعية ثم يدرس الاسباب التي أدت الى قيام تلك الظواهر وينتهي من دراسته هذه بارجاعها الى دوافع من الممكن اخضاعها الى الملاحظة المقصودة أو تحت ظروف تجريبية •

وعلى الرغم من وجود بعض المآخذ بالنسبة لقانون كومت المار ذكره أهمها : ان محاولة رسم خطوط تحدد لون او الوان النشاط للفكر الانساني لا تتفق وواقع حركة وتطور الفكر نفسه اذ لا يمكن ان يقاس البعد الحضاري وترسم له الحدود الفاصلة لان مناطق الاخذ والرد ستشوه حتماً أي تخطيط صلب لتطور الفكر الانساني ولكن ما يتصل باهتمامنا هو ان (كومت) ومن قبله (فيكو) ومعهما الانسكلوبيديين الفرنسيين أمثال (فولتير وديدرو وروسو ومونتسكيو) انما يصدرن عن المنبع الفكري الذي اكتشفه المؤرخ العربي (ابن خلدون) ومن غير المشكوك فيه أن ترجمات قديمة (للمقدمة) (١) لا بد وان وصلت الى

(١) مقدمة ابن خلدون لتأريخه : العبر وديوان المبتدأ والخبر في اخبار العرب والعجم والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الاكبر وتعد هذه المقدمة انقلاباً في الفكر وفلسفة التاريخ •

أوروبا عن طريق (الاندلس) البلد الذي عاش فيه ابن خلدون فترة طويلة متردداً بينه وبين المغرب العربي بشماله الأفريقي في وقت جمع فيه بين التفكير والوظيفة والتجربة الذاتية .

هناك اذن الكثير من المكاسب حصل عليها الوطن العربي بواسطة موثقه الاستراتيجى النادر ولكن هذا الموقع يفرض الكثير من المسؤوليات الحضارية على الامة العربية نفسها لان مسألة الصدارة الحضارية تحتاج الى بناء متكامل يجمع بين العمق الحضارى والقوة السياسية والعسكرية والرخاء الاقتصادى من جهة وبين المجتمع كوحدة متكافلة من جهة اخرى نم بين هذه الجوانب المختلفة وبين السلطة ذات الحكم والقوة لكي تتكون روابط اجتماعية تجعل من الفرد والمجتمع والسلطة اوجهاً لجسم حضارى وحياتى واحد .

وقد استطاعت الامة العربية ملء مقعد الصدارة الحضارية في فترات القوة التى مرت بها وقد كان محك تلك القوة فى السياسة والحضارة الحروب التى وقعت بين فترة الحضارة العباسية وبين الجيوش الرومية فى (القسطنطينية) وعلى الرغم من ان جانب التكافؤ كان يسود تلك الحروب نظراً لتحول الاستراتيجية الحربية فى العصر العباسى من الهجوم الى الدفاع ، فان الامة العربية استطاعت ان تؤكد صدارتها الحضارية ولكن فترات من الضعف ما لبثت ان سادت اجهزة الحكم والسياسة فى تلك الفترة الحضارية وانتهى الامر بضربة شديدة تقوضت على اثرها التنظيمات السياسية والاجهزة الادارية العربية : تلك الضربة تمثلت فى الهجوم المغولى التتري الذى يمثل أفضع غزوة قامت بها جموع بربرية لهدم واحدة من اعرق حضارات الانسان .

وعلى الرغم مما تعرضت له الاجهزة السياسية والادارية فى الوطن العربي على يد الغزاة من مغول وتتر فان الهياكل الحضارية بقيت قائمة دون ان تتمكن همجية الغزاة تحطيمها لان الحضارة ذات العمق البعيد اقوى من الانسان وأقوى من الزمن فكيف اذا كان ذلك الانسان همجياً متوحشاً ترك لتوه خيامه وحياته البدوية الجافة فى أواسط آسيا ؟

والذى نريد ان نؤكدده هو ان الموقع الاستراتيجى للوطن العربى بصرف النظر عما مهد له من رقي حضاري جعل من الوطن العربى هدفاً لرياح شعبية عاتية تهب عليه عندما تصبح البقعة العربية ذات ضغط سياسى وحضاري منخفض •

ولا يبعد عن البال ان فترة الانتقال التى نمر فيها اليوم فى الوطن العربى وعوامل الضعف والتجزئة تجعل من أرض العرب منطقة ذات ضغط حضاري واطىء يعرضها لرياح شديدة من الشرق والغرب تحمل اليها ما قد يضرها ويؤخر فى مسيرتها نحو مستقبل حضاري أفضل •

والواقع ان كل تخطيط للحياة بكافة جوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لا بد وان يسبقه تخطيط فكري • وبعبارة اوضح يجب ان يتوفر المناخ الفكرى الملائم لاي تخطيط يشرع فيه فى الحاضر والمستقبل •

الا ان هذا المناخ الفكرى المثالى للمخططات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى يرغب الفرد العربى رغبة ملحة فى نجاحها لا بد وان ينهض على قاعدة فكرية مشتركة تتخطى التجزئه والحدود والطائفية والاقليمية وعوامل التراجع والضعف والانهازمية •

ومن الواضح ان تكوين القاعدة الفكرية المنشودة لا يتم الا بعد التأكد من العناصر المكونة لها واهمها على وجه الدقة : الجيل والفكرة والطريق والهدف • والمراد بالجيل المجاميع من الناشئة العرب فى طول الوطن العربى وعرضه لان هذه الكتل من ابناء الجيل الجديد عليها المعول فى بناء الغد الحضاري الافضل لذا فهى مسؤولة أمام الامة العربية وضميرها والتاريخ بان تنجح فى المستقبل القريب أو البعيد فى بناء حضارة عربية على صعيد الوطن العربى ذات نوافذ على الفكر العالمى •

اما الفكرة فيراد بها وضع مادة للتدريس تصلح ان تطعم عقل الجيل العربى الجديد بما يحتاج اليه من وقود من عالم المعرفة لكى يبدأ رحلته فى الاجواء الحضارية العربية والانسانية •

بقيت لازمتان لبناء القاعدة الفكرية العربية الجديدة هما الطريق والهدف
وتقصد بالطريق السبيل الذي يمكن بواسطته ان توصل الفكرة الى اذهان الناشئة
العرب من ابناء الجيل الجديد اما الهدف فهو المنار الذي تلتقي عنده آمال
ومخططات الامة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ونريد بذلك (الوحدة
العربية الشاملة) •

وانطلاقاً من تعريفنا للقاعدة الفكرية الجديدة في الوطن العربي وتوضيح
مكوناتها الرئيسية فان السبيل السوي لبناء هذه الامنية هو ايجاد مادة دراسية
أو مواد تدرس بشكل مشترك وبمناهج موحدة على مستوى الوطن العربي بكافة
اقليمه •

ومن الجائز اعتبار مادة (المجتمع العربي) صورة مصغرة لجمع شتات
الفكر العربي وصبه في قوة موحدة تستطيع ان تتخطى الحدود والقيود الاقليمية
والشكلية وتسمو فوق ما يسمى بالدوافع الوطنية أو المحلية وتمشياً مع هذا المخطط
الجديد فان تدريس مادة المجتمع العربي يجب ان يشرع فيه خلال سنى الدراسة
الثانوية ثم يعطى بشكل اكايمي على مستوى الدراسة الجامعية وعلى الاخص
في السنوات الأولى لكي تعمل مادة المجتمع العربي على توجيه فكر الناشئة في
الجامعات العربية الوجهة السليمة التي تتفق واماني العرب ومخططاتهم السياسية
والاجتماعية والاقتصادية والحضارية في المستقبل •

ومن الواضح ان تدريس هذه المادة يجب ان لا يقتصر على الكليات الادبية
والنربوية والقانونية ومعاهد اعداد المعلمين وانما يتعدى هذه الدوائر الفكرية
الى مجالات العلوم والطب والمعاهد الفنية لان اعداد المعلم أو الاديب أو المحامي
العربي لا يمكن ان يأتي ثماره المشودة في بناء مجتمع عربى افضل اذا لم يجد
الى جانبه طبيباً ومهندساً وعالملاً وفنياً من اخوانه ابناء الامة العربية كلهم مزود
بنفس المعرفة التي ينطلق منها الى فهم مسؤولياته الحضارية الحاضرة والمستقبلية •
ومن غير المشكوك فيه أن النظم التربوية في البلاد العربية تتأثر بالظروف
المحيطة بها مما يشوه الغاية من وراء تدريس موضوع المجتمع العربي لذا فان

اضمن السبل للتأكد من نجاحه في تكوين رأي عام عربي موحد هو نقل المسألة الى الجامعة العربية واجهزتها الثقافية والتربوية لكي تخطط للموضوع نفسه وتضع اهدافه القريبة والبعيدة مع التأكيد على المناهج والمراجع التي تتسجم والخط القومي الذي سيسلكه كل من الموضوع والكيفية التي يدرس فيها •

وخلاصة القول ان موضوع المجتمع العربي بجوانبه المختلفة من فكر وواقع وحضارة وهدف تصلح ان تكون المنطلق الواقعي الجريء لنفض غبار التخلف والجمود وما اعترى الفكر العربي من تأخر وضعف من جهة وتهياة السبيل امام الناشئة العرب في المرحلة الجامعية لتكوين ذات عربية مفكرة تستطيع ان تتحمل مسؤولياتها الحضارية على الوجه الاكمل ، من جهة اخرى • ولزماً فان التأكيد على الجيل الجديد ومسؤولياته الحضارية انما ينطلق من الوضع الحضاري والمصري لهذا الجيل فان الناشئة العرب في الوقت الحاضر تنتظرهم مصاعب وعقبات تمثل في اعادة بناء الامة العربية اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وحضارياً ، اما العقبات فانها تبرز في عوامل الضعف والتخلف والانهازامية والطائفية والتخاذل وضياع القيمة الذاتية للفرد العربي وضعف التجاوب بين الفرد والفرد في المجتمع العربي وبينهم وبين المجتمع كقوة منفصلة من جهة وصلة هذه الوحدات بالسلطة من جهة اخرى لذا فان الظروف الحاضرة المحيطة بالوجود العربي تضع على كاهل الناشئة العرب مسؤوليات جسيمة تختلف عما تعرض لهم ابؤهم واجدادهم في مطلع حياة الامة العربية الجديدة •

والواقع ان الجيل العربي الجديد مهياً نفسياً لتقبل المسؤوليات الجسيمة الملقاة على عاتقه في بناء حضارة عربية ذات ابعاد انسانية لان الاجيال الماضية عاشت في دوامات من (الاخذ والرد) الفكرى في اسلوب وهدف حياتها وبذلك فقدت ناحيتين أساسيتين يجب ان تتوفر فيمن يقع على عاتقهم بناء غد حضاري أفضل : الاولى فقدان (الاعتزاز بالذات والتأكيد عليها) فقد نبتت جذور الاجيال السابقة في ارض من التأخر والضعف وبذلك شدت تلك الاجيال الى واقع يغلب عليه

الشعور بالنقص أو الركود في بعض الاحيان لذا فان الاجيال الماضية تحاول ان تبشر بالفكرة القائلة (ليس في الامكان احسن مما كان) وهي محاولة مبطنة لابقاء القديم على قدمه ومحاربة كل جديد خوفاً من الوقوع في الخطأ او ارتكاب ما قد يؤثر على مركز تلك الاجيال الاجتماعى او التاريخى .

اما الناحية الثانية فانها تتصل بالافتراض الاول وملخصها ان الاجيال التى عاشت فى جو حضارى يغلب عليه الجمود والضعف والتردد لا يبد وان تفقد صفة (المرونة) التى تعتبر هى وقرينتها (الجرأة) من ألزم احتياجات البناء الحضارى فى الحاضر والمستقبل .

ولكن السؤال الذى يتبادر الى الذهن هو : لماذا يدفع ابناء هذا الجيل كل هذه التضحيات من العرق والدموع والوقت والفكر ؟ والجواب ان ذلك هو جزاؤهم لان هناك ضريبة حضارية يجب ان يدفعوا القسط الاكبر منها والا فان الواقع العربى سيقى على ما هو عليه وستتصر القوى التقليدية التى تحاول ان تستغل نواحي الجرأة والخطأ والتردد والاندفاع فى سلوك الجيل العربى الصاعد فتفرض ثقلها باسم (الحكمة والموضوعية والنضج العقلي) وما اليها من محاولات لابطاء التيار العربى الجديد فى الفكر والمجتمع .

والحل الاكثر واقعيه للجيل الجديد هو ان يمد يده للاجيال السابقة على درب المسيرة الحضارية نحو الغد الافضل وعلى تلك الاجيال ان تودع حكمتها فى تلك اليد التى امتدت اليها لكي يستطيع الجيل العربى الناشئ من اداء رسالته فى بناء وطن عربى ذى أصالة حضارية ذات ابعاد عربية وانسانية .

الفصل الاول

العرب والتجربة التاريخية والحضارية

ان مركز الثقل في تدريس موضوع كالمجتمع العربي هو رسم الابعاد التي يكون باستطاعة الفكر العربي ان يمتد في نطاقها مستوعباً المركبات الحضارية المتوارثة من جهة وناظراً الى الحاجات المستقبلية للامة العربية في غدها الحضاري من جهة اخرى •

ولعل مما يميز المجتمع العربي انه وريث حضارات قديمة عاشت في فرون خلقت قبل ميلاد السيد المسيح • وبالنسبة لعلماء الحضارة والاثروبولوجيا بنوعيتها الثقافي والاجتماعي ان الحضارة تنشأ في بيئة معينة اذا توفرت لها أسباب النماء الحضاري وهي : البشر والارض الخصبة والمناخ الملائم والحافز الحضاري الذي يدفع بالانسان لكي يستغل أرضه وما فيها من موارد وطاقات في سبيل بناء محيط فكري له ولاجياله القادمة •

وقد تمثلت هذه الظروف الحضارية الملائمة لبناء الوحدات الحضارية في كل من وادي النيل ووادي الرافدين ونجح الانسان في هذين الواديين ببناء حضارات عريقة استطاعت ان تتحدى الظروف الزمانية والاحداث وان تبقى على امتداد الحضارة العالمية باجيالها المتعاقبة • فقد مارس سكان ارض ما بين النهرين وسكنة وادي النيل كافة ما تؤديه من أعمال في القرن العشرين فقد كون اولئك السابقون الاسر والمجتمعات وبنوا السدود والاهرامات وخنزوا قمحهم واوصلوا المياه الى المدن وعرفوا الكثير من جوانب الغيب المتمثلة في قوى الخير والشر والقوى غير المنظورة التي تتصل بالموت والحياة والرزق والكساد والجفاف والخصب سواء في ذلك ما يتعلق بالانسان أو الطبيعة وزادوا على ذلك بان

عرفوا أهمية الوقت ووصلوا بين تلك الأهمية وبين واقع حياتهم وعلى الأخص فيما يتصل بالري والزرع وجمع الحاصل وسد حاجة الاستهلاك ذي الأمد القصير والمتوسط والطويل • كما حدث بالنسبة لمصر في أيام الفراعنة وما تذكره التوراة من قصة النبي يوسف فإن القصة نفسها تتصل بواقع علم الاقتصاد في القرن العشرين ونقصد بذلك فكرة الدوائر الاقتصادية التي يتراوح فيها الإنتاج بين الزيادة والنقص نظراً لتأثر العملية الإنتاجية بالظواهر الطبيعية في الاقتصاد المستند على الحاصلات الزراعية •

وقد أوغل القدماء في كل من وادي الرافدين ووادي النيل في جوانب المعرفة المختلفة من رياضيات وهندسة وتحنيط وما يتصل بذلك من بناء وزخرفة ورسم وطرب •

وتتضح القيمة العلمية والحضارية للحضارات القديمة في الوطن العربي فيما خلفه أسلاف الشعب العربي من آثار خالدة تتحدى عوامل التعرية والتآكل البشرية والتاريخية كالأهرامات والجنائن المعلقة والآثار التي تمثل المدن القديمة وأماكن العبادة والقراءة ومخازن الغلال والمجارى والقنوات والحلى وادوات الزينة والطعام وما كان يستعمل في الكتابة وفي أعداد المكتبات العظيمة كمكتبة اشور بانيبال في نينوى قرب مدينة الموصل في شمال العراق •

ومن الثابت حضارياً وتاريخياً أن ما شيده الأقدمون في كل من وادي الرافدين ووادي النيل لم يكن من قبيل العبث الحضاري وإنما قام معظمه على أسس نظرية تتصل بالرياضيات أو الهندسة أو الفيزياء الحديثة ومن أدل الأمثلة على ذلك بناء الأهرامات والمدن البابلية القديمة فقد بنيت أهرامات وادي النيل باستخدام نظرية فيثاغورس في ترتيب الصخور فوق بعضها وعمل الشكل الهرمي كما رسمت المثلثات الخاصة بأوجه الهرم لكي تقابل مساقط الشمس عند شروقها • وليس يخاف أن تلك الأهرامات قد أقيمت في سبيل تخليد الجسد دون أن تمسه يد التلوين أو التدنيس لكي تعود إليه الروح ثانية وهو في كامل هيأته وهذه

الفكرة بذاتها محاولة لفهم الحياة الميتافيزيقية حيث تسبح الارواح في جو من
اللانهاية كما يحاول ان يصفها (دانتى) (٢) في قصته (الفردوس المفقود) •
اما المدن البابلية القديمة فقد بنيت فيها الاقواس والزوايا الحادة وقدرت
احتمالات البناء وما يمكن ان ينهض على تلك الاسس من مشيدات وطوابق وقد
روعي في تخطيط المدن البابلية قدرتها على استيعاب الزيادة المنتظرة لمن يفد على
تلك المدن من البدو الرحل أو ما يسمى في العصر الحاضر (الهجرة من الريف
الى المدينة) ويتضح هذا القصد من البعد الذي يترك بين نهاية مدن المدينة
وبدايات بناء الاسوار •

هذه لمحة موجزة لقصة حضارية عاشت قروناً طوال او كما يؤكد (ويل
ديورانت) في كتابه الضخم عن قصة الحضارة ، بان حضارة وادي الرافدين
ووادى النيل تمثلان اول مغامرة انسانية فكرية حاولت ان تجعل من الطبيعة
طبيعة ثانية تمتلك القدرة على تخليد الانسان كحيوان اجتماعي وتمنحه القابلية
على وضع أسس لبناء فكري وحضارى فى المستقبل له القدرة على استيعاب معنى
الحضارة وما يمكن للانسان ان ينجزه بتسخيره للطبيعة وبتحديه للموت ، فلم يكن
بغريب ترسب الكثير مما خلفته تلك الحضارات فى ضمير وتفكير الانسان العربي
فى الوقت الحاضر •

الا ان الامة العربية عانت من صعوبات حضارية بعد ان نعمت بفترة من
الاستقرار الروحي والاجتماعى والرقي الفكرى فى الحقبة التى سادت فيها
الحضارة العربية المسلمة ، فان الاسلام العظيم لم يقتصر على العبادات فقط وانما
تناول جانب المعاملات او ما يسمى فى لغة علم الاجتماع فى الوقت الحاضر
(العلاقات الاجتماعية) ولم يقف الاسلام عند حد تلك العلاقات وانما حث على
تطويرها لصالح الفرد والمجموع وصالحهما معاً وخطط للصلة بين الفرد والمجتمع

(٢) دانتى (١٢٦٥ - ١٣٢١) مفكر واديب ايطالى حاول الجمع بين
المثولوجيا (الاساطير) النيولوجيا (الامور الدينية) فى اثره الخالد الذي ترسم
فيه خطى (رسالة الغفران) لابی العلاء المعري •

وبين الفرد والسلطة وبذلك ساد تفاهم ايجابي ومستمر بين الوحدات الاجتماعية في ظل القيم الاسلامية الا ان ظروفًا صعبة عملت داخل الامة العربية ومن خارجها على تفكيك عرى المجتمع العربي والعبث بقيمه الدينية الاسلامية الخالدة. فأسلمت تلك القوى الشريرة الامة العربية الى ليل طويل من الجمود والتأخر لم تفق منه الا في اواسط القرن التاسع عشر •

وقد تمثلت تلك القوى السوداء التي نخرت جسم الامة العربية في الشعوبية بجوانبها المختلفة الفكرية والاجتماعية والسياسية والعسكرية : فالفكرية منها تخفت في محاولات التشكيك بالتراث العربي وفصل الناشئة عن حضارتهم وتصوير التراث العربي بصورة هزيلة لكي تززع الايمان في نفوس ابناء الشعب العربي بالنسبة لتاريخهم ولامجادهم الماضية ولم تسلم القيم الدينية من محاولات مدسوسة تمثلت فيما كتبه وسلكه اهل الباطن والغلاة ومن جرى على شاكلتهم في محاولة لضرب النهج الديني وذلك لاكمال المخطط الشعبوي الذي وضع لمهاجمة الفكر العربي الاسلامي •

اما الشعوبية الاجتماعية فانها تظهر في المحاولات التي جرت لادخال العناصر المدسوسة وجعلها تسلم زمام التوجيه الاجتماعي في الحياة والمجتمع وخلق طبقات تسعى لضرب القيم الاجتماعية والمثل العليا التي سار عليها المجتمع العربي فترات طويلة عندما كان في اوج تقدمه الفكري والاجتماعي • فقد وجدت طبقات من الشطار والعيارين لاشاعة الفوضى وكسر قيود النظام في المجتمع العربي الاسلامي كما جرت محاولات لبث الاباحية الجنسية وتزيين ارتكاب ما لا يتفق والنظم الاجتماعية ذات القيم المحترمة •

اما الشعوبية السياسية فانها تتضح في الحركات السرية والجمعيات (النهالستية) التي قامت على الاباحية وضرب القيم الانسانية والدينية وخير مثال على ذلك جماعة الحسن بن الصباح الذين اشتهروا باسم (الحشاشين) فقد تكونت هذه الجماعة المارقة بتأثير من رجل يطلق عليه في علم الاجتماع الحديث اسم

(الانسان الهامشي) فقد افتقر الحسن بن الصباح الى موطن او جماعة ينتمي اليها وبذلك اتبدع بعض التعاليم التي تحث على طاعته والانضواء تحت لوائه كل ذلك في سبيل تكوين فئة ممن باعوا انفسهم للشيطان ممثلا في الحسن بن الصباح بوجههم كما يشاء ♦

ولعل من الطريف حقا ان نذكر بان السبل التي اتبعها الحسن بن الصباح في استمالة اصحابه والسيطرة عليهم تتفق وما يسمى في الوقت الحاضر (عمليات غسل الدماغ) ♦ لان طاعة اتباعه كانت تفوق كل وصف فقد يلقي احدهم باشارة منه بنفسه من شاهق فيدق عنقه او ان يتصدى لرجل في الطريق فيقتله دون ان يهاب العقوبة أو القتل ♦

وقد وجدت أمثال هذه الجماعات لكي تبت الارباك وتفكك السلطة السياسية باغتيال او ارهاب رجال السياسة والحكم في المجتمع العربي وبذلك يتم تقويض المجتمع من الداخل وتهيئة الفرصة للظالمين من وراء الحدود لكي تنقض قواهم فتدمر المجتمع وتعبث بمكاسبه الثقافية والحضارية ♦

وهذا ما يقودنا الى الشعوبية العسكرية التي تختلف عن سابقتها بانها اتخذت من الضعف وسيلة لضرب المجتمع العربي المسلم وبذلك تضافت القوى الشريرة من مغول وتمر والتي جاءت من وراء الحدود مع قوى الضعف التي تعمل في داخل الحدود نفسها ولكن الضربة التي وجهت للمجتمع العربي باجنحة الحضارية والثقافية لم تنل الا اجهزته السياسية والادارية ♦ اما جانب الحضارة والفكر فقد ضمن لنفسه البقاء وان خضع لمحن الركود والجمود والنسيان ♦

ولم تقتصر الشعوبية العسكرية على الهجمات الكاسحة للمغول والتر على الحضارة العربية الاسلامية في بغداد وانما كانت هناك شعوبية عسكرية تمثلت في الحروب الصليبية هدفت من وراء اتخاذ الصليب علامة تجمع تجارية لها ضرب القيم الدينية والاجتماعية والاقتصادية لحضارة الشرق العربي ♦

ولعل دراستنا لاسباب فشل تلك الحروب وحمود قوة الغزو المغولي

والترى تجعلنا اكثر تعرفاً على طبيعة الامة العربية وتفكيرها وواقع الحياة والمجتمع فيها فالصليبيون وبعدهم التتر والمغول لم يضعوا في حسابهم قوة القومية العربية والتركيب التام بين مكونات هذه القومية وبين الدين الاسلامي فقد امتزجت القومية العربية بالقيم الدينية المسلمة وكأنهما وجدا لكي يتم بينهما هذا الامتزاج الأمثل ، والواقع ان القومية العربية تجنح نحو الالحاد اذا تخلت عن قيمها الدينية كما ان الشعوبية تجد سبيلها الى المسلمين اذا تم ابتعادهم عن تبني قيم القومية العربية في الفكر والتطبيق والهدف .

وقد غابت هذه الحقائق عن كل من المغول والتتر والصليبيين وحسبوا ان قوة الهجوم الذي ستعرض له الامة العربية سيفقدها توازنها بشكل عام وتتحطم الصلة القوية التي تربط مكونات القومية العربية وقيم الدين الاسلامي . وعلى الرغم من وجود بعض الثغرات التي انتهزها المغول والتتر وقبلهم الصليبيون ونفذوا منها الى الارض العربية وعانوا دماراً وفساداً في اقطارها المختلفة وفي بعض ثغورها الساحلية فان قوة التلاحم القومي الديني عادت ثانية لكي تحطم شوكة الصليبيين في حطين وتقضي على المغول في عين جالوت . ان هذه الاحداث التاريخية التي كان الشرق العربي فيها تحت ثقل غزو فكري وعسكري تدلنا على ان الغزاة لا يمكن ان ينفذوا الى جسم الامة العربية وينالوا منها الا اذا وجد فراغ بين مقومات القومية العربية والقيم الدينية الاسلامية وبالرغم من رد الفعل العربي بالنسبة للضربة المغولية التي وجهت الى قلب الامة العربية وحاضرة خلافتها (بغداد) فان الامة العربية وعلى الاخص في تلك الفترة لم تكن لتحتمل الصدمة نظراً للضعف الذي دب في اجهزتها السياسية والادارية والانقسام الذي حدث في صفوف المجتمع العربي نفسه ، وبعبارة أوضح كانت وحدة الهدف قائمة بينما ضعفت وحدة الصف وتحت ثقل الاحداث الخطيرة التي تمثلت في الغزوات المسلحة لم يتمكن الشعب العربي من الحفاظ على وحدته القومية كذلك مما أدى الى تجزئته وظهور النزعات الاقليمية والمحلية والعنصرية والطائفية بدافع الحفاظ على الذات ولكي يكون الفرد أكثر

اطمئناناً على حياته ومستقبله في المجموعة الصغيرة التي تتصف بقابليتها على الحركة وحماية الافراد الذين يكونونها •

لقد رضخ الشعب العربي بعد فترة الضعف هذه للحكم العثماني وهذا الحكم لا تصله بالعرب الا الديانة الاسلامية التي تبنها امراء آل عثمان وسلاطينهم •

فالعثمانيون اقوام بدائية رحلت من اواسط اسيا وسكنت منطقة الاناضول وقد مر وقت انتقلت فيه تلك القبائل من حياة البداوة الى حياة الاستقرار الا ان ذلك الانتقال لم يكن يجري وفق قواعد مدروسة وانما خضع للصدفة تارة ولعامل الوقت تارة اخرى •

وقد تكون المجتمع العثماني من رؤساء قبائل آل عثمان والمحاربين ثم بقية الجند والاسرى وما يتصل بهم من عمال وفلاحين لذا فان المزيح كان غريباً تعوزه اليد الحكيمة والفكر المجرب الواسع المتصف بالمرونة لكي يجمع هذه الاشتات في دولة قوية قدر لها ان تسيطر على بقعة واسعة من العالم قروناً عديدة •

ومن الواضح تاريخياً ان الكيان العثماني افتقر الى القيادة المؤهلة التي تساعد على بناء مجتمعه المتكامل من جهة وعلى تثبيت سطوة الدولة العثمانية وضمان الحفاظ على ممتلكاتها من جهة ثانية فاكثر سلاطين آل عثمان - وخصوصاً في فترات الحكم الاولى للدولة العثمانية - كانوا من زعماء العشائر ولم يمض وقت كاف لكي يتحول اولئك الزعماء ذوو النزعة العشائرية الى حكام الدولة حديثة النظام •

فقد بقي المسيطرون على اعنة الحكم والقوة في الدولة العثمانية يتصرفون وفقاً للقواعد والتقاليد العشائرية التي نشأوا عليها وقد أوجد هذا النوع من السلوك في الحكم فراغاً كبيراً بين الشعب وحكامه مما زاد الحكام قوة وضرارة لكي يسدوا الثغرات التي ظهرت في الهرم الاجتماعي نتيجة لقصورهم في فن الحكم والادارة •

الا ان الدولة العثمانية لم تعدم من اشخاص اقوياء تمكنوا من توسيع
رعتها وضم مستلكات جديدة للنفوذ العثماني ولكن اولئك نفر من الحكام
الاتوياء لم يتعد تأثيرهم النجاح في الفتوحات أو الغزوات ولم تنعكس تلك المكاسب
على افراد المجتمع العثماني انفسهم فلم يتأثر عامة الناس في الدولة العثمانية بما
اتمه محمد الفاتح أو السلطان سليم أو السلطان سليمان القانوني • ومن الغريب
ان التاريخ يذكر الاعمال الباهرة التي تمت على ايدي ذلك الفر من السلاطين
دون ان يكلف المؤرخون انفسهم بدرس أسباب تلك الغزوات أو الفتوحات وما
حدث فيها وما هي نتائجها •

والواقع ان التوسع العثماني تم تحت ضغط الحاجات الاجتماعية المتزايدة
التي سببها انتقال المجتمع العثماني من حالة البداوة وتأكيدها على الحاجات
الضرورية فقط الى حالة حضرية كثرت فيها حاجات افراد المجتمع وعلى الاخص
الطبقة الحاكمة التي كانت في تعطلها تشكل عبئاً ثقيلاً على الدخل الوطني مما
دفع تلك الفئة للقيام بمغامرات جديدة تقضي فيها على أسباب عدم الارتياح في
الداخل وتحصل فيها على مكاسب جديدة تطمئن الحاجات المتزايدة لمجتمعها
بشكل عام ولنفسها بصفة خاصة وقد تسببت الحروب العثمانية كما
هي الحال بالنسبة لكل الحروب في وقوع الكثير من القتل والجرحى مما خفف
الضائقة الاقتصادية عن المجتمع العثماني ولكن نتائج الحروب العثمانية لم تكن
تناسب مع جسامة التضحيات التي قدمها العثمانيون من جهة وزاد في حركة
التدمير بين افراد المجتمع من جهة أخرى •

وقد أخذ التدمير يزداد نتيجة لدخول العديد من القوميات تحت ظل الحكم
العثماني فلم تكن الاجهزة السياسية والادارية والفكرية بقيادة على استيعاب ذلك
العدد الكبير من القوميات المتضاربة وصهرها في بوتقة واحدة مما زاد في التناقضات
والتعقيدات التي ظل المجتمع العثماني يشكو منها حتى انفصال تلك القوميات عنه
بواسطة الثورات المحلية او الحرب العالمية الاولى •

واذا نظرنا الى (الممتلكات العثمانية) فاننا نراها تدار بشكل مباشر من قبل

الادارة المركزية فى (القسطنطينية) فاذا علمنا بان الاجهزة الادارية والسياسية العثمانية انقمرت الى الفللفة السياسية والنضج والتجربة فى الحكم وساءت بل انعدمت طرق المواصلات التي تربط مركز الامبراطورية باجزائها البعيدة وترددت الاوضاع الاقتصادية وساد الفقر والمرض وتفشى الجهل فى الحاضرة استانبول وفى المستلكات الخاضعة لادارتها مباشرة ، أدركنا الظروف السيئة التي عاشت فى ظلها مستعمرات الدولة العثمانية ♦

وقد سيطر هذا النمط من الحكم الفردي المستبد وما اتصل به من سوء الوضع الاقتصادي والاجتماعي وانعدام العدالة فى الحكم والحياة ، على الامة العربية قرابة ٤٠٠ سنة ومما زاد الطين بلة ان الارض العربية نظراً لوقوعها بين الامبراطوريات المتنازعة فى ذلك الوقت اضحت ميدان حرب قاسى منه الشعب العربى الكثير من الويلات فقد قلت الايدى العاملة وجمد الفكر وتبعثرت الكتب والمصادر العربية وقل أو ندر من يعرف الاصول البسيطة للقراءة والكتابة ولم يكن الفرد العربى ليأمن على ماله أو اسرته او مستقبله فى الوقت الذى كان يزرع فيه تحت ثقل الضرائب التى لا تتفق باى حال من الاحوال والدخل المنخفض الذى يعيش عليه فقد غدت الارض بوراً وانخفض انتاجها وقلت الثروات الحيوانية وتركت الانهار تغرق الحرت والنسل دون ان ترتفع يد للقضاء على هذه الفوضى ♦

ولم تكن السلطات الممثلة للاستانة فى الوطن العربى بافضل من ساداتها فى عاصمة الامبراطورية فقد اعتبر هؤلاء الحكام انفسهم مبعدين وغير مرغوب فيهم فنظروا الى افراد ولاياتهم كاجراء وارضى تلك الولايات كضياع لهم يستغلونها لاثراء انفسهم وسادتهم فى استانبول ♦

موقع الدولة العثمانية واثره فى سياستها :

ان الوضع الجغرافى الخاص للدولة العثمانية جعل من اراضيها ما هو واقع فى آسيا ومنها ما هو متصل باوربا وقد شعرت الدولة العثمانية بانها أشد

علاقة بآسيا والشرق الاوسط منها باوروبا والفكر الاوربي ، وقد تمثلت رابطة العثمانيين بآسيا وبالمسلمين فى العالم بتبنيها فكرة (الجامعة الاسلامية) واعتبار الحكم العثماني امتداداً للنهج الاسلامى نى مباشرة أمور الدولة ونظم السياسة ولكن الحماس لآسيا لم يلبث ان انقلب الى ضده وبالاخص بعد ان حدثت تغييرات هامة فى أوروبا نفسها تمثلت فى الثورة الفرنسية وفى الحروب السبعينية وما حدث فى السياسة والفكر نتيجة لضعف سلطة الاقطاع والكنيسة والملكية وافساح المجال للفرد نفسه لكي يؤكد ذاته •

وقد كانت تلك المبادئ الجديدة وقوداً اشعلت حماس الجيل الجديد فى الدولة العثمانية خلال تلك الفترة فقد قوى الاتصال بين الناشئة فى الدولة العثمانية وبين الفكر الاوربي فى السياسة والاجتماع وبذلك بعث الشقة بين الاجيال التقليدية والصاعدة فى الدولة العثمانية وكان طبيعياً ان يتنازل الحكام التقليديون عن بعض نفوذهم لكي تضيق الشقة بين تفكير الجيل الجديد وبين تفكير الاجيال المتقدمة وواقعها • ولكن الفئة المستأثرة بالسلطة فى المجتمع العثماني لم تشأ ان تتنازل عن بعض نفوذها لكي تكون اكثر تجاوباً مع مطالب عصرها والروح التي كانت سائدة آنذاك ، مما أدى الى تصادم بين السلطة وبين الرأي العام فى الدولة العثمانية وكان أمراً محتوماً ان تأتي قوة جديدة لكي توفق بين القوى التقليدية التي كانت تصر على ابقاء القديم على قدمه والقوى المتحررة التي اتجهت صوب الاصلاحات فى الفكر والمجتمع كما فهمتها أوروبا ومجتمعاتها المختلفة. وقد كانت القوى الجديدة مكونة من ضباط فى الجيش العثماني جمعتهم خطة سياسية موحدة واتخذوا اسم جمعية (الاتحاد والرقي) لكي يجمع بين ناحيتين مهمتين كان المجتمع العثماني بحاجة اليهما الاولى الاتحاد بين القوميات المختلفة التي تكونت منها الامبراطورية العثمانية ونقل ولاء افراد تلك القوميات الى الدولة العثمانية نفسها لكي يتجنب المجتمع العثماني الخلافات التي قد تنشأ نتيجة للاختلافات بين تلك القوميات من جهة وبينها وبين السلطة الحاكمة من جهة ثانية •

فكلما ازدادت تلك الخلافات تفككت وحدة الدولة العثمانية الاجتماعية وانصرفت الاجهزة السياسية والادارية الى معارك جانبية تشتت الخبرات التي كانت الدولة العثمانية بامس الحاجة اليها على قتلها أو انعدامها في كثير من الاحيان •

اما الناحية الثانية فانها تؤكد على أهمية الترقى ومعناه التقدم وانتطور الاجتماعى فى لغة العلوم الاجتماعية الحديثة وهى محاولة جديدة على مجتمع تقليدى كالمجتمع العثماني فى ذلك الوقت • ويعكس مفهوم الترقى دون شك تأثر حركة الضباط العثمانيين بالتغيرات التى فرضت ثقلها على مجتمع اوربا فى الفكر والسياسة والاجتماع •

ومن المفيد حقاً دراسة التجربة التى مرت بها الدولة العثمانية على يد جمعية الاتحاد والترقى نظراً لاهميتها التاريخية والاجتماعية وامكان الاستفادة منها كحدث تاريخي يتصل بالمجتمع العربى المعاصر •

وخلاصة القول ان ظروف تلك التجربة ضمت عناصر متناقضة فالحكم العثماني فى ذلك الوقت كان يمر بفترة من اعقد فترات حياته السياسية فقد جمع السلطان عبدالحميد الثانى كل التناقضات التى اضعفت الاجهزة السياسية والادارية فى الدولة العثمانية واذا جاز لنا اعتبار عبدالحميد الثانى الوارث غير المحظوظ لاختفاء اسلافه فى الحكم والادارة فانه نفسه قد عمل على زيادة تلك الاخطاء تعقيداً ومن ثم انقلبت فى غير صالحه وصالح الحكم الذى يمثله •

لقد نشأ السلطان عبدالحميد فى جو من الدسائس والغموض والحقيد والظلمة وقد أثرت هذه الصفات المتناقضة على بناء شخصيته كإنسان اولا وكحاكم تانياً لذا فقد عاش هذا السلطان طوال عمره يشك باقرب الناس اليه وقد سيطرت الاوهام على عقله فهو اسير خيالاته التى تصور له الوهم والمؤامرة فى كل ركن من اركان (قصر ريلدز) وقد جمع عبدالحميد الى هذا النوع من الخوف الهدام للذات فكراً يستطيع ان يتقلب وان يظهر بغير واقعه فقد استغل

عبد الحميد الثاني كلما يمكن استغلاله في سبيل الإبقاء على حكمه وقد هداه تفكيره لان يتبكر فكرة الجامعة الاسلامية والجهاد المقدس وبدلاً من ان يقيم صلاته مع العالم الخارجى على أساس من الدبلوماسية المخططة التى تعتمد على تحقيق المصالح المتبادلة من اقتصادية واجتماعية وفكرية وثقافية للدول التى ترتبط بالتمثيل الدبلوماسى كما هو متعارف عليه فى الوقت الحاضر اتجه السلطان عبد الحميد الى حفظ مركزه كإمبراطور وكحاكم مطلق للدولة العثمانية عن طريق اتاناره الدول الأوروبية ضد بعضها ، وقد تكون تلك السياسة سليمة اذا كان من يطبقها متجاوباً مع ابناء امته تربطه بهم صلة قوية تخلق ظرفاً من الاستقرار يمكن الحاكم من استخدام هذه الخطة السياسية ذات المزالق الكثيرة الا ان عبد الحميد كان فى صراع مع نفسه ومع حريمه ومع شعبه وقد اختلف والمخلصين من رجال الإصلاح فى الدولة العثمانية أمثال الوالى (مدحت باشا) الذى لم يسلم من غضب السلطان ونقل من العراق الى الحجاز ثم اغتيل ورميت بقايا جثته فى البسفور •

وقد نهج عبد الحميد فى الحكم منهجاً يؤكد على المركزية وعلى حق الملك المطلق فى الحكم مقتضياً بذلك سير اسلافه دون ان يدرك التغيير الذى حدث فى المجتمع وفى فلسفة الحكم ، وطبيعى ان الحاكم الذى يحاول انتهاج سبيل الحكم المطلق والمركزية الصلبة لا بد من ان يضمن تجاوباً بينه وبين القوى السياسية المختلفة فى المجتمع ولا سيما قوة الجيش الا ان ضعف شخصية الحكم العثماني ودخول العناصر المختلفة فى تكوين الجيش العثماني زرع مفاهيم الاحترام والولاء للسلطان العثماني •

تلك كانت حقيقة لم يقدر عمقها عبد الحميد الثاني فقد تعلق ببعض الاوهام حول الحكم والادارة والسياسة دون ان يلجأ الى تقصي الحقائق ومعرفة أسباب الضعف التى أخذت تنخر فى جسم الدولة العثمانية •
وقد استعاض السلطان عبد الحميد عن الفهم الاصيل لمشاكل مجتمعه

بالاعتماد على مظاهر خدع بها نفسه محاولا استدراج عطف السذج من الناس لكي يقوي من مركزه كحاكم في نظر الاجهزة السياسية والادارية التي كانت تناصبه العداة وعلى الاخص الجيش العثماني ورجال الاصلاح فلم يفكر عبدالحميد بان يداً ستمتد لكي تنال منه أو من حكمه مع ما كان ينشره من المظاهر وما يحوكه من الدسائس بين رجال جيشه وبين الفئات الاصلاحية التي كان يخافها •

وللتدليل على خطل السياسة التي انتهجها عبدالحميد الثاني صلته بالدول الاوربية فبدلاً من ان يتعامل معها على أساس من معاملة الند للند أبتكر فكرة اعلان الجهاد المقدس وكان يصرح بين آونه واخرى بان السلطان اذا ما نفخ في بوق الجهاد فان آسيا المسلمة وما تحويه من ملايين البشر ستهب كرجل واحد لنصرة الحاكم الجالس في استانبول وستضطرب تبعاً لذلك مصالح الدول الاجنبية •

وقد كان عبدالحميد متصوراً بان مثل هذا الوهم السياسي يخيف الدول الاوربية فيحملها على التفكير اكثر من مرة قبل ان تمتد بسوء اليه أو الى امبراطوريته الا ان الواقع هو ان سفراء الدول الاوربية في الدولة العثمانية كان لهم العديد من العيون والارصاد في كافة اجهزة السياسة والحكم وبين افراد الشعب العثماني لذا فان كل قول أو رأي يمحص ويدرس على أساس من الواقع الذي يعيشه المجتمع العثماني في ذلك الوقت وبعبارة أوجز فان الدول الاوربية كانت ادق في تقديرها لقوة العثمانيين وما يمكن ان يقوموا به اكثر مما كان يحاول اذاعته عبدالحميد على مسامع الدول الاجنبية •

وبان بشكل اوضح خطأ تقدير السلطان عبدالحميد الثاني لقوته وقوة الجيش الامبراطوري اثناء الحرب العالمية الاولى فقد تحالفت تركيا مع ألمانيا ضد دول الحلفاء ووضع ضباط الاركان الالمان خطط الدفاع عن الامبراطورية العثمانية ، وعلى الرغم من الثقة التي اولاهها الاتراك لحلفائهم الالمان فقد اتضح بعد انتهاء

الحرب ان القيادة الالمانية كانت على علم تام بقوة الجيش العثماني وعدم قدرة هذا الجيش بالارتفاع الى مصاف الجيوش الحديثة فلم تكن الخطة الالمانية قد وضعت على أساس اعتبار الدولة العثمانية نداءً لمانيا ولكن تلك الخطة توخت زج الجيش العثماني في بعض الجبهات بقصد مشاغلة جيوش الحلفاء من جهة وتعويق زحفها من جهة ثانية ولتهديد خطوط المواصلات التي تصل الحلفاء وخصوصاً بريطانيا بالهند وبالموارد الغنية بخيراتها في الشرق العربي •

ويتبين من ذلك ان عبدالحميد الثاني ووارثيه في الحكم والسلطة قد اشتطوا في تقدير قوتهم الحقيقية واوهموا أنفسهم بان الدول الغربية لا تعرف شيئاً عن الدولة العثمانية وهذا اسوأ ما يمكن ان يتصف به العقل في الشرق حين يتصور ان ما يجول في داخل المنطقة التي تحيا فيها العلاقات الخاصة به من الامور المغلقة في وجه العالم الخارجي وهذا ما يوجب علينا في واقعنا الاجتماعي الحاضر ان نكون أشد حذراً في تقدير قوانا من جهة والقوى المعادية من جهة أخرى كما علينا ان ندرك امكانية الحركة بالنسبة لقوانا وبالنسبة للقوى التي تعادينا •

وهكذا فقد تمادى السلطان عبدالحميد الثاني فيما خيل اليه بانه يموه على الدول الاوربية المحيطة به وسعى الى توثيق عرى الصداقة بينه وبين النانيا القيصرية فدعا قيصر المانيا لزيارة الدولة العثمانية ولكن تلك المحاولات السياسية على الرغم من براعتها في التكتيك السياسي لم تكن مدعمة بقوة او بمجتمع متماسك يهيأ لها فرص النجاح •

وقد بلغ الخلاف اشده بين عبدالحميد الثاني وبين الضباط في الجيش العثماني ونظراً لان اولئك الضباط كانوا اكثر تأثراً بالفكر الاوربي لانهم عاشوا في اوربا واطلعوا على التغييرات السياسية والفكرية واستطاعوا ان يقارنوا بين وضعهم في الدولة العثمانية وبين مستويات الرقي التي كانت تنعم بها اوربا في ذلك الوقت ، فقد كانوا أقرب الى روح العصر من السلطان وقواه التقليدية • ولما كانت السلطة العثمانية ذات بقية من هبة وخوف فقد انتهج الضباط

في سبيل تحقيق الاصلاحات المشودة ايسر السبل واقلها عنفاً فقد طالبوا بان تصبح الملكية دستورية في الدولة العثمانية وان يقر الدستور حقوق المواطنة ويفضل بين السلطات ويؤمن قيام الاجهزة السياسية والادارية التي تواكب التغيرات السياسية والفكرية في العالم وتساعد في تكوين مجتمع عثمانى حديث تشبع حاجات افراده في جو نفسي يتناسب والصلوات الطبيعية بين الفرد والمجتمع وبينهما وبين السلطة .

ونظراً لان السلطان عبدالحميد كان قد عاش في جو من العظمة الموروثة والدسائس والمراوغات السياسية التي مارسها طيلة حياته فقد حاول ان يحبط حركة الضباط وذلك باتفاقه معهم ثم الانتقاض عليهم ولكنه لم يفلح مما أدى الى ازاحته عن المسرح السياسي في الدولة العثمانية فاعلن دستور سنة ١٩٠٨ وكانت من مبادئه الحرية والعدالة والمساواة وهي عبارات اقتبست من شعار الثورة الفرنسية (الحرية ، الاخاء ، المساواة) ولكن الاتحاديين اصطدعوا بالواقع ففكك حتى اسم الجمعية التي حاربوا السلطان عبدالحميد الثاني تحت لوائها وبدلاً من ان يوحدوا (كما نادى اسم جمعيتهم) اتجهوا نحو سياسية تقوم على تفكير عصري ضيق فقد اتجهوا السياسة الطورانية التي سعت الى ضرب القوميات الداخلة في تركيب الامبراطورية العثمانية ورفعوا من مستوى القومية التركية طناً منهم أن الاعتماد على قومية متماسكة يجعل من مركزهم قوة ذات وزن في السياسة والادارة وبذلك تتجنب الدولة العثمانية الكثير من المصاعب التي كانت تعرض لها بفعل ضعف قاعدة الحكم وعاصمته في امبراطورية مترامية الاطراف متعددة القوميات .

وقد أدى نشل الاتحاديين في اشاعة فكرة الاتحاد بين القوميات المختلفة والقضاء على أسباب الخلافات التي طالما نخرت في كيان الدولة العثمانية الى تهديم العبير الثاني الذي تكون منه اسم جمعيتهم فقد حل (التردى) محل (الترتي) وانتشرت الفوضى بدلاً مما كان متبقياً من النظام وكان تخطيطاً سيئاً ان دخلت الدولة العثمانية حرباً عالمية تحتاج الى تعبئة عامة وتهيئة نفسية تقوم

بها أجهزة سياسية وادارية وفكرية تستطيع ان تفهم الافراد الغايات الحقيقية من وراء المشاركة فى نفقات الحرب وتحمل تبعاتها من جهة ورصد الموارد الاقتصادية والنفقات الضرورية لكى تتمكن الدولة من ادامة شؤون الحرب ومعالجة ما قد ينشأ من تطورات غير محتملة من جهة اخرى ، هذا فضلا عن تقوية القاعدة الشعبية ودعوة الاطراف السياسية المختلفة لكى تتعاون فى سبيل نجاح التعبئة الفكرية ورد دعوات الخصوم والحملات التى يقصد من ورائها اضعاف الروح المعنوية .

ان الواقع يدلنا على انعدام التعبئة الاقتصادية والفكرية فى الدولة العثمانية فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الاولى ويوضح لنا بان الضباط الذين الفوا جمعية الاتحاد والترقي لم تكن لهم الدراية الكافية فى شؤون الادارة والحكم وقد اخطأوا حتى فى تقديرهم للظروف العسكرية فلما جابهتهم حقيقة ضعف القوى العسكرية وتفكك الصف الداخلى حاولوا استغلال مخططات السلطان عبدالحميد الثانى السياسية فاعلنوا (الجهاد المقدس) وكان رد الفعل لهذه الدعوة لم يكن كما كان متوقفاً فلم يهب المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها للدفاع عن السلطان والخلافة العثمانية وحتى لم يصل نداء السلطان الى أبعد من حدود مدينته استانبول هذا بالإضافة الى ان الحرب كانت قد بدأت وانقضت الفترة التى يمكن فيها للمخططات السياسية ان تنجح فى بلوغ اهدافها لان من الثابت سياسياً ان الدبلوماسية تعطل أو يتقل سيرها فى الوقت الذى تقوم فيه حالة الحرب بين الاطراف المتنازعة .

وقد ترتب على دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الاولى ان تبعثت قوى الجيش العثمانية وساد الجبهات التى يحارب فيها هذا الجيش ارتباك عظيم ووقع نتيجة تلك الحرب العديد من التضحيات وبدأ العثمانيون يفقدون الممتلكات التى ظالوا يسيطرون عليها لعدة قرون مما يؤكد عدم الاستعداد اقتصادياً وعسكرياً ونفسياً للحرب .

ومن الواضح تاريخياً ان الوطن العربي الذي يمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي ويتوغل مسافة ليست بالقصيرة في قلب افريقيا محتلاً بذلك مركزاً استراتيجياً فريداً من نوعه في العالم ، كان خاضعاً للنفوذ العثماني وعلى الرغم من الروابط الدينية التي تصل العثمانيين بالامة العربية فان ضعف الامبراطورية العثمانية الذي تمثل في قلة تجربة وفساد الاجهزة السياسية والادارية من جهة وتراخي اطراف الامبراطورية العثمانية وانعدام طرق المواصلات والاتصال من جهة أخرى جعل من البلاد العربية ضيعة أو اقطاعات يعيش ملاكها أو سادتها غائبين عنها في الاسنانة وتبعاً لذلك الوضع الشاذ فقد اقررت بلاد العرب على الرغم من خيراتها الوفيرة وقلت الايدي العاملة وتدافعت الانهار في جريانها لتقضي على الحرث والنسل فقد تسببت الزيادة في مناسيب المياه وافتقار الانهار الى سدود تنظم حركة المياه فيها الى حدوث فيضانات عظيمة دمرت ما بقي ما تلا من مدن وبقايا حضارية وفكرية في الوطن العربي .

وهكذا فقد تضافرت القوى الطبيعية وشروور الانسان في تهديم ما بقي للعرب في بلادهم من حضارة ومن قوة بشرية واسلمتهم ليل طويل من الجهل والمرض والتأخر والفقر ، وبدلاً من ان يعمل العثمانيون على رأب الصدع واقالة الامة العربية من عثرتها انتهجوا سياسة لا تقوم على فكر أو حتى تقدير للظروف المحيطة بالواقع العربي في ذلك الوقت فزادوا في انقار الارض بان عاشوا (على صلب خيراتنا) وكان طبعياً ان يوجهوا عنايتهم للارض التي افادتهم والشعب الذي تعاون معهم ولكنهم امعنوا في سياستهم المبنية على الصدفة أو ردود الفعل الامر الذي تسبب في ترك الفلاحين الارض وفي انتشار الفقر والمجاعة وما يتصل بها من الامراض والابوئة . ولم تكن حال قطر عربي افضل من الآخر فقد عاش العراق كميدان حرب للجيوش التركية والفارسية وخرّب أكثر من مرة وأصبح اهله لا يأمنون على أنفسهم واسرهم واموالهم وتفشى الجهل في ارض الرافدين وأصبحت الجريمة واقع الحياة اليومية وانقسم الناس

الى جماعات وطوائف وانعدم اجماع الرأي بينهم وخافوا من كل جديد ظناً منهم انه يحمل لهم الدمار والخراب والاستغلال والاستعباد •

ونظراً لقلّة الموارد الاقتصادية وانخفاض مستوى الانتاج والاستهلاك فقد نشأ نوع من القناعة الممزوج بالذل وتمسك الافراد او اكثرهم بما يملكون من فكر بل قد جمدوا عليه خوفاً من ان يضع هذا النزر القليل من المعرفة وعلى العموم فقد كانت حصّة العراق من التأخر ومن الظروف السيئة التي وزعت من قبل الدولة العثمانية اكثر من غيره من الاقطار العربية •

اما بلاد الشام وسواحلها فقد رزح أهلها تحت النير العثماني وتعرضوا كما تعرض غيرهم ن ابناء الشعب العربي لثقل ومآسي السيطرة العثمانية الا ان موقعهم الجغرافي جنبهم الكثير من المآسي التي قاسى منها العراقيون خلال الفترة التي رضخوا فيها لحكم بني عثمان •

ونظراً لوفوع مصر في الطرف البعيد من الوطن العربي فقد تمتعت بنوع من الحياة الخاصة على الرغم مما عاشت فيه من تخلف تحت حكم المماليك فلم يعدم هذا الحكم من بعض المماليك الاقوياء الذي حاولوا ان يجعلوا صلتهم بالدولة العلية في الاستانة مجرد صلة شكلية لا تتعدى ضرب السكة باسم السلطان العثماني والدعاء له في المساجد والوقوف الى جانبه في الملمات التي قد تتعرض لها الدولة العثمانية •

ولكن الواقع أن مصر في ذلك الوقت لم يكن لها مركز دولي يجعلها ذات خطر بالنسبة لمنطقتها في الشرق الاوسط وعلى الصعيد الدولي فان قناة السويس لم تكن قد حفرت بعد •

اما الاجزاء الاخرى من الوطن العربي فقد تفاوتت سيطرة العثمانيين عليها بين الضعف والقوة كما هو الحال بالنسبة للشمال الافريقي والجزيرة العربية فلم تكن لدى الدولة العثمانية في الاستانة القابلية العسكرية خصوصاً في البحر مما يؤمن لها السيطرة على المناطق التي تتاخم البحر او التي تحتاج السيطرة.

عليها الى جهد عسكري منظم كما ان سوء الادارة والسياسة العثمانيين جعل من سيطرة الدولة العثمانية على مستعمراتها البعيدة عن مركز الحكم مجرد سيطرة اسمية لا تتعدى فرض بعض الضرائب واظهار الولاء والطاعة للسلطان المترسع على العرش العثماني ♦

العرب والعصر الحديث :

لقد أعلقت نوافذ الحضارة العربية بقيمها الدينية والروحية نتيجة للغزو الهمجبي الذي تعرضت له حضارة الخلافة (بغداد) وبالنسبة لدارسي التاريخ والحضارة العالمية فأن هجوم المغول والتر واكتساحهم للحضارة العربية وتحطيمهم لاجهزتها السياسية والادارية له مثل في هجوم القبائل الجرمانية المتوحشة على الامبراطورية غير الرومانية وغير المقدسة ♦

وقد أدى الهجوم المغولي التتري غير المتوقع على الحضارة العربية في العراق الى فقدان قوة الدفع الحضاري الصاعدة في الامة العربية، وعلى ضوء هذه السياسة التاريخية العنيفة يجدر بنا ان ندرس نفسية الفرد العربي بصرف النظر عن القطر الذي يسكنه من أرض العرب فان هذا الانسان له قابلية تحمل ثقل الاحداث فهو صبور بطبيعته طالما بقيت عزته ومركز الاشعاع الذي يغذيه بالحياة والفكر سليماً مما يطمئنه الى وجود سند له فيما يعتره من خطوب وصعوبات اما اذا تعرضت عزة العرب للمضرر وفقد المركز القوي والسند الراسخ الذي يستطيع ان يستند اليه فانه يتقلب من حالة الاعتداد بالنفس الى حالة من القلق النفسي يصعب عليه معها ان يتعرف على طريقه فيتصرف بشكل ينسجم وما تقتضيه حاجاته مراعيّاً ظروف الواقع ♦

من هذه اللمحة النفسية نستطيع أن ندرك بان الانسان العربي بعد ان وجهت له ضربات متتابعة تمثلت في الغزو الصليبي وفي الهجوم التتري الكاسح وتجاوزت هذه الضربات كل الحدود حتى وصلت الى مركز الاشعاع الحضاري

العربي فدكته بدأ يفقد قدرته على التعامل مع الواقع وعلى رأب الصدع الذي حل به وبقومه وبحضارته • وفي هذا التحليل اوجه شبه كثيرة بين الحالة التي وصل اليها الانسان العربي بعد أن حطمت عزته وحضارته وبين ما يذكر عن (فقدان المكانة الاجتماعية) في البلدان الاسيوية وبعبارة أوضح ان الموت الحضاري المفاجيء الذي تعرض له الانسان العربي ومجتمعه قد بلد الاحساس العام لدى أكثر ابناء الامة العربية وافقد ثقتهم بانفسهم مما اوقع الفرد العربي تحت ثقل الاحداث في الوقت الذي اعتاد فيه هذا الانسان نفسه ان يوجه الاحداث وان يرسم الطريقة الذي يجب ان يسير فيه التاريخ وترسمه الحضارة •

ذلك التغير المفاجيء الذي حل بالانسان العربي غير الكثير من وجهة نظره وجعله في مركز جذب لقوتين احدهما شعوره بالتعالى والرفعة نظراً لتأريخه الطويل ونجاحه في بناء صرح حضارة كان وما زال وسيبقى نورها ساطعاً على الفكر العالمي بشكل متميز والاخرى احساسه بمركب ضعف نظراً لما حل به وبحضارته نتيجة للضربات العنيفة التي تعرض لها •

وبالنظر لشدة هاتين القوتين الجاذبتين وضعف الانسان العربي بالنسبة لهما فقد ابتعد هذا الانسان عن الحياة والواقع وأصبح اسيراً لاوهامه ومخاوفه فهو يتوقع المكروه والمصاعب في كل لحظة وقد فقد ثقته بنفسه وبغيره فهو يشك في كل عمل او محاولة تصدر عن الغير ويتصورها تهديداً لامنه واستقراره وعملاً موجهاً نحو السيطرة عليه واخضاعه •

وتبعاً لفقدان الثقة بالنفس وتوقع الشر من الغرباء فقد حددت الابعاد التي يمكن ان يتحرك فيها الانسان العربي فكرياً واجتماعياً وواقعياً وقد لعب المكان الضيق دوراً سلبياً في تقييد الانسان العربي وجمود افكاره وفقر معلوماته عملاً يحيط به من مجتمعات ومؤثرات •

تلك هي حالة الشعب العربي عندما واجه العصر الحديث فقد كان خاضعاً للظروف المكانية ذا قدرة محدودة على التفاعل والحركة ، نظرتة للحياة تسم

بالقناعة المزروجة بالخوف والتبذد يؤثر السذاجة في الفكر والعمل مطامحه لا تتعدى حصوله على الحاجيات الرئيسة لادامة الحياة أو ما يسمى بلغة العلوم الاجتماعية الحديثة : (توفير الحاجات الضرورية فقط) •

وفي الفترة التي بدأت النوافذ المغلقة للوطن العربي تفتح على العالم الخارجي كان هذا العالم في مهب رياح فكرية عاتية فقد نجحت حركة احياء العلوم في أوروبا وبدأ الاقطاع يحسر ظله عن ارض أوروبا كما بدأت الكنيسة وسلطتها بالتقلص وضعفت سطوة الملوك والاباطرة أو بدأت بالضعف • كل هذه التغييرات الاوربية في المفاهيم الدينية المتمثلة بقيام حركة الاصلاح الديني وظهور البروتستانتية على يد (مارتن لوثر) في شمال المانيا ثم تطويرها على يد (كالفن) في سويسرا ونجاح حركات الاصلاح السياسي التي بلغت ذروتها في ثورة عام ١٧٨٩ في فرنسا وظهور بعض المفكرين في محاولة لبناء مجتمعات جديدة تسودها روح من التسامح والعمل المشترك كما كان الحال بالنسبة لمفاهيم (سان سيمون)^(٣) ، هذه المعطيات تفاعلت في تكوين قاعدة لانطلاق بواكير الثورة الصناعية التي تعتبر بحق اخطر انقلاب في تاريخ الفكر والمجتمع لانها جعلت من الانسان عنصراً أساسياً في بناء الحضارة ووفرت له الوقت الكافي بان قللت جهده العضلي وبذا مكنته من استغلال فائض وقته في تطوير قابلياته الفكرية ولاشباع العديد من الحاجات التي نتجت بفعل التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية •

وإذا قارنا بين الوطن العربي والعالم الخارجي في ذلك الوقت الذي كانت

(٣) سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٢٥) مفكر فرنسي • جمع بين الثورية في الفكر والخيالية في التخطيط ، عاصر الثورة الفرنسية وانتقدها لعدم نجاحها في هدم الابنية التقليدية ثم انطلق من هذه المفاهيم الى كتابة (وصفه) اجتماعية لاوربا وللعالم تجلت في كتابه « حول تنظيم المجتمع الاوربي » • يعتبر أبا غير منازع للفكر الاجتماعي واستاذاً لكومت ورائداً اقدم للاشتراكية الطوباوية لذا يختلف سان سيمون عن اتباعه من السانسييمونيين الذين جنحوا نحو الواقعية في اشتراكيتهم •

فيه الثورة الصناعية تدق باب المدينة في اوربا نرى ان اختلافاً كبيراً في القيم الاجتماعية وفي المنطلقات الفكرية تميز كلا من الامة العربية وأوربا في تلك الحقبة التاريخية •

ولكن كيف حدث الاتصال بين هذين العالمين المختلفين في الفكر والحياة ؟ لقد قال الشاعر الانكليزي كبلنج (ان الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا) وهذا القول على ما فيه من تحيز يعكس لنا وجهة النظر الاوربية بالنسبة للشرق بشكل عام في الوقت الذي بدأت فيه المطامع السياسية والاقتصادية ممثلة في طموح الطبقات الوسطى ذات النفوذ والمال في أوربا تحاول ان تمتد مناطق نفوذها وامبراطوريات ثرواتها الى الشرق الغني بطاقته وموارده الطبيعية الفقير بإمكاناته واستعدادته التكنولوجية وافقاره الى الاجهزة السياسية والادارية التي تستطيع ان توفر سبل العيش والتفكير المناسبة للملايين من ابناء هذا الجزء من المعمورة •

ولقد تحركت الاطماع الاجنبية ممثلة في حملة فرنسية قادها نابليون على مصر وفي محاولات للمجموعات التبشيرية •

وهاتان المحاولتان اللتان تعرض لهما الشرق العربي دفعت اليهما ظروف اوروبية خاصة فقد نجحت الثورة الفرنسية في باريس أولاً وفي فرنسا ثانياً وكانت في طريقها الى ان تصدر الى البلدان الاوربية المخلفة وعلى الاخص تلك التي تترشح تحت حكم ملكي أو امبراطوري مطلق ولكن ظهور نابليون على مسرح السياسة الفرنسية جعل من مبادئ الثورة الفرنسية مجرد شعارات عاطفية تستغل في شحذ همم الجنود الفرنسيين وتستخدم لاختفاء مطامع نابليون في بناء مجد شخصي له وفرنسا وقد أدرك نابليون بعد ان تربع على كرسي السلطة بان العقبات التي تقف في طريقه تتمثل في قوة الاسطول البريطاني وبربرية الجيش الروسي وكلاهما يمثل تحدياً لطموح نابليون •

ولم يفكر نابليون بالحرب في جهتين وانما حاول ان يباعد بين اعدائه

ويضرب اولئك الاعداء الذين هم أكثر تحدياً له فكان ان بدأ بانكلترا لانها قامت بفرض حصار اقتصادي عليه وسدت في وجه فرنسا سبل تعاملها التجارية خصوصاً عن طريق البحر هذا من جهة ومن جهة أخرى فان نابليون على الرغم من الانتصارات التي أحرزها بعبوره الالب الدينارية في أعلى قممها وفي موسم الشتاء ما زال يشعر بانه (قصير القامة) ولا بد له من القيام بعمل بطولي يؤمن له مركزاً مرموقاً في اعين رجال الادارة المسيطرين على الحكم في باريس ويخلب في الوقت نفسه عاطفة الفرد الفرنسي وبذلك يعوض نابليون عن العقدة التي اصيب بها من جراء قصره كما يوضحها العالم النفسي المعروف (ادلر) تلميذ فرويد والقائل بتأثير نواحي عدم التكامل الجسمي على سلوك الفرد وتصرفه خلال علاقته بالانفراد الآخرين وخصوصاً في المواضع التي يصبح محك الاسبقية فيها قائماً على أساس انجاز نجاحات أكبر •

واتجه نابليون صوب أرض الشرق الاوسط وهاجم اخلد بقعة حضارية فيها وهي وادي النيل فقد كان نابليون يحلم ببناء امبراطورية جديدة تخلف امبراطورية الاسكندر المقدوني ولكن حلم نابليون لم يلبث ان تبخر بعد تراجعه عند اسوار عكا المنيعه فعاد ثانية الى أرض مصر وصمم على أن (يعيش) مع الشعب المصري •

ولم تكن رغبة نابليون في احتلاله باهل الشرق العربي ناتجة عن تلقائية جدية فقد خطط لهذا الاختلاط من قبل وحملت السفن الفرنسية الغازية مجموعة من العلماء كما ضمت مطبعة حجرية اصدر نابليون بواسطتها منشوره الاول الى المصريين وقد دعاهم فيه الى الترحيب به واستقباله واعدأ سكان وادي النيل بحياة افضل يعيشونها تحت ظل حكمه وقد ندد في منشوره هذا بالمماليك ونزاعاتهم واستغلالهم للشعب المصري وخبراته وقد زاد نابليون على ذلك بان اعلن بانه يحترم القيم الدينية في مصر وانه كان يفكر منذ زمن طويل بتبنيه تلك القيم وتركه لما هو عليه من دين وعلى الاخص فكرة التثليث (الاب ،

الابن ، وروح القدس) والاستعاضة عنها بفكرة الاله الواحد وقد ظهر نابليون في المجتمع المصري بمظهر الذي يحترم التقاليد والعادات والاعياد والمواسم الشعبية ذات المغازي الدينية والاجتماعية • ولكن أنى يمكن لفرنسي ان يصبح مصرياً صميماً فقد كان رد الفعل في مصر بالنسبة الى نابليون في غير صالح الاحلام النى فكر وخطط لها •

تلك كانت المحاولة النابليونية التى هدفت الى بناء مجد نابليون وتحقيق بعض اطماعه ذات الخيال البعيد وانجاح بعض مخططاته السياسية والعسكرية الهادفة الى اضعاف صف اعدائه وضرب خطوط مواسلاتهم وعلى الاخص انكلترا •

اما المحاولة الثانية التى جابه بها العالم الحديث الوطن العربى فقد كانت ممثلة بالجمعيات التبشيرية وقد انتهجت تلك الجمعيات طريقاً ذا هدفين الاول ظاهر يهتم بالامور الدينية ومحاولة نشرها واضعاف القيم الدينية السائدة فى المجتمعات التى تدخلها الجماعات التبشيرية اما الهدف الثانى الذى بقى فى الخفاء حتى فترات قريبة فقد كان سياسياً يقصد منه خدمة مصالح الدولة التى تنتمى اليها تلك الجمعيات المبشرة •

وترجع فكرة التبشير الى فترة قيام حركة الاصلاح الدينى فى وروبا فقد وجدت الكاثوليكية نفسها محاطة ببحار من البروتستانت فى القارة الاوربية مما دفعها الى القيام (بمغامرات دينية) خارج حدود اوربا لتخفيف الضغط على الكتلكة فى هذه القارة ونقل المعركة الى أرض أو أراض جديدة تستطيع فيها الكنيسة فى روما بسط نفوذها واستعادة قوتها وزيادة ممتلكاتها دون ان تصطدم بمعارضة بروتستانتية أو مطامح سياسية من قبل القئات الحاكمة الاوربية التى خضعت الى سلطة الكنيسة خلال عصور طويلة •

وتعتبر الحروب الصليبية التى دامت قرابة ثلاثة قرون بداية لحركة التبشير الحديثة ، والواقع ان تلك الحروب وما استهدفته من محاولات للسيطرة

على موارد الشرق العربي واستغلال الايدي العاملة الرخيصة فى سبيل بناء مجد
لاوربا والاستحواذ على الاسواق التجارية فى الوطن العربى ، كانت فى مقدمة
الاسباب التى دفعت بالصليبيين الى مهاجمة الارض العربية •

ومن المفيد تاريخياً ونحن ندرس التجارب التاريخية ذات المساس بالامة
العربية ان نحلل الاسباب التى أدت الى تجريد الحملة الصليبية ، ومجملها وصف
الوضع الذى ساد أوربا قبل الحرب الصليبية : فقد بدأ عصر الاقطاع فى الاقطار
الاوربية بالزوال لان الاقطاع فى اساسه نظام سياسى ذا أجنحة اقتصادية
 واجتماعية فقد قام النظام الاقطاعى على تأكيد الصلة بين ما سمي بالتابع وسيد
وقد كانت تلك التبعية متراوحة بين العبودية المطلقة وبين العلاقة المبنية على
تقديم خدمات من قبل التابع نتيجة لاستخدام الارض أو الادوات والآلات
كالمعصرة والطاحونة وما اليها من مستلزمات العمل فى القرون الوسطى التى
يحتكرها الاقطاعي •

اما على الصعيد السياسى فان النظام الاقطاعى سد مسد العلاقات السياسية
فى أوربا فالسيد الاقطاعى هو السياسى المطاع بالنسبة للمنطقة التى يمارس فيها
نفوذه مما جعل أوربا مقسمة الى ولايات صغيرة تتناسب وسلطة الاقطاعى وامتداد
نفوذه عن طريق الحاشية والاعوان والاتباع فلم يسمح النظام الاقطاعى فى أوربا
نظراً لقبليته المحدودة فى السياسة والادارة قيام دول كبيرة ، فلما شعر النظام
الاقطاعى بانه يحتاج الى نوع من المساندة لكى يبقى على نفوذه وامتيازاته وعلى
الاخص فى الفترات التى يبدو فيها نوع من ارادة التحرر من الخضوع للسيطرة
الاقطاعية أو يأخذ النظام نفسه بفقد سلطته على ابقاء التابعين له تحت نفوذه
وسطوته فقد مد الاقطاع يده الى الكنيسة وتلاقت مصالحهما معا فقد سار النظام
الاقطاعى والمطامح الكنسية جنباً الى جنب فى فترة القرون الوسطى فى أوربا
وكان البابوات يحاولون دوماً جعل الاقطاعيين وعلى وجه الخصوص اصحاب
الاقطاعات الكبيرة خاضعين لنفوذهم فقد كانت سلطة اولئك البابوات زمنية قبل
كونها دينية •

وتحت ثقل التناقض بين متطلبات التطور والجمود التقليدي بدأ النفوذ الاقطاعي في التفكك وأخذ الضعف يدب الى مركزه السياسي وعلى وجه الدقة بدأ يعترى تلك العلاقة بين التابع والقطاعي فقد ظهرت على المسرح السياسي الاوربي ممالك ودول جديدة غيرت من مفاهيم العلاقة المبنية على الطاعة بين التابع والسيد ونقلت التابعين الى مركز اجتماعي جديد فجعلت منهم مواطنين تحميهم سلطة سياسية ممثلة بالدول وسلطاتها السياسية والتنفيذية واجهزتها الادارية والعسكرية ♦

وتبعاً لهذا التغير السياسي في وظيفة النظام الاقطاعي كعلاقة سياسية بدأ تغير على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي عم اوريا في ذلك الوقت يتلخص واقعه بما حدث من تبدل في وجهات نظر التابعين بالنسبة لحاجياتهم وطرق اشباع تلك الحاجيات ومعنى ذلك ان التابعين عندما كانوا خاضعين للسيد الاقطاعي كانت حاجياتهم تنصب على الضروريات ونظرتهم للحياة تتصف بالضييق فقد قبعوا بما كانوا يحصلون عليه لانه كان متناسباً مع متطلباتهم وطموحهم القصير المدى فلما انحسرت سطوة الاقطاع السياسية عنهم تغيرت المنافذ التي يطلون منها على المجتمع والحياة ولم تعد العلاقات الاقتصادية في ظل النظام الاقطاعي التي تتيح لهم القدر القليل من الاشباع الضرورية لحاجياتهم بكافية لسد ما كانوا يشعرون فيه من فراغ نفسي مبعثه التغير العظيم في وجهة نظرهم وفهمهم الجديد للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية ♦

وبما ان تغييراً سياسياً قد حدث للنظام الاقطاعي في اوريا تبعه تغير اقتصادي فان التغير الاجتماعي اسرع هو الاخر لكي يبني وحدات اجتماعية جديدة تنسجم والمتطلبات السياسية والحاجات الاقتصادية ويعمل بنفس الوقت على ايجاد هيئات ونظم اجتماعية تحفظ لتلك التغيرات الجديدة استمرارها وتساعد على الحركة الاجتماعية داخل التركيب الجديد للمجتمعات في اوريا ♦ وبدون شك فان الفرد في اوريا وخصوصاً في الفترة ما قبل الحروب

الصليبية كان يعيش في فراغ سياسي واقتصادي وديني وفكري هائل فقد ضعفت سلطة الاقطاع وبذلك تحرر الفرد من التبعية ولكن تلك الحرية كانت مفاجئة فلم يعرف الفرد الاوربي كيف يتصرف بها .

الا ان الحرية السياسية - كما هو - ملاحظ في اكثر المجتمعات لم تكن الاساس الاول في تكوين الفرد الاجتماعي والفكري لان الانسان حيوان عاطفي ذا نزعة مثالية قبل ان يكون حيواناً سياسياً أو اجتماعياً - لذا فان زوال النفوذ الاقطاعي كعلاقة سياسية لم يكن له رد فعل عميق في نفس الفرد الاوربي ، لكن اختفاء الاقطاع كعلاقة دينية تمثلت في الصلة القوية بين رجال الاقطاع وبين الكنيسة والايمان المطلق الذي اتصف به الاوربيون في ذلك الوقت متمثلاً في الرحلات الطويلة التي قاموا بها الى بيت المقدس والتي وصفها بدقة الكاتب الانكليزي (شوسر) في كتابه (رحلة الحاج) ذلك الشعور العميق بالولاء نحو الكنيسة أولاً وتعاليمها ثانياً ، أوجد فراغاً كبيراً في تفكير الفرد الاوربي جعله يصاب بنوع من هysteria الرغبة في العمل والتضحية مما جعل الاوربيون قبل فترة الحروب الصليبية مؤهلين نفسياً لخوض غمار حرب أو القيام بمغامرة تشبع جانباً من رغبتهم في (ايداء الذات) عن طريق (الماسوكية الجماعية) تعويضاً عما اقترفوه من ذنب في نقض سلطة الكنيسة المتعاونة مع الاقطاع والحنث بالتزاماتهم نحوها .

ومن الممكن ان تكون هناك دوافع اقتصادية بالنسبة لهؤلاء المغامرين حدث بهم الى المجيء الى أرض الشرق العربي وقد تلخص تلك الدوافع في الحصول على بعض المكاسب أو الاقطاعات الصغيرة في ارض الشرق الواسعة .

ولا يغرب عن البال أن تلك الدوافع وجدت على صعيد الافراد فقط ومن الصعوبة بمكان اعتبارها عوامل اصيلة للقيام بمغامرة كبرى كالحروب الصليبية فان من غير المسلم به ان يضحي الفرد الاوربي بنفسه ويتحمل المخاطر في البحر والبر في سبيل الحصول على مكاسب لم تعرف ماهيتها وهو على هذا البعد

والجهل بها • فقد كان الشرق العربي وما زال في الوقت الحاضر - على الرغم من الاستعمار والاختلاط والرغبة في الدرس - يمثل في الفكر الاوربي قلعة من الخيال والصور المزيفة التي تدور حول الخمول والجنس والاهداف القصيرة الاصل والفلسفة العقيمة وقضاء الفراغ والمهو في الابنية ذات الاطلاق الدوارس كما يحاول الفكر الاوربي المريض التعبير عنها • فهل يصح ان يكون فهم الاوربيون في فترة متقدمة كفترة الحروب الصليبية كافيًا لتعريفهم بالشرق وحياته وموارده والصعوبات التي يعيشها وما يتميز به تفكير الفرد في الوطن العربي ورد فعله بالنسبة للفرد عامة وللأوربيين بشكل خاص ؟

اما الكنيسة الكاثوليكية في روما فانها شعرت بان سلطتها الزمنية آخذة بالضعف والاضمحلال ولما كانت الكنيسة تعتمد بمواردها الاقتصادية على الاقطاعات واملاك الكنيسة في أوروبا ومن الهبات التي يقدمها الافراد في المناسبات المختلفة حسب ما تقتضيه المراسيم والتقاليد الدينية وان انتقل السلطة من الاقطاعيين واستقرارها في ايدي حكومات وطنية يضعف مركز الكنيسة السياسي والاقتصادي في أوروبا ويقلل من هيبتها في نفوس افراد المجتمعات الاوربية ونظراً لما شاب سمعة رجال الكهنوت خصوصاً من منهم في الطبقات ذات الامتيازات الدينية العالية ، فقد كانت الكنيسة نفسها تواقفة الى عمل تستعيد فيه نفوذها من جهة وتضيف الى سمعتها المعرضة للضعف والتدني سناً جديداً من القوة والهيبة والاحترام وتزيد بنفس الوقت من الممتلكات التي تدر عليها الارباح خصوصاً في منطقة كثر التحدث عن مواردها وخيراتها كمنطقة الشرق العربي من جهة أخرى •

والسبب الواقعي وراء تجريد الحملة الصليبية والقيام بمغامرة تاريخية عسكرية أقوى من ان يكون مصطبغاً بالصبغة الدينية كما يحاول بعض من يدرس تاريخ هذه الفترة تصويره وعلى الاخص المؤرخين من الغرب لان المؤرخ شأنه شأن كل فرد من افراد المجتمع تتلون وجهات نظره بما يحيط به وبمجتمعه من

الافكار والاراء والتيارات التى تتحكم فى تكوين العقل الجمعي فى البلد الذى يعيش فيه والحضارة التى يتفاعل معها •

وللتعرف على العامل المباشر فى قيام الحروب الصليبية يمكن أن نرجع الى أوروبا مرة ثانية قبل فترة الحروب الصليبية فالوضع السياسي الاوربي كان يتميز باقطاعات فى وسط اوربا وجنوبها خضعت فيها التشكيلات السياسية لحكم اقطاعي او ملكي مطلق متخذة من الزراعة ومن الانتاج الزراعي وسيلة لتأمين حاجاتها الاقتصادية وبذلك رضخت تلك المجتمعات للظروف المكانية المحيطة بها لان من الخصائص الرئيسية للمجتمعات الزراعية بطء قابلية الحركة ضمن مجتمعاتها أولا وفقدان حركة التفاعل مع المجتمعات الاخرى ثانياً • فقد انقطعت مجتمعات جنوب أوروبا ووسطها عن جيرانها أولا وعن العالم الخارجى المحيط بها ثانياً وفضلت نوعاً من الاقتصاد يقوم على أساس الاعتماد على النفس وسد الحاجات الاجتماعية عن طريق الانتاج المحلي والتقليل من التعامل الخارجى والتبادل التجارى •

أما المناطق الساحلية فى أوروبا فانها كانت ذات اتصالات خارجية على صعيد التجارة والقرصنة البحرية •

وإذا دققنا بنظرنا نحو سواحل أوروبا فى تلك الفترة التى سبقت الحروب الصليبية يتبين لنا بان غرب أوروبا كان منعزلاً عن العالم الخارجى وكانت الجزر التى تسمى اليوم بالجزر البريطانية نهبة للمستعمرين والمتوحشين من الهون والسكسون والاقوام الاخرى التى هاجمت تلك الاراضى المحيطة بالمياه مهددة تأخرها بجماعات من داخل القارة الاوربية • اما اسبانيا والبرتغال فانهما وان كانتا على درجة كبيرة من الاتصال الخارجى بسبب اثاره الشرق العربى لهما بعد دخوله الى شبه جزيرة الاندلس فان روح المغامرة فى كل من اسبانيا والبرتغال قد تلونت بالمكاسب الصغيرة الاجل والقناعة بما حصلت عليه تلك الامم من جراء مغامراتها وقرصنتها فى البحار ثم ان النظام الملكى فى كل من اسبانيا والبرتغال لم يهيء الفرص الكافية لابناء هذه الممالك للقيام بمغامرات جريئة فقد

جابهت على سبيل المثال - كريستوفر كلومبس - العقبات العديدة في محاولته لاكتشاف طريق يسير شرقاً الى الهند وسخر منه في ذلك الوقت مع وجود تراث وتقاليده خاصة بقدره تلك الممالك المتاخمة للبحر على ارتياد المصاعب والعقبات التي تنجم عن التجارة والحرب والقرصنة في البحار فالملكية وفسح مجال المغامرة الفردية امران على طرفي نقيض مما يدفعنا الى الظن بان اسبانيا والبرتغال لم تكونا في وضع يمكنهما من تلبية رغبات الكنيسة ورجالها في مغامرة بحرية عبر البحر الابيض المتوسط تهدف الى الحصول على مكاسب سياسية واقتصادية ودينية والا كان من الطبيعي ان تلجأ الكنيسة الكاثوليكية في تنفيذ مخططات المغامرة الصليبية الى البلدان الاوربية الاكثر استعدادا لتحمل المسؤولية واقدر على ادارة دفة الحرب وخصوصاً تأمين نقل الجنود والامدادات عن طريق البحر.

هذا مع معرفتنا بان اسبانيا والبرتغال بلدان كاثوليكية متعصبان وان لهما صداقات وعداوات مع الشرق العربي تمكنهما من فهم هذا الجزء من أرض العالم واهله بشكل افضل مما يمكن ان يفهمه اى بلد في القارة الاوربية في ذلك الوقت .

ومن المناسب من وجهة النظر التاريخية ونحن نبحت حرباً تمتد جذورها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والدينية بعيداً في التربة الحضارية للقرون الوسطى والاقطاع ، ان نبين الصلة بين الانظمة السياسية وبين التركيب الاقتصادي للمجتمعات كافة، وللمتجمعات التي ظهرت بشكل دول او ممالك في القرون الوسطى بشكل خاص .

ويحاول التفكير السياسي ان يربط بين النظم الاقتصادية وبين الواقع السياسي للمجتمعات المختلفة وبوجه عام فان المناطق ذات الاراضي الزراعية الشاسعة تميل الانظمة السياسية التي تمسك بزمام القوة والسلطة نحو الملكية أو التنظيم الامبراطوري بينما توجد النظم الجمهورية في الاماكن ذات الاقاليم التي تشح فيها سعة الارض وتقل أو تصعب فيها الزراعة وهناك مصداق لهذه

النظرية في السياسة والاجتماع يتمثل في المدن اليونانية القديمة فان تلك المقاطعات الصغيرة ذات النظام الحضاري المتقدم كانت تدار من قبل مجالس تمثل المدن بكاملها بعد ان صعب جمع المدينة كلها في مجلس تشريعي وتنفيذي كبير . وهناك عبر التاريخ نظم سياسية سارت على غير هذا النهج فالشرق القديم نشأت فيه الملكيات والنظم المطلقة التي تميل الى تكوين امبراطوريات شاسعة مستغلة بذلك اتساع الاراضي في الشرق واعتماد اهلها على الزراعة كمورد وحياة .

واذا ما طبقنا المخطط الفكري الخاص بالسياسة والادارة والذي يبين الصلة بين الارض واقتصادها من جهة ونوع النظام القائم من جهة أخرى فان أوروبا في الفترة التي سبقت الحروب الصليبية كانت تضم مجتمعات زراعية يدخل في تركيبها الكثير من الحرفيين المنظمين بشكل نقابات عمالية تربطهم أصول الانتاج التقليدية التي لا تتوخى من وراء العملية الانتاجية زيادة الانتاج وانما تهتم بالتقسيم الذي يحصل ضمن النقابة العمالية مؤكدة على الصلة بين العمال غير المهرة وبين العمال المهرة ثم بين هؤلاء وبين اقرانهم الممتازين .

والواقع ان حياة الزراعة ما زالت حتى ذلك الوقت مسيطرة على تهيئة السبل الكفيلة باشباع حاجات المجتمع الضرورية كما اعتبرت الزراعة محورياً للمفكر والمجتمع في أوروبا في القرون الوسطى ويؤكد المفكر الاوربي (تاووني)^(٤) الذي درس باستفاضة كبيرة تطور العمل والعمال من كافة الوجوه الاجتماعية والانتاجية والتنظيمية والفكرية ، بان ازدياد النقابات العمالية في القرون الوسطى لم يوجد دفعاً قوياً للحركة الانتاجية وتأثيراً على سوق العمل بل بقيت نسبة

(٤) تاووني كاتب اوربي بريطاني الجنسية ولد في الهند وفيها تكاملت شخصيته اهتم بالمفهوم الاجتماعي للعمل وتطوره من وجهة نظر الاجتماع التاريخي حاول ان يسير على خطى ماكس فيبر في محاولاته الهادفة الى كشف الصلة بين القيم الدينية وتأثيرها الاجتماعي في تطور النظم الاقتصادية .

الفلاحين الى العمال كبيرة جداً لذا فان أوروبا في الفترة ما قبل الحروب الصليبية كانت اقطاعية في تفكيرها السياسي زراعية في تنظيمها الاقتصادي كاثوليكية في تفكيرها الديني هذه الامور مجتمعة فسحت المجال لقيام النظم الملكية التي يستطيع الفرد فيها ان يشبع حاجاته الضرورية فقط بينما تتربع على قمة المجتمع الهرمي الشكل فئة تخضع للملك او الحاكم المطلق وتمسك بايديها اعنة السلطة ممثلة في النفوذ السياسي والسيطرة على مفاتيح الثروة والمال في المجتمع •

ومن وجهة النظر الاجتماعية فان الطبقة الحاكمة في المجتمعات الزراعية ذات الانظمة التقليدية تنزع نحو الاستيلاء على الاراضي وضمها اليها بينما تعزف تلك الدول عن المغامرات التجارية خصوصا في اماكن غير مأمونة تفصلها عن أوروبا صعاب كثيرة •

الا ان النظم السياسية التي تعيش في ايطاليا ولاسيما في جنوبها اختلفت في تلك الفترة التاريخية عن التيار العام في التنظيم السياسي الاوربي وبعبارة أوضح فان تلك المجتمعات كانت تتجهج النظم الجمهورية ومعنى ذلك - بلغة الفكر السياسي الحديث - ان الطبقة الوسطى في تلك المجتمعات هي التي تسيطر على المخططات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وهذه الطبقة : طبقة بلا جذور فهي لم تنحدر من الطبقة العليا ذات النفوذ الاقطاعي ولكنها برزت من اعماق الطبقة العامة فهي والحالة هذه تحاول ان تتعد عن الاصل الذي نشأت منه وذلك بالاستحواذ على اماكن النفوذ والقيادة في المجتمع ومنافسة سلطات الحكم التقليدية •

ويتمثل الاتجاه الجديد في جمهوريات البندقية وجنوه حيث تحكم (مجالس الدوما) ويوجد حافظ عظيم نحو تكوين ثروات واقعها ليس الارض والزراعة وانما سبيل جديد يتخذ من البحر غاية ومن الممالك التي تحدد البحر وسيلة للثراء •

لذا فقد اتفقت مطامح الطبقة الوسطى المتنفذة في جمهوريات ايطاليا

الجنوبية ورغبات الكنيسة الكاثوليكية على الرغم من اختلاف قيم التفكير لدى كل من هذين الطرفين فرجال الطبقة الوسطى فى المجتمعات ذات النظم الجمهورية فى ولايات ايطاليا الجنوبية كانوا ينزعون نحو اقتناص رؤوس اموال جديدة عن طريق نهب وسلب الثروات الكامنة فى الشرق العربى اما الكنيسة الكاثوليكية فقد كانت تطمع فى زيادة نفوذها وذلك بأشاعتها بشكل دعائى فكرة حماية الاماكن المقدسة وظهورها بمظهر المدافع عن القيم الدينية والاماكن التى وجدت فيها الاثار المسيحية الاولى • وهذا الالتقاء بين الطبقة الوسطى ذات المطامح الاقتصادية وبين القيم التى ارادت الكنيسة التأكيد عليها ونشرها يحمل المؤرخ على الاتفاق مع (ماكس فيبر) (°) و (تاوونى) بوجود صلة بين النظم الاقتصادية والقيم الدينية التى تسند تلك النظم وانعكاس ذلك كله على التركيبات الاجتماعية القائمة •

وبوحي من هذه الدوافع المختلفة فقد باركت الكنيسة الجموع التى سارت نحو الشرق العربى مكدسة فى سفن اعدت وانفق عليها من قبل رجال الطبقة الوسطى ذات المطامح التجارية والاقتصادية التوسعية التى ظهرت كقوة يحسب لها حسابها فى جمهوريات ايطاليا الجنوبية •

تلك كانت بداية المحاولات التبشيرية مع اختلاف فى تكوينها ودوافعها بالطبع والذى نهتم به ان الجمعيات التبشيرية كسابقاتها من الحملات الصليبية أخذت تفتش عن المكان الذى تستطيع جعله قاعدة للغزو الفكرى مع ما يحمله ذلك الغزو من اهداف سياسية واقتصادية ان لم تكن تخريبية وعسكرية وقد

(٥) ماكس فيبر مفكر اوربى المانى الجنسية جمع بين القانون والمعرفة الاجتماعية وقد اسهم فى وضع دستور جمهورية الفايمار سنة ١٨٤٨ وتميزت كتاباته بمحاولاته لاكتشاف الصلة بين الديانات والنظم الاقتصادية وتعتبر دراسته التى بين فيها الترابط بين البروتستانتية والرأسمالية رائدة فى حقل الاجتماع الاقتصادى •

حاولت الارساليات في أول امرها اتخاذ الموصل في شمال العراق منطلقاً لاعمالها التربوية ذات الصبغة الدينية المتمثلة (بالتبشير) ولكنها ادركت صعوبة موقفها فنقلت تأثيرها الى سواحل بلاد الشام •

وقد كان من نتائج عمل تلك الجماعات المبشرة والاساليب التي استعملها في (كسب) السكان العرب في سواحل الشام ان قامت صعاب كثيرة في وجه تلك العمليات ذات المظهر الديني مما حدا بالجمعيات التبشيرية الى نقل مركز النقل في عملياتها من التبشير الى التربية ولكن التبشير بقي هدف الاهداف بالنسبة لها مما جعلها مصدر شك وريبة من قبل الشعب العربي في سواحل بلاد الشام •

والذي يمكن استنتاجه من دراستنا لما قامت به الجمعيات التبشيرية من محاولات (لتحضر) المجتمع العربي وما قام به نابليون (لرفع مستوى الشعب العربي في مصر) أن كلنا التجريبتين لم تكونا تهدفان الى تبديل الاوضاع الراكدة في الوطن العربي آنذاك لانه ليس من مصلحة أوروبا ان تتغير التنظيمات السياسية التقليدية والاقتصادية البطيئة في الوطن العربي والا فان أوروبا ومطامعها ستصبح مهددة بالخطر الزوال •

ومن جهة اخرى فان الدوافع التي حدثت بنابليون لكي يقدم الى منطقة الشرق العربي ويحتل مصر لم تكن لتتعلق من حب نابليون للمصريين والعمل على رفع مستواهم وكذلك الحال فيما يختص بالجمعيات التبشيرية فانها لم تأت مدفوعة بالرغبة لرفع المستوى التعليمي والتربوي وبالتالي انهاض المجتمع العربي مما كان عليه من تخلف وجمود ، فلما اضطرت اهداف نابليون وتضاربت مخططات الجمعيات التبشيرية فان كلا من تلك المغامرات التي حدثت في دنيا التبشير والاستعمار اثرت تأثيرا عكسيا على النهضة الحديثة في الشعب العربي •

ومن غير المشكوك فيه أن المجتمع العربي في مفتتح نهضته الحديثة كان يمر بفترة من النقااه في الفكر والحياة بعد السبات المريض الذي عاشه نتيجة للصعوبات الجمة التي اصطدم بها لذا فمن الطبيعي ان تكون طريقة ايقاظه مما

هو عليه متناسبة وما شعر به من ضعف وتردد ولكن الذي حدث كان العكس تماماً فإن نابليون كان شديداً جداً بحربه واصلاحه والجمعيات التبشيرية كانت عيفة في تحقيق اهدافها وكرد فعل لعمليات العنف هذه انقسم الشعب العربي وانحاز قسم منه بدافع الطمع او الخوف الى التيارات الجديدة بينما تنافرت مجموعات اخرى دافعة بنفسها الى الطرف الاخر في الوقت الذي بقيت فيه فئات كثيرة لم تتأثر بعد بما احاط بها من حوافز جديدة فان الفرد العادي في كل من مصر وسواحل بلاد الشام لم يستجب بشكل ظاهر للمغامرة النابوليونية أو ما قامت به الجمعيات والارساليات التبشيرية لان التغير الذي حدث في المجتمع العربي بفعل تلك العوامل الغربية تناول فئات قليلة من الشعب العربي ، فالحياة الروتينية للأفراد العاديين بقيت كما هي ، ولما لم تتأثر تلك الاساليب التي تعيش فيها وبموجبها الغالبية العظمى في مجتمعات مصر وبلاد الشام فان نزعة من اللابالية سادت تفكير معظم الطبقات التي تتخذ من حياتها وسيلة لعيشها •

وإذا نظرنا الى واقع تأثير الحملة النابوليونية ومحاولات الجمعيات التبشيرية فإننا سنجد ان الصعاب التي يعاني منها المجتمع العربي اليوم والتي تتصل بالتطرف وباللابالية ، انما نشأت جذورها البعيدة فيما قامت به أوروبا من مغامرات ومحاولات في بدء تجربة الشعب العربي مع الحضارة الاوربية المعاصرة لذا فإن الكثير من المؤرخين يظلمون التاريخ والشعب العربي اذا اعتبروا تلك المغامرات والمحاولات ذات المطامع والاهداف القصيرة والبعيدة بدايات للنهضة الفكرية والاجتماعية في الوطن العربي لان الواقع والتاريخ يؤكدان على ان الحضارة تشبه الى حد بعيد مناطق ضغط الرياح في مفهوم الجغرافيين ومعنى ذلك ان المنطقة ذات الضغط المنخفض تكون عرضة لتقبل الرياح من المناطق ذات الضغط المرتفع ويمكن تطبيق ذلك على مناطق الضغط الحضارية فالوطن العربي في تلك الحقبة التاريخية كان ذا ضغط حضارى منخفض بينما بدأ الضغط الحضارى الاوربي بالارتفاع وكان طبيعيا ان تهب رياح الحضارة الاوربية على الشرق

العربي دون حاجة الى نابليون ومغامراته أو الجمعيات التبشيرية ومحاولاتها والا فكيف يمكن تعليل تقدم اليابان قبيل الحرب العالمية الثانية مع عدم وجود نابليون والجمعيات المبشرة؟ فقد بنى اليابانيون مجتمعهم الصناعي دون ان تمد أوروبا يداً اليهم بل بالعكس كانت النية الاوربية معقودة على فرض نوع من الحصار الاقتصادي والفني على اليابان مما دفع باليابان الى قطع الطريق على الحلفاء والدخول في محور المانيا وايطاليا •

وهناك دروس يمكن للفكر العربي الجديد استنباطها خلال تعرض الوطن العربي للمحاولات القسرية في مفتتح اتصاله باوروبا الحديثة هي :

١ - ان الوطن العربي يتمتع بعمر حضارى طويل يعود به الى اعماق التاريخ وعلى وجه التحديد الى أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح وهذا العمق الحضارى يعمل كسلاح ذي حدين الاول يعود بالخير على العرب أنفسهم لانه يجعل منهم امة ذات جذور حضارية عميقة تسهل عملية البناء الحضاري في الوقت الحاضر والثاني يعمل ضد صالح التقدم الحاضر في الوطن العربي لانه يوجد نوعا من الاشباع الكلي للعقل العربي يصد عنه محاولات التقدم الحديثة ينعكس هذا الاشباع على نفسية الفرد العربي اذ يأخذ بالنظر الى الحضارات الحديثة التكوين نظرة ثانوية تحول بينه وبين التعامل الحضاري السليم معها والاستفادة من تجربتها في عالم اليوم •

٢ - ان المجتمع العربي مجتمع تحكمه القيم التقليدية ومعنى ذلك سيطرة الجيل القديم على الجيل الحديث ورسم الطريق له واذا اقتضت هذه السيطرة على الفترة الحاضرة فان الامر يمكن تقبله من وجهة نظر علم الاجتماع الحديث الذي يؤكد على تقليل الفوارق الحضارية بين الاجيال ولكن اذا تدخل الجيل القديم في رسم المستقبل الفكري والاجتماعي للجيل الجديد فان معنى ذلك ان تصادما حضاريا لا بد وان يقع بين الاجيال في الوطن العربي يتعد فيه الجيل الجديد عن معطيات الفكر والثقافة في المجتمع العربي خصوصا تلك التي تبسح السبل التقليدية في المعرفة •

ومن الظواهر التي يتميز بها المجتمع الحاضر في الوطن العربي ان جيل الالباء كان نتاجا غربيا لفترة انتقال ما زالت في طريقها الى التبلور وبمعنى آخر فان الجيل المتوسط بين الجيل القديم والجيل الحديث لم يتمكن بعد من تحديد اتجاهاته الفكرية والعاطفية لذا فهو اقل قدرة على الاتصال بالجيل الجديد على الرغم من ضيق الشقة الزمانية بينهما فالجيل الذي يحكم بالفعل هو جيل الاجداد ينفذ الى الجيل الجديد دون ان يمر بالجيل العازل او جيل الالباء وبما ان الفارق الفكري والزمني بين الجيل القديم والجيل الحديث خصوصا في الوقت الحاضر الذي يميل فيه مؤشر التطور نحو السرعة في الحياة والفكر فان عدم تفاهم سيئسأ حتما بين هذه الاجيال المتنافرة الامر الذي قد يؤدي الى شعور الجيل الجديد بعزلة وبفراغ فكري وعاطفي كبير يمكن ان ينقلب الى ما يسمى بعلم النفس (الانعكاس على الذات) وبذلك يفقد الجيل الجديد صلته بالمجتمع وبمؤسساته وخصوصا المدرسة التي ستصبح - اذا انقلب التباعد بين الاجيال الى تعقيد اجتماعي - منظمة تفرض علومها على جيل لا يؤمن اصلا بالخط الفكري والاجتماعي الذي تسير عليه .

٣ - ان الشعب العربي بوطنه العربي قد مر بفترات من القوة والضعف وهذا امر طبيعي بالنسبة لكل شعب ولكل حضارة والمفروض في تعليم الناشئة العرب هو فهمهم لهذه الحقيقة فاذا اردنا ان نفهم الفترة الزمنية والفكرية التي نمر بها فما علينا الا ان نعود الى تفكير وتحليل شخصية لها وزنها في الفكر العالمي هي شخصية ابن خلدون ويعتقد هذا المفكر بان عمر الحضارة يتكون من ثلاث مراحل سميت الاولى بمرحلة البناء وفيها يتم وضع حجر الاساس للبناء الحضاري الجديد وتسود روح من القوة والسيطرة لكي يتمكن جيل البناء من الاسراع في العملية التي يؤديها ومن التقليل فيما يمكن ان يحدث من اخطاء بالاضافة الى التأكد من متانه اسس الحضارة المستقبلية .

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة التكامل وفيها يبدأ الجيل المنوط به هذه

المسؤولية اتمام عملية البناء الحضارى وقطف الثمار الذى بدأ بها الجيل السابق •
أما المرحلة الثالثة فهى تلك المرحلة التى يبدأ عندها البناء الحضارى
بالتصدع بعد ان تعتريه عوامل التعرية والتآكل ممثلة بالقوى الطبيعية وقوى
الانسان والقوى التى تسمى بـ (الميئاحضارية) وفى هذه المرحلة يتقوض الصرح
الحضارى بعد ان مر بفترتي البناء والتكامل •

ولا يغيب عن ذهن هذا المفكر العربى ان فترة التكامل على الرغم من سيرها
فى طريق اتمام البناء الحضارى فانها تحمل بذور فنائها معها والذى يريد ان يقوله
ابن خلدون - بهذا المعنى - ان الطاقات الفردية تختلف فيما بينها لان هناك فروقاً
فردية تؤدى الى اختلاف هذه الطاقات هذا من جهة ومن جهة أخرى فان الحضارة
تشبه الجهد الانسانى فى بلوغها مراحل عليا لا تلبث ان تنحدر منها الى
الحضيض وهناك مصداق لوجهة النظر هذه فى الاقتصاد الحديث حيث تدعى
المرحلة التى لا يستطيع الانتاج ان يتجاوزها ولا يلبث ان يبدأ بالتناقص بمرحلة
التناقص •

وإذا طبقنا رأى ابن خلدون السابق وما اضفناه اليه نستطيع عندئذ افهام
الجيل العربى الجديد بانه يمر الان ووطنه العربى بمرحلة البناء وهى مرحلة
تستدعى الكثير من الجهد أولاً وتستلزم دقة التخطيط والمرونة وقلة الحساسية
بالنسبة للاخطاء والتغيرات ثانياً •

وانسجاماً مع هذا الرأى لا بد من ان يفهم الجيل العربى الجديد بانه
المسؤول الاول عن مرحلة البناء هذه وان التاريخ العربى يبدأ به كقوة محرركة
لامة ذات تاريخ عميق الجذور لها رسالتها التى يجب ان تؤديها متحدية الضعف
والزمن والصعوبات التى تقام فى طريقها لان رسالة العرب هى مصيرية وليست
دوراً ثانوياً تؤديه على مسرح الحضارة الانسانية كما يتصور ذلك بعض دعاة
التخاذل ومن يؤرخ لامة العرب من الاجانب •
٤ - وهناك حقيقة جدية بان يطلع عليها ابناء هذا الجيل هي متى وكيف

بدأ تاريخ نهضة العرب الحديثة وبواضح العبارة فان تاريخ هذه النهضة ستنهى
مرحلته الاولى فى الوقت الذى يحرر فيه العرب ارضهم سياسيا واقتصاديا وفكريا
فان التاريخ لا يحدثنا عن المراحل المبكرة لبداية نهضات الامم فمتى بدأت نهضة
الامة الالمانية أو الايطالية ومتى أصبحت انكلترة واميركا وروسيا وغيرها من
الدول التى تحتكر الحضارة فى الوقت الحاضر دولا ناهضة ؟ والجواب ان
نهضتنا لم يتم الاعتراف بها الا بعد ان تصبح حقيقة واقعة فبسمارك لم يكن الباني
لالمانيا الحديثة لو لم ينتصر على فرنسا فى سادوا وسيدان سنة ١٨٧٠ وتاريخ
اميركا الحديث لم يكتب له ان يكون تجربة لولا انتصار الشمال الأمريكى على
الجنوب الأمريكى اثناء الحرب الاهلية •

وبالنسبة للوطن العربى فان تاريخه الحديث سوف تبدأ المرحلة الجديدة
منه بعد ان يتم تحرير فلسطين فان هذه المعركة لا تقل اهمية عن معارك سنة
١٨٧٠ بين المانيا وبين فرنسا وقد يحاول بعض المؤرخين ممن يكتبون تاريخ
العرب الحديث ان يصوروا اوربا ذات فضل على الفكر العربى والواقع ان ما
قامت به أوربا لم يكن الا تخطيطا سياسيا وعسكريا وفكريا قصد منه الحصول
على مغائم اكبر للدول الاوربية ذات الصلة بتلك المخططات • أما ما حدث بالنسبة
لرد فعل العربى والتقدم الذى استجابت له الامة العربية فلم يكن اكثر من ناتج جانبي
لعملية طاشت اهدافها ولو علم الاوربيون ما سيحدث فى الوطن العربى لبقى
نابليون فى فرنسا والجمعيات التبشيرية من صوامعها •

الفصل الثاني

الانسان العربي ومعادلته الفكرية

يتميز الانسان العربي بانه مخلوق حضارى قبل اى اعتبار آخر وهذه الصفة تلقى لها سندا من التاريخ والحضارة فان جذور الانسان العربي الحضارية تمتد عبر التاريخ حتى تصل الالف الرابع قبل الميلاد ولا بد هنا من التفريق بين مفهومنا عن الحضارة وبينها كتاريخ للامة العربية فالحضارة فى هذا المعنى تدل على نتاج ذى صفة انسانية بلورة العقل العربي جاعلا منه حقيقة مثقفة تحدث المعضلة والقدر ، اما التاريخ فانه سجل للاحداث يعكس حركة الانسان فى تفاعله مع المكان والزمان والهدف .

وتاريخ العرب يتميز عما يماثله من تواريخ الامم الاخرى بانه سفر عام حوى كل ما قام به العرب كافراد وجماعات ودول وهذه الحقيقة تجعل من التاريخ العربي مرآة ينعكس عليها واقع الامة العربية بشكل تختلف فيه عن غيرها من أمم الشرق الاوسط والدول الاوربية واممها المعاصرة .

وهذا الشمول فى تاريخ العرب يرجع الى أهمية الفرد العربي فهو والحالة هذه عنصر أساسي فى تكوين المجتمع العربي بصرف النظر عن الحقبة التاريخية التى يمر بها . وقد أدت هذه القيمة العالية للفرد العربي لان يخلد اعماله بكليتها فالتاريخ بالنسبة للعرب لم يقتصر على ذكر القادة فقط أو الرجال البارزين وانما تناول الحياة البسيطة للانسان العربى نفسه .

ومن المتعارف عليه استنادا الى مفهوم التاريخ الحديث ان هذا السفر الذى يدون الاحداث مع اختلاف واقعها الزمنى انما يهتم بما قام به اولئك الذين يطلق عليهم اسم (العصب المحرك للاحداث التاريخية) ولكن هذا التحليل لا ينطبق على تاريخ العرب لذا فقد اختلطت الامجاد بالاحداث التاريخية نفسها

وأصبح من العسير التفريق بين الحدث التاريخي وبين ما ينسبه الافراد الى أنفسهم من مجد ونخار فلقائد العربي لم يكن مجرد قائد سياسي وانما هو شخصية تجمع بين السياسة وبين الحرب والقوة اللغوية ممثلة فما ينظمه من اشعار في المناسبات التي تتطلبها ظروف عمله لذا فهو يخلط بين العمل التاريخي من حيث هو مجموعه من الاحداث وبين ما يتصل به من مجد شخصي فالمعركة التي يخوضها العرب لم تقتصر على تنظيماتها السياسية والعسكرية ولكنها ملحمة بكافة الجوانب الملحمية وعلى الاخص بعد ان يتفرغ لها الكتاب لتدوينها وجعلها جزءاً من مملكة التاريخ •

وكان على المؤرخين العرب أن يفرقوا بين ما يجب وما لا يجب ان يدون في الاسفار التاريخية الا ان هذا النفر من ذوي القدرة على تدوين الاحداث التاريخية هم نتاج للبيئة التي يعيشونها لذا فهم ينظرون الى الافراد والى جوانب الابداع والمؤثرات العاطفية وما يتصل بالمعركة من الظلال الرومانتيكية والمأساوية كوحدة متكاملة مما يجعل مؤلفات التاريخ خصوصاً في الفترات الاولى لتطور الفكر العربي تبدو وكأنها ملاحم كتبت بقلم ادباء أو متبعين لما يحدث في المجتمع من ظواهر سياسية أو عسكرية أو اجتماعية •

هذا الخلط بين التاريخ وبين جوانب العمل الادبي كالوصف الملحمي أو المأساوي أو وجد ما يسمى في التاريخ العربي بـ (الامجاد) وخلق ارتباكاً كبيراً بين الاحداث نفسها وبين ما يحيط بها من هالات رومانتيكية او اردية سوداء باكية • ودون شك فان مشكلة الخلط هذه تجعل مهمة الجيل الجديد في فهم الاحداث التي مرت بها الامة العربية عبر الزمن والاستفادة منها في عالم اليوم ، امرأ صعباً ان لم يكن معقداً ، فمن المؤسف ان يفقر العمل الفكري العربي في الوقت الحاضر الى مؤلف في التاريخ يجمع بين العلمية والموضوعية في المنهج والاهداف القومية في الغاية ولعل من المؤلفات التي تعتبر ذات اسلوب علمي أو موضوعي ما كتبه الدكتور فيليب حتى تحت اسم (تاريخ العرب) والحقيقة ان

هذا المؤلف الذي عاش في حضارتين مختلفتين احدهما حضارة الوطن العربي والآخرى حضارة اوربا الامريكية حاول ان يكتب تاريخ العرب من خلال فهمه لعلم التاريخ في الحضارة الاوربية ، وقد بدأت محاولة حتى تأليف كتاب عن تاريخ العرب عندما دخلت الجيوش الامريكية الى الشرق الاوسط العربي ولما كانت اميركا في عزلة عن العالم الخارجي وكانت تأثيرات مذهب مونرو (اميركا للامريكيين) ما زالت مهيمنة على الفكر والسياسة في الولايات المتحدة فقد كانت الحاجة ماسة الى تأليف كتاب عن العرب وتاريخهم يكون دليلا بيد القوات الامريكية التي ستحل في الوطن العربي وبالفعل فقد قام فيليب حتى مدفوعا بذلك الحاجة الى وضع كتاب اسماه (مختصر تاريخ العرب) طبع على نفقة الحكومة الامريكية ووزع على الضباط الامريكيين لكي يكون انجيلا صغيراً في ايديهم يجعلهم اكثر فهما للشرق الغامض وما يصادفوه من صعاب (كما كان الامريكيون يتخيلون الشرق العربي) .

فلما اشبعت الحاجة الى وضع كتاب مختصر عن تاريخ العرب وسع فيليب حتى كتابه جاعلا منه مؤلفا جديدا في تاريخ العرب سماه (تاريخ العرب مطول) تمييزاً له عن مختصر تاريخ العرب .

ومن وجهة النظر الفكرية فان الكتابة في تاريخ العرب بدأت منذ زمن مبكر يرجع الى بداية فترات الاستشراق فقد ظهر اهتمام في مطلع نهضة العرب في العصر الحاضر من قبل بعض ذوي الفكر الاوربيين استهواهم الشرق العربي بغموضه وتاريخه الطويل وبموارده الضخمة وبوجهات نظر ابناؤه وما يسود الحياة فيه في ذلك الوقت من بطء وقناعة وخوف ومفاجآت ولكن الاستشراق بدأ في اول امره يهتم باللغة العربية وآدابها لانها المفتاح الطبيعي لفهم الامة العربية لذا فان اكثر المستشرقين في ذلك الوقت وحتى في ايامنا المعاصرة يؤكدون على اللغة العربية وآدابها ومفرداتها وما فيها من نحو وضروب من فنون الكلام والتعبير .

أما الخطوة الثانية في تفكير المستشرقين فقد تميزت بالانتقال من الادب

الانشائي كما يسمى في التعبير الادبي الحديث الى الادب الوصفي وظهرت اتجاهات جديدة لكتابة ما سمي (تاريخ الادب) وهي محاولة للجمع بين النتاج الادبي من جهة وبين الوعاء الزمني لهذا النتاج من جهة اخرى وقد برع في هذا المجال (كولد زيهر) و (ماسنيون) وجب وفسر •

وقد نجم عن كتابات هؤلاء المستشرقين في تاريخ الادب اهتمام ليس بالاحداث التي تتصل بالنتاج الادبي فقط ولكن تلك التي تتصل بالسياق التاريخي للشعب العربي والربط بين اثر الفرد وما يتركه ذلك الاثر في تكوين للاحداث التاريخية ويتمثل الاتجاه الجديد فيما كتبه جوستاف لوبون وارنست ريدان في فرنسا وكارل بروكلمان في كتابة تاريخ الشعوب الاسلامية في ألمانيا •

هذه هي المنطلقات البارزة في محاولة للوصول الى فهم موضوعي لتاريخ العرب وطبيعي ان هناك الكثير من المثقفين العرب ممن كتبوا في هذه المجالات وحاولوا ان يرسموا خطوطا عامة ومفصلة للاحداث وصلتها بالزمن في الوطن العربي لان المستشرقين مع اتباعهم للاسلوب والمنهج الموضوعيين في كتابة الاحداث التاريخية العربية ظلوا مدفوعين بدوافع عدة منها خدمة الدول الاوربية التي يعملون لاجلها وتأثرهم بحقدهم الدفين على العرب والدين الاسلامي ولكن الواقع يشير الى ان ما كتبه المستشرقون ما زال يمثل لونا جديدا لم يعهده الفكر العربي في محاولاته المختلفة لفهم التاريخ بوجه عام وتاريخ الامة العربية بوجه خاص •

ولعل من المناسب ونحن بصدد ايجاد معادلة جديدة للفكر في المجتمع العربي المعاصر ان نرسم الخط واضحا بين ما نسميه بالتاريخ من جهة وما نطلق عليه اسم الامجاد من جهة ثانية : فالتاريخ احداث من نتاج الانسان نفسه تفاعلت مع الظروف المكانية والزمانية واكتسبت نوعا من القدرة (الميتا انسانية) (٦) •

(٦) الميتا انسانية : تعبير ابتكرته يجمع بين لفظين الاول لاتيني معناه (ما بعد) والثاني عربي لكي استدل به على قوة خارقة ذات صلة بالجهد والفكر الانسانيين •

اما الامجاد فانها اسفار تضم ما قامت به المجتمعات ضمن اطاراتها الفكرية ووجودها القومية • فالتاريخ اذن محاولة علمية لفهم الماضي والاستفادة من هذا الفهم في واقع الحياة كما يعيشه الجيل الحاضر وكما ستعيشه الاجيال القادمة والصلة بين التاريخ والامجاد تكون في المراحل الاولى لكتابة التاريخ عندما يكون الوعي العام لدى الامة التي تحاول النهوض في اوليات تطلعاته الى مستوى أفضل لان الصعيد الفكرى لهذه الفترة المبكرة فى تاريخ الامة الثقافى يجعلها تهضم بصعوبة بالغة التاريخ كمادة علمية تقوم على استقراء احداث الماضي واستنباط ما يمكن الانتفاع به فى الوقت الحاضر •

فاذا تعدت الامة فترة النضج المبكرة التى استدعت الخلط بين التاريخ كعلم وبينه كسجل للامجاد فان المرحلة الجديدة تستدعى كتابة تاريخ جديد يتعد عن التأثيرات العاطفية او التقديرات غير المعقولة كان تفهم المعارك والصعوبات التى مر بها الشعب العربى على حقيقتها لان الخلط بين التاريخ وبين الامجاد فى فترة النضج العقلى المتطورة يجعل من التاريخ مجرد قصص لا تصلح الا للمناهج المدرسية أو لسد اوقات الفراغ والتسلية فى الوقت الذى نريد من تاريخ العرب ان يكون منهجا للعمل السياسى يجمع بين تجربة الماضى والتطلع الى مستقبل افضل عن طريق التفاعل بين التجارب كما عاشتها الامة العربية فى الماضى وبين واقع حياة شعبها فى الوقت الحاضر •

تجارب العرب المرة وكتابة تاريخ لهم :

لقد مر العرب بتاريخ طويل من الواقع قبل ان يشروعوا فى كتابة التاريخ نفسه ، فالعرب من الامم التى تعيش تاريخها بدلا من ان تكتبه ولم تظهر الحاجة الى كتابة التاريخ عند العرب الا فى فترات تلت انتشار الدعوة الاسلامية لان كتابة التاريخ كما هو متعارف عليه فى الوقت الحاضر ظاهرة من ظواهر الحياة المدنية فحياة البداوة تتسم بالبساطة وبالفرديّة وبتفضيل متطلبات الفرد على المجموع الذى لا يتعدى القبيلة نفسها • ومن دون شك فان القبيلة فى الفترات التى مرت

بها الامة العربية قبل انتشار الدعوة الاسلامية لم تكن مجتمعاً بالمعنى المتعارف عليه لان الظروف المكانية كانت تنقصها الى حد كبير نظراً لحركتها الدائمة وصعوبة اشباع حاجاتها اذا تخطت المرحلة الضرورية •

وقد اثرت صعوبة الظروف المكانية في تمكين الظروف الزمانية لكي تنجح في نسج الاحداث التي تعتبر المادة الاساسية للتاريخ • لذا فان تاريخ الفترة الجاهلية للامة العربية لم يكن يعنى بالاحداث قدر عناية بتتاج شعري يحاول فيه الفرد العربي نفسه الارتفاع فوق مستوى الصعوبات التي يمر بها كفرد وكقبيله • ولما اخذت الاحداث تضمن لها عناصر الزمان والمكان ووجدت حالة الاستقرار التي افضت الى المدنية والتحضر وما يتصل بهما من نشوء التراكيب الاجتماعية المعقدة ذات الاجنحة السياسية والاقتصادية والفكرية فقد وجدت حاجة قصوى لكتابة تلك التعقيدات والاستفادة من التجربة التي مر بها الانسان خلال العصور السالفة •

الا ان المعلومات التي حصل عليها العرب ومؤرخوهم الاوائل لم تكن تهدف الى الاهتمام بالاحداث كناتج لتفاعل تم بين البشر وبين الظروف التي تحيط بهم من مكان وزمان وانما تصور للماضي بشكل جذور بشرية تمتد في قدم سحق فقد سيطرت فكرة الانساب على العرب أنفسهم فالضرورة ملحة على صعيد القبيلة في الجاهلية والقبيلة - المدينة فيما بعد لارجاع الابناء الى آباؤهم وارجاع الاءاء الى اجدادهم •

وعلى الصعيد الاجتماعي فقد وجدت حاجة ضرورية نظراً لكثرة العناصر الداخلة في تركيب الامة العربية ، الى ايجاد نسب للامة العربية بكاملها وهذا ما يفسر لنا الاسلوب الذي التزمه مؤرخو العرب القدماء كالطبري والمسعودي وغيرهم ممن حاولوا الرجوع الى أصل البشر أنفسهم وقد قادهم هذا السبيل الى بداية تكوين الارض لكي تكون مهدياً لظهور الانسان • وقد تأثر كتاب تاريخ العرب الاوائل كذلك بما كان سائداً في الافكار اليونانية وما جاءت به التوراة من

قصص في سفرى التكوين والخروج وما اليهما من بدايات متوارثة لتاريخ الارض
والانسان •

وبكل تأكيد فقد أثر اعتقاد المؤرخين الاوائل فى الامة العربية بان التاريخ
شجرة يجب ان يبدأ الانسان بالتعرف عليها عن طريق الرجوع الى اصولها
وجذورها الموعلة فى أرض الاجيال الغابرة ، فى توجيه الفكر العربى من خلال
الكتابة التاريخية فقد اهتم العرب بسلافهم كثيراً ولما بدأوا بكتابة التاريخ ظنوا
ان هذه العملية لا تعدو كونها محاولة منظمة لتخليد اعمال اولئك الاسلاف وبيان
فضلهم من جهة وتقليل شأن الاجيال الحاضرة والمستقبلية من جهة أخرى •

لذا فقد نشأ تأكيد كبير على الماضى لانه الوعاء السليم لفكر الاباء والاجداد
وان الابناء والاجيال المستقبلية ليست الا ظلالا باهتة لأولئك العمالقة فى الفكر
والواقع ومهمة الجيل الحاضر (كما رآها مؤرخو العرب القدماء) هى محاولة
تقليد الماضى والسير على النهج التقليدي •

وبعبارة أوضح فان مفهوم العمل التاريخى كما نشأ عند العرب لم يكن
ليتعدى محاولة فكرية لاستعمال قصة الارض والانسان ونقلها من حيز الذاكرة
الى مجال الكتابة الناضجة توحياً لثبوت محتواها وحفاظاً على تسلسلها الزمنى •

فالطبرى يبدأ كتابه بقصة طويلة للخليقة ثم لا يلبث آدم ان يظهر على
مسرح الحياة وتبدأ الارض تشعر بوطأة مشاكل بني آدم انفسهم ثم يأخذ التاريخ
فى الجري على هذا المنوال حتى تتلغ الاحداث التاريخية الامم القديمة بما فيها
التابعة العظام وغيرهم ممن خلفوا اثرهم واضحا فى سفر التاريخ وينتهى الطبرى
من استعراضه للاحداث بنهاية الفترة التى يعيش فيها لذا فان اكثر كتابة
(الرسل والملوك) مركز على ذكر الماضى كاسطورة اولاً وتاريخ ثانياً ثم حادثة
فى آخر الامر ولكن جانب الاسطورة والتاريخ تطفيان على اكثر ما كتبه الطبرى
مما يوضح لنا اتجاه كتاب العرب الاوائل نحو الماضى اكثر من محاولتهم
لفهم الحاضر •

ولعل هذا الاتجاه نحو الماضي والتأكيد على اسلاف البشر دون البشر أنفسهم هو الذى أوجد لدى الفكر العربى نوعا من الاندفاع نحو الماضى من جهة والشعور بضالة الاجيال الحاضرة من جهة اخرى •

وبعبارة واضحة فان التعلق بالفترات العابرة فى تاريخ الوطن العربى وخصوصا تلك التى يغلب عليها جانب الاسطورة والتاريخ دفع بالفكر العربى الى التشبع بفكرة الافضلية للاجيال المتقدمة ، واختزال عمل الجيل الحاضر الى مجرد محاكاة للمنجزات العظيمة التى ورثها من مخلفات الماضى • وتبعاً لذلك فقد أصبح الانسان العربى فى الوقت الحاضر متجها الى الماضى اكثر من اتجاهه نحو الحاضر والمستقبل وعلى وجه الدقة فان الانسان العربى نفسه بعد ان شعر بالصعوبات التى نشأت نتيجة لهذه العكسية بالاتجاه نحو فهم التاريخ كحادثة وتجربة وما ترتب على ذلك من تأخر ومن جمود تناقضها رغبة جامعة فى سبيل اللحاق بركب الامم الناهضة من القرنين العشرين فقد انحاز الانسان العربى بكليته وبشكل شعوري وسريع نحو المستقبل لكى يستطيع ان ينفذ عنه السيطرة التقليدية للمركود ويسير جنبا الى جنب مع تيار التقدم الحاضر ، هذا الاسراع فى توجيه دفة الفكر نحو المستقبل أدى الى ان ينسى الفرد العربى حاضره لان الوقوف على قاعدة الحاضر معناه الابطاء فى حركة المستقبل وبذلك انقسم الفكر العربى بين الماضى والمستقبل دون عناية بالحاضر الذى يمثل الواقع دون ذلك •

الفكر بين الشرق والغرب :

لقد قال الكونت (كينزرنج) فى تفريجه بين الفكر الشرقى وصنوه فى الغرب ان الاول يهتم بالمعنى والثانى يهتم بالشئ وقد حاول الكثير من المفكرين ان يرسموا الخط واضحا بين ما يسمى بالشرق وما يسمى بالغرب والحقيقة ان هذه التسمية فى اساسها لا تستند الا الى واقع عاطفى يمتزج ببعض النزعات السياسية ذات المنافع التوسعية فى الاقتصاد وفى السيطرة الخارجية فقد اطلق الاوربيون على الاقطار التى تبعد عنهم فى المسافة وتختلف فى الفكر وفى الهدف

اسم الشرق كناية عن البداية في الحياة وتكوين المعرفة والواقع ان لفظ الشرق يختص أكثر ما يختص بالاقطار التي تقع في نصف الكرة الجنوبي حيث ظهرت الحضارات العظيمة التي كانت وما زالت وستظل مشرقاً للفكر الانساني بكامله لان تلك الحضارات قد اصبحت جزءاً مهماً من واقع التاريخ والزمن لذا فهي تتحدى التأثيرات المكائنية فاذا اخذنا بنظر الاعتبار فكرة القبائل الهندية الاوربية وحركتها عبر التاريخ ثم درسنا كيف انتقلت الحضارة من نصف الكرة الجنوبي الى نصف الكرة الشمالي مبتدئة في بلاد اليونان التي هي نفسها مكونة من اجناس هندية اوربية وفكر سامي ادركنا ان بناء عالم المعرفة في القديم جاؤا من أصول انحدرت اسلافها من سلالات بشرية عاشت في نصف الكرة الجنوبي أو ما يسمى الان بالاقطار الحديثة النمو ثم انتقلت تلك الاقوام الى نصف الكرة الشمالي قاطعة في طريقها البحر الابيض المتوسط عن سبيلين رئيسيين الاول هو شبه جزيرة الاناضول والثاني مجموعة الجزر في البحر الابيض نفسه التي كانت في الازمنة الاولى تمثل جسراً كاملاً ربط ما نسميه بالشرق في وقتنا الحاضر أو نصف الكرة الجنوبي في القديم بالنصف الشمالي ♦

وليس هذا الامر بمستبعد فالبحر الابيض المتوسط يمثل بحيرة ثقافية نمت على شواطئها حضارات قديمة كالحضارة الفينيقية والكنعانية والمصرية ثم استطاعت تلك الحضارات ان تنتشر عن طريق السياسة والتجارة والمغامرات البحرية وللتدليل على صحة فرضية انتقال البشر والفكر من نصف الكرة المتمدن في القديم الى نصفه المتوحش في شمال البحر الابيض المتوسط يمكن ان نستعيد في ذهننا القصة التي ذكرت في التوراة والتي تتضمن عبور النبي موسى للبحر الاحمر فقد استطاع النبي موسى ومن تبعه ان يشق طريقاً له في البحر وان يعبر بأمان الى الجهة المقابلة وهذا ما يؤكد لنا وجود فكرة الجسور التي تتكون من اراض يابسة استطاع الانسان في ذلك الدور السحيق من تاريخه ان يعبرها ليكتشف عالماً مجهولاً بذر منه من فكره المتطور لينتج ما نطلق عليه اليوم اسم الفكر العربي ♦

وهناك حلقة اخرى بين الشرق المتحضر واربا المتخلفة للاتصال الفكرى
تمثلت فى دور القسطنطينية فقد كانت تلك المدينة التى تقع بين حدود الشرق
والغرب ملتقى بشريا وفكريا اجتمعت عندها السلالات البشرية المختلفة كما
تصادمت فى رحابها الافكار بنوعيتها تلك التى تتسم بطابع الشرق وتلك التى
بدأ الغرب بتكوينها وليس يخاف ان سقوط القسطنطينية يعتبر بداية النهضة
الحديثة فى اوربا فى القرن السادس عشر التى عرفت باسم (احياء العلوم) •
ولم تقف مكانة البحر الابيض المتوسط عند حد نقل البشر وفكرهم من العالم
التمدن فى ذلك الوقت الى العالم المتوحش الذى يضم قارة اوربا فى الوقت
الحاضر فحسب وانما ترعرت اقدم الديانات على شواطئه وشهدت تلك الشواطىء
وما زالت تشهد حركة فكرية ودينية واستعمارية وقف المؤرخون المحدثون
حياها بعجب كما صدم بها المؤرخون القدماء •

ففضل الشرق اذن لا يمكن ان يغمط عندما يكتب تاريخ الفكر ودور
الفكر العربى فى الفكر الشرقى هو الاخر يحتل مكانه مرموقة فان القوة العربية
الدافعة التى غيرت الكثير من علاقات الفكر والمجتمع والحياة انما سارت بنفس الطريق
القديم الذى اعتاده فكر الشرق فى مسيرته الحضارية فقد بدأ العرب من شبه
الجزيرة العربية ثم العراق فسواحل بلاد الشام ومصر فالمغرب العربى وبذلك
وقفوا عند حدود الفكر الشرقى ولكن القوة الخلاقة للفكر الشرقى التى تشعب
بها المد الفكرى العربى حفزتهم الى التقدم فاذا بهم يتقدمون نحو اوربا الجنوبية
وهنا بدأت لحظة حاسمة فى تاريخ اصالة الحضارة العربية وهى اكمال دور
الحضارة الشرقية عن طريق عبور البحر المتوسط حلقة الاتصال بين الشرق
والغرب الى حيث يريد الفكر الشرقى متمثلا بالزخم العربى من اتمام رسالته
فى المعرفة •

ومن المؤسف حقا ونحن بصدد ايجاد اساليب فكرية جديدة تترجم
حضارة العرب فى القديم والمسيرة التاريخية لهم فى الوقت الذى تنظر فيه بثقة

واطمئنان الى الحاضر والمستقبل ان نجد تاريخ العرب يكتشف من قبل رجال
الفكر الاوربي الذين دفعتهم المغامرات والخيال والجاسوسية الى ارياد ارض
الشرق العربي ومحاولة اشباع تلك الدوافع التي طالمسا خدمت الاهداف التي
تسترت وراءها •

فمن المعيب حقا ان يضطلع شخص نزق مثل الكولونيل لورنس الذي لا
يعرف من الشرق الا ما تصوره خيالات الف ليلة وليلة المريضة وما استوعبه في
مدرسة الاستخبارات البريطانية ، بالدور الذي قام به والذي زعم انه تكتيل
للقبائل العربية لخدمة المصلحة البريطانية الاستعمارية في الشرق العربي
والاستحواذ على كنوز هذا الشرق عن طريق ابقاء القديم على قدمه • ثم يكمل
مخطط لورنس رجل آخر لا يقل نزقا عن لورنس نفسه هو جون فيلبي وتنتهي
هذه الحلقة من صغار المشلين الذين اسندوا الى أنفسهم ادوار العضاء على مسرح
التاريخ بظهور (كلوب) في الاردن وقيامه بالدور الذي قام به والذي انتهى
باتمام ما خططه معاهدة سايكس بيكو من تقسيم الشرق العربي الى مناطق نفوذ
وما أكده اللورد بلفور في وعده بمنح ارض فلسطين لليهود وصهاينتهم وبذلك
مكنت الصدفة هؤلاء الرجال الصغار من ذوي الخبرة القليلة والطموح العميق
البعد ان يعشوا بمغاليق الفكر والحياة في الشرق العربي مثلهم كمثل اولئك
الهمج الذين يظفرون بمدينة اثرية قديمة فيعيشون فيها همهم ان يحصلوا على
ما تخفيه من مغامم ومكاسب وفاتهم انهم بعملهم هذا يطمسون معالم سموخ فكري
ترشحت فيه حصيلة جهد وتجربة للانسان خلال حقبة موغله في القدم •

لقد تمكن لورنس وفيلبي وكلوب من ازاحة بعض الستائر عما ظنوا أنه
الحياة والفكر في الشرق العربي ولما كانت مهمتهم قد خطط لها ورسمت اهدافها
في المكاسب والمغامم للجهات التي يخدمونها فقد تمكن اولئك الصغار من المشلين
ومهرجي التاريخ ان يعشوا بثرات الماضي ورسم صور مشوهة لواقعه تخدم
وتنفذ الاغراض التي ارسلوا الى الشرق العربي من أجلها فالبداوة حياة كما

مراها لورنس وفيلبي وكلوب تتسم بالعزة والكرامة والشيم العربية الاصيلة ومن
الخير للوطن العربي ان يترك مدنه وحضارته لكي ينتفع بالصحارى فيقيم فيها
خيامه ويخرج بذلك لتوه من احدى قصص الف ليلة وليلة ! اما البادية فقد
سحرت عقول لورنس وزملاءه ممن دفعتهم صدفة مجرمة للبعث بالشرق
وحياته ، لذا فهي (البادية) تصور برأيهم الحياة التي يجب ان يحيها العرب
وبذلك يعيش الشعب العربي في صحراء وتحت الخيام لكي يكون في الامكان
اعادة مواسم العرب في القديم وحروب واحس والغبراء والسير الشعبية مثل سيره
عنترة بن شداد والوزير بن سالم والاميرة ذات الهمة .

هذا هو الشرق العربي الذي اكتشفه او اراد ان يكتشفه صغار من
استاجرتهم صدف مجرمة همها ان تبقى القديم على قدمه ولكن أثر لورنس
وفيلبي وكلوب ترك اثراً سلبياً على الفكر العربي من جهة والفكر العالمي من
جهة ثانية فقد فقد العرب أو بدأوا يفقدون ثقتهم بانفسهم لانهم وجدوا ان تركيبهم
الفكري لا يصلح للقرن العشرين وان رسالتهم في الحياة والفكر قد انتهت
عندما اسدل الستار على الحضارات القديمة التي ترعرت وتكاملت في أرض
العرب ووسط هذا الخضم الزاخر من مخلفات الماضي ومن صعوبات الحاضر
وما اشيع فيه من افكار مسمومة جند لشرها لورنس وزملاؤه من عملاء التأخر
في الوطن العربي ، ولدت بذرة جديدة للفكر العربي تمثلت في انسان عربي
جديد خرج من بين انقاض الماضي وركام الحاضر ثم شرع يبحث عن ذاته فهل
هو مسخ للحضارات القديمة التي ينتمي اليها ؟ أم هو ذلك الانسان الذي خطط
مستقبله عن طريق معاهدات وبروتوكولات حكمت دسائسها في ارض بعيدة عنه
وراء نوافذ وشبابيك محكمة الاغلاق ؟ أم هل هو ذلك المخلوق الذي يقترش
البادية ويستظل بخيمة واسطته جمل ينتقل عليه ويعتمد على ما يوجد به في
الوقت الذي يلوك انسان الخيمة هذا جوانب من الشعر والامثال والحكم ويجتر
ما وعته ذاكرة جيله والاجيال التي سبقته من قصص واخبار بدت مهلهلة لاتخدم

الانسان العربي الجديد كمخلوق صدفة رمت به الاقدار في ارض لا تملأؤها الا جوانب الامتاع وقتل الوقت بالتسلية ! وبعبارة موجزة يمكن ان تكون خرافات الماضي واوهام الحاضر ومجهولات المستقبل سبيلا للتعرف على انسان عربى جديد ؟

فما هي « هوية » هذا الانسان اذن ؟

من المناسب فى الوقت الذى يمر فيه الوطن العربى بمرحلة من ادق مراحل تاريخه الطويل المشبع بالرقى الحضاري والمشوب بعوامل الضعف والتفكك خلال الفترات التى تعرضت فيها الحضارة فى الشرق العربى للضعف وما تصبو اليه الامة العربية من طموح وآمال عراض فى مستقبل افضل ، فى مثل هذا الخضم من التاريخ والواقع والتردد والامل والاندفاع والطموح علينا ان نبحث عن واقع للانسان العربى فما هو ذلك الواقع ؟

ان التاريخ الحديث اذا صح هذا التعبير يذكر اكثر من حادثة لامة تعرضت لمثل ما تعرضت له الامة العربية فكان اول ما صنعه ابناء هذه الامم التى تعثرت مسيرتها على درب التاريخ هو اعادة تقييم الفرد والمجتمع ورسم الاهداف القصيرة والمتوسطة والبعيدة وذلك لبناء ثقة جديدة فى نفس الفرد واحاطته بأفاق متسعة يستطيع ان ينطلق خلالها وبذلك يواكب هذا الانسان ركب الحضارة فى عصره ويرتفع من ثم الى المسؤوليات التى تتطلبها الحضارة الانسانية فى ذلك الظرف الخاص .

ومن الامثلة على ذلك ما حدث لالمانيا القيصرية عندما انهارت فى الحرب العالمية الاولى فقد اعيد تقييم مركز الفرد وظهرت اتجاهات انتهت الى اتخاذ الاسلوب الذى جعل المانيا قوة ذات أهمية من وسط اوربا وعلى الصعيد الدولى وقد حدث الشئ نفسه بعد ان انهارت تركيا العثمانية وما زال هذا الاسلوب فى اعادة بناء مركز الفرد والمجتمع يتبع فى كل أمة ذات تاريخ عريق يصل جمودها الحضارى الى حد تفقد منه صفة الطواعية للحاضر مما يولد قوة عظيمة

تعصف بالبناء الاجتماعى القائم لكى تفتح سبلا جديدة فى الدوائر المغلقة التى تعيشها تلك الامم .

فهل اعيد حقا تقييم مركز الفرد العربى ورست علاقات جديدة لذلك الفرد تربطه بمجتمعه وبقوميته وتخطط لمسؤوليته بالنسبة للحضارة الانسانية ؟ ان الواقع لا يؤكد لنا أن محاولة التقييم الضرورية قد أخذت طريقها أو قد تم التفكير فيها على الاقل ولعل ذلك يرجع الى فكرة (القدرية العميقة) التى سيطرت على الفكر والحركة فى الوطن العربى فقد افقدت الضربات القوية التى تعرض لها الوطن العربى كل رغبة فى التفكير نحو المستقبل او النظر الى الامتداد فى غد افضل فقد طمست فكرة المستقبل من اذهان معظم ابناء الامة العربية ووقع الانسان العربى بالعيش لساعته حتى ان الكثير منهم كانوا يودون لو انقضت حياتهم باقصر ما يمكن من الزهد والزمن وتفشت بذلك نزعات خطيرة كاللالبالية والانهازمية والتراجعية والبعث اللامجدي وكانت حصيلة هذه النزعات ان تلون الواقع بها فعم عدم الثقة بالنفس أولا وبالغير ثانيا واضطربت المقاييس فى الامة العربية فالانسان الذكى هو الذى يعيش لساعته ويغتم اكثر من غيره ولو كان على حساب الغير لان ثقة الانسان العربى بالمستقبل قد فقدت أو كادت تفقد لذا فهو يريد ان ينتفع بما لديه من الوقت بشكل قد يفوت عليه وعلى مجتمعه فرص العمل لخير يعم الوطن العربى .

ولكن اين هو دور الفكر العربى فى تلك المرحلة المليئة بالتعقيد الضعف فى تاريخ الامة العربية ؟

وحقا لم يكن هناك فكر يستطيع ان يمسك بتلابيب المشاكل التى ادمت اشواكها الواقع العربى فى تلك الحقبة من الزمن لان الوعي فى الامة العربية لم يكن قد وصل الى الحد الذى يؤهل الفكر لكى يصبح قوة دافعة للمفكرون العرب فى ذلك الواقع الزمنى كانوا هم أنفسهم فى تيه فكرى عميق وكان عليهم ان يكتشفوا ذواتهم قبل ان يخططوا للمجتمع العربى ولمسيرته الجديدة لان

المفكرين على طول درب التاريخ والعبقرية هم جزء متمم لهذه المركبات ولكنهم سرعان ما يتميزون عنها وبذلك تبدأ ظروف الزمان والمكان تخضع لهم لتصبح جزءاً من مخططاتهم في سبيل المستقبل الافضل والغريب ان المفكرين في أوروبا بدأوا أنفسهم كجزء من المشكلات التي عاشت في مجتمعاتهم ولكنهم سرعان ما ارتفعوا فوق تلك المشكلات واخذوا يعالجونها عن طريق الفكر اولا ثم انقلب ذلك الفكر الى واقع بعد فترة من التلاقح بين الفكر والمجتمع فجان جاك روسو وفولتير وفونتسكيو هم أنفسهم اجزاء من مشاكل عاشها المجتمع الفرنسى فقد عاشوا في ظل النظم التي كانت تحكم فرنسا في النواحي الاجتماعية والسياسية والفكرية وليس بخاف ان جذورهم العقلية قد امتدت الى الارض التي غذت مشاكل فرنسا في ذلك الوقت ولكن فكرهم اخذ يتجه اتجاها مغايراً للواقع المظلم الذى خرجوا منه وبذلك انفصل روسو وفولتير ومونتسكيو عن الاجواء التي نشأوا فيها وبدأ فكرهم يرتفع فوق تعقيدات المجتمع الذى ترعرعوا فيه وسرعان ما بدأ الصراع بين مجتمعهم التقليدى وفكرهم الجديد انتهى بقيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ولكن لم يحدث الشيء ذاته بالنسبة للمفكرين العرب ويمكن ارجاع ذلك الى الاسباب التالية :

١ - لقد عاش الوطن العربى فى عزلة تامة عن العالم وعلى الاخص فى الفترة التي سبقت دخول العرب الى الحضارة المعاصرة فى منتصف القرن التاسع عشر تلك العزلة المكانية صحبتها عزلة فكرية انعكست على نفسية الفرد العربى فقد عاش ذلك الفرد فى محيط ضيق فرض عليه نوعاً من الكآبة والقناعة وعدم الرغبة فى كل تجديد او تغيير فالفرد فى العراق عاش لنفسه ولاسرتة ولحيه الصغير متصوراً ان العالم ينتهي عند حدود ذلك الحى ويصدق ان يبقى الفرد العربى فى مصر أو سواحل بلاد الشام سنوات طويلة فى قريته دون ان يفكر فى السفر الى المدينة القريبة التي لا تبعد سوى اميال قليلة عن المكان الذى يقطنه • وبعبارة أوضح فقد خضع الفرد العربى قبل ان يدخل الى مسرح الحضارة الحديثة لظروف شاذة لونت تفكيره بقضاء وقدر عجيبين

خلقت منه كمية مهملة تركته في جانب من جوانب الاهمال والعفوية والتأخر !

وقد ساعد على بقاء هذا اللون من السلوك والواقع العربيين سيطرة النفوذ الاجنبي متمثلاً في الحكم العثماني الذي شجع هو الاخر كل ما من شأنه نشر التأخر فكراً وواقعاً لكي يحتفظ بولاء الملايين من العرب للسدة العثمانية العلية و (للسلطان الخليفة) في استانبول •

٢ - وقد تضافرت مع العزلة المكائنية عزلة زمانية فحوأها ان الانسان العربي في تلك الفترة كان قليل الحاجات بعيدا عن شيء اسمه الطموح او التقدم لذا فان أهم ما يحتاجه هو قليل من المعرفة تساعده على السهولة في اشباع حاجاته القصيرة الاجل والقليلة التعداد فمبادئ القراءة والكتابة والعمليات الحسابية البسيطة هي كل ما يحتاجه الفرد العربي ! كما كان يقدره بعض أهل الرأي في ذلك الوقت فاذا خرج الانسان العربي على هذه الحدود البسيطة فانه يعد خارجا على تقاليد مجتمعه لان هذا الطموح قد ينتهي به الى تحطيم ذاته ! واذا تمكن الانسان العربي من أن يكسب من وراء قابلياته وعمق تجربته في الحياة فان الحكمة القديمة لا تلبث ان تطل بعنقها عليه مذكرة اياه بان حبل حياته قصير وان ما جمعه (من تراب الدنيا) لا يلبث ان يتبعثر بعد موته وبذلك اختلت مقاييس النجاح واخذ المجتمع يرسم الخط بين النجاح في العمل وبين القناعة وهدوء البال وراحة النفس وبمعنى اوضح فقد نشأ احتقار عظيم لمن يستغل ذكائه وقابلياته في سبيل تحسين ما يكسبه ماديا وما يحتله من مركز اجتماعي ووصف هذا اللون من السلوك بانه جشع ومحاولة للسيطرة على أكبر نصيب من الحياة الدنيا واصبحت نظرة العامة للاشخاص الذين ينجحون فعلا بانهم من ذوي الضمائر أو الايدي الملوثة، وكان النجاح سبباً والذكاء جريمة والطموح مرض قاتل ! اما من يقنع بالحياة البسيطة فهو الانسان المثالي كما يصوره الفكر القديم • أو هو المخلوق العاقل الذي ادرك بهرج الدنيا وعرف مواطن الضعف في التفكير الانساني فلا يفره شيء على وجه هذه البسيطة لانه يحتقر كل شيء •

ويشعر بالازدرء نحو كل المكاسب مهما كان نوعها مما يذكرني بجماعة القديس (دومنيك) وهى مجموعة من الرهبان اطلق عليهم اسم الرهبان (الدومنيكان أو الفرنسيسكان) كان همهم فى الحياة ان يموتوا وهم احياء ويتم ذلك عن طريق التقشف والزهد ونبد الصفراء والخضراء وبذلك تتخلص الروح من أوشاب البدن واوضار الجسد لتنتقل فى رحلة هائلة سعيدة الى مناهات الغفران التى رسمها دانتى فى قصته الخالدة (الكوميديا الالهية) .

والواقع ان الجيل التقليدى فى الوطن العربى لم يفهم حقيقة وجوده الا من خلال القضاء والقدر فقد تصور الانسان العربى نفسه قبل ان يلج باب حضارة القرن العشرين بانه كائن لا قيمة له بالنسبة لما يحيط به من ظواهر الطبيعة وبذلك فقد الفرد فى الوطن العربى ابرز مميزات الانسان الا وهو بناء طبيعة اجتماعية يسد فيها الانسان الواعى ما يشعر به من نقص عندما يقارن نفسه بظواهر الطبيعة وتعقيداتها فقد احس الانسان العربى بضعف مركزه بالنسبة للطبيعة فخضع بذلك لنوع من الحياة الجبرية القاسية ساعد على استمرارها الحياة الرتيبة التى كانت سائدة بين ابناء الامة العربية وقد يتضح مجال الاختلاف بين الفكر العربى وواقعه من جهة وبين الفكر الاوروبى وواقعه من جهة اخرى فيما ظهر من تباين بين الشرق العربى وبين اوربا فى اول صدام للشرق والغرب منذ الحروب الصليبية ، فقد غزا نابليون مصر وبذلك فتحت صفحة جديدة فى تاريخ الشرق العربى لم يكن لنابليون فضل فى كتابتها وانما يعود الفضل الى ما ظهر من اختلاف فى الميزان الثقافى والاجتماعى بين مصر وفرنسا فى ذلك الوقت فقد هاجم الجيش الفرنسى مصر وكانت فرصة للماليك وهم ولاة الامور فى مصر آنذاك ان يعبروا عن وطنيتهم واخلصهم لتربة امدتهم باسباب الحياة .

والذى يهتم به التاريخ كحركة وكواقف لاحداث متعاقبة ، المظهر الذى عكسه كل من الجيش الفرنسى والماليك فى تلك الحقبة من الصدام الحضارى فقد زود المحاربون الفرنسيون بالاسلحة التى استعملت فى اوربا واعتبرت

بالنسبة لعصرها حديثة وعلى الاخص استعمال البارود سواء على مستوى الجندي العادي او لاطلاق القذائف وابداء التجمعات ولم يكن مفهوم الحرب لدى المماليك كمفهومه لدى الفرنسيين فقد درج المماليك على فهم الحرب وكأنه مسرح تبارى فيه قوى متكافئة يكون الفصل بينها للشجاعة ومن يتحلى بها بالإضافة الى الكرم ورفع النفس واجادة استعمال التراكيب اللفظية للدلالة على ملكة الحافظة والتبوغ الشعري •

وتمشيا مع هذا اللون من التفكير بالحرب كهدف في ذاته والاهتمام بسير الحرب بشكل يطمئن هذا الهدف فقد لبس المماليك في مصر بزتهم الكاملة وصقلوا سيوفهم وخوذهم ثم اسرجوا جيادهم واضفوا عليها العديد من صنوف الزينة بما يتناسب ومكانه الفارس وفوق هذا كله فقد اعتمد المماليك على القدرة الفردية والنزال بين الابطال من ذوي الكفاءة والشجاعة على أساس مخاصمة الند للند ثم بدأت معركة (الاهرام) بين الجيش الفرنسي وبين جيوش المماليك ولم يمض وقت طويل حتى بدأ النيل يحمل جثث القتلى من المماليك وهم بكامل زينتهم الحربية وبذلك انتصر البارود على السيف والخوذة والخيول المرسجة وما أضفي عليها من زينة وبهرج •

والحقيقة ان البارود كان يمثل عصرا يختلف في قيمة الحضارية وفي فكره وواقع حياته الاجتماعية عن ذلك الذي مثله المماليك بملاصمهم الزاهية وعدتهم المصقولة وخيولهم ذات النسل الاصيل • وبمعنى آخر : فان البارود وانصار الجيوش الفرنسية أكد دون شك ان ذلك الجيش المحارب كان يعيش حاضره ويعمل لمستقبله بينما عكس المماليك وجيشهم حياة خاصة بأفراد من بقايا الماضي اوجدتهم الصدقة في عصر أكثر منهم تقدما •

ولم يكن هذا اللقاء بين الحضارات المتباينة بمقتصر على مصر وحدها فقد تأثر العراق هو الآخر بالتفاوت الحضاري بينه وبين اللقاءات الاوربية الاولى حينما وفد اوائل الاوربيين الى العراق كسائحين او تجار اختلفت اهدافهم بين

التفكير فقد تنكر الولاة الذين بعثهم آل عثمان للعراق لكل ما هو اوروبي بدافع
الاجانب وبوصمهم بانهم كفرة وقد ساعد العثمانيون على تغذية هذا اللون من
التجارة والتجسس والسياحة فقد رفعت بعض الشعارات الخاصة بتحريم هؤلاء
عن خوف التلوث بهؤلاء الاجانب ووصفهم (بالنجاسة والخبث) بالاضافة الى ما
يتميزون به من كفر وابتعاد عن القيم الدينية المألوفة في الوقت الذي كان فيه
السلطان العثماني في استانبول يحتمى بحرس اوروبي الاصل ويحاول ان يحصل
عن طريق عملائه في اوربا على كل ما يتوصل اليه الاوروبيون من مخترعات ومن
كل جديد لتسهيل الحياة وجعلها متعة وفائدة للانسان نفسه .

ونتيجة من جراء ذلك النفور ضد الاوروبيين بشكل خاص والاجانب بشكل
نعم ان تلون السلوك الفردي والجماعي لدى ابناء الامة العربية بتردد ممزوج
بالخوف والرهبة والشك تجاه كل ما هو جديد وقد خلفت هذه النزعة من التردد
اثارا لم يستطع عامل الزمن حتى وقتنا هذا من محوها فالتجديد في كل جانب من
جوانب الحياة هو أمر مرهوب وتقتضي الضرورة ان يحارب بكل ما لدى المجتمع
من قوة والشخص الانسان هو الذي يقف حائلا بين كل ما هو جديد في الفكر
والواقع والعمل وبين وصول هذه الابعاد الى الفكر والمجتمع العربيين .

٣ - الحاجات وقتلتها في المجتمع العربي : يمكن ان نعرف الحاجة بانها
دافع تختلط فيه الحوافز الداخلية (ذات الانسان) والخارجية (المحيط الخارجي)
التي تدفع بالانسان نفسه الى اشباع يرضى عليه لونا من الراحة والرغبات
والحاجات الجديدة في الواقع هي المحرك الرئيسي للفرد وللمجموع في آن
واحد ويمكن ان تقسم ببساطة الى نوعين رئيسيين الاول الحاجات الاساسية وهي
المختصة بالاشباع الضرورية للجسم الانسان ثم تليها الحاجات الكمالية وتمثل
هذه الحاجات دون شك القوى الدافعة للفكر والسلوك الانسانيين .

والحضارة بشكل خاص هي حاجة من الحاجات الكمالية بالنسبة للفرد
ولكنها تصبح ملحة عندما يعم الامر المجموع وتبدأ بالفاعل مع التاريخ . فالحضارة

في واقعها عملية معقدة لانها تتأخر في ظهورها على مسرح الحياة الفكرية بعد ان يقطع المجتمع طريقا طويلا من الفهم والتجربة والخبرة وبعد ان يرتفع في ذلك كله فوق الحاجات الضرورية التي لا يعكس اشباعها الا راحة نفسية موقنة •

فاذا درسنا الفرد العربي على اختلاف مكانه في الوطن العربي في الفترة التي سبقت فتح نوافذ الوطن العربي على العالم ذي الحضارة الحديثة نرى اهم ما يميز الانسان في البلاد العربية في تلك الحقبة من تاريخ العرب قلة الحاجات وحتى الضرورية منها فقد كان عامل الشعور بالقناعة يشبع الكثير مما يحتاجه الفرد بشكل ملح وكانت القناعة بحد ذاتها اشباعا لحاجات لم يستطع الفرد ان يتوصل الى تحقيق اشباعاتها • وبمعنى آخر فقد أكد على القناعة للقناعة ذاتها لان حياة الانسان العربي في تلك الفترة التاريخية المتقدمة لم تكن لتتحدى العمل الدائب على اشباع اقل عدد ممكن من الحاجات الضرورية او محاولة توزيع نسبة الاشباع بينها تأكيدا على قناعة الانسان العربي من جهة وشعورا بالطمأنينة النفسية لما يولده السلوك البطيء في نفس ذلك الانسان من راحة وكسل من جهة اخرى •

وقد علل بعض من انحط الى هذا المستوى المنخفض في اشباعه للضروريات من الحاجات بان عمله هذا سيدفع عنه ما قد يصيبه من اذى وما قد يوجه اليه من حسد او انتقاد فقد انقلب الكسل الجسمي الى استرخاء عقلي والى بطء في التفكير وحذر في العلاقات الاجتماعية وبذلك انتقلت تلك المصاعب الناجمة عن البطء والبلادة في اشباع الحاجات الضرورية الى فراغ نفسي كبير تدور فيه افكار تتعلق بالجوع وبالقناعة وبالحسد والحذر والنقد والريبة والشك فقد انقلبت هذه كلها الى عقد نفسية عاشت مع الانسان العربي نفسه واصبح من الصعوبة بمكان استئصالها أو التخفيف من حدتها على الاقل فقد انقلب الجوع من مفهومه الخاص بالجسم وما يتبعه من الحصول على الطعام الى جوع نفسي

يحتاج فيه الانسان العربي وعلى الاخص عندما لا يظهر بمظهر الجائع أو ذلك الذي يحتاج فعلا الى ما يسد هذه الحاجة الضرورية ، ونشأ عن ذلك كله ما نسميه (بالتظاهر) لكي يبدو الفرد العربى على غير حقيقته تجنباً للتقذير او الحسد أو تأكيداً على ذكائه فى تضليل ما قد تمتد اليه من ايادي المجتمع وعيونه •

٤ - ويمكن ان نرجع ضعف الفرد العربى بالنسبة لطبيعته وتقصيره فى بناء حضارته الحاضرة أو اشتراكه بدور ضئيل فى الفكر الانسانى المعاصر الى نوع الحياة التى يحيها هذا الفرد فالزراعة هى محور حياته ومصدر رزقه وبنوته الرئيسى وطبيعى ان الزراعة تعتمد على الارض والمناخ وتقلبات الجو وهى أمور غير مأمونة من جهة، وتصبب السيطرة عليها أو كبح جماحها من جهة ثانية لذا فقد نشأ الفرد العربى تحت رحمة ما يسمى بالطبيعة وهناك واقع فكرى يرى ان الطبيعة والفرد الانسانى يعيشان وفق قوانين تحكم التوازن بينهما فالخصب والجذب والمطر والرياح وما اليها من ظواهر الطبيعة لا تحدث بشكل عشوائى وانما ترتبط بالسكان انفسهم والمخلوقات التى تستغل الارض وتتخذها سكناً وتستثمرها فاذا قل السكان عم الخصب ووفر المحصول وبذلك تستطيع الطبيعة ان تجهز الكثير من الحاصلات مما يسمح بازياد السكان القاطنين فى تلك المساحة من الارض ! ولكن سلوك الطبيعة لا يلبث ان يتغير وعلى الاخص عند ازدياد ما نسميه بالكثافة السكانية وبذلك يحدث الجفاف وما يتبعه من قلة فى الحاصلات مما يجعل امر تجهيز الغذاء للمعد الوفير من السكان ان لم يكن مستحيلاً فهو فى غاية الصعوبة عند ذلك يتفشى الموت بعد ان تعم المجاعة ويسود المرض لكى يعاد التوازن بين الانسان وبين الطبيعة •

ودون شك فان هذه النظرة الغيبية والغبية فى آن واحد هى السبب الرئيسى وراء ملاحظة علماء الاثروبولوجيا المحدثون عند دراستهم للمجتمعات ذات النظم الفطرية فقد وجد قسم كبير من الاثروبولوجيين (علماء الانسان) ان الادوات التى يستعملها بعض السكان الاصليين فى المجتمعات الفطرية بسيطة

الى أبعد الحدود ومكونة من ايسر المواد أيضا فالمحراث خشب وكذلك الفأس
ولما سئل هؤلاء السكان عن سبب البساطة في ادواتهم هذه كان الجواب هو ان
شق (بطن الارض) بآلة حادة لا بد وان يؤذيها في المحل الاول ويوقع اللعنة
على مرتكبي هذه الفعلة الشنعاء في المحل الثاني !

ولعل فكرة الموازنة بين الطبيعة وبين الانسان هي التي اورثت اسلوب
زراعة (النير) المستعمل حتى الوقت الحاضر في اجزاء عديدة من الوطن
العربي ضمانا للمحافظة على التوازن المزعوم •

٥ - ولما كانت الزراعة هي المحور الذي تدور حوله الحياة والفكر
والعلاقات الاجتماعية في الوطن العربي فان بناء الحضارة قد تعرض الى بطء
سديد لان الحضارة في اساسها تتبع من المعرفة والمعرفة تستند على التفكير وهذه
العملية الفكرية بحد ذاتها تتطلب وقتا يستطيع فيه ان ينصرف أو يتفرغ الانسان
لكي يصب عبقريته وذكاءه بشكل عمل فني او فكري يصلح ان يكون لبنه
في بناء الحضارة •

وبعبارة اوضح فان العمل الفكري يقوم على مفهوم (فائض الوقت)
ويقصد بذلك مقدار الزيادة التي تتوفر للانسان في وقته وعلى الاخص عندما
يؤمن حاجاته الضرورية وما يتطلبه من كماليات فاذا تم اشباع تلك الحاجات
في وقت اقصر وبجهد اقل توفر لدى الفرد وقت فائض عما يحتاجه في سد
حاجاته يستطيع ان يستغله في التفكير وفي العمل الحضاري بكافة جوانبه من عقل
وفن وكتابة •

لذا فمن المميزات الرئيسية للحضارة في القرن العشرين ان التقدم الصناعي
قد مكن الانسان من الحصول على فائض من الوقت فلم يبق للحاجة سلطان على
الفرد نفسه وانما اصبح الانسان هو الذي يسيطر على الحاجة عن طريق الصناعة
واخضاع متطلبات الانسان لظروف المعمل التي يمكن التحكم فيها الى حد بعيد •
ونستطيع ان نفهم الفرق بين المجتمعات التي تستهلك وقتها كله في توفير

الحاجات الضرورية كما هو الحال في المجتمعات الزراعية في جنوب شرق آسيا وبالأخص في الهند حيث يقضي الفرد حياته وكل ما يملكه من وقت في سبيل توفير أبسط الحاجات التي يفتقر إليها الانسان وهي الحاجات الضرورية وبين مجتمعات العالم الصناعية حيث يتم اشباع حاجات الافراد باقصر وقت وبأقل تعب ممكن وبذلك يحصل الفرد في المجتمع المتصنع على زيادة في الوقت الفائض ينتفع بها في بناء حضارته وازافة ابعاد جديدة لما عنده من فكر وتجربة عن طريق الاختراع او الاكتشاف •

وهكذا فقد خضع الانسان العربي للطبيعة وللزراعة بشكل خاص وتلونت حياته باسلوب العمل في الارض ولم يبق له من وقت فائض يستطيع ان يخلد فيه الى التفكير والى زيادة حصيلته من العلم والعرفان فقد تميزت الفترة التي سبقت دخول العرب الى مسرح حضارة القرن الحاضر ، بركوند عقلى رهيب بطوأت فيه حركة الفكر والعمل واقتصرت العلوم على بعض الجوانب التقليدية التي لا يقصد من ورائها الا الحصول على قدر من الثقافة تصد منه الثقافة نفسها وأصبح العالم او رجل العلم من أفقر افراد المجتمع لان حاجة المجتمع العربى في ذلك الوقت للعلم لم تكن حاجة كما نعرفها اليوم وانما كانت رغبة سطحية قد يلجأ اليها بعض من يسعفه الحظ عن طريق وجود مكتبة مهجورة في بيته او معرفة رجل له المام فكري ورثه عن اسلافه من الجائز انه يريد الاحتفاظ به لنفسه فلم يكن هناك تعليم كما نفهمه اليوم وانما اخترلت عملية التعليم وما يتصل بها في نقل العلوم والمعارف الى حلقات هزيلة للدرس عن طريق الاعداء والشرح •

والكتب المدرسية هي الاخرى كانت نادرة لان الطباعة لم تكن قد دخلت الوطن العربى بعد فقد كانت اكثر الكتب منسوخة وكان يبالغ في حفظها وخطها والتستر على اماكن وجودها وبذلك انزوت الثقافة في دور قليلة واحتكرتها حفنة من العوائل التي تمكنت من الجمع بين العلم والمال والنفوذ الاجتماعى ويندر

ان يوجد بين عامة الناس من يستطيع ان يكتب او يقرأ فقد كانت هذه المبادئ
الاولية التي تحسب في الوقت الحاضر من ابجديات المعرفة ، وقفا على ثمة معينة
من الناس في الوقت الذي حرمت فيه الغالبية العظمى من ابناء الامة العربية من
القراءة والكتابة وبذلك اعتمد الناس على ذكائهم المحدود وحافظتهم مما أدى الى
تأخر عملية التفكير بوجه عام لان قابلية الذكاء اذا لم تتم فانها ستبقى ضحلة قد
تبدو منها بعض اللمحات ذات المعنى ولكن على العموم سيكون الذكاء اقل بكثير
مما نفهمه عن الذكاء في الوقت الحاضر •

وقد تسبب عن الاعتماد على الحافظة الذاكرة مع قلة تجربتهما وترويدهما
بالمعلومات المطلوبة ان ساد نوع من عدم الثقة بين الناس في المعلومات التجارية
وما اليها من عقود اعتمدت على الكلمة الملفوظة فقط لان الذاكرة ستخون
الانسان حتما وعلى الاخص اذا كان الكسب من العقد او الاتفاق في غير صالحه
وهنا لا بد من تغطية ضعف الذاكرة والحافظة وبدا لجا عامة الناس الى الاختلاق
والكذب ولم تلبث هذه الابعاد السلبية ان طغت على التجارة وحركة الصفقات
في المجتمع وامتد الكذب الى نواحي الزور والبهتان وبذلك تضافت كل عوامل
التأخر هذه لبث الريبة والشك بين افراد المجتمع أنفسهم وتسببت في بطء
الحركة التجارية وانعدام الثقة في السوق فلم تكن هناك مصارف يعتمد عليها
في الاستدانة وانما كان المعول عليه في مثل هذه الحالات هو الرجوع الى ذوى
المال وقيام تعاقد شفوي يعتمد فيه على الكلام او ما نسميه بالثقة غير الموثقة ولكن
الامر قد ينتهى الى عكس ما تهدف اليه الثقة وبذلك يحل التنافر والخصام بين
الاطراف ذات العلاقة ولم يكن القضاء في ذلك الوقت بافضل من روابط العرف
والتقليد بالإضافة الى تفشي الرشوة والمحسوبية في الجهاز القضائي نفسه مما
زاد الوضع سوءا وترك الناس لا يأمنون على حياتهم الخاصة فكيف بهم يطمنون
الى استثمار اموالهم في سوق تغلب عليه الثقة الشفوية والكذب والبهتان والتغيرات
غير المنتظرة •

وقد أدى تجميد ذكاء الفرد العربي وضعف ذاكرته وحافظته الى شعور
بضعف الانسان العربي نفسه وعلى الاخص عند مقارنته بأمثاله من افراد شعوب
هذه الارض فقد شعر المجتمع العربي آنذاك - نظرا لصعوبة المشاكل والتعقيدات
التي احيط بها - بان تأخره قدر محتوم وان هناك فارقا كبيرا بين الفرد العربي
وبين غيره من افراد الشعوب التي تسكن هذه المعمورة وقد أدى فقدان الثقة
بالذاكرة والحفاظة لدى أفراد المجتمع العربي نتيجة سوء استعمال وتوجيه كل
منها الى شعور بفارق كبير عند المقارنة بين الامة العربية وبين غيرها من امم العالم
مما هيا المجال للاستعمار لكي يؤكد على هذه الناحية ولكي يزيد ضعف العرب
ضعفا عن طريق استغلاله لمشاكلهم وتهويله لتلك المشاكل •

فقد لجأ الاوروبيون على اختلاف اهدافهم ووظائفهم والجهات التي ارسلتهم
الى بث الفرقة بين صفوف الامة العربية وتجسيم مشاكل العرب واظهارها بمظهر
ميوؤوس منه فقد بدت الصعوبات التي تواجهها الامة العربية في بدء تعرضها
للحضارة الاوربية ، وكأنها مستحيلة الحل او التخفيف على الاقل مما اربك الفرد
العربي وجعله وكذلك المجتمع العربي في دوامة فكرية واجتماعية خطيرة اوحث
له ظروفها بانه هدف لمؤامرة عظيمة حيكت خيوطها منذ القرون الاولى عندما
طغت الجاهلية على الجزيرة العربية ثم عادت في فترات متقطعة حتى اتصلت
ثانية بالاستعمار الحديث في الوطن العربي وما سبقه من ذل الحكم العثماني
لذا فان الفرد العربي هو فرد ضائع في الشبكات المعقدة والكهوف المظلمة لتلك
المؤامرة المجرورة الاطراف وعليه اذن ان يستسلم وان يعيش في خمول في
الذهن والحركة اذا اراد فعلا ان يبقى في محله عندما تبدأ العاصفة بالهبوب
عليه •

وليس هناك مجال للانكار بان الشعوبية والحركات التي اريد بها تحطيم
القيم الدينية والقومية هي حركات تتصل من ناحية الاساليب بالحروب الصليبية
وبالاستعمار الحديث وان الهدف من هذه المخططات هو استغلال واستعمار

واذلال الامة العربية وابتزاز خيراتها وثرواتها الا ان من غير المسلم به عقليا ان تكون تلك الحركات الشعوبية او الاستعمارية قد خططت من قبل جهة خاصة او مجموعة من رجال الشر همها ان تعمل باقنعة مختلفة لضرب الامة العربية لان هناك اختلافا زمانيا بين كل موجة لثيمة وموجة اخرى فالجاهلية قديمة بالنسبة لتاريخ العرب والشعوبية ظهرت في العصر العباسي الاول ثم بلغت اوجها في الحركات الباطنية بينما نرى الحروب الصليبية تباغت الامة العربية في وقت يختلف عن حركة التتر والمغول التي تعرضت لها حضارة العرب في بغداد سنة ٦٥٦ للهجرة وانقضت فترة طويلة قبل ان تبرز انياب الاستعمار الحديث ويطلع على العالم بمعاهدة سايكس بيكو ووعد بلفور وقبل ان تبدأ المحافل الاستعمارية والماسونية في العالم تخطط لنهب خيرات الشرق العربي وعلى الاخص ثروته النفطية الهائلة وتعمل بكل تصميم على تسميم آراء شباب الوطن العربي • وبدون ريب فان اظهار المؤامرة بالشكل الذي عرضت فيه وبخطوطها وخطوطها المعقدة والممتدة في اتجاهات بعيدة الغور في الزمان والمكان والحركة والمباغنة والاجرام تضع الفرد العربي في موقف الضعيف المستسلم حيال هذا الاضطبوط الضخم وتؤدي في نهاية تلك المعركة غير المتكافئة بين وهم فكري مخيف وبين فرد متطلع متردد الى استسلام كلي للفرد العربي واختفاء للمحافظ الذي يدفعه للحركة والتقدم لانه سيشعر حتما بان خصمه ممثلا في تلك المؤامرة ذات الحلقات الرهيبة لا يمكن ان يجابه من قبل مخلوق ضعيف الارادة والتصميم كما هي الحال بالنسبة له هذا بالاضافة الى ان مكان المعركة وزمانها قد حدد من قبل المؤامرة وخطوطها مما يفقد الفرد العربي دون شك ما يسمى بعنصر المباغنة •

وليس مما يعود بالنفع على الامة العربية ان تززع ثقة الفرد العربي بنفسه ويحاضر امته ومستقبلها عن طريق تجسيم عوامل التحدي التي يجابهها والربط بين حلقات لا تصل بينها الا الوهمية والخيال لغرض لا يخدم في تخطيطه

وفي اهدافه الاضعاف الامة العربية وضرب مكاسبها عن طريق تقليل شأن تلك المكاسب بنظر الفرد العربي وبالتالي دفع هذا الفرد نفسه الى فراغ قاتل يسير به وبالمجتمع العربي نحو الحفر القديمة التي عاش فيها ابان فترات الضعف والظلام التي مر بها الشعب العربي •

٦ - واذا امعنا النظر في الفترة التي سبقت الاتصال بين العرب وبين حضارة القرن العشرين لكي نكون على بينة من تقدير مصاعب المجتمع العربي في ذلك الوقت نرى ان الامة العربية قد انقسمت على نفسها وقد انقسمت كذلك في كل قطر من الاقطار العربية المجتمعات التي تقطن تلك الاقطار وظهرت النزعات المحلية والطائفية تغذيها الدوافع الاقليمية فان الشعور القومي لم يبق محتفظا بقوته كما كان قبلا كشعور يضم تكتلا بشريا كبيرا • ومع وجود الصلات التي تربط العرب كالحضارة والتاريخ والدين والتجارب والاهداف المستقبلية فان بقاء الشعور القومي كقوة سياسية وفكرية تسعى الى اقامة وحدة على صعيد العمل القومي ، مرهون بنجاح الحافز القومي في الحفاظ على قوة التصميم ومرونته في الدفاع عن الوطن ككل ضد التحديات الداخلية والخارجية •

الا ان ضعف هذا الحافز وعلى الاخص بعد الضربات المتتالية التي تلقاها الوطن العربي على يد الصليبيين والترك والمغول افقدت الواقع القومي قوته التي تربط بين اجزاء الوطن العربي وتحافظ على الشعور بالمسؤولية القومية فبرزت اتجاهات سلبية جديدة منها التفكير بالاقليمية والطائفية والمحلية وبمعنى آخر وضع دافع حب الذات والحفاظ على المكتسبات الفردية ضمن الاطارات الضيقة فوق مفهوم العمل القومي وبذلك عاشت الامة العربية فترة من اسوأ فترات تاريخها لا يمكن بأي حال من الاحوال ان تقارن بتلك الفترة التي امتدت من سقوط بغداد على يد الترك الى فتح نواذف الوطن العربي على حضارة العالم المعاصرة ، بالعصر الجاهلي الذي سبق نجاح الرسالة الاسلامية • لان الجاهلية في مفهومها لم تكن وليدة فترة من النضج السياسي والاقتصادي والفكري ما لبثت ان استهلكت

تتفحصها فاسحة المجال لعوامل الضعف لكي تتخبر في تلك التراكمات وتسلمها الى
جيل الضعف والتفكك كما ظهر بالنسبة للعصر الجاهلي ♦

وبكل تأكيد فان هذا الاسلوب في الحضارة والمجتمع لم يكن لينطبق على
العصر الجاهلي بل بالعكس فقد نجح العصر الجاهلي عن طريق انقسام الامة
العربية الى مجموعات بشرية صغيرة مترابطة في مجابهة صعوبات الحياة اطلق عليها
اسم القبيلة ، استطاعت تلك الوحدات الاجتماعية ان تحفظ الشعور القومي وان
تصارع الطبيعة التاسية أولا والعوامل التاريخية السلبية المتمثلة بالغزو الخارجي
ثانيا ♦

الا ان ما حدث للحضارة العربية في أواخر الفترة العباسية هو بحق انهيار
لواحد من أعظم صروح الحضارة في تاريخ الفكر الانساني أما الفترة التي تلت
تلك المأساة الحضارية المتمثلة بالهجوم التتري والمغولي الكاسح على حضارة
المدنية والعرفان بغداد ، فانها اسلمت الامة العربية الى نوع من الاسترخاء
الفكري والبطء في الحركة والحياة مما عاد على العرب خاصة وعلى العالم
وحضارته بأسوأ العواقب ♦

والذي يهمننا من دراسة الفترة المتقدمة هو تبيان اثر تلك العوامل السلبية
في الحركة الحضارية للوطن العربي في الوقت الحاضر ، والواقع ان الامة
العربية في ذلك الوقت بالاضافة الى تمزقها وفقدان ثقة ابنائها بانفسهم وقلة التعليم
والتعلمين في طول الوطن العربي وعرضه فان هناك بعض الظواهر التي يجب
ان نأخذها بالحسبان ونحن بصدد بناء المجتمع العربي الجديد لان بعض
تلك الصعوبات ما زالت تعيشها بكليتها ظلها في المجتمع العربي في الوقت الحاضر
ومن اكثر تلك الصعوبات تأثيرا في فترة البناء الحضاري المعاصرة الايمان
بالاهداف الصغيرة والمتوسطة والتركيز على الفردية واعتبار الانانية والمخاتلة من
ضروب العمل العقلي الناجح والابتعاد عن العمل مع المجموع وفي سبيل المجموع
وسرعة الحكم على الامور بشكل يتراوح بين القبول التام وبين الرفض التام وعدم

الاهتمام بالعلم والمنهج العلمي في التعرف على الظواهر الطبيعية والاجتماعية وفي التهريب من مسؤوليات الحياة وتوقع المكروه قبل وقوعه والظهور بمظهر الحزن الدائمي لانه الحالة التي يجد فيها الفرد العربي نوعا من الطمأنينة والاستقرار النفسي ومن الامثلة على ذلك ان شعر الرثاء وما يتبعه من المراثي ذات الاسلوب الثري تعد بحق التصوير الصادق للنفس العربية الحزينة لان الانسان العربي حينما يرثي يبكي ويؤين غيره فهو يعنى نفسه ويتمثل المصير ذاته غير مفكر بعامل الزمن الذي يفصل بين الذات التي اتقضى نجبها وذاته الحية ♦

وقد اسلمت تلك المفاهيم المرتبكة الفرد العربي الى نوع من الجبرية الممزوجة بقضاء وقدر عجيبين جعلته مترددا امام كل عمل يقوم به وعلى الاخص اذا كان العمل جديدا عليه يتطلب قدرا من الجرأة والاندفاع وتحمل بعض الاخطار التي لا تعرف مقدما ، بالاضافة الى ان ضعف الفرد العربي تجاه صعاب الطبيعة والمجتمع جعلته يبتكر بعض الاساليب التي تعكس خوفه وتردده وعلى الاخص مما هو مجهول لديه او معقد يصعب على فكرة غير الناضج حله ♦

وينعكس التناقض والتأخر في المجتمع العربي آنذاك على مدنه فلم تكن مدنا بالمعنى المتعارف عليه في عالم اليوم فقد خلت تلك المدن من ابسط مستلزمات الحياة الا وهو النظافة ومحاولة ايصال مياه الشرب النقية الى حيث ينتفع منها عامة الناس وقد ازدحمت البيوت بشكل يعكس الاضطراب النفسي الذي كان يعانيه الانسان العربي في فترة الركود الحضاري التي سبقت الاتصال بين العرب وبين عالم القرن العشرين فان البيوت المتقاربة والازقة الضيقة توحى للفرد الخائف المتردد بالراحة اولا وبانه يستطيع ان يجد من يعتمد عليه في سد حاجاته والدفاع ضد ما قد يدهمه من الخارج ثانيا فقد اقيمت الاسوار حول المدن ونصبت الابواب في مداخل الاماكن السكنية لكي توصلد قبل ان ينتهي الهزيع الاول من الليل ويذهب الانسان العربي داخل تلك القواقع في سبات يحاكي به سبات حضارته ثم لا يلبث ان يخرج من تلك الاعماق الميتة عند

اشراق الشمس ولكنه لا يخرج الا الى واقع مظلم أيضا .
فالحياة هي الاخرى مليئة بالركود والموت البطيء فالفقر هو الصفة الغالبة
على الحياة اليومية حتى انه أصبح فنا وطريقة تمارس خلالها بعض المراسيم
الخاصة في محاولة لتقوية البدن عن طريق اتباع اصول تعلم الفقر وعيش الفقراء
وهي فكرة ولا ريب ثم استيرادها من جنوب شرق آسيا وعلى الاخص الهند حيث
يكثر الفقر وينتشر الفقراء وتصبح مشكلة الفقر فلسفة لها درجاتها ومريدها
واعلى تلك الدرجات مرتبة (اليوجا) أو فناء الذات الانسانية في بحر من الذات
المطلقة ذات النور الغامر .

ويمكن ان نربط بين ازدياد عدد الفقراء وانتقال الفقر من دافعه الاقتصادي
الى دافع غيبي وظهور الكثير من الدراويش في الفترة التي سبقت التطور
الحضارى الجديد في الوطن العربي ، وبين تردى الاوضاع الاقتصادية وظهور
الكثير من الخرافات التي سيطرت على الفكر والحياة في الوطن العربي .

وقد تعدت تلك الخرافات مجال العمل الغيبي وارتباطها بالسحر والاهام
الى السيطرة على جوانب المجتمع وفكرة المختلفة فالامراض مهما كان نوعها
يمكن ان ترجع الى بعض الارواح الشريرة التي تدخل جسم المريض ويمكن
طردها عن طريق بعض النذور والهبات وترتيب جلسات خاصة يلعب فيها السحر
والشعوذة الدور الاول .

ولعل اعمق ما قامت به تلك الخرافات وجلسات السحر من اعمال تركت
سلبيتها بشكل مشوه على الفرد والمجتمع في الوطن العربي محاولتها علاج
الامراض العقلية وتعذيب اولئك المرضى بحجة اخراج الارواح الشريرة مما
ولد لدى الناس مفاهيم خاطئة عن الامراض الجسمية والعقلية ما زال بعضها
موجودا في الوطن العربي اليوم كحفلات الزار في مصر واوكار السحرة
والمنجمين وفاتحي البخت والقال في العراق والاردن وسوريا ولبنان والسعودية
وامارات الخليج العربي .

اما محيط العلاقات الاجتماعية فإنه لم يسلم في تلك الفترة الحضارية المتقدمة للامة العربية من الركود العث والتفكك فقد كان مفهوم التربية قائما على السيطرة التامة من قبل الوالدين على ابناءهم منذ فترة الولادة حتى ساعة الوفا وكان كل شذوذ عن هذه القاعدة يعتبر خروجا على القيم والتقاليد وقد أدت تلك النظرة الضيقة للعلاقات الاجتماعية في وحدة حيوية كالاسرة الى كبت الكثير من الطاقات لدى الناشئة وحرمتهم كما حرمت المجتمع من جهودهم لان تلك الجهود قد وزعت بين الحفاظ على ما كبت في لاشعور جيلهم وبين مساهمتهم الشعورية في الحركة والبناء الاجتماعيتين •

هذا بالاضافة الى نشوء الافكار الخاطئة عن المشابهة الكلية بين جيل الابناء وجيل الاباء فالابن يجب ان يكون نسخة مصغرة من ابيه وكلما كان الشبه قريبا بين الابن وابه ان لم يكن بينه وبين اجداده على امتداد شجرة العائلة ، كلما ازدادت قيمة الابن في نظر المجتمع •

وبهذا نظر الى الابناء وكأنهم سلع ينتجها معمل الاسرة وكلما كان الانباج مطابقا للنسخ الاصلية ومواصفاتها كان نجاح الاسرة في عملها ذا وزن اجتماعي ثقيل ومقبول دون ان يشعر الاباء بان ابناءهم خلقوا لجيل غير جيلهم وعليهم ان يعلموا اولئك الابناء الخطوط العريضة للحياة ويزودوهم بالقيم بشكلها المثالي ثم يتركونهم لانفسهم وللحياة لكي يتم التفاعل على نحو يؤمن للجيل الجديد ما يرجوه من دراسة وفهم وتجربة •

ومن غير المألوف ان يخرج (نفر) من ابناء الجيل الجديد على ارادة اباؤهم في مسائل مثل الزواج والعمل أو حتى في أمور بسيطة كالكلام والسفر ومحاولة الجديد في الطعام والملابس والسكن لان الفرد من الابناء اذا حاول ذلك فإنه لا بد وان يتوقع موتا اجتماعيا لانه يعيش في مجتمع تقليدي تحكمه العادات والعرف التي يخطط لها وينفذها ويعاقب من يخرج عليها الاباء ومن يعضدهم من الجيل السابق •

فليست هناك عقوبات كما هي الحال في مجتمع الوقت الحاضر لان القانون من ظواهر الحكم المدني في الوقت الذي كان فيه المجتمع في الفترة التي بدأت

بها التجربة الحضارية للامة العربية في الوقت الحاضر يخضع للتقاليد وسلطانها
وكانت العقوبات تقوم على النبذ او المقاطعة او العزل وقد يلجأ الى النفي
والترحيل .

وقد يحاول بعض من يريد ان يتفقه في فهم المجتمع والحركة الاجتماعية
فيدلي بأراء منها ان المجتمع العربي في تلك الفترة المبكرة من تاريخه الحضارى
الحديث على الرغم مما اتابه من عوامل الضعف فان هناك عوامل قوة كانت تسند
ذلك المجتمع من وقت لآخر فخصوع الفرد العربى للطبيعة وان كان استسلاما
في حد ذاته الا انه فسح المجال امام الطبيعة لكي تختار بين ما هو ضعيف فقنله
وما هو قوى فتبقى عليه لذا فان ارتفاع عدد الوفيات بين الاطفال في الوطن
العربى في تلك الفترة التاريخية التى اتسمت بانها على الهامش بين الركود
واليقظة جنب المجتمع العربى كثيرا من حالات الضعف في تركيبه البشرى وزوده
ببناء سكانى قوى ولكن هذه الفكرة وان كانت صحيحة من الوجهة النظرية كما
أكد بذلك العالم الاجتماعى المعروف (برترم سوروكن)^(٧) الا ان واقع
الوطن العربى في تلك الحقبة التاريخية لا ينسجم ومفهوم هذه الفكرة النظرية
لان عدد الوفيات لم يكن يقصد من ورائه القضاء على الضعفاء واولئك الذين لا
يستطيعون ان يواصلوا حياتهم متحملين ما قد يصادفهم من مشاكل فقد تركت
الامور بما فيها مسألة الاسرة وتربية الاطفال تخضع لعوامل الصدفة والغيب وما
يفرضه المجهول من تحديات على واقع الشعب العربى في بدء حياته الحضارية
المعاصرة .

(٧) برترم سوروكن : عالم اجتماع امريكى اوربى الاصل اهتم
بالاجتماع الانساني وصلته بحركة التاريخ والحضارة لذا تقف اراؤه في فلسفة
التاريخ على صعيد واحد مع ابن خلدون وفيكو ونيبور وتوينبى . ويعتقد سوروكن بان
التاريخ يسير في خطوط دائرية ولكنها ليست متواصلة الحلقات فكل دائرة
للتاريخ والحضارة تمر بثلاث فترات اطلق عليها بالتتابع اسم المرحلة
الاحساسية والحسية والمطالعة وعنده ان الحضارة الاوربية الحديثة تسير في
مرحلتها الثانية مما يجعلها تخضع للارباك والفوضى والتفكك وقد ظهرت آثاره
في مؤلفات عديدة منها مشاكل عصرنا ونظراته في فلسفات التاريخ ويمكن
اعتباره من أكبر الادمغة الحية .

ومن وجهة النظر الاكثر واقعيه فان انجاب الاطفال فى الوطن العربى يعد دليلا على رجولة الفرد العربى وما منح من بركة فيما يحصل عليه من عدد الاطفال خلال فترة حياته وبالعكس فان قلة الاطفال يجعل رب الاسرة فى وضع مضطرب اجتماعيا ويبدأ المجتمع ينظر اليه وكأنه اقرب للعقم فى حياته الاجتماعية منه الى النجاح وما يتبعه من انجاب عدد كبير من الاطفال وليست العبرة فى ان يعيش او يموت اولئك الاطفال ولكن مجال المفاضلة يستند بشكل رئيسي على العدد الذى تمكن للانسان ان يصل اليه فى اقصر فترة ممكنة وكأن الامر سباق عددي لا يقصد من ورائه الا اثبات رجولة الرجل من جهة والحصول على استحسان المجتمع من جهة ثانية •

اما تربية الاطفال وتنشأتهم ومن ثم تعليمهم فان هذا كله متروك الى عامل الصدفة والرحمة فى آن واحد وكثيرا ما تقع بعض الكوارث التى تنتهى بفقد احد الابوين او كليهما وعندها يبدأ الاطفال فى اتباع خطوط اجتماعية منكسرة مما قد ينتج عنه العديد من المشاكل ان لم نقل الجرائم الاجتماعية كل ذلك حدث بفعل غياب ما نسميه اليوم بالتخطيط الاجتماعى ووجود تضج اجتماعى يواكبه وعلى الاخص عند انجاب الاطفال فالمقياس ليس فى عدد من يتم جلبهم الى هذا العالم ولكن العبرة بتربيتهم واعدادهم لحياة افضل تعود بالنفع عليهم وعلى الانسانية بشكل عام •

ويقرب هذا التفكير فى انجاب الاطفال فى الوطن العربى مما هو متعارف عليه فى الاقطار النامية فى افريقيا واميركا الجنوبية وجنوب شرقى اسيا فان زيادة عدد المواليد وخصوصا فى مناطق مزدحمة بالسكان كالهند يدفع اليه شعور الرجل بتأكيد رجولته من جهة والتماسا للبركة والخير الذين سيعمانه حتما عندما يملأ بيت زوجته بالاولاد من جهة اخرى •

وتصطدم اكثر المشاريع والمخططات الاقتصادية الهادفة الى زيادة الانتاج بازدياد النسل الى حد مخيف الامر الذى يجعل من عمليات التخطيط الاقتصادى مجرد مظاهر وواجهات للكسب السياسى •

ولما كانت حياة الزراعة هي الغالبة على الفكر والمجتمع والحياة في الوطن العربي في مفتح حضارته المعاصرة فان الصناعة كانت بدائية حقا تذكرنا بالفترة التي سبقت النهضة الصناعية في اوربا بشكل عام وفي بريطانيا بشكل خاص فالبيت كان الوحدة الصناعية الاساسية في المجتمع وكانت هناك صناعات تعتمد بشكل رئيس على الجهد العضلي وعدد من انواع النسيج ومحلات لانتاج سلع محدودة لان الانتاج نفسه لم يكن يوجه للسوق وانما كان يهدف الى سد حاجة الاستهلاك ويندر ان تتناسب السلع بشكل متوازن مع معدل الطلب عليها ولم يكن العمل هو الاخر قد بدأ يكون جزءا رئيسا في العملية الانتاجية فالعمال اكثرهم من غير الماهرين وهم يصعدون درجات المهارة عن طريق السنين التي يقضونها في العمل نفسه وقد يصل الفرد منهم الى مراكز تهيب له الاشراف على سير العمل وعندئذ يصبح مهيمنا على عدد معلوم من العمال يمارسون المهنة تحت اشرافه ولكن مثل هذه المراحل المتقدمة في سلم النضج الفني يصعب ان يصل اليها العمال الا بعد ان يكونوا قد سلخوا من حياتهم القسط الاكبر واضافوا الى جهدهم الكثير من العرق والدموع •

ومما يميز الصناعة في العصر الحاضر هو انتشار الوعي العلمى اولا وازدياد الطاقة الانتاجية ثانيا ثم انتشار المعلومات الخاصة بالاختراعات وبالوسائل الكفيلة الى تطوير السلع المصنوعة وتسهيل استعمالها والحصول عليها ويتم ذلك عن طريق تبادل الخبرات الفنية في البلد الواحد او على صعيد العالم عن طريق بعض المنظمات العالمية التي تسعى الى نشر وتعميم الخبرات الفنية كما هو ملاحظ في عمل منظمة الثقافة او العلم والتربية المعروفة باسم (اليونسكو) وبذلك يتسع مجال الاستفادة من المخترعات على نطاق شامل في الوقت الذي يعمل فيه المخترعون بروح جماعية لكي يسند بعضهم البعض الاخر في مسيرتهم الصعبة نحو ارياد الاماكن المجهولة في العمل والحياة والاستفادة من الخبرات الماضية والحاضرة في سبيل تسخير الطبيعة والمادة لخدمة الانسان في حياته ومجتمعه وحضارته •

هذه هي في الواقع رسالة العلم والعلماء في العصر الحاضر فما هي رسالة العلم والعلماء في مفتح حضارة الوطن العربي المعاصرة والحقيقة ان العلم كما نفهمه في عالم اليوم لم يكن لينطبق على مفهومه لدى الامة العربية عندما بدأت تتصل بحضارة القرن العشرين فقد خلط انذاك بين العلم والتعلم ويعني الاخير الاطلاع على اكبر قسط ممكن من المعرفة المتوفرة بينما يعني العلم فهم مجاميع من الحقائق لها انظمتها الخاصة ومنهجها في البحث العلمي او الموضوعي ♦

ويعود هذا الفهم الخاطيء للعلم الى انعدام الوعي العلمي بين افراد الامة العربية في تلك الفترة المبكرة من حضارتها الحديثة اما العلماء فقد ندر وجودهم الا في بعض المجالات الادبية حيث تسود الكتابة الكلاسيكية ذات القوالب الجامدة وما زال بعض الكتاب في العراق ومصر وبلاد الشام يحنون الى الايام الخوالي حينما كانت الكتابة وفقا على مجموعة حبثها الصدفة بطابع العلم والمعرفة تكتب وفق اصول وقوالب لا يقصد من ورائها المعنى كما هو دأب الكتابة في الوقت الحاضر وانما كان القصد ابراز البراعة الكتابية وتنميق الالفاظ وتزيينها وحشوها بالمحسنات اللفظية والكلمات ذات الجرس الموسيقي دون ان يكون لتلك التراكيب الجامدة اى انعكاس على حقل المعنى ♦

ومن وجهة النظر الاجتماعية فان الكتابة الكلاسيكية في صدر حضارة العرب الحديثة تعكس دون شك بما فيها من ركود وجمود ومبالغة ، الضحالة والركود والجمود والتفكك في المجتمع العربي انذاك فقد اصبحت المعاني والمواضيع ذات الخطورة الفكرية والاجتماعية قليلة او نادرة بسبب تفشي الروح الفردية وانعدام المسؤولية الجماعية لذا فقد انطوى الكاتب العربي على نفسه وبدأ يقطع الوقت في زحزقة الالفاظ واختيار بعضها دون البعض الاخر او حشر اكبر عدد منها وعلى الاخص في صدر مواضيعه الكتابية او عندما يقارب على نهاياتها لكي يغطي على تفاهه الامور المعالجة ويسبغ عليها ثوبا من الاحترام والتقدير مؤكدا على ذاته في الوقت نفسه ♦

ويضاف الى تردى المستوى والوعى العلميين فى الفترة المبكرة من الحضارة العربية الحديثة نقص كبير فى الايدى العاملة الخيرة والمدربة وعدم فهم العمل كقوة لبناء المجتمع وعلى الاخص الجوانب التى تحتاج الى كد متواصل فى سبيل نجاح العملية الانتاجية بمراحلها المختلفة من صناعة وتوزيع واستهلاك.

لقد نظر الى العمل فى الوطن العربى فى ذلك الوقت على انه صفة كمالية لا يلجأ اليها الا عند الضرورة القصوى كما نظر المجتمع الى الاشخاص الذين يعملون بجد نظرتهم الى مرضى يعدون ايامهم الاخيرة لذا فهم يحاولون ان يحصلوا على أكبر قسط من المتعة فى اقل وقت ممكن وقد وصف اولئك العاملين الدائبون بانهم يجمعون (حطام الدنيا) عن طريق انهاك اجسامهم وعقولهم لذا فقد نشأ نوع من البطء على صعيد الاعمال التجارية والصناعية فى المجتمع وتصدرت بعض الاقليات الغربية عن الامة العربية قائمة الاعمال بكافة جوانبها واخذت تستخدم العديد من ابناء الامة العربية اولئك الذين قنعوا بان يكونوا تحت امرة رجال تلك الاقليات شرط ان لا يتحملوا اى قسط من المسؤولية فهم يتقاضون اجورهم يوميا دون ان يكون لهم ارتباط بتبعات العمل او النتائج المترتبة على تلك التبعات .

وقد ساند الاستعمار الاوروبى تلك الاقليات وجعلها فى مراكز حساسة بالنسبة للتجارة والادارة او الهيمنة على مرافق الرئيسية فى الوطن الوطن العربى والانتفاع بها لصالح تلك الفئات مع افقار واذلال الغالبية العظمى من الشعب العربى .

اما الخبرة الفنية ونعني بها فهم دقائق العملية الانتاجية ومحاولة الابداع بالنسبة لوقت الانتاج او كمية السلع المنتجة ونوعيتها فعلى الرغم من افقار المجتمع العربى فى صدر حضارته المعاصرة الى قسط كبير من النضج الفنى فى الصناعة وادارة الاعمال فقد ضنت القلة ذات الخبرة المكتسبة عن طريق التجربة بان تفتح تجربتها لغيرها من المبتدئين وممن يمارسوا نفس المهنة فقد عد التفوق من الاسرار

وحوال بعض من يملك مفاتيح المعرفة في مجالات العمل التجارى والصناعى ان يحتكر تلك المفاهيم لنفسه خوفا من ان تنتشر بين الاخرين وبذلك يفقد الفرد مكانته من جهة ، ورهبة من ان فتح مجال التعلم والاستفادة للاخرين قد يؤدى الى ابتداء المهنة وكثرة الداخلين فى نطاق سلكها) من جهة أخرى •

والواقع ان دافع هذا الاسلوب العكسى فى العمل هو قلة مجالات العمل ووقدان ثقة الانسان العربى بنفسه فى ذلك الوقت بالاضافة الى توقع المكروه كالمريض والموت وخوفا من ان تؤدى الصدفة السيئة الى ان يفقد الفرد قابليته على ممارسة العمل وبذلك تدخلت عوامل كالكذب فى تقدير ما يمكن ان يقدمه أو ينتجه الفرد الكفوء واصبح ذلك الفرد الذى يجب ان يفاخر بانجازه يؤكده دوما وفى كل مناسبة انه فى آخر قائمة المتسجين وهو لا يقدر من عجزه أو مرضه أو حسد الاخرين ان يبلغ المستويات التى يجب ان يبلغها اولئك الذين يتمتعون ببنفس طاقاته •

ونظرا للصعوبات التى جابهت الامة العربية فى صدر اتصالها بالحضارة الحديثة واستغلاق بعض تلك الصعوبات على فهم الفرد العربى وقلة الوعي العلمى وما يتصل به من توفر مستوى صحى تعرف عن طريقة اسباب الامراض والوقاية منها واستعمال اساليب التقييم وتهيئة الظروف المناسبة للحد من انتشار الامراض ومعالجتها عن طريق توفير الادوية والمستشفيات واماكن العلاج ، فقد وجد الانسان العربى نفسه وجها لوجه امام مشاكل فى الحياة والمجتمع لم يستطع ان يتصدى لها بمفرده ولما لم يكن هناك عقل جمعى ناضج يتمكن هو الاخر عن طريق القانون او النظام ان يحمى الفرد ذاته فقد وقع الانسان العربى ضحية للسحر والشعوذة والخرافات والاوهام والحسد والغيبة والعين الشريرة والمفاجئات غير المتوقعة •

لم تكن تلك الافات الاجتماعية لتمارس فى بعض الحالات الخاصة كما هو متبع فى مجتمع عالم اليوم وانما انقلب السحر والشعوذة وما يتصل بهما من

خرافات واوهام الى اساليب منظمة في الخداع والتغريب والتستر على الجرائم وارهاب الافراد عن طريق التنبوء بالمكروه وقد مارس اولئك المشعوذون تجارتهم المحرمة واساليبهم المجرمة مستغلين جهل النساء في الوطن العربي وتأثير المرأة على الرجل وبذلك اصبح الشعب العربي نهية لمجاميع من المشعوذين وممن اتخذوا من التنبوء بالغيب او انزال العقاب عن طريق السحر وسائل لممارسة نفوذهم في المجتمع ذاته وقد ساعد الفقر المدقع وتوالي النكبات كالامراض والابوئة والاحداث المروعة في تمكين الشعوذة والمشعوذين من السيطرة الكلية على الطاقات النفسية والعقلية وبذلك بددت تلك القوى واقلبت ضد صالح المجتمع بدلا من ان تكون عاملة في سبيل خير المجتمع وفي فترة من اخرج الفترات في حياة الامة العربية •

هذه هي صورة مصغرة لما كان عليه الوطن العربي وامته في الفترة التي فتحت فيها نوافذ العرب الفكرية والاجتماعية على الحضارة الاوربية فلقد ساد التردد وعدم الثقة بالنسبة للفرد وللجماعة وكانت هناك جبرية عميقة على صعيد الوطن العربي من اقصاه الى اقصاه تمنع كل محاولة للتجديد تساندها العناصر التقليدية من المتفعين من افراد الجيل الغابر •

وقد رفعت شعارات مثبتة للمهم مثل (ليس في الامكان احسن مما هو كائن) وان القدر هو الذي ابتلى الامة العربية بما ابتلت به ولا طريق لها الى الخلاص وان آخرة العرب آتية عما قريب حيث لا يجدي اى ضرب من العمل فالاستسلام هو الذي يجب ان يطفى على الفكر والركود على المجتمع والبطء في الحياة والعمل فقد فقد العرب تقريبا كل امل لتغيير الاوضاع المتردية التي كانوا يعيشونها وقع كل منهم بما وجد عليه واخذ الفرد العربي في تلك الفترة من احداث الامة العربية يتوقع الموت في شبابه المبكر لكي يتخلص مما يمكن ان يقع له من مكروه وتراه دوما يحن الى الماضي في شعوره ولا شعوره ويتمثل الحنين اللاشعورى في رغبته في البكاء حتى في اشد ساعات الفرح وتوقعه المكروه

فى اعلى مراحل الارتياح لان بساط عيشه سيفنى حتما لذا فالواجب عليه ان يبكي نفسه وهو حي لان الموت سيحرمه فرصة البكاء .

وقد اثر الحكم العثمانى بشكل سلبي على الاوضاع فى الوطن العربى فالحاكم العثمانى هو سلطان زمنى وخليفة دينى الا انه يجمع الى ذلك حبه للهوى والعبث ويميل بطبعه الى ترك امور الادارة والحكم تجري حسب ما تشتهى توجهها تلك اليد غير المنظورة التى نادى بها الاقتصادى الانكليزى المشهور آدم سميث حينما كتب كتابه (ثروة الامم) . اما الولاة العثمانيون فانهم كانوا نسخا مشوهة لسلاطنتهم فى الباب العالمى وكان همهم ان يحصلوا على اكبر نصيب من المكاسب لكى ينعموا بالحياة فى اخريات ايامهم وكان اسلوبهم فى العمل الادارى لا يتعدى التفرقة بين القوى المختلفة التى يتكون منها المجتمع الذى وضعه القدر والظروف السيئة تحت سيطرتهم فاذا بلغ امر التفرقة حدا لا يمكن الرجوع عنه عزل الوالى العثماني واحيلت مزايدة مقاطعته بعهدة من يدفع اعلى عطاء بين المتكالبين على السلطة وبذلك يتم شراء حكم الولاية من سلطان السلاطين فى استانبول الذى يسارع الى اصدار (فرمان) التولية وبذلك يصبح المغامر الجديد هو الوالى الشرعى وتدور الحرب بين الوالى المقيم وذلك المرسل من الدولة العلية فى الاستانة وطبيعى أن الولاية نفسها هى ساحة الحرب وان الضحايا هم من ابناء الوطن العربى .

فان سوء تصرف العثمانيين فى الوطن خلال الفترة التى وضعت الاقدار هذا الوطن تحت سيطرتهم والتى امتدت قرابة ٤٠٠ سنة ، قد اضافت مساوىء جديدة الى ما كان ينوء المجتمع العربى به من صعوبات فى الحياة والمجتمع فقد تسبب الحكم العثماني فى التأكيد على الروح العشائرية خصوصا فى العراق وأوجد الكثير من الانقسامات الطائفية والعنصرية كما حدث بالنسبة لبلاد الشام وسواحلها هذا بالاضافة الى اختفاء وحدة الحكم مما أدى الى تباعد بين المشرق العربى وبين المغرب العربى .

وهناك حقيقة لا بد من ان نؤكد عليها ونحن بصدد ايجاد محصلة فكرية
تصلح ان تكون منطلقا لبناء فكري عربي جديد يدعم قيام مجتمع جديد يرتفع
الى مستوى مسؤولياته العربية والانسانية ، هي ان بعض المهتمين بالفترة العثمانية
واثرها في تاريخ العرب عامة يؤكدون بان العثمانيين قد اهملوا شؤون تركيا نفسها
فكيف يتيسر لهم ان يقدموا جهودهم القليلة والمبعثرة لكي ينتفع بها ابناء الوطن
العربي في اقطار بلادهم البعيدة عن الاستانة ؟ الا ان هذا السؤال لا يثبت امام
مناقشة علمية منظمة فالاستعمار بكافة انواعه امر لا يجادل في رفضه لانه تسلط
مهما دعت الظروف اليه فقد اثبت التساهل في كل ما من شأنه الاستعانة بالقوى
الخارجية الى وضع العديد من الاثقال فوق كاهل الشعوب التي تقبل بان يسيطر
عليها فقد عانى الوطن العربي مما ابتكرته عصابة الامم مما يسمى بالانتداب ولم
يستطع التخلص منه حتى في الوقت الحاضر فكيف لسيطرة كالحكم العثماني
حاولت ان تخضع كل شيء لحكم فردي بغض يستمد شرعيته من شخصية
ضعيفة هي شخصية السلطان ، ثم ان الضعف اذا كان من صفات الادارة والحكم
المركزي وقد ظهر اثره في حاضرة الحكم العثماني فكيف يحاول العثمانيون
ان يسيطروا على اقطار تبعد الاف الاميال عن عاصمة ملكهم ثم هل هم اوصياء
على العرب أو غيرهم من القوميات ؟ او هل يمكن اعتبارهم جزءا من القدر الغاشم
الذي يضع العرب دوما في منخفضات الصعيد التاريخي ، ليحكم عليهم بالعقم
الفكري والتفكك الاجتماعي والبطء في الحياة والحركة ؟

ومما يرتبط بالحقيقة السابقة أن نظام الحكم في الدولة العثمانية مع كونه
اعتمد على الاستعمار والسيطرة المطلقة في ربط الاجزاء المختلفة التي كونت
الدولة العثمانية فان صلته بالعرب كانت صلة خاصة اختلفت عن غيرها من صلاته
بالقوميات الاخرى فان السلطان العثماني بعد ان فقد قوته ونفوذه الشخصي الذي
مكن سلاطين فترات القوة من آل عثمان ان يضمنوا استمرار حكمهم لجا
السلاطين الضعفاء الى مخططات سياسية يستطيعون بواسطتها ان يسندوا حكمهم

المنهار وكان من نتائج تلك المخططات الجديدة في دعم النظم السياسية المهتمة
شعار (الجامعة الاسلامية) الذي رفع في فترة السلطان عبدالحميد الثاني ولم
يكن هذا السلطان بمتدع للشعار الذي رفعه لان سلاطين آل عثمان اعتبروا
أنفسهم الخلفاء الشرعيين الذين يحق لهم ان يحملوا اسم خلفاء المسلمين وبذلك
وقع الوطن العربي في ارباك لم يستطع ان يتخلص منه الا بعد ان تبخرت تلك
الشعارات وظهرت النزعات العلمانية في تركيا الحديثة ولكن السبيل الذي انتهجه
السلاطين العثمانيون ومحاولتهم دعم عروشهم الضعيفة عن طريق استعمال مساند
دينية تمثلت فيما ذكرناه من شعارات ومحاولات تلتها : اهمها اعلان (الجهاد
المقدس) وهو أسلوب اتبعه الخلفاء العثمانيون لمباغته الدول الاوربية وارهابها
عن طريق تخويفها بالجهاد الذي يمثل تضافر جهود المسلمين من اقصى الغرب
الى اقصى الشرق حيث تقع (تخوم البلاد الاسلامية) في الهند وجنوب شرقي
آسيا وحيث يهب المسلمون كرجل واحد مضحين بالنفس والنيس في سبيل نصره
الاسلام متمثلا في شخص الخليفة العثماني !!

ومهما كان الاثر الذي تخلف عن طريق مزج الدين بالسياسة خلال
الفترة التي قضاها العثمانيون في التسلط ومحاولاتهم لدعم تنظيماتهم السياسية
والادارية المنهارة وظهور الفارق الكبير بين الشعارات التي رفعوها بين واقع
تصرفهم كافراد وكحكام وظهورهم على الصعيد الخاص بمظهر يتنافى وما
يظهرون به امام العامة كسبا للشرعية والاسناد الذي كانوا وعلى الاخص في
أواخر ايام الدولة العثمانية في اشد الحاجة اليهما ، فان الكثير من ابناء الوطن
العربي بدافع من اخلاصهم للقيم الدينية تمسكوا بالخلافة وعدوا الخروج عليها
خروجا على المسلمين وبذلك فقد كان العرب تحت الحكم العثماني بين قوتين
جاذبتين احدهما تحاول دفعهم في طريق يضمن لهم التحرر من النير العثماني
والتخلص من مساوىء آل عثمان في الادارة والحكم والخروج من المآزق التي
عاشها الوطن العربي مفكك الاقطار تحكمه قوى التخلف والخرافات ويسوده

الفقر والجهل والمرض وبين قوة جاذبة اخرى تحتم على العرب الخضوع للخليفة العثماني الذي حاول ان يمثل في شخصه مركز (خليفة المسلمين) مما جعل طاعته واجبة على كل فرد مهما بلغ بعد مكانه عن حاضره الخلافة وعلى الفرد نفسه ان يضع ولاءه للسلطان الخليفة فوق كل ولاء وان لا يجاهر بعادوته أو كسر اوامره أو الانحياز الى اعدائه والا عد خارجا على اوامر الخليفة وكسرا للقيم التي تحيط بالخلافة وما تتطلبه تلك القيم من طاعة وتمسك بتنفيذ الاوامر والقرارات التي تصدر عن الخليفة نفسه !

هذا التناقض بين متطلبات الواقع وبين واجبات الخلافة زاد ارباك الحياة والفكر والمجتمع في الفترة التي رزح العرب فيها تحت النير العثماني وبذلك ارتفعت الصيحات من كل جانب لايجاد طريق جديد يفتح امام الامة العربية أفقا يتناسب وحضارة العرب في الماضي ومسؤوليتهم في المستقبل فقد انحدر الوطن العربي الى اوطأ مرحلة في مؤشرة الحضارى وكانت الحاجة ملحة الى التغيير الجذرى الشامل ووضع العرب على درب التقدم ثانية وعلى الاخص بعد ان تأثرت اوروبا بالكثير من الهزات الفكرية والاجتماعية اهمها الثورة الفرنسية التي اثبتت مع فكرها الثوري ان الصلة بين الحاكمين وبين المحكومين لا تعدو ان تكون صلة تعاقدية وهذا التعاقد نفسه يتنازل بموجه المحكومون عن جزء من حقوقهم في سبيل ضمان وسط افضل يستطيعون فيه ان يعوضوا بشكل أئسر عن تلك الحقوق التي تنازلوا عنها *

اما العقد فانه يكون بين طرفين الاول المجتمع وافراده والثانى السلطة واجهزتها وهذا التعاقد نفسه هو الذى يزود السلطة بقاعدتها الشرعية ويمنحها السند لوجودها واستمرارها فى الحكم ، فالسلطة اذن مسؤولة فيما تعمل وتتخذ من قرارات امام المجتمع الذى منحها حق الحكم فاذا اخلت السلطة بشروط التعاقد فان للمجتمع الحق فى الانتفاض والثورة على السلطة واذا احتها عن مكان قوتها والايان بطرف يستطيع ان يحترم ويسير حسب نصوص التعاقد *

وقد وجدت مثل هذه الآراء في كتابات جان جاك روسو وعلى الأخص كتابه (العقد الاجتماعي) كما ظهرت في آراء كاتب آخر من فرنسا له أثر كبير في الفكر والواقع السياسيين هو مونتسكيو ومؤلفه (روح القوانين) الذي أكد فيه على تقسيم السلطات وجعل من كل سلطة رقياً على السلطة الأخرى في سبيل ضمان سير هذه السلطات وفق متطلبات عملها السياسي والإداري والقضائي وحسب ما تقتضيه ضرورات واهداف العمل الاجتماعي •

وكان من نتيجة انتشار تلك الآراء في فرنسا أولاً وأوروبا ثانياً أن بزغ فجر تفكير سياسي جديد يحاول أن يعيد تخطيط الصلات بين الفرد والمجتمع وبين كليهما والسلطة •

وكمحصيلة للفكر والواقع السياسي والاجتماعي الذي تكون بفعل نجاح الثورة الفرنسية وعلى الأخص على صعيد الفكر الثوري فإن موجة من المطالبة بحقوق الإنسان قد ظهرت في أوروبا وأخذت تدق بید عنيفة ابواب الشرق الأدنى فقد تسللت هذه الحمى الجديدة إلى الدولة العثمانية وتأثر المفكرون وخصوصاً من أبناء الجيل الجديد بتلك المبادئ والآراء القادمة من القارة الأوروبية، وسرعان ما تأثر المثقفون من أبناء القوميات بما بشرت به الثورة الفرنسية من ضمان لحريات الأفراد والحق في الثورة على السلطة •

ومن الغريب حقاً أن تتفق مبادئ الثورة الفرنسية مع التفكير القومي الذي يقصد منه التأكيد على حقوق الفرد في وسط يتفق وإياه من أوجه عديدة منها لغته وتاريخه ومعتقداته وآماله والالام التي تعرض لها ومن المؤكد أن ظهور الشعور القومي في أوروبا والذي بلغ أعلى مراحل في القارة الأوروبية عام ١٨٤٨ إنما يمثل حلاً وسطاً بين مبادئ الثورة الفرنسية من جهة وبين مطامع نابليون من جهة أخرى فالفرد لا يريد أن يحصل على حقوقه كاملة في ظل حكم غريب عنه ولكنه يريد أن يتمتع بالحرية في ظل حكم يمثل القومية التي اشتق منها ذلك الفرد •

وقد اثرت مبادئ الثورة الفرنسية في الحرية والاخاء والمساواة وكذلك للشعور القومي الذي ساد اوروبا بعد ان انحصر ظل الحروب النابوليونية عنها في اثاره الشعور بالتححرر ممزوجا بالقومية لدى الكثير من القوميات التي اخضعها الظروف للحكم العثماني فقد هبت تلك القوميات لكي تحرر شعوبها مما ترزح تحته من ظلم واستبداد وتعسف وما يرتبط بهذه القوى السوداء من فقر وجهل ومرض وتأخر .

وطبيعي ان تلك القوميات في نزوعها الى التححرر والمسؤولية القومية لابد وان تعتمد على مثقفيها ممن اتاح لهم الظرف والفرصة كي يطلعوا على الفكر الاوربي وما حدث في واقع ذلك الفكر من تغيرات وكانت القومية العربية من القوميات السابقة لاتخاذ موقف جديد تجاه متطلبات التطور والتجديد في الفكر السياسي العالمي ولكن حافز القومية العربية لم يلبث ان اصطدم بعقبات كثيرة منها الانقسامات والحدود التي تركت آثارا عميقة في نفوس الافراد وجعلت ظروف العمل المشترك بين المثقفين من العرب امراً له صعوبته ، ومن جهة اخرى فان التكوين الفكري لدى مثقفي العرب في تلك الفترة اختلف عن مثيله لدى العامة فان القاعدة الشعبية في الوطن العربي كانت تصر على ان الخلافة هي النواة التي تتكفل حولها كل آمال الشعوب الاسلامية بما فيها الامة العربية وان أمل العرب يتركز في خلافة عادلة تستطيع ان تضع الامور في نصابها وبذلك تنزيل الكثير من المظالم التي كان يشكو العرب منها ثم ان السلطان الخليفة له شرعية مستمدة من القيم الدينية لذا فان العمل ضده يعتبر خروجاً على القواعد المألوفة ان لم يكن جريمة في حد ذاتها بالاضافة الى الايمان الشديد بالقضاء والقدر وان التغيير لا يمكن ان يحدث في الوطن العربي لان الحياة قد خطط لها وقدر للعرب ان يعيشوا هذا اللون من الحياة فالتدخل في شؤون التخطيط المقدر لا يعني الا فشل اولئك الطامحين في محاربة المجتمع الممثل بتقاليد والقدر الممثل بقوة جبريته وسيطرته .

وفي ظل هذه الآراء المتضاربة وفي الوقت الذي أخذت منه الدولة العثمانية تضع هي الأخرى بين ما نصبه رجال الأطماع في أوربا ممثلين بسفراء الدول الأوروبية في الأستانة من مصائد لأقطاع أجزاء من الدولة العثمانية التي أطلق عليها تعبير (الرجل المريض) وبين فشل حزب الاتحاد والترقي في تحقيق أهدافه التي أكدت على بناء مجتمع أفضل لتركيا العثمانية والتي لم تلبث أن انقلبت تلك الأهداف إلى سياسة عنصرية بغضبة سميت بسياسة (التتريك) أو السياسة الطورانية التي صبت كل غضبها الناتج عن فشلها في تحقيق ما خططته من غايات في المستقبل انقلبت إلى أسواط الهبت فيها ظهور القوميات العديدة المكونة للدولة العثمانية بالإضافة إلى ظهور شبوح الحرب ووق ناقوس الخطر في أوربا التي تكالبت في أطماعها لأقتسام توابع الدومة العثمانية •

في خضم كل هذه الأحداث فكرت مجموعة من مثقفي الأمة العربية في إيجاد تفاهم بينهم على الصعيد القومي وتذويب الحدود المصطنعة والقيام بعمل عربي مشترك يمكن الأمة العربية من نفص غبار الذل عنها والدخول إلى حضارة القرن العشرين وقد اختير مكان الاجتماع في باريس عام ١٩١٣ وقد أطلق على ذلك الاجتماع العربي اسم (المؤتمر العربي الأول) وقد حاول المؤتمر بعد أن استعرضوا تاريخ الأمة العربية ونظروا بعين خاصة إلى حاضرها وفكروا في مستقبل العرب أن يوجدوا قاعدة فكرية سليمة يستطيع الفكر العربي المشترك أن يقيم صرحه عليها ومن خلال التفاعل العربي المشترك على صعيد الفكر الموحد تتمكن الأمة العربية من اتخاذ خطوات مشتركة في سبيل تقارب أفضل بين أقطارها لا يلبث أن يتحول إلى تفكير سياسي موحد في المستقبل وبذلك تسير الأمة العربية في الطريق السليم الذي حادت عنه عندما تهدمت حضارتها في آخر الفترة العباسية واتبعت السبيل المسدود نفسه خلال بقائها تحت النير العثماني •

وقد ناقش المؤتمر العربي الأول آراء متعددة منها ما يساند بقاء الوطن

العربي تحت الحكم العثماني ومحاولة التفاهم مع الدولة العثمانية وعلى الاخص
في تلك الفترة التي تعرضت فيها الحكومة العثمانية لامتحانات قاسية على الصعيدين
الداخلي والدولي •

اما الرأي الثاني فانه كان يفضل ان يخطط للامة العربية وفق مفاهيم
جديدة تبعد بموجبها عن ارتباطاتها بالدولة العثمانية لكي تنتهج الطريق الذي
يتفق ومطالب المجتمع العربي في حريته العاجلة واهدافه في الحياة الفضلى في
المستقبل فقد اكد اصحاب هذا الرأي على ان الارتباط بالدولة العثمانية باى شكل
من الاشكال قد يعرض التجربة المراد تطبيقها لانتقال الامة العربية مما هي عليه
من التردى والضعف والتأخر، الى خطر الانتكاس وبالتالي يحرم الوطن العربي
من فرصة مناسبة يستطيع فيها ان يبعد عن كاهله الضغط والاستغلال والتسلط
العثماني •

وقد حاولت آراء اخرى في المؤتمر متأثرة بالخط التقليدي ان تترك كل
شيء الى عامل الوقت مع اتخاذ قرارات عامة لا تنحاز الى اى الجانبين المتباعين •
والحقيقة ان المؤتمر العربي الاول في باريس على الرغم من قدمه واختلاف
الظروف المحيطة به وبالامة العربية عما يحيط بنا من صعاب وتعقيدات في
الوقت الحاضر فان المشكلة التي جابهت المؤتمرين في باريس عام ١٩١٣م هي نفسها
تجابه المثقفين العرب اليوم في كافة الاقطار العربية • وملخص هذه المشكلة هو: ما مقدار
الانحياز الذي يمكن ان يلتزمه العرب نحو كل من جانبي الفكر الذي يجمع
بين التقليد والتراث وبين القوة الفكرية الجديدة في المجتمع العربي والتي
تطالب بان ينصرف التفكير العربي بلكيته نحو ميدان العلم والفلسفة بمفهومها
في اوربا مع بناء علاقات اجتماعية جديدة تأخذ بنظر الاعتبار الحاجات المستقبلية
للامة العربية القائمة على الرغبة الملحة في التقدم وما يتصل به من تصنيع وتغيير •
وفحوى فكرة الجانب الذي يريد ان يتجه نحو اوربا بلكيته يعتمد على
مفهوم خاص في التغيير الاجتماعي هو ان المجتمعات التقليدية لا تستطيع ان تبقى

موزعة بين القديم والحديث عند محاولتها بناء تراكيب اجتماعية جديدة ومن الأفضل لهذه المجتمعات ان تتجه بقول جديدة لا تحمل من تبعات الماضي الا وراثتها الطبيعية في الوقت الذي تسعى فيه الى التنفس بجو اجتماعي وفكري جديد وبذلك تستطيع المجتمعات المتطلعة نحو التقدم ان تقضي على عاملين أساسيين قد يتسببان في فشل تجربة التغيير الاجتماعي بكاملها الا اول التردد بين القيم القديمة وتقيضتها الجديدة وما يتصل بهذا التردد من بطء في اساليب العمل والوقوع في الكثير من اخطاء التنقل بين القديم والحديث • والثاني الخوف من الردة الاجتماعية والفكرية نحو المجالات التقليدية وهذا امر محتمل الوقوع وعلى الاخص في مجتمعات تتمتع بفترة طويلة من العمر الحضارى تتضاءل امامها فترة الحاضر القصير الاجل مع غموض ملامح المستقبل •

اما اصحاب المدرسة التقليدية فانهم يؤكدون على ان المجتمعات تمر بادوار من الضعف والقوة وان تلك التي تمتلك الحضارات القديمة لا يمكن ان تنحاز الى متطلبات العصر الحديث بكليتها لان قوى الجذب للماضى اقوى من تلك التي تدفعها نحو الحاضر والمستقبل لذا فان أفضل السبل للتغيير الاجتماعي هو عدم التغيير والابقاء على التراكيب الاجتماعية والفكرية كما هي وذلك ضمانا للابقاء على مكاسب المجتمع المتوارثة ودفعنا لما قد ينجم عن التغيير الاجتماعي من مشاكل ومصاعب قد تؤثر فيما يسمى بلغة علم الاجتماع (بالتوازن الاجتماعي) وتعصف بالمجتمع في جو لا يتناسب والخطوط التقليدية لتفكيره وواقعه •

واذا جاز لنا ان نسمي كلا من هذين الجانبين باسم مدرسة فكرية فان المدرسة الاولى يمكن ان يطلق عليها اسم (المدرسة التجديدية) بينما نطلق على المدرسة الاخرى تعبير (المدرسة التقليدية) او (الكلاسيكية) وواقعا ان كلا من هذين الرأيين ظهر اثره في وقت مبكر قبل التصادم الفكري العربي في باريس عام ١٩١٣ وما زال يظهر في فترات متقطعة وعلى الاخص عندما تجد حاجات ملحة لايجاد أنماط اجتماعية جديدة وعلى الاخص في اعقاب التغييرات السياسية في الوطن العربي •

الفصل الثالث

العرب بين التجارب والنكسات الحضارية

العرب أمة قديمة فى اصولها الحضارية والبشرية فقد ورثوا تراث الحضارات المعنية والسبائية والحميرية فى اليمن من جهة وحضارات الفرات والنيل وأرض كنعان وفينيقية من جهة ثانية وقد تقطر نتيجة لهذه الوراثة التاريخية الضخمة عطر حضارى انتقل من جيل الى اجيل آخر وهذا العطر وان احتفظ بتأثيره الحضارى الا انه فقد الهياكل التى يستطيع ان يترك طابعه عليها فقد تعرضت الامة العربية لنكبات حضارية وتاريخية وسياسية اضعفت الابنية التى تتمكن من ان ترفع الشعلة الحضارية المتوارثة •

ولعل اهم النكبات على الصعيد الحضارى التى تعرضت لها الامة العربية هى انهيار سد مأرب فى اليمن المثلث الخصب من شبه جزيرة العرب فان اندثار الحضارات التى قامت فى ذلك الجزء من الوطن العربى اضعفت من الناحية الاستراتيجية حضاريا وواقعا الاندفاع العربى نحو افريقيا من جهة والاتصال بآسيا من جهة اخرى لان اليمن تمثل فى الواقع همزة الوصل بين شبه جزيرة العرب وبين افريقيا ثم تشكل بنفس الوقت جسرا للعبور الى آسيا وجنوب شرقها بشكل خاص ، الا ان انهيار حضارة المثلث الخصب فى شبه جزيرة العرب ا فقد العرب القابلية فى استغلال مركز اليمن الاستراتيجى وجعلهم يتجهون نحو الشمال بدلا من ان يرتادوا أرض القارة الافريقية ويقوموا بعملية استكشافية رائدة لا تقل عما قام به الاوربيون الاوائل من اكتشاف للقارة الامريكية او استراليا ومن المؤكد ان الحضارة العربية لو تمكنت من الاستمرار بارض اليمن فان العرب سينقلون الى دولة بحرية من الدرجة الاولى مما يترتب عليه قيام تصميم عربى للتوسع عن طريق استخدام السفن البحرية والسير بها فى جميع الاتجاهات حيث تكشف اراض جديدة تكون محطات للتجارة والفكر فى آن واحد •

الا ان فشل الحضارة العربية في جنوب الجزيرة وعلى الاخص في اليمن حال دون استمرار قوتها ذات الدفع الحضاري العالي ووجه العرب نحو الحركة عن طريق استخدام القوافل وواسطتها الرئيسية الجبال بما تتصف به من البطء في الحركة وكثرة ما تتطلبه من جهد لحملها على السفر على الرغم من قصر المسافة التي تقطعها في السفرة الواحدة وليس هناك من شك بان القول الذي يصف الجمل بكونه سفينة الصحراء لا يستطيع ان يعوض عن السفن الحقيقية التي تمخر عباب البحر وتعود بالكسب المادي والمعنوي على الامة التي تسيّر تلك السفن في خدمتها •

ومجمل القول ان العرب لم يستطيعوا خلال تاريخهم الطويل ان يبشروا قوة بحرية لها القابلية على الحرب والتجارة توصلهم الى مركز البرتغال او جمهوريات ايطاليا الجنوبية وبذلك اضاع العرب فرصا حضارية سنحت لهم لكي ينشروا الحضارة العربية ويحصلوا على مواد خام لتشييد صروح حضارية تختلف الى حد كبير عن تلك التي خلفوها بعد ان انقلبوا من حياة المغامرة البحرية الى حياة السير والتنقل بشكل جماعات في صحراء جرداء لا تقودهم حركتهم تلك الا الى واحة للكلاء او مكان يستطيعون ان يستريحوا به من عناء سفرهم الطويل •

وقد فوت العرب فرصة ثانية في حياتهم التاريخية لكي يصبحوا دولة بحرية عندما وصلوا الى شمال افريقيا فقد كان جل اهتمامهم ان يتوسعوا في اليابسة وان يتركوا التوسع عن طريق البحر فقد احرق طارق بن زياد القائد العربي السفن بعد ان وصل الى شاطئ جزيرة الاندلس ويدل هذا العمل على قلة دراية بالنسبة لاستراتيجية الحرب البحرية •

أما من وجهة نظر التكوين الحضاري فإن العرب في شمال افريقيا شأنهم شأن القبائل العربية القديمة اتصفوا بالتردد في اتخاذ البحر سبيلا حضاريا يستطيعون بواسطته ان يكسبوا علما وتجارة في الوقت الذي كانوا هم في مركز يمكنهم من تصدير ما عندهم من فائض حضاري والاستفادة مما لدى الامم الاخرى وذلك عن طريق التفاعل الحضاري معها عن طريق الحرب

إذا كان الاختلاف كبيرا بين القيم الحضارية العربية وتلك التي يراد التعامل معها أو التجارة إذا كان هناك مجال للفاهم على وسائل متبادلة للكسب التجاري والاستفادة من تقايض السلع الحضارية والمادية •

وليس يخاف ما للبحر من أثر في انتعاش الحضارة من جهة وتزويدها بتفاعلات حضارية من جهة أخرى ثم بالتالي خلق الأجهزة السياسية وانظمتها وما يتبعها من جهات مختصة في شؤون تمويل الرحلات والأشراف عليها وإيجاد أسواق لتصريف السلع التي تتعامل بها بما يعود بالفائدة على أفراد الدول ذات النفوذ البحري ويساعد على تكامل بنائها سياسيا واقتصاديا •

وإذا قارنا بين الحضارة اليونانية في القديم وبين الحضارات التي سبقتها وعاصرتها نرى أن اليونانيين استطاعوا أن يكونوا رجال بحر قبل أن يتدربوا على الحركة والعمل في اليابسة وبذلك أخذت اليونان القديمة أحسن ما في الشرق من حضارة ولولا السفن اليونانية ورحلاتها في البحر المتوسط لما استطاعت الحضارة اليونانية القديمة من تطعيم فكرها الحضاري بما كان للشرق وخصوصا في مصر من إبعاد حضارية عميقة وناضجة •

وبالفعل فقد بنيت الحضارة اليونانية التي سبقت ظهور المسيحية بحوالي ثلاثة قرون على ما نقلته السفن اليونانية من فكر شرقي ورجال وبضائع ولولا هذه الحركة السريعة للنقل البحري لما استطاعت اليونان أن تحصل على فكر الشرق العربي القديم وأن تضمن لنفسها سلعا ورجالا يقومون بالعمل والجهد بينما يفكر اليونانيون في مسائل تخص الفلسفة وما ينصل بها من علم وما يترتب عليهما من امتدادات فكرية تبلورت فيما كتبه أفلاطون وأرسطو وأخذت تنتقل من جيل إلى جيل متحدية الزمن والإنسان فهي تعيش في كل عصر وستظل تملك القابلية على الحياة في المستقبل •

وبما أن الحضارة في الشرق العربي القديم كانت حضارة يابسة بالدرجة الأولى فإنها اعتمدت على الزراعة وإن احتلت التجارة جانبا ضئيلا من حياتها

الاقتصادية وعلاقتها السياسية • بالإضافة الى ان الحضارة اليابسة تستدعي جهدا لتثبيت الاسس الحضارية عن طريق استنزاف الموارد الطبيعية للارض نفسها لكي يصبح مستطاعا اشباع الحاجات المتكاثرة لسكان الحضارات ذات التجمعات البشرية الهائلة والأفان الحرب امر لا محالة منه لكي تخفف الضائقة عن البشر انفسهم ويعود التوازن بين الانسان والطبيعة الى سابق عهده •

وتبعا للحضارة على اليابسة وهي الصفة التي تميزت بها حضارة العرب فان وحدة الحياة الاجتماعية العربية اعتمدت اعتمادا كلياً على فئة قليلة من الافراد تقوم وروابطها على الدم والقرابة وقد سميت هذه الوحدة الاجتماعية باسم (القبيلة) •

وهذه الظاهرة الاجتماعية المتمثلة بالقبيلة نفسها لم تكن امراً عفويًا وانما كانت ناتجا طبيعيا لحياة اليابسة التي اتبعتها الحضارة العربية خلال فترات الطويلة • ومن غير المشكوك فيه ان القبيلة كلما قل عدد افرادها كلما ضمنت لنفسها حركة سريعة وسط طبيعة قاسية واستطاعت في الوقت نفسه ان تقيم توازنا بينها وبين ما تجود به الارض الجرداء مما لا يكفى الا الضروريات لادامة حياة القبيلة •

وقد نشأ نتيجة اختزال التركيب السكاني عبر الحقب المختلفة للحضارة العربية الى وحدة صغيرة هي (القبيلة) ان انصفت العلاقات بين افراد القبيلة أنفسهم بنوع من الرابطة القوية واصبح الولاء للقبيلة فوق كل اعتبار وتنتج عن ذلك ان افراد هذه الوحدة الاجتماعية يجب أن يساعد بعضهم بعضا الى حد هدر حقوق الاخرين تأكيداً على مبدأ التضامن ضمن نطاق القبيلة نفسها •

ولابد لمثل هذه القبيلة من توجيه يضمن استمرار العالائق الاجتماعية والاقتصادية بين افرادها وبذا اصبح على رأس كل قبيلة شخص توكل اليه المهام الخاصة بجوانب الحياة المختلفة ويكون قضاؤه جازماً دون ان يعترض عليه من قبل أفراد القبيلة أنفسهم •

وقد نشأ عن ظهور القبيلة كوحدة اجتماعية صغيرة ان سادت بين العرب أنفسهم روابط اعتمدت قبل كل شيء على صلة القرابة والدم وكلما كانت تلك القرابة قريية اصبح من الواجب ان يكون سلوك الافراد منسجما وما نسميه بالتقاليد القبلية ، وقد اصبحت تقاليد الحياة القبلية على مر الزمن الحضارى اعرافا حففت ودافع عنها العرب على اختلاف واقعهن المكاني وكأنهم يدافعون عن حياتهم لانهم فى الحقيقة يدافعون عن وجودهم كأفراد فى قبيلة وان اختلف واقعهن المكاني والقطر الذي تتحرك او تميل الى الاستيطان فيه مما اضعف الشعور القومي لدى الكثيرين من العرب واتجه بولائهم صوب قبائلهم او وحداتهم الاجتماعية التي تشعب العديد من حاجاتهم وتوفر لهم عنصر الاطمئنان والحماية بصرف النظر عما يتهددهم من اخطار .

أما شيخ القبيلة ذو الشخصية المتنفذة فانه ظل يمارس نفوذه دون ان يكون هناك ما يمنعه من ممارسة سيطرته على كل فرد من افراد قبيلته وما يملكونه او قد يملكونه فى المستقبل وبذلك نشأت فكرة التسلط من قبل ذوي النفوذ على اولئك الذين يخضعون لامرتهم وقد ازداد التسلط طبعا بازدياد الحاجة اليه نتيجة ضعف الرباطات القبلية بعد ان جنحت بعض القبائل نحو الاستقرار وبذلك بدأ الشيخ يتحول بين ليلة وضحاها الى حاكم سياسى تقمص سلطة الملك او الحاكم المتنفذ ولكنه ما زال يحمل فى قرارة نفسه مخلفات شيخ القبيلة وما يتصل بتلك المخلفات من نفوذ وتحكم .

وقد احتاج الحاكم الجديد وعلى الاخص بعد ان اتسعت التنظيمات البشرية التي يتسلط عليها الى قوة تدعمه تمثلت قبل كل شيء فى انجاب العديد من الابناء الذين يؤمنون للحاكم سيجا قويا ضد من تسول له نفسه العبث بحكمه او التعرض لهيبة سلطانه مما ادى الى نشوء ما يسمى (بالحریم) وان لعب مركز (الحریم) دورا سلبيا فى القضاء على الحاكم نفسه او تنصيب من يستطيع ان يقرأ افكار اولئك المتنفذين فى دنيا الحریم

وبذلك يضمن لنفسه السلطة •

وهكذا فقد عاش مبدأ التسلط مع الحضارة العربية في ادوارها المختلفة فلم تسلم منه القبيلة الصغيرة التي اتخذت الحل والترحال وسيلة لاثبات وجودها في الحياة والواقع كما اثر نظام التسلط نفسه على التشكيلات السياسية عندما انتقل التنظيم الاجتماعي من مستوى القبيلة الى صعيد الدولة ولم يطرأ تغير على شخص الحاكم وسلطته ما خلا اعتماده على جماعة من ابناؤه والمقربين اليه يتخذهم سنداً للذود عن سلطته ولتمكينهم في المستقبل من ان يرثوا السلطة والسلطان •

ونعود ثانية الى مفهوم الحضارة ذات الجذور البحرية فنؤكد بأن الحضارات الاوربية في القرون الوسطى على الرغم من الركود في المجتمع والفكر ووقوع الفرد الاوربي تحت سيطرة الكنيسة والاقطاع وانعدام سبل الحركة والحياة عدا الزراعة التي عول عليها لسد الحاجات الضرورية وتأكيد الصلة بين التابعين والاقطاعيين ، في مثل هذا الجو الاسن الذي افتقر الى اتفه تعبير يعكس الحياة قامت دول وجمهوريات استطاعت ان تصير البحر الابيض المتوسط بحيرة ايطالية وتمول مغامرة توسعة هي « الحرب الصليبية » التي دامت اكثر من اربعمائة سنة مما يثبت دون تردد النتائج الواقعية لسيطرة جمهوريات ايطاليا الجنوبية على البحر واستخدامه كواسطة للتوسع والتجارة •

وفي الفترة التي تلت القرون الوسطى برزت اهمية البحر وخاصيته الحضارية بشكل اوضح فان بريطانيا هي اشد الاقطار الاوربية فقراً وأكثرها حاجة الى المعونات والصدقات الخارجية فقد وجدت الجزر البريطانية في معزل عن القارة الاوربية مما يزيد في مرفقها سوء واحتياجاتها ضرورة ولما كانت القارة الاوربية نفسها في تلك الفترة المتميزة بالاصلاح الديني والاضطراب السياسي والفكري في شغل شاغل عن جزر منفصلة عنها كالجزر البريطانية فقد شرعت انكلترا في استغلال البحر وبالفعل استطاعت ان تثبت حجاج محاولاتها هذه عندما هزم الاسطول البريطاني القوة البحرية الاسبانية

متمثلة في اسطولها « الارمادا » أي الذي لا يقهر ، مما اكسب بريطانيا
وملكتها اليزابيث الاولى سمعة اوروبية ودولية مكنتها من بسط نفوذها
الاستعماري وانجاح عملياتها في القرصنة الدولية فيما وراء البحار . وقد
حاول نابوليون الاول ان يكسر شوكة بريطانيا بفرض حصار اقتصادي عليها
الا انه فشل نظرا لمركز الاسطول البريطاني في الحرب والتجارة الدوليتين
وانتهت سياسة التصدي الذي اتتهجها نابوليون الاول الى وقوع معركة
(ابي قير) التي تحطم فيها اسطول نابوليون واضطره هذا الفشل العسكري
في عرض البحر وبعد ان تبخرت احلامه في بناء امبراطوريته في مصر ان يعود
ثانية الى فرنسا في باخرة للفحم خوفا من قطع الاسطول البريطاني المنتشرة
في البحر الابيض المتوسط آنذاك .

وفي القرن العشرين لعبت الاساطيل البحرية والتجارية الدور الاول في
نجاح سياسة وتجارة الدول التي تملكها واصبح عنصر المفاضلة بين دولة
واخرى في مجال التقدم الصناعي تقوم على اساس ما تبنيه من سفن
ذات حمولات كبيرة وعلى الاخص بعد ظهور عابرات المحيطات وناقلات
النفط الى حيز الوجود ، وبذلك اضحى لزاما على اية دولة تحترم
نفسها ان تؤمن لها اسطولين تجاري وحربي يتفقا وما تريد تلك الدولة ان
تنجزه في مشاريع اقتصادية او تفكر فيه من مخططات في دنيا السياسة يكون
لها وزنها فقد تستغل القوة البحرية في الكسب السياسي بمجرد التلويح بها
وبما لها من طاقة مدمرة .

فمن المؤسف حقا ان الحضارة العربية على مر عصورها افتقرت الى
القوة البحرية والتجارية التي تفتح امام العرب انفسهم ابواب المعرفة عن
طريق السفر والتجربة كما تعمل على تطعيم الفكر العربي والحركة
التجارية بالكثير من اسباب النمو والحياة .

فالحضارة العربية اذن « حضارة يابسة » تميزت ارضها بالجفاف مما
اخرزل سكانها الى مجموعات صغيرة تستطيع ان تتحرك بيسر وسهولة وان
خضعت لسيطرة مطلقة يفرضها رجل بمفرده تقترض فيه الحكمة والمعرفة

والسداد في الرأي والعمل مما مهد التربة السياسية لظهور الحكم
الفردى الذى تمثل بالديكتاتورية والتسلط .
اما الميزة الثانية للحضارة العربية فهي انها حضارة فئة من الناس من
ذوى الحظوة والجاه ومن يحسنون القول والتصرف فى مجالس الملوك
واصحاب النفوذ والمال مما جعل العلم والمعرفة وقفا على تلك الحفنة من
أتباع الرؤوس الحاكمة تزين بها بلاطاتها لكى تفاخر بها الامم وكان رجال
العرفان دمي او مصاييح للزينة توضع فى مجالسها عند الحاجة اليها فى
الوقت الذى يغط العامة من الناس فى سبات عقلى واجتماعى عميق .
وليس هذا ما يميز الحضارة العربية فقط فقد كانت الحضارة اليونانية
فى اوجها فى الفترة التى سبقت ظهور المسيحية باربعة قرون وقفا على جماعة
التزمها ذوو المال والنفوذ فى المجتمع اليونانى بشكل عام والاثينى بشكل
خاص . فقد كان افلاطون فى اكثر من مرة مستشارا سياسيا لحاكم
سيراكوز ومن الغريب انه فشل فى عمله هذا وان ارسطو اشتغل
مهذبا لاسكندر المقدونى وغيره من ابناء الملوك والحاكمين لكى يتمكن من
السير فى خطته فى الكتابة والتأليف . أما روما فان قضاتها ورجال
القانون فيها كانوا ملتزمين من قبل الاباطرة واصحاب المال والاقطاعيات .
الا ان ردود الفعل لهذا السلوك من قبل رجال الفكر ما لبثت ان سارت
فى اتجاه معاكس واخذ ذوو المعرفة فى التمتع بقسط اكبر من الاستقلال
ولعل امتزاج المسيحية بالتصوف والافلاطونية الجديدة فى العصور الوسطى
قد قضى الى حد بعيد على السبيل الذى سلكه رجال المعرفة فى ربط
انفسهم بعجلة السلطة والمال بينما بقى الفكر فى الحضارة العربية خاضعا
للسلطة وسيفها وذهبها لان الحاكم قد مثل بشخصه كل ما يخضع الفرد
العادى والمفكر لذا فان طاعته واجبة على كل من يسكن منطقة نفوذ
السلطة والا اعتبر الاستقلال الفكرى تحديا او خروجا على « وجوب
الامتثال » مما يترتب عليه اتهام اصحابها بالخروج على القيم الاجتماعية
والاعراف المتبعة فلما عرض اهل الفكر والرأى الى عقوبات .

اقسامها التنكيل واقتل •

وقد تسبب هذا الضغط من قبل السلطة على الفكر والمفكرين فسي ظهور دنيا من الشائعات والتقولات وجدت لها تربة ملائمة لدى العامة من الناس اولئك الذين يمتصون ما يقال لهم فاما ان يستنكروه او يتفقون معه وقد يظهرون لا ابالية غبية تاركين الامور برمتها الى القضاء والقدر علما بان الاحداث تصلح نفسها وتتعهد كل منها بامر الاخرى دون الحاجة الى تدخل من الناس مثقفهم او عاميهم والا وصل الفساد مع تلك الايدي التي عبثت بما لا يعنيهها فهي ولا شك ستنال عقابها العاجل او الاجل •

ومن افدح النكسات التي تعرضت لها الحضارة العربية في تاريخها الطويل الحروب الصليبية والغزو التتري وكلاهما يعكس دون شك ما وصلت اليه الحضارة العربية من ضعف وتدهور بعد أن مرت بفترة تكاملها الحضارى لذا فان الحروب الصليبية والغزو التتري ليسا الا اختبارين من التاريخ نفسه لمدى القوة المرونة التي تتمتع بها الحضارة العربية في أعقاب فترة طوبلة من تماسكها الحضارى •

أما واقمهما التاريخي فانه يختلف عن التاريخ نفسه كحركة عامة ذات روح مستقل وانما يتأثر الواقع بالأبعاد التي تتركها عوامل الزمان والمكان والقومية أو الوطنية على الحدث نفسه وبذلك يخضع الحدث للظروف المكونة له اكثر من اتباعه الحركة التاريخية في التقاطها لامتداد الانسان مادة وفكرا في فراغ من الزمن والعبث ورسم مفهوم للتاريخ على ضوءها يرقى فوق الاعتبارات الطبيعية التي تمد الحدث بعناصره الاولية

ومن وجهة نظر الواقع التاريخي فان المكون الرئيسى للحضارة العربية هو العرب انفسهم وهم مادة بشرية جمعت بين مخلفات حضارة قديمة انجزها اسلافهم وحياة بدائية عاشها بعضهم فى مسطحات رملية هائلة أدى تفاعلها مع سوابقها الحضارية الى رغبة مشوبة بالخوف عكستها نظرتهم المتطلعة الى الحضارة الحاضرة •

أما العنصر الثانى من عناصر الحضارة العربية فهو الطبيعة أو الوعاء

الجغرافى ويتميز هذا العنصر بانه وان تميز ببعض الجوانب الايجابية التى تساعد على انماء الحضارة وازدهارها الا انه بشكله العام يعكس شكل منطقة من اقسى ما يمكن ان تظن به الطبيعة على البشر فاغلب الارض العربية صحراوية قاسية المسالك صعبة التضاريس يندر ان تتوفر بها احتياجات الافراد الا اذا واصل الفرد نهاره فى حل وترحال لكى يكفى ما يبقيه حيا وبذا ولدت صورة الانسان الزاهد الذى يقبل بالقليل ويحاول ان يقنع نفسه به الامر الذى يبدل القبول بالقناعة والرضا على امل ان يتحسن وضع الفرد فى المستقبل القريب او البعيد فاذا لم تتحقق هذه الاهداف على بساطتها فان الزهد يصبح لاجل الزهد وتكون القناعة عندئذ كنزا لا يفتنى لان الكنز الواقعي قد تبعثت احلامه على رمال الصحراء وأشواك الفاقة .

وهناك خرافة تاريخية هى ان الجزيرة العربية كانت أرضا خصبة ذات أثمار ونعيم ينعكس فى مساحات شاسعة من الارض الخضراء وبدا توفرت سبل العيش لعديد من سكان الجزيرة العربية مما ادى الى كثافة سكانية عالية الا أن تغير الظروف المناخية وأهمها انتقال الحزام الجليدي الى شمال اوربا اصاب المنطقة المدارية - ومنها ارض العرب - بجفاف عظيم قلبها الى صحراوات هائلة !

فاذا سلطنا بصحة هذه النظرية من ناحية جيولوجية فاننا لا يمكن ان نقبلها من ناحية الواقع التاريخي لان الجفاف لو تم لاتبان الجزيرة العربية بكاملها ولهجرها اهلها دفعة واحدة الى مناطق يستطيعون فيها أن يوفروا متطلبات عيشهم بشكل افضل ولكن ما حدث هو ان الهجرات تمت بشكل « موجات » بدأت فى الالف الرابع قبل الميلاد وانتهت بحركات التحرر الاسلامية بعد نجاح الدعوة الاسلامية ، فكيف تم ذلك ؟ وهل يمكن تعليله عن طريق استمرار الجفاف خلال هذه الحقبة الطويلة على شكل « مراحل » مما لا يسنده واقع عدا بعد الاخبار المنقولة وفولكلور متداول . والواقع ان الجزيرة العربية مرت بادوار جيولوجية كغيرها من أقسام

سطح الارض خلال المراحل التي تركت طابعها بشكل تضاريس او براكين او صدوع عظيمة كالبحر الاحمر ولكن طبيعة الجزيرة نفسها وقابليتها على الزراعة لم تكن بأفضل مما هي عليه اليوم والدليل ان ما وصلنا عن الحضارات العربية القديمة يقتصر خبره على اليمن ومصر والعراق ولا يشير بقليل أو كثير الى حضارات نمت في الربع الخالي او الاقسام الصحراوية البعيدة عن عالم الاكتشاف والمعرفة لذا فمن اقرب الفرضيات الى الصواب أن الجزيرة العربية كانت تعيش بظروفها الحالية في الوقت الذي تمتعت فيه اليمن والمناطق الساحلية بحياة مدنية ورفاه اقتصادي جذب البدو من العرب انفسهم الى محاولات لاقتسام خيرات الاستقرار والتقدم الحضاري الا انهم ردوا على أعقابهم في فترات القوة التي تميزت بها المدنات في اليمن وسواحل شبه الجزيرة العربية مما دفع القبائل الغازية الى الحركة البعيدة في محاولة في سبيل كسب جديد وبذا خرجوا من طوق الجزيرة العربية الى حدودها الشمالية او عبروا الى أفريقيا في حالات أخرى لان البحر الاحمر كان مليئا بالجزر التي ساعدت النبي موسى على ان يعبر الى الجهة المقابلة .

ومن غير المشكوك فيه ان الهجرة حدثت من شبه الجزيرة العربية على نحو قبائل او مجاميع صغيرة وليس على نمط موجات لعدم وجود وحدة هدف مشتركة بالنسبة للقبائل المهاجرة من جهة ولاختلاف الطرق التي سلكتها من جهة أخرى اذ الى ذلك ان الهجرات خضعت لدافعين مهمين الاول هو قوة الحضارات المدنية في شبه جزيرة العرب عسكريا وسياسيا مما حدى بالغزاة والمهاجرين الى سلوك وسائل أخرى يستطيعون بواسطتها الحصول على مكاسب معيشية أفضل والثاني هو انتصار القبائل المغيرة وهدم الحضارات القائمة في المناطق الاكثر قابلية للحياة الحضرية في شبه الجزيرة العربية مما قد يصاحبه تفكك هائل في تلك المجتمعات وفقدان الكثير من رجال السياسة والادارة والعلم تضطرب بفقدانهم اجهزة الدولة الادارية والفنية فيقل الانتاج ويصبح الاقتصاد في عسر شديد يدفع

بالمنتصرين والمنكسرين الى ايجاد ارض جديدة للخروج من المأزق الذي هم فيه .

واهمية هذا النقاش لفكرة الموجات التي خرجت من شبه الجزيرة العربية ترجع الى غرس بعض المفاهيم المغلوطة في اذهان الناشئة العرب مما قد يضيف تعقيدا فوق ما يشعرون به من تعقيدات ، وفجوى ذلك ان التأكيد على خصوبة الارض في القديم وتحولها المفاجيء يترك بعمق في نفسية الفرد العربي شعورا خفيا بالاسى والحزن الى الجنة المفقودة التي خضعت الى قضاء وقدر ظالمين لا سبيل للفرد في مقاومتها مما يبدد ما تبقى للانسان العربي من قوة ذات وذلك بجعله ضحية (مؤامرة جيولوجية هائلة) ذهبت بغدورها ارضه الخضراء ومياهه الوفيرة واصبحت كلها صحارى يظلمها العدم والخوف في وقت يحتاج فيه المجتمع العربي الى تقدير واقعي لماضيه وحاضره خصوصا ما يتصل بالارض التي يعيش عليها لكي يبعد الفرد العربي عن ذهنه (عشق الارض) ويبدأ بالنظر اليها كواسطة للانتاج فحسب وبذلك يزداد تصميمه على العمل من جهة وتقل تطلعاته الرومانتيكية وتصوراته الخيالية للماضى من جهة اخرى .

فالارض العربية ارض صحراوية ، وهكذا كانت في الحقب التاريخية المنصرمة وعلينا ان نقر هذه الحقيقة الواقعية وان مسؤولية هذا الجيل هي ان يحيل الارض البور الى مزارع تبسط بالحياة والانتاج وبذا نبدأ من واقع نعالجه في سبيل الافضل لا خيال يشبع حواسنا فنتصور خياله او نهزم .

وانطلاقا من هذا الواقع الجديد فان القومية العربية في محتواها الاصيل هي رد الفعل الذي فرضته الطبيعة القاسية في شبه جزيرة العرب على اولئك الذين عاشوا تلك الظروف القاسية وبذلك يكون العرب وارضهم ركائز قوميتهم التي جعلت من تركيبها البشري وحدات متنقلة عاشت على مر التاريخ تحت اسم القبيلة أو العشيرة يضاف الى ذلك ان الخصائص العربية تظهر بأجلى مظاهرها من كرم ونخوة وشجاعة ونكران للذات عندما يتوفر الجو

الملائم لها حيث تسود الحياة القبلية التي يذوب فيها الفرد في مصلحة القبيلة وتقسو فيها الطبيعة على الانسان وكأنها بذلك تمتحن ما يتحلى به سلوكه فالكرم لازمة طبيعية في مجتمع تندر فيه متطلبات الفرد الاساسية ويفتقر الاجتماع الانساني الى موازنة بين ما تقدمه الارض ويستهلكه بنو الانسان مع الافتقار الى ما يؤمن التوزيع العادل تلبية للحاجات الاساسية للأفراد .

اما النخوة ونكران الذات والشهامة فانها اوجه للسلوك الاجتماعي تميز بها العرب لكي تكتمل ردود الفعل العربية بالنسبة لما يحيط بقوميتهم من طبيعة صعبة وظروف حياتية ولكن هذا التعليل قد يبدو قليل القيمة في اعين ناس ممن يودون استعمال التعابير الضخمة وحشر بعض المعلومات التي تعكس ظلا ثقافيا ثقيلًا ولكنها تخالف اسطى مركبات القومية العربية فقد يذكر كلام حول تقسيم المدارس القومية التي ظهرت منذ عصر القوميات في اوربا عام ١٨٤٨ للميلاد ويصنفون هذه المدارس تحت عنوانين رئيسيين الاول المدرسة الالمانية والثاني المدرسة الفرنسية ويفرقون بين المدرسة والثانية بان المدرسة الالمانية تقوم على العنصر وأفضلية الالمان بالذات فهي قومية عدائية تنظر الى القوميات الاخرى نظرتها الى كميات مهملة من البشر لا حق لهم في الحياة . اما المدرسة الفرنسية فانها تؤمن بالثقافة كواسطة للتفاضل بين بشر وآخرين وبذا تكون اللغة وما يتصل بها من تاريخ وشعور مشترك هي الوسائل الرئيسة لتمييز بعض القوميات عن الاخرى .

ولكن كلتا المدرستين لا تنطبقان على ما نفهمه عن القومية العربية لان اوربا كانت وما زالت تخلط بين مفهومي الوطنية والقومية نظرا لوجود مصطلح واحد لهما في اللغات الاوربية هو (ناشيونال) بينما يكون الخط عميقا بين مفهومي الوطنية والقومية في دنيا الامة العربية فقد تكون الوطنية عاملا يعترض التيار القومي في الهدف والتخطيط والعمل لذا تسعى القومية العربية الى تخطى الحدود الوطنية والانطلاق في سبيل عمل عربي على الصعيد القومي في الوقت الذي تؤكد فيه اوربا على الشعور القومي والارتفاع به الى مستوى الوطنية العالية (سوبر ناشيونال) او الوطنية

المترابطة (پان ناشيونال) وما يتصل بهذا كله من اشكال تجميع الشعور الوطني كالفدرالية والكونفدرالية مما يختلف واقعه وفكره عما هو متعارف عليه في الوطن العربي •

والواقع ان هذه المفاهيم ولدت وعاشت وتطورات في اوربا لذا فهي بعيدة عن الجو العربي الذي تنفس فيه القومية العربية وليس هناك من خير في دراسة التكوين التاريخي لمفهوم القومية في اوربا ومقارنتها بما نعيشه من مفاهيم للقومية العربية اذا اريد التعرف على تجارب العمل والفكر الاوربيين والاستفادة منهما على صعيد العمل العربي مع ملاحظة عميقة للظروف المحيطة بالامة العربية وتطلعاتها في سبيل المستقبل الافضل • ان اوربا بما تميزت به من طبيعة متناقضة ومناخ متباين لم ترتفع الى مستوى الوعي القومي وبذلك فقدت القارة الاوربية قوة التحدى الطبيعى التي تخلق شعورا مشتركا لدى سكان اوربا مما جعلهم يتفرون في ردود فعلهم تجاه قوة التحديات الطبيعية •

ولم تكن الاحداث التاريخية باكثر نفعا من الطبيعة نفسها التي حرمتهم رد الفعل الموحد فقد خضعت اوربا في حياتها الى محاولتين جديدتين لتوحيدها فكريا وسياسيا الاولى ما قام به اليونانيون القدماء من تجارب للمعرفة انتجت نماذج عالية للسلوك السياسى والاجتماعي تميزت بها كتابات افلاطون في الجمهورية وارسطو في السياسة الا انها فشلت عندما اختبرت طواعيتها للعمل على يد الاسكندر المقدوني الذي اتجه بجيوشه صوب ايران والهند بدلا من ان يدخل اوربا ويجمع بين الفلسفة والحكم وبذلك يطبق ما كتبه افلاطون عن الفلاسفة الملوك •

وانهارت الجهود في سبيل قومية اوربية بعد ان فشل الاسكندر المقدوني وخابت مساعي اباطرة روما الذين تركزت جهودهم في تأكيد ذواتهم عن طريق الارتفاع بحياتهم الخاصة والعامة فوق الناس انفسهم وبذلك نشأ فراغ نفذت منه التعاليم المسيحية لاعادة الطمأنينة والهدوء للفرد الاوربي التي فقدت نتيجة اطماع الاباطرة وحاشيتهم وتسخيرهم القوانين لخدمة مصالحهم

الخاصة •

واتصرت المسيحية في روما - معقل الامبراطورية الرومانية - لا كما ارادها السيد المسيح جامعة للخير والسلام على هذه الارض والسعادة في الدار الاخرى وانما ظهرت على مسرح التاريخ متمثلة في كنيسة قوية خلطت تعاليم المسيح الخيرة بدماء شهداء المسيحية الاوائل وازافت اليها بعض جوانب من الفكر اليوناني الوثني والتشريعات الرومانية وبذا ولدت قوة دينية يجب ان نطلق عليها اسم (المسيحية الاوربية) استطاعت ان تسيطر عن طريق باباواتها ورجال كهنوتها على الاوربيين في دنياهم وآخرتهم • وهكذا برزت محاولة ثانية لاشاعة الروح القومية في طول البلدان الاوربية وعرضها الا ان رغبات الامراء الالمان في شمال المانيا ما لبثت ان حفزت رجلا خيرا مثل (لوثر) لكي يعلن نغمته على كنيسة روما وباباواتها مقتنيا بذلك آثار (ارازمس) الذي حاول هو الاخر ان يقوم باصلاح الكنيسة دون ان يعرضها لاثر الهزة كما فعل لوثر •

وبتأثير هذا الاتجاه الجديد ظهرت حركة الاصلاح الديني التي اضاعت على اوربا فرصة كبرى في خلق كيان قومي اوربي موحد ، وكانت خاتمة تلك اللطمات التي وجهت الى المحاولات القومية ظهور نابليون الاول على مسرح السياسة الاوربية ومحاولته فرض مبادئ المسيحية الجديدة ممثلة في شعارات الثورة الفرنسية على اوربا بكاملها •

وكما فشل الاسكندر المقدوني في تطبيق الجوانب السياسية للفكر اليوناني الهادفة الى اقامة نماذج حكم تشترك فيها اوربا واجزاء العالم آنذاك فشل نابليون في مسعاه الجديد لضم اوربا في دولة موحدة فاتجه - كما فعل الاسكندر من قبل - الى الشرق ولكن القومية العربية التي قضت بالحمى على الاسكندر المقدوني انقلبت الى اشواك ادمت اقدام نابليون وجنده مما اضطره الى ترك مصر والاتجاه ثانية نحو فرنسا واوربا مخلفا في مكانه (كليب) الذي اغتيل على يد سليمان الحلبي اتقاما لتحدي نابليون للقومية العربية ومحاولته السيطرة على لجننتها لتحقيق احلام اسطورية •

وجاءت سنة ١٨٤٨م لكي تبرهن للتاريخ وللانسان انتهاء احلام نابليون
والكنيسة وقبلهما الاسكندر المقدوني فقد نشأ كرد فعل لمحاولات نابليون
بونابرت شعور وطني تمثل في قيام حكومات اوربية وضعت مصلحتها
الوطنية فوق كل اعتبار متخذة من بعض الظواهر الطبيعية حجة لاقامة تلك
الصروح الوطنية .

ولكن وجود التشابه بين التراكيب البشرية لمواطني الدول الاوربية في
شرق ووسط وجنوب اوربا جعل من خط الحدود خط بارود قابل للانفجار
لانه فصل القومية الواحدة وضم اجزاءها الى دول متعددة مما اذكى الشعور
المشترك بالوحدة بلغ مدهاء في محاولة الطالب الصربي (برنزيب) التي
اتتهت بمقتل ولي عهد النمسا والمجر (الامبراطورية النمساوية المجرية
القديمية) وزوجته في سيراخيفو مما ادى الى نشوب الحرب العالمية
الاولى .

وقشلت الحرب العالمية الاولى في حل مشاكل تجزئة القوميات الا انها
دفعت جهود الدول الاوربية الى توجيه الصعاب في مشاكلها الداخلية نحو
عمل مشترك بعيد عن اوطانها يعود بالكسب والفائدة على الدولة والفرد في
اوربا وبذا ولدت فكرة الاستعمار وانتقل الفشل القومي الاوربي الى
محاولات منافسة بين الدول الاوربية للحصول على مناطق نفوذ فيما وراء
البحار بلغت ذروتها قبيل الحرب العالمية الثانية التي اشعلت نيرانها سياسات
التوسع الاستعماري وتكديس الثروات في ايدي المغامرين من ابناء الطبقات
الوسطى في المجتمعات الاوربية التي تضع مصلحتها الخاصة فوق أي اعتبار
وطني او قومي مثلها في ذلك مثل اباطرة روما وحكامها ورجال الاصلاح
الديني في اوربا ومن التزامهم من الامراء الالمان الشماليين في بادىء الامر
والملك هنري الثامن الذي ضحى بالكنيسة والشعور الاوربي المشترك
في سبيل تخلصه من زوجته كاترين وزواجه بآن بولين .

أما في العصر الحاضر وعلى الاخص في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فإن
وجود قوى متضاربة تمتلك اسلحة دمار مخيفة قضت كل ما بقي من شعور

قومي ودفع اوربا الى ان تميز واقعها بدول صغيرة تستطيع ان تسند نفسها بنفسها فيما يتعلق بسياستها الداخلية محققة بعض المكاسب في الداخل أما على الصعيد الدولي فأن معظم الدول الأوروبية انتظمت في كتلتات سياسية كبيرة تحمل كل منها صبغة او صبغات سياسية مختلفة وبذلك ضمنت لنفسها حياة دولية تحت حماية مظلات كبيرة مكونة من اسلحة تقليدية فتاكة او ذرية مجنونة •

وبذا فقدت اوربا كل شعور بالقومية واصبح من الصعوبة بمكان اطلاق لفظ (امة) على شعوب اوربا وفضلت لفظة (الدولة) او الوطن لان تعبير الامة يحمل في طياته - كما يحاول بعض الاوربيين والامريكيين تصويره - معنى التعصب والتكتل والعدوانية أما الدولة فانها تعكس مفهوما سياسيا يرتبط فيه الافراد برباط المواطنة عن طريق رسم حقول الحقوق والواجبات مما يختزل الفرد الى مسمار في ماكنة الدولة الادارية والسياسية تحركه دوافع اهمها ان يحصل لنفسه على ما يسهل له عيشه كفرد في اسرة تتوفر لها سبل الحياة لجيلها في الحاضر والمستقبل •

فالقومية العربية بدأت كرد فعل للطبيعة قابل للحركة وخاضع للهدف ولكن اين تقف اللغة كعامل من العوامل التكوينية للقومية العربية ؟ •
والواقع ان الدراسات المنتظمة عن اللغات التي سادت في الحضارة القديمة سواء أكان ذلك في المدنيات حيث الاستقرار والتقدم الحضارى او في الصحارى والبادي حيث تجول العرب للحفاظ على ميزة طابعهم القومي الاصيل ويشعروا بتحدي الطبيعة لهم ، هذه الدراسات لم تعكس ما يفهم قيام لغة موحدة على صعيد الوطن العربى فى القديم فقد نشأت الهيروغلوفية فى مصر والتي هي اشتقاق لغوى للغات محلية تأثرت باللغات التي قدمت من اواسط افريقيا وتلك التي ازدهرت على الشواطىء المصرية واليونانية فى البحر الابيض المتوسط •

أما المسمارية فى وادى الرافدين فهى ابتكار محلى تأثر بالحاجات

الاجتماعية التي كانت سائدة فى تلك الحقبة التاريخية واهمها دافع الاستيعاب والمرونة واختزال التعقيد فى الرسم والتعبير حتى يتفق وما وصلت اليه حضارات بلاد ما بين النهرين •

وتمثل الفينيقية والكنعانية لغات جماعات من العرب تأثرت بما يحيط بها وعلى الأخص فى المنطقة التى عاشت فيها الحضارات الفينيقية والكنعانية حيث المواصلات البحرية التى تفتح طرق التأثير والتأثر بين الاطراف ذات العلاقة بالبحر ومسالكه التجارية ، ومن اقرب ما توصف به اللغات العربية فى سواحل بلاد الشام - فينيقيا - وارض كنعان - فلسطين - بانها شبيهة بالسواحيلية اليوم وهى اللهجات التى يتكلم بها سكان السواحل فى افريقيا الشرقية مع فارق فى التركيب السكانى ورسم الحرف والاداء طبعاً . أما اللغات التى سادت شبه الجزيرة العربية فى تلك الفترة السحيقة فان الحضارات التى قامت فى اليمن لم تخلف لنا ما يكشفه عن لغاتها او لهجاتها وان شمت بأثارها فى الفن والهندسة فوق التاريخ والعدم وكذلك حضارات شمال الجزيرة العربية هى الأخرى اندرست آثارها ووضاع ما نستدل به على لغاتها • الا ان هناك رأى تقليدى يقسم العرب الى اهل الجنوب واهل الشمال فيطلق على الجنوبيين اسم القحطانيين وعلى سكان الشمال تعبیر العدنانيين وما وصلنا فى الواقع لغة اهل الشمال او العدنانيين وعلى وجه الدقة لغة قبيلة منهم هي قريش •

وهذا الرأى لا يخضع للنقاش الموضوعي والافكيف جاز لنا ان تفصل بين العرب فى الجنوب وابناء جلدتهم فى الشمال وما هو خط الحدود بين عرب الشمال وعرب الجنوب ؟ وهل ان مجرد الاسم او القيد المكانى هما العاملان اللذان يقطعان الصلة بين ابناء الامة والقومية الواحدة لكى يتصدر العدنانيون الافضلية فى قائمة الاختيار وتحوز قريش القدح المعلى ؟•

والواقع ان العرب فى شبه جزيرتهم فى ذلك الوقت الموغل فى القدم كانوا امة واحدة عاشت فى الشمال وفى الجنوب وفى شرق الجزيرة وغربها حسب ما تفرضه ظروف الحركة والحياة والافكيف تمت نجدة سيف بن

ذى وزن ونصرته على يد ما يسمى بالقبائل الشمالية وكيف تم الاتصال بين القبائل على الرغم من وجود الفواصل بينها ثم كيف أمكن التفاهم بين أفراد القبائل الشمالية ومن تعرض للعدوان الخارجي من عرب الجنوب ؟

فمسألة تقسيم الكيان العربى فى القديم الى شمال وجنوب محاولة قصد منها تفتيت الشعور القومى من جهة وايجاد تخطيط منطقى لظهور اللغة العربية من جهة اخرى لان عرب الجنوب كما يطلق عليهم كانوا أهل مدينة واستقرار وتقدم فى مجالات الهندسة وبناء السدود مما يؤكّد وجود حصيلة مكتوبة من العلم والمعرفة لان بناء السدود وصيانتها وكذلك التحكم فى مشاكل الري وازراعة تحتاج قبل كل شىء الى تقدم نظرى فى مجالات الهندسة والاقتصاد يستفاد منها فى عالم الواقع عندما تمارس عمليات البناء والصيانة ، ولكننا لم نستطع أن نعثر حتى وقتنا هذا على ما يدلنا على اللغة ونمطها فيما يسمى بحضارات جنوب الجزيرة العربية مع التأكيد بوجود لغة مكتوبة كانت المحور الاساسى فى التقدم النظرى والتكنولوجى اللذين بلغتهما الحضارات فى اليمن قديما .

والهدف الذى نصل اليه من خلال دراساتنا للغة كعامل قومى بالنسبة للعرب هو ان القومية العربية تختلف اطلاقا عن غيرها من القوميات كالالمانية أو الايطالية لانهما كلتاهما كانتا وليدتى اللغتين الالمانية والايطالية فى حين أن قومية العرب وجدت قبل اللغة العربية لان القومية بالنسبة للعرب حياة واللغة لا تعدو كونها واسطة لذا فهى متأخرة عن الحياة نفسها .

أضف الى هذا أن اعتبار اللغة المحور الذى تدور حوله القومية العربية يختزل هذه القوة الهائلة الى مجرد قوالب تنفق مخارج حروفها ويقطع عنها عناصر الفكر الثورى والعمل السياسى وما يتصل بهما من ديناميكية الحركة والتضحية والتفاعل ويجعل من القومية صورة أدبية يلعب فيها السجع اللطيف والبيت من الشعر الموزون والمقفى الدور الرئيس .

وهذا هو السبب المهم فى غلبة العاطفة والاحاسيس المضطربة فى بسط قضية القومية العربية حيث لعب الادباء من رجال الفصاحة والبيان الدور

الاساسي على مسرح العمل السياسي العربي وغاصوا في (بطون الكتب) في سبيل العثور على بيت من الشعر او قطعة من النثر وردت فيها لفظة القوم أو ما يدل على هذا المفهوم •

فليس غريبا - وهذا اللون من التفكير الادبي والعاطفي يطفى على العمل القومي - أن تحتل قصيدة اليازجي التي يحث فيها العرب على (أن يتنبهوا ويستفيقوا) مكانة عالية وتنتشر بسرعة بين الاوصال المجزأة للموطن العربي آنذاك •

وقد يكون مناسباً التأكيد بان القصيدة كانت ناجحة فقد حاولت ان تملأ الفراغ الذي شعر به الفرد العربي في تلك الفترة من تأريخه وليس هناك من نقد يوجه اليها لو انا عشنا في تلك المرحلة التي انعدم فيها العمل السياسي المنظم ولكن ما يؤخذ على هذه القصيدة هو انها ابتكرت اسلوباً خيالياً ممزوجاً بالعاطفة لعرض قضية من اخطر قضايا العرب الا وهى العمل في سبيل ترجمة الشعور القومي الى عمل سياسي ذي اجنحة اجتماعية واقتصادية وفكرية يقود الامة العربية الى وحدة في العمل والمصير •

ومن المؤسف أن يحاول رجال الصناعة الكلامية التصدى لعرض مشكلات القومية العربية مؤكداً على اللغة كوسيلة لحلها كأن تبسط قواعد اللغة العربية ويؤخذ ببعض النظرات في النحو والصرف دون غيرها مع جعل القومية والوحدة من الابواب الثابتة في الشعر بنوعيه العامودي واللامودي الى تدبير مقالات تزخر بالالفاظ ذات الجرس والرنين والاستهلال العذب والعرض السلس والخاتمة الشافية وترصيع ذلك كله بابيات تقطر اسي أو تتفجر حمماً الى آخر ما هنالك من اساليب تقليدية لجأ اليها المثقفون العرب في منتصف القرن التاسع عشر واول القرن العشرين وما زال البعض منهم يحاول أن يسير على النهج نفسه ناسياً ان الشعور القومي حياة يعيشها الانسان قبل أن ينطق بها ومن الافضل ان يتم تجسييم الاحساس دون مسخه الى الفاظ ، فالحس اقرب الى الحركة منه الى النطق واللغة بالاضافة الى ان الاساليب مهما بلغت من سمو اللفظ والمعنى لا يمكن ان تترك اثرها على

مسيرة التاريخ وتحقق ما تريده الامة من انجازات وهذه حروب البولونيز التي رجحت كفة اسبارطة على اثينا في الوقت الذي بلغت فيها الاخيرة اوجها على يد بيركليس ولم تفلح الخطب البيزنطية في الدفاع عن بيزنطية كما فشلت الخطب والقصائد ودور البيان في كسب معركة فلسطين وما يدور في الوطن العربي في الوقت الحاضر من معارك التقدم والبناء والتصنيع •

فالعامل القومي في الوقت الحاضر لم يعد مسؤولية الادباء من رجال القلم والبيان وانما مسؤولية الشباب المثقف الذي يحس ويعيش قوميته التي تمثل بالنسبة اليه حياة وواقعا وتضحية ومصيرا وكم هو الفرق بعيدا بين عبدالعزيز البشرى والكواكبي من جهة وبين مصطفى كامل ومحمد فريد ابو حديد من جهة ثانية فقد كان كل من عبد العزيز البشرى والكواكبي كاتبين جاهدا عن طريق الكتابة واختصرا قضية التحرر والاستقلال الى مجرد مقالات مسبوكة اما مصطفى كامل ومحمد فريد فانهما فهما القضية نفسها بشكل آخر وفضلا الحركة والعمل على القول والكتابة فاذا بهما يجولان اوربا ويستحثان ذوى الآراء النيرة من الاوربيين لنصرة قضايا التحرر في الشرق العربي فتتأثر بهما جوانب هامة من الرأي العالمي في ذلك الوقت وينمو شعور على الصعيد الدولي لنصرة قضايا الحرية في العالم •

فالقومية العربية دون تردد فوق اللغة وتعابيرها وشعرها ونثرها وما نحتاجه اليوم ليس شعراء او امراء بيان للقومية العربية وانما قوة مدركة على قدر كبير من الفهم والعمل في مجالى السياسة والتجربة تمتلك الاخلاص والخبرة في التنظيم والقيادة وترتفع في الوقت ذاته فوق الحوافز المعلولة كالمال والجنس والوظيفة لكي تستطيع التخلص من قيودها المحلية والطائفية والعنصرية والانتهازية فتنتقل في عمل سداه التضحية ولحمته النضج في الفكر والتجربة وهدفه بلوغ المستقبل الافضل للملايين الامة العربية عن طريق ضمها في وحدة شاملة •

هذا بالاضافة الى ان اللغة اذا ترجمت احاسيس لم تصل الى مستوى المسؤولية في الفكر والحركة قد تنقلب الى فوضى في فهم ما يريد الانسان

العربي عندما يخاطب نفسه او غيره فنكون بذلك قد اصفنا تعقيدات اخرى الى ما يشدنا الى البطء والتردد من مشكلات •

أما اذا قامت اللغة وما يتصل بها من اعمال ادبية فى خلق مناسبات خيالية تزيد من فائض الاندفاع العاطفي لدى الفرد العربي عن طريق تزويده بشحنات ذات دفع قوى كاستخدام الشعر او حث العواطف بالوصف النثرى المؤثر ثم يترك الفرد العربي دون أن توجه الطاقات المستحثة فان ذلك قد يثير لدى الغالبية من شباب الامة العربية ممزوجا بالرغبة فى تحمل سريع دون وعى أو تخطيط او قد ينقلب الاحساس لدى ناشئة وطننا العربي الى سلوك يتميز بالتردد واللامبالاة وترك الاحداث تجرى حسب ما توحيه الصدفة او العبت •

وليس هناك من مبالغة بان نسبة الانتحار والاصابة بالامراض العقلية والقلبية قد ارتفعت منذ نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ م لان شباب العرب عاش الكارثة باعصابه وان لم يستطع ان يشارك بها عمليا فى الوقت الذى كانت فيه عمليات المتاجرة باسم فلسطين وتحريرها والقضاء على اليهودية والصهيونية تصب بشكل مقالات وقصائد وخطب وبيانات وتصريحات افقدت كل صلة تربط السياسة التقليدية فى الوطن العربي بالشعور القومى ومنعت قيام تجاوب بين الحاكمين والمحكومين اتهمت بهزات عنيفة للتخلص من ساسة الكلام ومغامرات الظلام •

الفصل الرابع

الاسلام والديانات الاخرى والقومية العربية

لقد مر بنا فى الفصل السابق ان القومية العربية تختلف عن غيرها من القوميات فى الشرق أو الغرب كما اتضحت لنا صعوبة الموازنة بين القومية العربية وبين ما يفهمه الفكر والتاريخ والواقع فى اوربا عندما تستخدم لفظة (قومية) .

وقد توجهنا ببحثنا بعد ان اتضحت لنا صعوبات الموازنة وبانت القومية العربية كظاهرة امتزجت فيها العوامل النفسية والتاريخية والحضارية تختلف كل الاختلاف عن غيرها من القوميات فى ظروف تركيبها وفى حركتها وهدفها لكى تفهم القومية العربية عن طريق فهمنا للقومية العربية نفسها واول ما حاولنا ان نضعه تحت مركز ثقل البحث الموضوعى (عامل اللغة) ولم نغفل ما للعامل اللغوى من اثر فى ايجاد رابطة على الصعيان القومى الا ان ما توصلنا اليه فى بحثنا لهذا العامل هو أن اللغة تمثل وسيلة من الوسائل المتبعة لتقوية الروابط الاجتماعية والعمل على تجديدها عن طريق ايجاد مفاهيم فكرية يحددها الرسم واللفظ اللغوى وبذلك تنحصر مهمة اللغة فى كونها احدى الظواهر التى تعكس تراكيب القومية العربية ذاتها فيها الا ان اللغة لا ترتفع باية حال فوق القومية العربية كقدر وكمصير فقد يتمكن غير العرب من دراسة اللغة العربية او اخذها عن طريق المشاركة فى العيش ولكن هذا الغير يظل يفتقر الى ما يجعله عربيا لان القومية العربية تنفذ خلال كيان الانسان العربى فتمتلك عليه كل ذرة من وجوده وبذلك يصبح العربى والقومية العربية ظلين لعصا نفسية وحضارية

ومصيرية واحدة •

وقد تم كذلك فى الفصل السابق أيضاح السبب الذى ادى الى غلبة الكلمة المفقوطة على العمل والتضحية فى المجال القومى ومناداة البعض بان أيجاد لغة مبسطة قد يزيد من تأصل الروح القومية بين ابناء الامة العربية والواقع أن مسألة اللغة لا يمكن أن تختزل الى مجرد نحو وصناعة كلامية لان النحو وما يتبعه من ضوابط ومسائل تخص الاعراب والتخريج فى الامور النحوية قد وجد كدليل على ضعف الملكة اللغوية التى تتجاوب تجاوبا كلياً مع المفهوم القومى الاصيل ونمى بذلك ملكة الحس اللغوى وما يتبعها من سليقة تستطيع ان تدرك مكامن الضعف فى التركيب والتعبير هذا مع تأكيدنا بان اللغة العربية بحاجة ماسة الى انطلاق لغوى تخرج فيه من قواعدها القديمة ومن رفوفها التى علاها التراب والصدأ لكى تصبح لغة العلم والتكنولوجيا وما يتناسب ومتطلبات عصر الفضاء •

الا ان ما يؤخذ على اللغة حينما تعالج قضية القومية العربية هو امتصاصها للحافز النفسى ومحاولتها اشباع الهدف التومى فى نفوس الناشئة العرب عن طريق الخيال والمحاولة الوهمية لابعاد الزخم عن ساحة المعركة الفاصلة بين حياة التشتت والاقليمية وبين الحياة القومية وذلك عن طريق جر ابناء الامة العربية الى معارك جانبية تلعب عليها الصبغة الكلامية وبذلك تؤدى اللغة - بشكلها المثلث بالتركيب الكلاسيكية وما يتبع ذلك من صناعة لفظية - دور العامل المثبط ان لم يكن المجهض لحركة القومية العربية وعلى الاخص فى هذه المرحلة المعتمدة على التجربة والخطأ والمتأثرة بما يدخل فى تعبئة الوعى القومى العربى من عوامل حسية او عاطفية تلعب اللغة دون شك دورا ذا قيمة فى اظهار اثارها بشكل قد يكون سلبيا فى بعض الاحيان •

ويتصل بهذا الدور الجديد الذى خططناه للغة العربية ومسؤولياتها أن يعاد النظر فى مناهج تدريسها على ضوء الهدف الكبير فى إقامة مجتمع عربى موحد فى المستقبل • وليس المقصود باعادة النظر فى برامج اللغة العربية وما يقرر من كتب المطالعة وتقوية

الحس اللغوى او توجيه المناهج صوب تبسيط العرض والامثلة او تغليب بعض المدارس النحوية والبلاغية دون غيرها وانما المقصود باعادة النظر التى مر ذكرها هو استغلال اللغة فى تعبئة الشعور القومى وتطعيم الكتب المستخدمة للارتقاء بالمستوى اللغوى فى مدارس الامة العربية بما يتفق واذكاء الروح القومى وعلى الاخص فى مراحل التعليم المبكرة نـع التأكيد على أن اللغة وسيلة وان الفكر والمعنى والتركيـب او ما يسمى بالاسلوب فى الوقت الحاضر هو القصد من وراء أستعمال المفردات اللغوية والجمل والتعابير • ويهدف هذا الاسلوب الى تنمية وتوعية وتعبئة أبناء الامة العربية وأعدادهم لمعركة المصير التى ستكون حدا فاصلا بين التخاذل الاقليمى والتأخر فى مجالات السياسة والصناعة والفن والفكر وبين صفحة جديدة تكتبها امة عربية موحدة شعارها العمل والتضحية والمستقبل الافضل •

أما الاسلام العظيم فانه يشكل العصب الخلقى والفلسفى والروحى للقومية العربية ومن المناسب ان ندرس بصفة تتناسب والهدف من هذا الكتاب أثر العامل الدينى فى الجاهلية وفى الاسلام ثم اثره فى عملية الدفع القومى خلال الفترة التى اطلت الامة العربية بها على الحضارة المعاصرة • والجاهلية فترة سبقت قيام الاسلام ويختلف فى سبب تسميتها الا ان وجهة الرأى القائل بعدم وجود ايمان دينى ينظم علاقة الخالق بالخلق وفق ما تؤكد القيم الاسلامية هو الذى أثر فى ايجاد لفظ الجاهلية فاطلقت على الفترة التى سبقت نجاح الدعوة الاسلامية •

والواقع ان الجاهلية فترة من الفترات القاسية فى تاريخ الامة العربية فان القومية العربية فى تلك الفترة تعرضت للكثير من الضغوط الخارجية منها ما هو فكرى ودينى كالمحاولات التى بذلتها اليهودية العالمية والمسيحية الارثوذكسية بشقيها النسطوري واليعقوبى وكذلك الضغط العسكرى المتمثل فى الغزاة من الحبشة ومن فارس وبيزنطية •

أما رد الفعل العسكرى العربى فلم يكن يتناسب وتلك الضغوط الموجهة للامة العربية فوحدة القبيلة لم تكن قادرة على ان تقف بوجه التحديات

الفكرية والسياسية والعسكرية الخارجية ومما زاد في ضعف التركيب القومى العربى فى تلك الحقبة من تاريخ العرب هو عدم وجود دين قومى او دين عربى على الصعيد القومى فقد اتصفت الحياة الدينية فى الفترة قبل الاسلام بانها جمعت بين ما يسمى بالاوثان (ويطلق عليها بلغة الاثروبولوجيا الاجتماعية اسم الطواطم) والاصنام وهى مجسمات اكثر دقة من الاوثان وتقرّب من شكل الانسان الى حد كبير .

ومن وجهة نظر اخرى فان بعض الاصنام كانت لها صبغة تجارية بحيث وضعتها فى مكة فابعدت عنها تلك الصفة اية قيمة يمكن ان يعكسها مركز الكعبة كواسطة للتجمع القومى .

ولكن اين كانت اليهودية والمسيحية فى ذلك الطرف ولماذا لم تستطع هاتان الديانتان كسب المؤيدين على صعيد الجزيرة العربية التى مثلت فى تلك الحقبة التاريخية ميدان المعركة الرئيسى للقومية العربية ؟

والحقيقة أن الديانة اليهودية تعتبر ديانة غريبة كل الغرابة على القومية العربية فقد حاولت اليهودية تفسير القيم الدينية والسماوية الخيرة بشكل عنصري وبذلك بدأ التنافر واضحا بين القومية العربية التى تعند بنفسها واصلتها وبين يهودية تحاول ان تجعل من العرب اتباعا لهم درجة اخفض من أصحاب الدين انفسهم . هذا بالإضافة الى ان اليهودى بطبعه تاجر ومراب اولا ثم تأتى صلته بقيمه الدينية فى الدرجة الثانية وطبعى ان العربى لا يستسيغ دين قوم يريدون أن يستغلوه لمصلحتهم فيمتصون دمائه ويستحوذون على ثرواته باسم ادخاله فى حضيرة دينهم .

ومثل العربى بالنسبة لمحاولات اليهودية فى شبه جزيرة العرب قبل الاسلام يتفق وما يقوم به المبشرون بالنسبة للافارقة فى طول القارة الافريقية وعرضها فقد تردد فى القارة السوداء وفى اكثر من مناسبة ان المبشرين دخلوا افريقيا وفى ايديهم الانجيل ثم خرجوا منها وفى ايديهم الارض وثروتها فى الوقت الذى تركوا فيه الانجيل بايدي السكان الوطنيين .

وهذا ما يفسر لنا رد الفعل لدى الملايين من ابناء افريقيا وآسيا تجاه محاولات التبشير الدينية والاقتصادية التي يراد من ورائها الاستحواذ على مصادر الثروة الضخمة في افريقيا وآسيا باسم الدين ونقل غير المتدينين والوثنيين - كما يسميهم رجال الجمعيات التبشيرية - من ظلام الخطيئة الى نور القيم الدينية التي يبشرون فيها فاذا أعيتهم هذه الحجة الواهية وظهر انهم انما يبشرون بقيم تفتقر الى الروح في عقر بلادهم التي تعتبر (متمدنة) انتهجوا سبيلا آخر بطنوه بدعواهم القائلة بان بشهم لتعاليمهم الدينية يقصدون من ورائه نقل الملايين من ابناء سكان العالم من التأخر في الحضارة والحياة الى ما يسمونه بالتقدم والمدنية وكان اوروبا واهلها وجدت لتلعب دور القيم أو الوصي على سكان هذا الكوكب الارضي !

ونعود الى شبه جزيرة العرب قبل الاسلام لنرى ان اليهودية قد تسلمت الى هذه الديار عن طريق القوافل التجارية وان اليهود اتخذوا لهم مراكز تجارية وتمسكوا بحياة المدينة لما فيها من استقرار ونفع فقد ادخل اليهود الربا والغش والتلاعب في المعاملات التجارية وارادوا أن يجعلوا منها الابعاد الحقيقية للعمل التجاري العربي في ذلك الوقت متناسين الحقيقة الثابتة وهي ان العربي انسان قبل كل شيء وان القومية العربية لا تعيش بالخبز والتجارة فقط وبذلك تشرقت اليهودية في بعض المراكز التجارية ولم تستطع الخروج بقيمها الدينية الى حيث المجتمع القبلي العربي .

اما المسيحية فانها دخلت البلاد العربية عن طريق التجارة ايضا واستطاعت ان تنزوي في بعض الاديرة وذلك في الطريق بين شبه الجزيرة العربية وبين شمالها المكون من العراق وسوريا وبلاد الشام . وقد هربت بعض الطوائف المسيحية عندما بلغ الخلاف اشده بين الكنيسة البيزنطية وبين الطوائف المسيحية الاخرى حول مسألة امتزاج الناسوت واللاهوت او الجسد والروح بالنسبة للسيد المسيح فقد قالت الكنيسة البيزنطية بعدم الامتزاج بينما نادى بعض الطوائف المسيحية في العراق وبلاد الشام ومصر بفكرة

الامتزاج مما اوقعها تحت وطأة التعذيب والقسر من قبل الكنيسة
البيزنطية الحاكمة في القسطنطينية الامر الذى انتهى ببعض الطوائف
المسيحية الى أن تبعد عن مكن السلطة والسيطرة فى الاستانة وتتبع حياة
من الزهد والتكشف فابتكرت فكرة الدير وما يتبعها من انقطاع فى صوامع
خاصة تمارس الطقوس والمراسيم المتعلقة بحياة الرهبنة المبنية على العيش
وفق متطلبات الطبيعة متخذة من الافلاطونية الحديثة وما نادى به رجال
المسحية الاوائل من اتباع السيد المسيح وحواريه فلسفة ومنهجاً لتنقية
الروح من ادران الجسد !

بهذا المستوى من الفكر والاسلوب فى العمل دخلت المسيحية الوطن
العربى وحاولت ان تبث بعض القيم المؤكدة على التعاطف والتسامح بشكل
لا يتفق ومقاييس الخطأ والصواب فى الفكر القومى العربى وبذلك بدأ
التنافر بين القيم الدينية المسيحية وبين الفكر الاجتماعى العربى فى تلك الحقبة
التاريخية ، أضف الى أن حياة الرهبنة والانعزال باعدت بين المسيحيين وبين
غيرهم من افراد المجتمع لعربى فلم يستطيعوا والحالة هذه من الخروج
بتعاليمهم الى حيث ينتظرهم امتحان عسير على صعيد شبه الجزيرة العربية
ممثلاً فى قبائلها ومدنها فى ذلك الوقت •

ويحاول اكثر المستشرقين رسم صلة قوية بين الدين الاسلامى وبين
التعاليم المسيحية التى بلغت الذروة فى انقسامها الفلسفى قبل ظهور الدعوة
الاسلامية وبدأ الخلاف واضحا بين المدارس الفكرية المسيحية وخصوصا
تلك التى ترعرعت فى القسطنطينية وما شاع بينها من آراء جاء بها رجال
الدين المسيحى فى الشرق العربى ومحور ذلك الخلاف هو شخص السيد
المسيح وجانب الروح والجسد فى تكوينه وقد تأثر المسيحيون القريبون
من بلاد اليونان بآراء افلوطين وفيلون وفصلوا بين المسيح كجسد وبينه
كروح بينما فهم العقل المسيحى فى الشرق العربى المسيح كجسد وروح
يمتزجان فى كيانه •

هذا هو فحوى الخلاف بين المدارس المسيحية الفكرية التي خلطت بين القيم الدينية والفلسفية فما هي صلة هذا التعقيد الفلسفي الديني بالقيم الإسلامية؟

ويصعب أن يوضح المستشرقون وجهة نظرهم فيما يخص الصلة التي ذكرناها ولكنهم يحاولون عن طريق التحليل التاريخي والفلسفي واللاهوتي ربط الديانات بالأفكار اليونانية وخصوصا تلك التي نادى بها افلاطون وارسطو ثم بشروح الافلاطونية الحديثة والطريقة التي فهم بها الفكر الافلاطوني من قبل مدرسة الاسكندرية الفلسفية بالاضافة الى ما ذكره فيلون عن فكرة الفيض وما يتصل بها من الوجود وما بعد الوجود وينتهون من وراء هذا التقصي التاريخي والديني والفلسفي بان الديانات انما اخذت جانبها الفلسفي على الاقل من الاصول اليونانية الفكرية القديمة .

ولعل من المناسب ان نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما جاء به المستشرق الاوربي ديلاسي او ليري في كتابه (الفكر العربي ومكانه في التاريخ) ترجمه الدكتور تمام حسان الفصل الاول (ص ١٩ - ص ٧٤) بان الاسلام قد تأثر كثيرا بالفكر المسيحي الفلسفي وعلى الاخص المدارس الدينية المسيحية التي غلب عليها طابع الفكر الشرقي وأهمها النساطرة واليعاقبة وما كانت تتميز به تلك الامتدادات الدينية الفلسفية المسيحية من حياة تقشف لجأت اليها نتيجة الضغط الذي مارسته الكنيسة البيزنطية التي أقامت تفكيرها في الفلسفة الدينية على مفهوم الفصل بين الناسوت واللاهوت بالنسبة للسيد المسيح .

وبذلك يحاول المستشرق اوليري ان يربط بين الاصول اليونانية والهيلينية من جهة وبين مفاهيم فلسفة مدارسها الفكرية ظهرت بشكل وآخر في المسيحية ومن بعدها في الاسلام ، ويرمي مؤلف كتاب الفكر العربي ومكانته في التاريخ الى تحقيق الهدف التقليدي لكثير من المستشرقين وهو نفي الاصاله عن الفكر الديني والحضاري لدى العرب وبذلك يقلل من تأثير العرب في الفكر الاوربي في العصور الوسطى او يعتبر ما قدمه

العرب لاوروبا خلال تلك الحقبة المظلمة من تاريخها لا يعدو مجرد اطفاء
لدين قديم كان بذمة العرب عندما اخذوا هم الفلسفة والحضارة عن الفكر
اليونانى الاوربى !•

ولكن وجهة النظر الموضوعية فيما يتعلق بالناحية الدينية تعكس نتائج
لا تتفق وما ينادى به المستشرقون منذ بدأ الاستشراق حتى الوقت الحاضر
وما ذكره (ديلاسى اوليرى) كنموذج للهدف الذى يسعون من اجله •
والحقيقة ان الاسلام وقبله المسيحية ضما تعاليم سماوية وجدت لكي تبلور
العلاقات الاجتماعية حول مفاهيم اخلاقية تخطط لصلوات سليمة تعود
بالنفع على الفرد والمجموع فى الوقت الذى تضمن فيه صلة قائمة على
الاحترام المتبادل بين الحاكم والمحكوم فى ظل عقائد ومعاملات تهدف الى
مصلحة المجموع الا ان الاسلام يختلف عن المسيحية وان اتفق معها فى
المبادئ الاساسية التى تدعو للخير والمحبة وتعمل على اسعاد بنى الانسان
فى وقوع المسيحية تحت تأثير الفلسفة واختلاط المفاهيم الدينية بالتفكير
الوثنى اليونانى القديم بينما بقى الاسلام ينبع عن عقيدة سماوية فى
الوقت الذى اخضع الاسلام فيه الفلسفة لسلطان الدين وقضى على ما يمكن
ان يجر العقائد الدينية الى معارك فلسفية جانبية •

وتمشيا مع النظرة الموضوعية وعلى الاخص فى بحث علاقة الاسلام
بالمسيحية يجب ان نذكر بالاضافة الى الاختلاف البين فى المنهج الفكرى لكل
من الديانتين الذى يتركز بشكل اساسى على ان الاسلام ابتعد منذ اللحظة
الاولى لبزوغ شمسها عما يجره الى تعقيدات فلسفية تصبح معها القيم
الدينية مجرد جوانب للفكر الفلسفى ، ان الاسلام عمل على وضع منهج
سليم للحياة الدنيا والآخرة بعيد عن التقشف وما يتصل به من عزلة ومن
رهبانية وما ظهر فى اكثر من وقت بالنسبة للمسيحية من نزعات اتخذت
فيها الاتجاهات الفلسفية ذات المحتوى الدينى طابع العنف والقتل والتدمير
كما حدث بالنسبة لمحاكم التفتيش فى اوربا وماقام به البابوات الميكافيليون
من اصدار اوامر العزل والتشريد والحكم بالهرطقة او الموت كما حدث

بإلنسبة للراهب (سافونا رولا) الذى احرق فى مدينة فلورنس بتأثير
من البابا اسكندر السادس فى اواخر القرن الخامس عشر ، فلم يحدث خلال
تاريخ الاسلام الطويل عقيدة ونظاما أن قامت مجازر دينية باسم الدين كما حدث
فى اوربا وكما يحدث اليوم على يد الجمعيات التبشيرية التى تسندها
شركات النفط العالمية وقوى الاستعمار لاستغلال القوى البشرية و ثرواتها
فى افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية •

والنتيجة التى نخرج منها بعد مناقشتنا لآراء العديد من المستشرقين
ان الاسلام دين سماوي يتفق اتفاقا كليا مع الاديان السماوية المقدسة
وخاصة المسيحية ولكن هذا الاتفاق لا يعنى اعتماد الاسلام (كما يرى
المستشرقون) على المسيحية لان الفترة التى عاصرت فيها المسيحية ظهور
الاسلام كانت فترة غلبت عليها الفلسفة الدينية وكانت تدور حول شخص
السيد المسيح بالذات فى الوقت الذى بدأ الاسلام فيه بعيدا كل البعد عن
التعقيدات الفلسفية فقد جاء بقيم سمحاء هدفها الاول بناء المجتمع العربى
الجديد والانطلاق بهذا النموذج الكامل الى افق انسانى شامل وبعبارة
اوجز فان المغالاة التى يذكرها المستشرقون قد تخرج بالتفكير الموضوعي
الى تعميمات عاطفية كأن يقال بان الثورة الوهابية التى قامت فى شبه
جزيرة العرب هي انعكاس لحياة التقشف للربان الدومنيك او الفرنسكان
التي سادت فى اوربا فى القرون الوسطى !•

وهذا اللون من التفكير وان خضع الى بعض وجوه المقارنة لا يمكن ان
يصمد امام التحليل الموضوعى الدقيق لان الحركة الوهابية اسلوب متطرف
فى العمل ساده التقشف الى حد المغالاة الا انه يختلف عما اتتهجه الربان
الدومنيك أو الفرنسيسكان فى محاولتهم لاصلاح المجتمع الاوربى عن
طريق بذل انفسهم والتضحية فى سبيل التعاليم المسيحية والموت كشهداء •
لذا فان عنصر المقارنة ينعدم اذا درسنا هاتين الظاهرتين المتصلتين
بالدين وبالمجتمع فى كل من اوربا والجزيرة العربية مما يدل دون شك على

ان المستشرقين او القسم الاكبر منهم قد يكونوا منطقيين لهم القدرة على البحث والتمكن من فهم العديد من اللغات والقابلية على ربط الاحداث الا ان منطقيتهم هذه لا تعنى القاطع بصحة احكامهم .

والواقع ان هناك صفحة تعكس الصلة بين الاسلام والمسيحية تنطلق من مفهوم القومية العربية هي اجدر بالاهتمام مما يروجه المستشرقون من الدعاوى المبنية على التعقيدات الفلسفية لايقاع الفرقة بين المسلمين والمسيحيين فى الوطن العربى ، وتتمثل هذه الصفحة المشرفة فى العلاقات على المستويات الدينية والقومية فى الطريق الذى انتهجته المسيحية عندما كانت ذات اثر دينى فى الجزيرة العربية فقد ظهرت المسيحية بشكلين او اتجاهين جمعا بين القومية والقيم الدينية .

الاتجاه الاول وضع القومية العربية قبل القيم الدينية المسيحية وبذلك سار هذا الاتجاه مع منطق الواقع اكثر من غيره لان المسيحيين هم من القبائل العربية قبل ان يسيروا على نهج القيم الدينية المسيحية ويتمثل هذا السبيل القومي الديني فى طائفة الاحناف التى مهدت بما نشرته من قيم الخير والمحبة والالفة بين الناس وما ذكرته من ان هناك رسالة سماوية ستأتى لتكمل الشرائع الالهية ، هذه التعاليم وانتبوءات هيات الازهان للدعوة الاسلامية .

أما الاتجاه الثانى فقد وضع القيم الدينية فوق مفاهيم القومية العربية وذلك لان اصحاب هذا النهج الدينى المسيحى اكثرهم لا يمت بصلة قوية الى القومية العربية مما ادى الى ابتعاد هذه الفئات عن المجتمع وحصر اتباعها فى اديرة انتشرت فى اماكن متعددة وعلى الاخص فى المنطقة بين شمال الجزيرة العربية وبين الجزيرة العربية نفسها .

ومهما كان اتجاه المدارس الفلسفية والدينية المسيحية وبصرف النظر عن تأكيدها على القيم الدينية قبل المفاهيم القومية او اهتمامها بعكس ذلك فان المسيحية كدين شرقى عاشت على مر الزمن متفاهمة مع الاسلام والمسلمين وقد عامل المسلمون المسيحية ودينها ومعابدها وفق التعاليم

الاسلامية مقدمين لها كل احترام وتقدير وهذا ما يفسر لنا تعاون المسيحية كدين مع حركات التحرير الاسلامية حينما انطلقت جيوش المسلمين لتخلص الاراضى العربية السليبية من ايدى البيزنطيين والفرس فقد دفع الشعوب القومى للغساسنة والمناذرة والتغليين للانضواء تحت راية الجيش الاسلامى وبذلك كانوا اكبر عون فى كسب معارك العراق والشام .

وعلى الصعيد الدينى فقد تجاوب المسيحيون مع الجيوش العربية المحررة وطلب رجال الدين المسيحى فى انطاكية وكذلك الآقباط فى مصر حمايتهم من الرومان وبيزنطية مما يؤكد لنا الصلة القوية بين الاسلام والمسلمين والمسيحية والمسيحيين على الصعيدين الدينى والسياسى وما يتصل بذلك من تعاون اقتصادى وصلات اجتماعية تمثلت بالاحترام المتبادل بين أتباع هاتين الديانتين السماويتين .

وقد ظهر حب المسيحية الفكرية فى حركة الترجمة العظيمة التى نمت فى العصر العباسى الثانى واثمرت عن ترجمة عيون الكتب من شوامخ الفكر اليونانى وعلى الاخص ما كتبه افلاطون وارسطو والمدرسة الافلاطونية الحديثة والواقع ان اوربا فى اواخر لقرون الوسطى عندما قامت باحياء علوم الاغريق تعرفت على الفكر اليونانى عن طريق ما كتبه العرب عن تلك الابعاد العظيمة فى حقل المعرفة الانسانية فافلاطون وارسطو وغيرهما من رجال الفكر اليونانى انتقلوا الى اوربا بصفتهم العربية او كما فهمهم وحلل مكونات افكارهم العرب انفسهم .

وبذلك اسدى المترجمون من المسيحيون فى ظل التشكيلات السياسية الاسلامية وبدافع من تقدير المسلمين لهم حكاما وعامة خدمات جليلة للفكر العربى وللمعرفة الانسانية التى تستند عليها الحضارة الحاضرة بوجه عام .

وما دمنا بصدد الصلة بين المسلمين والمسيحيين فبتأثير من قوميتهم العربية حاربا سوية ليس خلال حركات التحرير الاسلامية فى العراق والشام ومصر فحسب وانما بقى التلاحم والتعاون سائدا بينهما حتى برز امتحان

خطير لتلك الصلة ايام الحروب الصليبية فقد تكاتف العرب من مسلمين ومسيحيين لصد الغزوات الصليبية التجارية التي حاولت اوربا باعذارواهيّة منها حماية طريق الحجاج المسيحيين والحفاظ على الأماكن المقدسة ان تلتهم خيرات الوطن العربي وتستذل اهله الا ان يقظة الروح القومي والتماسك الذي وحد بين المسلمين والمسيحيين أستطاع أن يرمى بالمعتدين في البحر ثانية ويخلص الوطن العربي من تلك الغزوات التي جاءت في وقت بدأ الضعف يهدد كيان التراكيب السياسية العربية .

وقد تعرض العرب المسيحيون كما تعرض العرب المسلمون لضغط الحكام العثمانيين مما اكد استمرار التماسك امام الولايات والمحن التي مرت بها الامة العربية الا أن تدخل الاوربيين اوجد بعض الفرقة بين التراكيب البشرية المسلمة والمسيحية للقومية العربية ونظرا لمخططات السياسة الاوربية سواء تلك التي اظهرت نفسها على صعيد العمل السياسي كما حدث بالسبب للفرنسيين حينما ادعوا حماية المسيحية في لبنان أو الروس حينما زعموا حماية الارثوذكس أو عن طريق الجمعيات التبشيرية التي اخفت نواياها الخاصة بالاستعمار الثقافي والتفرقة على صعيد القيم الدينية عن طريق أتباع أساليب التعليم ونشر المعرفة وما يتصل بذلك من براءة رجال الجمعيات والارساليات الدينية التي دخلت الوطن العربي تحت تلك الاقنعة المظلمة ، فان المسيحية الاوربية تختلف كل الاختلاف عن الدين المسيحي كقيمهم روحية وجدت في مجتمع شرقي لان المسيحية في اوربا بصرف النظر عن أتباعها من الكاثوليكية أو البروتستانتية جعلت من الدين واسطة لتحقيق أهداف دنيوية سداها ولحمتها السيطرة على قارات العالم الغنية بمواردها الطبيعية وثرواتها الوفيرة وتسخير الملايين من ابناء هذه القارات في سبيل تحقيق غايات رسمت مخططاتها في العواصم الاوربية فليس هناك من كبير فرق بين مبعوثي شركة الهند الشرقية أو الشركات التي تأسست في أفريقيا وجنوب شرق آسيا وبين رجال الجمعيات التبشيرية التي غزت العالم تحت ستار من التعاليم الخيرة غايتها - كما تدعى تلك المنظمات - تبصير

الملايين من ابناء العالم وذلك عن طريق نقلهم من التأخر الى الحضارة ومن دنيا الخطايا الى عالم الطهر والصواب !

وقد أستغلت المخططات السياسية الاوربية أخطاء الساسة والاداريين من العثمانيين فأخذت تستميل بعض الفئات المسيحية بقصد بث الفرقة بين أبناء الوطن العربى عن طريق تجسيم خلافات دينية كتب عنها المستشرقون بوحى من دوائر السياسة أو التجسس الاوربية ، ومن اوضح الادلة على ذلك أن المستشرق الفرنسى ماسنيون هو بنفس الوقت رئيس الدائرة الشرقية والعربية بوزارة الخارجية الفرنسية ويصدق المثال نفسه على بروكلمن وبرتن برنارد لويس وكلهم يعملون فى جهات مزدوجة يخضعون فيها للتوجيهات السياسية التى تتفق والاهداف المراد تحقيقها من وراء بحوثهم وعملهم فى دراسة التراث الحضارى للامة العربية .

وتمشيا مع هذه السياسة الاوربية ونظرا لحدوث الكثير من المآسى فى ظل الحكم العثمانى الذى دام ظلّه الممقوت على الامة العربية قرابة اربعة قرون فقد ظهرت بعض نواحي الانقسام بين ابناء الامة العربية وذلك لتفشى الجهل وصعوبة فهم الفرق بين الاسلام كدين سماوى له قيمه وعقائده ومعاملاته التى اوجدت وسطا مناسبا ساده الاحترام وترعرعت فيه انجح علاقات المسلمين بالمسيحيين على صعيدى الفكر والحياة وبين السياسة العثمانية التى اتخذت من القيم الدينية سندا لاضفاء نوع من القدسية والاحترام على الحكم العثمانى الذى بدأ بالتفكك والانهار عندما أصبحت الدولة العثمانية بحق رجلا مريضا .

ولعل التجاوب الكامل بين المسلمين والمسيحيين فى المؤتمر العربى الاول الذى عقد فى باريس ١٩١٣م يعيد للاذهان التقارب الامثل بين اتباع هاتين الديانتين من العرب .

أما الديانة الثانية التى حاولت أن تحتل رأس جسر لها فى شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الدعوة الاسلامية ونعنى بذلك قيم الدين اليهودى فان اتباع هذا الدين يختلفون فى سلوكهم نحو العرب كليا عما

• اتصف به المسيحيون •

وعلينا قبل ان نوضح واقع وتاريخ هذه الديانة فى فترة ما قبل الاسلام وحتى الوقت الحاضر ، التفريق بين مفهومين مختلفين كل الاختلاف الاول هو الدين اليهودي (جويش ريجلن) والثاني هو اليهودية (جوديزم) فالديانة اليهودية ديانة سماوية مقدسة انقذ الله فيها بني اسرائيل من الضلالة التى هم فيها وارسل لهم نبيا يعلمهم كيف تكون صلاتهم بربهم وما يجب أن تكون عليه صلاتهم ببعضهم وبمجتمعهم وهكذا فالقيم التى احتواها الدين اليهودى تتبع من مصادر خيرة وتدعو الى احقاق الحق والضرب على ايدي المفسدين فى الارض •

الا اليهودية مسخت هذه التعاليم السماوية المقدسة ومزجتها ببعض المفاهيم الوثنية فقد تأثر اليهود بالديانات البابلية القديمة وقبل أن يتسم سبى بابل لم يكن المعبد اليهودى قد اخذ شكله القائم على التعصب والغدر والخيانة الا ان اليهود مسخوا الكثير من التعاليم البابلية وحولوها الى قوى شريرة فقد أعادوا بناء المعابد اليهودية وجعلوا من تلك المعابد مراكز للابتزاز المادى باسم الدين وحولوا الكثير من القيم الخيرة الى افكار تحت على التعصب وتؤكد على أن المعبد بحاجة الى ارافة الكثير من دماء القرابين لكى تنتشى الآلهة العطشى التى لم تكن فى حقيقتها الا ردود الفعل لدى بعض المتعصبين من اليهود فى محاولتهم لتشويه القيم الدينية اليهودية الاصلية وإعادة كتابتها بشكل يجعل من بنى اسرائيل قوما مفضلين على غيرهم تسرى فى عروقهم دماء التعصب فى الوقت الذى ينظرون فيه الى غيرهم من اهل الارض نظرة وضيعة فقد غدا الهيكل اليهودى مسرحا للجرائم ومكانا للصيرفة وملتقى للنخاسين مما يوضح لنا ثورة السيد المسيح ضد تلك الخطايا والموبقات •

وبجعل المعبد الواسطة الرئيسية فى الحياة اليهودية أنقلبت التعاليم الدينية الخيرة لدى اليهود الى مخططات سياسية واقتصادية استخدمت القيم الدينية الخيرة كغطاء لاضفاء نوع من القدسية والشرعية على ما يرتكب

من جرائم القتل والاستباحة والابتزاز والاغتصاب وبذلك انقلب الدين اليهودى الى ما نسميه باليهودية وهى نزعة ميكافيلية قبل ان يوجد ميكافيلى ويكتب كتابه المشهور بـ (الامير) فقد ضربت اليهودية بكل القيم الدينية عرض الحائط واستغلت المصاعب التى من الممكن ان يتعرض لها كل شعب خلال مروره فى ادوار التاريخ المختلفة فصاغت من بعض تلك الصعوبات سياسة بنيت على الحقد غرستها فى نفوس اليهود صورت لهم العالم بصورة تظئ عليها الحقد والكرهية ففرضت عليهم ان يتكثروا وان يكونوا عصابة لا بدافع الحفاظ على جماعتهم وروحهم الجماعية ولكن لكى يعملوا على تدمير العالم المحيط بهم توهموا منهم بان قوى العالم تسعى لتدميرهم وهذا ضرب من (الشيزوفرينا الاجتماعية) التى تتصور عدوا وهما لا يريد باساليبه فردا بعينه وانما يسعى الى تحطيم المجموع المعادى له .

وفى سبيل ترسيخ المخططات الاجرامية القاضية بتعصب اليهود وتكوينهم لمجموعة شريرة تحارب النار بالنار وتسعى للاعتداء على الابرياء خوفا من ان يعتدى اولئك الابرياء عليها أعيدت كتابة التعاليم الدينية المقدسة وتم مسخها بشكل جعل من التوراة كتابا سريا يحوى على الخطط والاساليب الاجرامية التى يراد بها تحطيم العالم ويصور بني اسرائيل وكأنهم شعب مختار وبان بداية التاريخ اليهودى لا تتصل بالرسالة الموسوية كبداية دينية متفق عليها وانما تبدأ عندما رجع اليهود من السبي البابلى حين ظهر المعبد اليهودى الذى عمل على ضم اشتات اليهود او قبائلهم وانتهت تلك التنظيمات الى داود ونجمته التى تمثل نهاياتها اليهود المنضوين تحت لوائه هذا بالاضافة الى المواعيد التى يبنى بها الفرد اليهودى وذلك عن طريق تحقيق احلام آباء اليهودية كما يسمونهم فى تسلط بني اسرائيل على العالم .

وقد ولدت نتيجة للتفاعل بين تلك المفاهيم المليئة بالحقد والكرهية للعالم أجمع خطوط مجرمة للفكر اليهودى أهمها أن هناك مستويين لما يسمى بالاخلاق التى يظهر أثرها فى المعاملات التجارية بشكل خاص

والحياتية بشكل عام والمستوى الاول يتعلق باليهود انفسهم كمجموعة
حيث يغلب طابع التقيد بالامور الخاصة بموازين الخير والشر والصواب
والخطأ وما يتبعها من الحق والواجب .

أما المستوى الثانى فهو يتعلق بصلة اليهود بالعالم الخارجى وعندها
تنقلب الموازين ويختلط الخير بالشر والخطأ بالصواب فيباح الغش والتزوير
والابتزاز والقتل والانتهاك لانها تتم خارج نطاق الجماعة اليهودية حيث
تعيش اقوام العالم الاخرى التى ينظر اليها اليهود نظرة وضيفة تصل بهم
الى حد حرمانهم من الحياة والتخلص منهم حيث يخلو الجو للشعب المختار
من بنى اسرائيل . وكحصيلة للحقد اليهودى الدفين وللمآسى التى ابتكرها
العقل اليهودى المجرم وذلك عن طريق اعادة ما يسمى بمصاعب اليهودية فى
العالم وتشويه الكنب الدينية المقدسة وانزالها الى مستوى العمل الاجرامى
على الصعيدين المحلى والعالمى ، فقد اتجهت القوى اليهودية الشريرة عبر
التاريخ الطويل تعيث فى الارض فسادا وتحاول ان تدمر كلما تقع عليها
يدها وبذلك رسم اليهود لهم صورة الشعب المشرد لانهم هم الذين جنوا
على انفسهم عن طريق المحاولات المجرمة التى تصدوا بها للعالم اجمع فقد
عبدوا العجل بعد ان اكرمهم الله بالدين وانا ر لهم سبيل الحياة مما يتفق
وما لاقاه اليهود فى صحراء سيناء من تشرد ومن هلاك وجوع لو لم تداركهم
العناية الالهية فان الواقع يؤكد دون شك ان ما نزل على اليهود من غضب
كان جزاء عادلا لما جبل عليه اليهود انفسهم من غل ومن كراهية لم يبقيا
على صعيد اليهودية فقط وانما حولا الى قوى مدمرة تحاول الفتك بينى
البشر دون تمييز لكى يسود اليهود العالم .

وفى سبيل تحقيق الاهداف اليهودية فى السيطرة والتسلط على غيرهم
من امم الارض وشعوبها وبدافع من المستويات المختلفة التى يتعاملون بها
ويعاملون غيرهم بخلافها فقد احتكر اليهود عنصرين هامين من عناصر
الاجتماع الانسانى الاول هو السيطرة على المادة باشكالها المختلفة من
معادن ونقود والثانى دفع العقل اليهودى المجرم وراء كل الحدود فى

محاولة للسيطرة على الناحية العقلية عن طريق مغامرات فكرية مجرمة
لا تهذبها القيم الدينية او الاخلاقية ولا يحدها عرف او تقليد او قانون •
وانسجاما مع هاتين الواسطتين فقد ابتكر اليهود الغش فى المعاملات
التجارية والتزوير فى العقود والاختصاب عن طريق اباحة الربا وابتزاز
الاموال وبذلك أستطاع اليهود تجميع ثروات ضخمة كان لها أثرها على
مر التاريخ •

وهناك من يحاول ان يفترض سامية اليهود وبانهم ينتمون الى مايسمى
بلعرق السامى وعلى الرغم من عدم صحة النظرية العرقية ودحضها من قبل
رجال العلوم الاجتماعية فان ربط اليهود باى عرق (ان وجدت هذه
التقسيمات) لا يمكن ان يوثق بصحته لانهم لم يكونوا خلال تاريخهم
الطويل شعبا أو أمة وانما كانوا مجاميع قليلة تنتقل من مكان الى آخر
بانية حياتها على الغش والابتزاز فاذا ما كشف امرها سارعت بالهرب الى
اماكن اخرى مثلهم مثل الفجر فى الوقت الحاضر فهل يمكن ان يرد الفجر
وهم خليط عجيب من اقوام ربطت بينها اللصوصية والسرقه الى عرق من
العروق المعروفة فقد يسلب اليهود بعض الافراد خلال تجوالهم ويكون
هؤلاء فى سن مبكرة وبذلك يعمل اليهود على تهويدهم الامر الذى جعل
من اليهود عصابة حوت اولئك الشذاذ او بعض التائهين ممن يشك فى
أصولهم •

وقد يقع اليهود خلال اتباعهم الاسلوب العجربى فى تكوين بنيتهم
البشرية على بعض العناصر السامية لذا فمن الصعوبة بمكان أن تثبت صحة
النظرية العرقية اولا وان تربط بين أحد هذه العروق والعصابة اليهودية من
ناحية ثانية والرأى الاقرب للصواب هو ان العرب يمتون الى الساميين بصلة
قوية لانهم عاشوا وهاجروا من المعمل السامى البشرى (شبه جزيرة
العرب) ولكن ليس كل الساميين يمتون الى العرب بصلة لان الكثير من
هؤلاء الساميين وعلى الاخص من امتزج باليهودية منهم لا تعرف اصولهم
ويشك كثيرا فى ارجاع انسابهم الى القبائل السامية التى عاشت فى

فترات موعلة في القدم في شبه جزيرة العرب •
ومن أصدق الأدلة على انتفاء السامية عن اليهود ووضع اليهودية
للمعاملات التجارية والابتزاز والربا والتزوير فوق القيم الدينية اليهودية
محاربة اليهود للدعوة الإسلامية في الوقت الذي احترمت فيه هذه الدعوة
القيم الدينية اليهودية •

فقد كان اليهود قبل ظهور الاسلام يدعون الى المسيح او المخلص
وعندما ظهرت الدعوة الاسلامية قضت على تلك الافكار اليهودية التي لم
يقصد منها التأكيد على القيم الدينية ومحاولة رفع المستوى الخلقى للمجتمع
وانما قصد اليهود من وراء بثهم لفكرة المنقذ في المستقبل استخدام الطريقة
الميكافيلية بشيء من الحذر والدهاء لكي يخلو لهم الجو فيبتزون ويستغلون
ويثرون على حساب المجموع بصرف النظر عن المكان الذي هم فيه ثم
لا تنالهم يد العقاب ولا يردعهم دين او خلق لان ما يقومون به امور
مشروعة خطط لها من قبل فهي كلها ستمحى عندما يأتي المنقذ الذي سيملا
الارض عدلا ونورا •

وهكذا فقد حاربت اليهودية مستغلة ما لديها من مال ونفوذ وعلى
الاخص في المدن التجارية ذات الطبقات الارستقراطية كمكة ، الدعوة
الاسلامية ولما فشلت على صعيد المال وبانت صلابة المسلمين الاوائل
وتضحيتهم في سبيل نصرة دعوتهم حاولت اليهودية ان تحرك بعض
تجمعاتها القبلية وعلى الاخص في القاعدة الاسلامية الجديدة (المدينة)
وعملت بالوقت نفسه على بث سموم الفرقة بين من دخل الاسلام من القبائل
العربية وسارت الى ابعد من ذلك بان تحالفت مع الوثنية في سبيل ضرب
الاسلام والمسلمين علما بان اليهودية (كما هو مفروض) تلتزم بقيمها الدينية
السماوية التي احترمها الاسلام لذا فالواجب والعرف يقضيان بان تناصر
هذه القيم الدينية ما جاء به الاسلام نظرا لاتفاقه بالهدف وتأكيد على
نفس المعطيات الا ان اليهودية بوحى من دوافعها التجارية ضربت بقيمها
الدينية عرض الحائط وتحالفت مع الوثنية ثم استدارت لتظن الدعوة

الاسلامية مما يثبت دون شك ان اليهودية تجارية في دينها وان اليهودي
تاجر قبل ان يكون يهوديا .

ولما نجحت الدعوة الاسلامية وانحسر ظل اليهودية المجرمة عن الجزيرة
ومجتمعها العربي اخذ اليهود يفتشون عن سموم جديدة ينفثونها على صعيد
الفكر العربي وبذلك ظهرت شخصيات يهودية مجرمة حاولت ان تشق
الاسلام اولا ثم تضرب المسلمين بعضهم ببعض ووضح دليل على ذلك
عبدالله بن سبأ الذي مسخ آراء فيلون وما يتصل بها من نظرية الفيض
الالهى واستغل الخلافات الدينية والفلسفية بالنسبة للمسيحية والفكر
اليوناني القديم وجعل من ذلك كله وقودا لاشعال نار فتنة فكرية قدر
لها ان تغوى وتغرى وتستميل بعض من قصد استمالتهم وبذلك اصيب
الاسلام بافدح انشقاق فكرى فى تاريخه ما زال يعاني منه حتى وقتنا
الحاضر .

ولم يقتصر موقف اليهودية المتمثل بالغش والخديعة ومحاولة الدس
والتفرقة فى محاربتها للدعوة الاسلامية فحسب وانما اتخذ اليهود الموقف
نفسه بالنسبة لامم الارض وشعوبها بوجه عام حتى اصبح اليهودي ء تأنها
وعنصرا قدرا لا مكان له فى اوربا وآسيا وافريقيا .

ولم يقف رد الفعل الاوربى نحو اليهودى واليهودية عند حدود العزل
او الابعاد وانما تعداه الى الاحتقار والمطاردة وذلك لان الشعوب الشرقية
وعلى الاخص تلك التي تعيش فى الوطن العربي ومناطق من آسيا وافريقيا
تتميز بنوع من العاطفة الكريمة التي قد تنسى بعض الاساءات فى سبيل
فتح صفحات جديدة لمنء يسيء بحقها الا ان ردود الفعل هذه من قبل
الامم الشرقية وخاصة الامة العربية تعتبر من مظاهر الغباء أو عدم الفهم
العميق لها يحيط بها من الظواهر وما يعترض طريقها من صعوبات فى الوقت
الذي استطاعت فيه اوربا أن تزيل عن نظرتها لليهودي كل جوانب العاطفة
او الرفق بهذا الحيوان الناثه وبذلك كشفت اليهودية على حقيقتها وادركت
عمق ما تحمله من حقد وتهديم لكل ما يحيط بها من بشر وحضارات

شرط ان تضمن لنفسها ولمصالحها الكسب والراحة على اشلاء العالم الممزقة
وحضارته المنهارة .

وتعتبر قصة وليم شكسبير الكاتب الاوربي المعروف والتي اسماها
(تاجر البندقية) مصداقا لما كان عليه اليهودي وما هو عليه في الوقت
الحاضر (فشايلوك) محور قصة شكسبير يكتنز المال كما يفعل اليهود
في الوقت الحاضر ويستغل في سبيل تحقيق اغراضه الدنيئة ويضع لهذا
الاستغلال شروطا قاسية استطاع شكسبير ان يصورها بحيث تعكس
التفكير اليهودي باجلى مظاهره فشايلوك يريد ان يحصل عند عدم سداد
ما اقرض من اموال على قطعة من اللحم ذات وزن معين تنتزع من المنطقة
القريبة من قلب مدينه وفي هذا تصوير عميق للخلق اليهودي الذر لا يكتفى
بالعقاب او العمل على ايجاد طريقا وسطا للفهم كما هو الحال بالنسبة
لبني البشر الاخرين وعلى الاخص في امور مدنية تتعلق بالبيع والشراء
والتعاقد وما اليها من مظاهر لا تسيء بشكل جرمي للمجتمع والا فما هي الصلة
بين رد الدين وبين عمل اجرامي يقصد من ورائه اقتطاع جزء من جسم
انسان قد يعرضه للموت ؟

ولكن هذا التصرف بالذات يجسم كل جانب من جوانب الفكر
والسلوك اليهوديين اللذين ظهر بهما اليهود في اوربا .

وقد استغل اليهود ردود الفعل الاوربية التي كانوا هم السبب في تكوينها
لكسب عطف العالم على اليهود واستغلوا في سبيل ذلك كل ما وصلت الي
ايديهم من المال والنفوذ فقد اقرض (روتشيلد) مؤسس الاسرة اليهودية
ذات المال ، الدول الاوربية المتحالفة ضد نابليون وبذلك استطاع ان يكسب
مكانة لليهود في اعين الانكليز وغيرهم من الاوربيين .

وقد تمكن بعض اليهود من اشغال مراكز عليا في التنظيمات السياسية
الاوربية واستطاعوا عن طريق نفوذهم ان يكسبوا لليهودية مركزا مهما
فقد نجح دزرائيلي في الدخول الى البرلمان الانكليزي وتمكن بوسائله

اليهودية ان يكسب قلب الملكة فكتوريا وان يصبح كلبها المدلل ولم يلبث
دزرائيلي ان سيطر على حزب المحافظين واخضعه لمشيئته فاذا بهذا اليهودي
الافاك يوجه السياسة البريطانية ويعمل في الوقت نفسه على احراز نجاحات
ليهودية عن طريق استغلال الاجهزة السياسية والعسكرية الانكليزية ويمثل
مخطط دزرائيلي الذي نجح في سرقة اسهم الخديوي اسماعيل الحقـد
اليهودي الدفين تجاه الامة العربية .

ومن الاسباب الرئيسية لنجاح عملية اغتصاب الاسهم المصرية في قناة
السويس تعاون اليهودية العالمية بجناحيها السياسي المتمثل في ذلك الوقت
بدزرائيلي رئيس الوزارة البريطانية والمالي المتمثل بعائلة (روتشيلد)
اليهودية فقد كان البرلمان البريطاني في عطلة وكان على دزرائيلي ان يسمع
رأي السلطة التشريعية فيما ازمع القيام به وخصوصا أن تصميمه يتعلق
بأمور مالية الا ان ذلك الروتين كان سيرعرض الصفقة التي ازمع دزرائيلي
عقدها للخطر نظرا لوجود المنافسة الفرنسية مما جعله يفكر في طريقة يحل
بها ما وقع له من اشكال ، وهنا برزت اليهودية كحل موفق لما يزمع رئيس
وزراء بريطانيا اليهودي القيام به وامتدت يده لتصافح يد اليهودي
روتشيلد وتتسلم منه قيمة الاسهم التي خطط لاغتصابها دزرائيلي من
قبل .

وقد يعمل اليهود على كسب الرأي العام العالمي باساليب يغلب عليها
الخبث والخداع المنظم كما حدث بالنسبة الى قضية (دريفوس) الذي باع
دون شك اسراراً فرنسية لجهات استخدمتها ضد المصالح الفرنسية وقد تم
تجريم (دريفوس) وجرده من رتبة العسكرية وسجن الا ان اليهودية التي
كانت وراء عملية بيع الاسرار الحربية الفرنسية نظرا لحقدها على الدول
الاوربية وعملها على اضعاف هذه الدول عن طريق ضرب بعضها ببعض
والعمل على تهديمها وارباك تنظيماتها السياسية والاقتصادية والعسكرية ،
رفعت شعار (دريفوس) وقامت بتحريض الكتاب ورجال الفكر الفرنسيين
واستطاعت بالفعل ان تكسب المعركة فافرج عن الضابط اليهودي (دريفوس)

واعيدت له رتبة وما له من حقوق ولكن اليهودية العالمية التي خلقت دريفوس وجعلت منه قضية تستغلها لصالحها لم تقنع بما انتهت به تلك الخطة اليهودية المحكمة وانما واصلت في استغلالها لصالح اليهود واليهودية • وما دمنا في سبيل كشف الدور الذي لعبته اليهودية في اوربا فأن التاريخ السياسى الاوربي منذ القرن السابع عشر وحتى الوقت الحاضر يتعرض لتأثير سلبي من اليهود واليهودية العالمية فقد حاول اليهود في اوربا - التي كانت وما زالت محطة سياسية مضطربة تؤثر في السياسة العالمية - اكثر من غيرها من قارات الدنيا باستثناء امريكا بالوقت الحاضر - التخطيط للسيطرة على مفاتيح المال والسياسة والفكر في الدول الاوربية • وقد كانت حركة اليهودية العالمية بشكل اكثر طلاقة في اوربا الغربية عنه في شرق وشمال هذه القارة نظرا للانظمة السياسية التي سادت في اوربا الغربية والى حد ما في القسم الوسط من القارة الاوربية والتي سمحت تحت ستار من حرية الفرد وبعض المفاهيم التي تسمى بالديمقراطية ان توجد الوسط الملائم الذي استغلته اليهودية العالمية في بث سمومها على صعيد اوربي اولا وعالمي ثانيا •

واذا ما القينا نظرة فاحصة على الحركات الفكرية والسياسية التي اثرت في اوربا وعلى الاخص تلك التي اعتمدت على القتل والاجرام والتدمير والتخريب لرأينا ان أصعب اليهودية العالمية كان ذا اثر بارز فيها فقد برع اليهود في تخطيط العمليات الاجرامية عن طريق بناء منظمات ارهابية تركت طابعها واضحا على تاريخ اوربا المعاصر وقد دعيت تلك الجمعيات باسم (النهلستية) أو العدمية لكي يتم ايضاح الاهداف التي تسعى تلك المنظمات من وراء تحقيقها الى ابادة الخصم وتدميره كليا • وهناك الكثير من الشبهات اليهودية التي خطت ونفذت على صعيد التنظيمات النهلستية لحركات اهمها تلك التي ظهرت في روسيا القيصرية قبل ثورة سنة ١٩١٧ فقد نفذت مخططات دموية لاغتيال قيصرة روسيا نظرا للطريقة التي عاملت بها الكنيسة الروسية الارذوكسية اليهود في بلدها •

وقد استمر تأثير اليهودية في الحركات السرية والفكرية في روسيا واضحا
وعلى الاخص بعد ظهور كارل ماركس الذي يمثل نفسه وفلسفته المعتمدة
على القوة والعنف امتدادا للتفكير اليهودي العالمي في اتخاذه المخططات
الارهابية وسيلة لاشاعة الاربك على صعيد القارة الاوربية وعلى الصعيد
العالمي لكي تنجح اليهودية العالمية بوصفها القوة المنظمة فتستغل ما يسود
العالم من فوضى في سبيل اقامة صروحها الهادفة الى السيطرة على العالم
واخضاعه للتسلط اليهودي .

ويمثل (ليون تروتسكي) النزعة اليهودية التي تهتم قبل كل شيء ببث
حالة الذعر والفوضى على اكبر صعيد ممكن لكي تتمكن اليهودية العالمية من
امرار مخططاتها المجرمة في وسط ملائم مما ادى الى ان يقوم تروتسكي ببناء
جيش خاص لتحقيق فكرته متحاشيا التنظيمات التقليدية للجيش الاوربية،
ولكن نجاح تروتسكي لم يلبث ان وضع حد له وانهت ايامه عندما اغتيل
عام ١٩٣٠ في المكسيك .

وهناك جانب في التخطيط اليهودي على الصعيد العالمي تميز به العمل
والحركة اليهوديتان الا وهو استغلال ما قد ينجم من صعاب ليهود العالم
واعادة تصويره عن طريق السيطرة على وسائل الدعاية والاعلام وبذلك
تكسب اليهودية نصارا جدد مستغلة العواطف التي يحملها بسطاء الناس
الا فرق بين عامتهم وساستهم .

وتتمثل الخطة اليهودية في استغلال الرأي العام العالمي عن طريق
تشويه الحقائق والتأثير على الدوائر والنظم السياسية السائدة في العالم مع
ايقاع الكثير من المؤسسات الدينية والخيرية وخصوصا في العالم الاوربي
تحت سلطان الدعاية اليهودية في الطريقة التي عرضت بها مسألة ما يسمى
بالمقاييس التي اتخذتها المانيا النازية ضد اليهود وقد صورت تلك المقاييس
عن طريق المخططات السياسية والدعائية اليهودية بشكل مذابح اجماعية
تعرض لها يهود اوربا عامة ومانيا خاصة مما ادى الى استغلال الضمير
العالمي ودفعه للعطف على الاكاذيب التي صاغتها مخيلة اليهودية العالمية

بشكل حقائق عن طريق استخدام وسائل الاعلام كالصحافة والسينما وما
ليها من مؤثرات لها وزنها في تكوين الرأي العام العالمي .
والحقيقة ان ما يسمى بآبادة اليهود على ايدي النازيين في المانيا قبل
واثناء الحرب العالمية الثانية لا يعدو ان يكون خرافة صاغتھا الميخلات
اليهودية المجرمة لكي تغتال بها الضمير العالمي لان ما قام به هتلر لم يكن
من اساسه الا الامتدادا للتعاليم اليهودية فالتلمود وهو الكتاب الذي حل
محل التوراة القديمة مليء بالخطط السياسية الانتهازية التي تجيز القتل
والارهاب في سبيل تحقيق الغايات التي تنسجھم والاهداف اليهودية المؤكدة
على اخضاع العالم لسيطرة بن اسرائيل .

كما تنص تعاليم التلمود على ان اليهود هم الشعب المختار وان اسرائيل
وهبت كقاعدة للانطلاق ما بين دجلة والنيل كمجال حيوي لدولتها اليهودية
المقبلة مما يؤيد الفكرة العنصرية لدى اليهود ونظرتهم الى الاقوام الاخرى
في العالم نظرة ثانوية وقد اخذ هتلر نظرتة العنصرية عن اليهود انفسهم
وبذلك نرى ان كتابه (كفاحي) يؤكد على ان اليهود هم من الجنس الآري
ولكنهم يمثلون سرطانا خبيثا في جسم هذا الجنس لأبد من قطعة اذا اريد
للجنس الآري ان تستقيم له اسباب الحضارة في المستقبل وسيطر على
العالم وبذلك يكون هتلر تلميذا من تلاميذ الملك اليهودي داود وكتابه
(كفاحي) يمثل دون شك طبعة اخرى من طبعات الكتاب العنصري الاول
في العالم وهو (التلمود) ويظهر تأثير التفكير اليهودي فيما كتبه روزنبرك
فيلسوف النازية في كتابه الشهير (اسطورة القرن العشرين) الذي ترسم فيه
خطى التلمود والفكر اليهودي وجعل من اثر العرق الآري حقيقة اعترھا
العامل المحرك للحضارة والعلم منذ اقدم العصور حتى الوقت الحاضر
ويضيف روزنبرك الى اوهامه هذه بان المحاولات الاسيوية هي التي هدمت
الفكر اليوناني القديم الذي كان آريا في سداه ولحمته وان العالم اليوم
يواجه حقيقة مرعبة فحواھا ان الاجناس الرخيصة تسيطر على ما دعاه
بالاجناس الخلاقة وعلى رأسها الجنس الآري فاذا اريد للعالم ان يظفر بحياة

حضارية ذات رقى وتقدم بالمستقبل فما عليه الا ان يسلم قياده للجنس الآري فاذا لم يتم ذلك فللجنس الآري الحق في المجيء عن طريق القوة وهذا نوع من اصفاء الشرعية على الحركة النازية في المانيا وما حاول هتلر القيام به للسيطرة على العالم تحت ستار من سموم العرق الآري •

واذا اضفنا الى بذور التعصب التي اخذها ادولف (هتلر) عن اليهود انفسهم وما كان سائدا في المانيا قبل دخولها الحرب العالمية من المؤامرات التي دبرها اليهود عن طريق اضعاف قيمة المارك الشرائية واختزال العملة الالمانية الى مجرد اوراق مطبوعة امكنا أن نعرف الاسباب الحقيقية لما يحاول اليهود منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ان يجعلوا منه رداء ثقيل يلقى على وجه الضمير العالمي وترتكب باسم ما يدعونه من مجازر لحقت باليهود الاوروبيين اعمال الغدر التي مارسها اليهود منذ ان ابتلى بنو البشر بهم •

والواقع ان المناقشة الهادئة لما يدعى (المجزرة اليهودية) كما تحاول وسائل الدعاية والتمويه التي يشتريها ويستغلها اليهود ان تصفها لم تكن وليدة الظروف القريية او تخيلات لمريض سايكوباتي كهتلر فقد عاش اليهود في المانيا منذ مدة طويلة شأنهم في ذلك شأن اليهود في كل بقعة من الارض ابتليت بهم ولكن الفرق بين يهود المانيا وغيرهم من يهود اوربا هو ان القومية الالمانية القوية بصلابتها وباجنحتها الفلسفية والاقتصادية لم تفسح للفكر اليهودي لكي ينشر شبكاته في التجسس ويخطط لعمليات الارهاب والقتل والتدمير • فقد وقتت المانيا القيصرية ضد اليهود لانهم حاولوا تهريب اموالهم والاضرار بالخزانة القيصرية في ذلك الوقت لكي يضعفوا من قوة المانيا في الحرب العالمية الاولى وقد اثر سلوك اليهود بالنسبة للقومية الالمانية على الصعيدين الفكري والواقعي ، في نفسية الشعب الالمانى ففي مجال الفكر مسيت الفلسفة (الهيگليه) على يد كارل ماركس حتى ان الفيلسوف الالمانى هيگل قال (لقد اوقضى ماركس على رأسى) • اما على الصعيد السياسى والواقعي فأن اليهودية لعبت دورا غايتها

تحطيم الالمان شعبا وحكومة ومستقبلا فقد قامت في المانيا بعد ثورة سنة ١٨٤٨ جمهورية (الفاميار) وكان مقر تلك الجمهورية في مدينة (فايمار) تحديا للشعور الالمانى وهدما لمكانة العاصمة برلين في نفوس الالمان كما فعلت المانيا الغربية في الوقت الحاضر عندما تحددت الشعور القومي الالمانى فنقلت العاصمة من برلين الى بون •

ويمثل دستور جمهورية الفاميار محاولة لاشاعة الفوضى في الحياة السياسية الالمانية وضرب القومية الالمانية عن طريق الاخلال بالعلاقات الاجتماعية وتشويه الكثير من المفاهيم التي درج عليها الالمان وعلى الاخص تقديسهم للدولة ومحاولة تجميع الفلسفات لكي تخدم قيام الدولة الالمانية وتركيبتها واهدافها وبذلك حاولت اليهودية العالمية ان تربك الفكر القومي الالمانى عن طريق اشاعة الفوضى بالنسبة لتفكيره السياسى والاجتماعى وقد فطن الى هذه الناحية بالذات الكاتب الالمانى اميل لودفيك في كتابه (الالمان شعبا وعباقره) وعندما هزمت المانيا القيصرية في الحرب العالمية الاولى لعبت اليهودية دورا شكا دورا اساسيا في هزيمتها وختمت صفحة الحرب العالمية الاولى بالنسبة لالمانيا بتوقيع معاهدة (فرساي) والمعاهدة بذاتها تمثل تنازلا وتعويضات فرضت على دولة مغلوبة هي المانيا ولكن اليهودية العالمية لعبت دورا كبيرا في صياغتها بالشكل الذي جاءت عليه نصوص المعاهدة وبذلك حفرت اليهودية العالمية اخدودا اخر في جسم القومية الالمانية لم يكن من السهل ان ينسى وعلى الاخص في الفترة القريية التي فصلت بين الحربين العالميتين الاولى والثانية •

وفي وسط تلك الفوضى التي عمت مدن المانيا كلها وتحوت وطأة التعويضات التي لم تكن تتناسب وما فقده الحلفاء في الوقت الذي خسرت فيه المانيا كل ممتلكاتها واطماعها في العالم ظهر (ادولف هتلر) وكان طبيعيا لرجل مثله ينشأ في العدم والفراغ التي اصيبت به المانيا اثناء وبعد الحرب العالمية الاولى ان يفتش عن أسباب الضعف ويبدأ باجتثاثها من اصولها الواحد تلو الاخر فبدأ بمحاربة الضعف الداخلي وكانت هناك ايد يهودية

خفية تعمل من وراء الستار لابقاء المانيا مجزأة فبدأ هتلر يكافحها على الصعيد الفكري مدونا خططه في انجيل النازية او الاشتراكية الوطنية (كفاحي) فلما استتب له الامر وصار المستشار الاول وعلى الاخص بعد موت (هندبرغ) بدأ هتلر يبني المانيا كما يجب أن يبينها كل من تشبع بالفكر القومي الالمانى •

فشرع بالغاء معاهدة فرساي وطفق يبني اقتصاد الحرب الذي ينهض على تعبئة شاملة لكافة الموارد البشرية والطبيعية ونظرا لقصر فترة التعبئة فقد اوجدت الضرورة تأكيدا قويا على القومية الالمانية وذلك بخلق شعور بالعمل في سبيل الغد الالمانى الافضل مع اكنفاء ذاتي وقناعة وجدانية بان التضحية امر واجب وفي محلها على وجه الدقة والضبط •

وتجاه هذه المخططات بدأت اليهودية العالمية ترمي شباكها متجسدة ومخربة في آن واحد وقد اتخذت المخططات اليهودية سبلا تعكس الحقد والاجرام وذلك بسحب ودائعها من البنوك الالمانية والقيام بتهريب العملة والمعادن النادرة الى الخارج مما اربك الاقتصاد الالمانى واطعن قيمة المارك في الداخل والخارج •

وزاء هذه التصرفات التي لم يقصد منها طبعاً المناوأة للحكم القائم انذاك او معارضته وانما هدف منها تقويضه عن طريق تهديم تشكيلاته الاقتصادية والاجتماعية في الداخل ، شرع هتلر يتخذ بعض المقاييس للرد على التحديات اليهودية فقد قام بتجميد اليد اليهودية وكفها عن الدسائس في السياسة والمال وقد تجمع نتيجة ذلك جيش كبير من اليهود العاطلين وكانت الخطوة الثانية وعلى الاخص في الوقت الذي كان يقوم هتلر فيه بتعبئة شاملة لموارد المانيا لكي تواجه حربا واسعة وطويلة المدى تحتم عليه الاستفادة من كل طاقة او مورد ، ان يفكر في مصير اولئك اليهود الذين لم يستحقوا صفة المواطنة بل اثبتوا عكس ذلك بانهم عنصر مخرب فعرض ادولف هتلر على العالم مبدأ مفاده نقل مالدي المانيا من اليهود او قبولهم في بلدان اخرى •

ولم يكن العالم وفي مقدمته في ذلك الوقت الدول الاوربية واميركا باقل من المانيا نفسها خوفا من اليهود والدسائس اليهودية فقد رفض اليهود من قبل اكثر سكان المعمورة وكانت هناك محاولات لاسكانهم في شرق افريقيا ولكنها باءت بالفشل لان الروح الافريقية لم تقبل ان تدنس على يد فئة من اليهود لفظتها الامم الاخرى •

وهنا سنحت لليهود فرصة لكي يكونوا مواطنين في المانيا نفسها ولكن الرواسب التي خلفها التلمود وعمقتها اليهودية العالمية حالت دون ان يندمج اليهود الالمان بالشعب الالمانى او يكفوا عن دسائسهم ومخططاتهم لاطهار خضوعهم للحماية الالمانية •

وبدأت سني الحرب تثقل على المانيا وكان على هتلر ان يستفيد من كل طاقة وبدأ التاريخ يكتب ما لهذا الرجل وما عليه وكثرت المؤامرات التي غذاها اليهود حتى بين افراد الجيش الالمانى وهنا تخلص هتلر من بعض اليهود بان عزلهم في معسكرات خاصة تأثرت بنقص المواد الغذائية التي ساد المانيا في تلك الفترة نظرا لمتطلبات الحرب •

وانتهت الحرب العالمية الثانية فاذا باليهودية العالمية تشتري اكشر وسائل الاعلام بالعالم وتجمع الاف الصور وتزور الكثير من الوثائق لكي تخرج على العالم بفضائح لا يمكن ان تقترب خلال الفترة التي قيل انها اقتربت فيها خلال الحكم النازي لالمانيا •

وقد تفننت اليهودية العالمية ومن يسير في ركابها من المتهودين وممن اشترتهم من كتاب وصحفيين في تصوير الكثير من وسائل القتل والابادة التي لا يمكن ان تتم الا بتخطيط فكر مجرم كالفكر اليهودي •

فما ذكره اليهود ووسائل دعايتهم ان عددا من الملايين اليهودية قد قتل او ابعد على حد تعبيرهم فكيف كان عدد اليهود في المانيا ؟ وكيف تم للنازية جمع تلك الملايين ؟ وما هي الطريقة التي يباد فيها الالاف من الناس مرة واحدة ؟ وهل يتفق وابطسب قواعد الخطأ والصواب ان تتم عمليات القتل والابادة بالشكل الذي تحاول الدعايات اليهودية المضللة ان تبثه ؟ لان اوضح ماخلف

لنا من اثر بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ان هتلر واركان حربه بعد ان ثقلت عليهم مشكلة التخلص من اليهود العاطلين جمعهم في مسيرة بدأت من المانيا لتنتهي في ايطاليا • فلم تذكر وثائقها او باسناد صحيحة عمليات الابادة كما ذكرتها المصادر اليهودية او كما تحاول ان تجعل من اضاليلها مؤلفات وافلام متوخية ابقاء الحقد في نفوس الاجيال اليهودية المتتابة •

وجريا على خطة اليهودية العالمية في خلق المآسي ثم استغلالها لصالحها حيث تنتفع قلة من المغامرين اليهود في اغتصاب مفاتيح المال والسيطرة في العالم ، فقد اجتمعت عصابة من اليهود تقطرت في دمائهم حوامض الجمعيات النهليستية والحقد العنصري والشهوة العارمة في الهدم في ٢٩ آب ١٨٩٧ م يبازل بسويسرا وبحث في اقامة قاعدة عنصرية تتخذ كبؤرة للاقتراض على كل ما هو خير في العالم •

وقد رأس تلك الزمرة من العقول المريضة الهدامة يهودي نمساوي اسمه هرتزل امتهن الصحافة في اول حياته ولكنه لم يلبث ان انقلب الى داعية يهودي هدام بعد ان اخذت اليهودية العالمية تستغل قضية دريفوس لاطهار اليهود بمظهر الحمل الوديع وهو يتعرض لشواظ في احتقار البشر الاخرين ومقتهم •

ومن الغريب حقا ان يحاول بعض من كتب عن اليهود واليهودية في الشرق العربي او اوربا اضعاف طابع العفوية على هرتزل ووصف ظهوره بانه مجرد صدفة ساقنتها الى الحركة والتنخيط المجرم محاكمة دريفوس • الا ان الواقع يخالف عدم العمق هذا في فهم عمل المنظمات السرية الخطرة كالجمعيات اليهودية • فهرتزل يصور في المؤلفات الاسرائيلية بانه الرأس المدبر لكل ما خطط ونفذ لبناء قاعدة يهودية ويشار اليه بحكيم آل صهيون وتظهر صورته وهو يركب أتاناه وكأنه خارج لتوه في العهد القديم للتوراة لكي يقود الاسباط في مظاهرة ضخمة مما يتفق وسياسة العصر الحاضر •

ان شخصية تصور في الزوايا اليهودية المظلمة بهذا الشكل لا يمكن ان تكون آتية عن طريق غير معروف دفعت على مسرح السياسة والاجرام

لا انهالا تلبث ان تكون الرأس الموجه لطفمة الدس والهدم المسماه باباء الصهيونية وكلهم عريق بالتأمر والاجرام والتهلسية فكيف يرتضون ان يكون على رأسهم صحفي مغمور كتيودور هرتزل ؟

لذا فان أقرب ما يمكن اتفاقه مع التحليل التاريخي بالنسبة لتيودور هرتزل في الحركة اليهودية العالمية هو فهم تنظيم وعمل الجمعيات النهلستية وبدقة العصابات اليهودية فهناك ما يسمى (النائمون او سلييرز) وهذا النفر من أعضاء الجمعيات والعصابات اليهودية لا يعرف عنه الشيء الكثير وقد يخفي شخصيته فيظهر خلاف ما يبطن وقد يترك دون عمل او حتى اتصال لعدد من السنين ويشجع هذا النفر من عملاء العصابات اليهودية للانضمام الى التنظيمات والتشكيلات السياسية والاجتماعية في البلد الذي يعيش فيه فاذا احتاجت اليه جمعية او عصابة او عزت اليه بالعمل الذي يتراوح بين الدعاية او بث الشغب او التدمير والاعتقالات .

وليس بعيد ان يكون تيودور هرتزل احد (النائمين) من أعضاء الجمعيات النهلستية اليهودية ظل فترة طويلة يعمل في الخفاء كصحفي في النمسا حتى اذا طغت الظروف التي تستدعي (ايقاظه) اعيد الى الحياة والحركة الشبيطة فواكب محاكمة دريفوس ثم اثار ضجة حولها فاذا به ينتقل من غايته هذه الى هدف آخر هو انشاء خلية سرية تضم يهود العالم تكون بؤرة لتجمعهم وتكثيف ما يحملونه من حقد واجرام بحق البشرية وحضارتها وعلى الاخص الامم ذات القوميات العريقة التي يخشى منها اليهود على آمالهم المحمومة للتسلط على عالم المستقبل .

وما دمنا بصدد بحث التخطيط والشبكات اليهودية باوجهها المستترة والظاهرة فان تحركات اليهود في عالم الظلام والكواليس السياسية لقي معارضة قوية على الصعيد العالمي مما حدا باليهود الى تغيير الوسيلة وان بقي التأكيد على الهدف كما خططته الطغمة اليهودية المجرمة في اشاعة الفوضى والارباك حيث يخرج الحقد اليهودي لكي ينتقم من سكان هذا الكوكب وكأنهم مسؤولون عما جنى اليهود بانفسهم على ابناء جلدتهم .

وبوحى من تغيير السبل او الوسائل فقد عمد اليهود الى تكوين جمعيات ونوادى تستر تحت شعارات تدعو الى ايجاد صلات بين الاتجاهات الفكرية والدينية فى العالم لتكوين (اخوة) كما تدعى ، تساعد على قيام (صداقات) دولية تربط العديد من سكان هذه الارض كما تحاول اليهودية العالمية ان تغلف الاهداف الحقيقية لمثل هذه التكتلات المشبوهة .

ومن الصق الامثلة على هذا التخطيط المظلل (الجمعيات الماسونية) وهي عصابة دولية قصد منها اماتة الشعور القومي والخلقي لدى اعضائها وايقاعهم فريسة الخوف والطلاسم حتى يبقى كل منهم مشدودا بالجمعية وعلى استعداد للتضحية بقيمه الدينية والخلقية والقومية فى سبيل تحقيق الاهداف التى تتطلبها رغبات الطغمة الموجهة .

وتقوم طلاسم واسرار هذه الجمعية الرهيبية على مفاهيم غامضة يقال انها من بقايا الحملات الصليبية المتأخرة تركت بشكل كتابات مخترلة على جوانب هيكل سليمان فى الارض المقدسة ثم اخذت هذه الكتابات تحفظ دون فهم لمعانيها وقد استغل اليهود هذه المعينات ففسروها بالشكل الذى يصدم كل القيم الدينية والقومية وللتأكد من ضرب هذه القيم لا بد من انتزاع كرامة الانسان عن طريق ايقاعه تحت عامل الخوف بجو رهيب يجمع بين الهياكل العظمية ومناظر للموت والجحيم حيث يلف العضو الجديد بكفن ويوضع فى تابوت اعد لهذه الغاية ، ولا تمام المراسيم الخاصة بالعضوية قد تنتهك كرامات الانسان الاخرى وبذلك يقع تماما تحت تأثير الارهاب الماسونى ويقوم بتنفيذ ما يطلب منه بكل خضوع واذلال والا كشف سره او تعرض للموت .

ومما يزيد الماسونية اتصالا بالاستعمار هو ان الماسون الاول والباني الكبير يتمثل فى ملك او ملكة انكلترا مما يوضح الصلة بين اليهودية والاستعمار لضمان عمل مشترك بينهما يهدف الى استغلال خيرات العديد من بلدان آسيا وافريقيا واوربا اللاتينية عن طريق ايقاع العديد من رجالها تحت تأثير (الصداقة الماسونية) التى تغويهم اولا فاذا انزلت اقدامهم

صعب عليهم التراجع • لذا فليس مما يدعو الى الغرابة ان يصدر
يلفور تصريحه المشؤوم لان هذا البلفور كان ماسونيا اولاً ووزيراً لخارجية
بريطانيا ثانياً فهو والحالة هذه خاضع لما يصدر اليه من اوامر واهواء قد
تسبب في القضاء على وطن وتشريد اهله •

وقد سار على النهج المريض نفسه ونستون تشرشل فقد ذكر الكاتب
الصحفي الامريكى جون غنتر فى كتابه (داخل اوربا) وفى القسم الخاص
برئيس وزراء بريطانيا السابق انه عرف تشرشل بناء ممتازاً وكثيراً ما
كان يرتدى ملابس البناء الخاصة به ويشرع فى معالجة الاجر ومواد البناء
الآخري لينتج منها عملاً انشائياً متناسقاً •

وليس المراد طبعاً بالبناء ما هو مقصود بظاهر اللفظة فقط فان الماسون
او جمعية البنائين تتخذ من هذا الاسم ستاراً يخفى مقاصدها الحقيقية فى
هدم القيم الدينية والقومية والاخلاقية لتنفع عصابة من ذوى المال والنفوذ
تتحكم فى مصير العالم تمارس نفوذها عن طريق ما يسمى بروابط الجمعية
الماسونية القائمة على الدرجات والتسلسل فى صفوف البناء الماسونى
فالقصد الاكثر انطباقاً على ما خلقته هذه الجمعية من مآسى وآثام هو
محاولة الماسونية هدم العالم اولاً واعادة بنائه كما يشتهى المسيطرون عليه
ثانياً • وفى هذه النقطة بالذات تتعاقب الماسونية واليهودية ولسنا بحاجة
الى التأكيد بان تشرشل كان ذا مكانة بارزة فى الجمعية الماسونية هو
والمارشال سمطس فى جنوب افريقيا واللورد كرومر فى مصر وبرسى
كوكس فى العراق والسردار لي ستاك فى السودان وهربرت صموئيل
المندوب السامى البريطانى فى فلسطين •

وقد استغلت اليهودية العالمية الماسونية وغيرها من الجمعيات والنوادي
كنادي (الروتاري) و (اللاينز) فى سبيل بث التعاليم اليهودية الهادفة
للسيطرة على العالم عن طريق حصر المال والجنس والقوة السياسية فى
ايدى حفنة من اليهود وجعل هذه المنبهات القوية لبني البشر وسائل تتحكم
عن طريقها الاطماع اليهودية فى تغيير تركيب العالم السياسى والاقتصادى

والفكرى مما يتفق والمخططات اليهودية التى لا تخضع لما نسميه فى اكثر
مجتمعات العالم خيرا او شرا ولكنها تسيير وفقا لمفاهيمها الخاصة فما يعود
عليها بالفائدة هو خير وان اجمع العالم على انه شرير والعكس صحيح •
ولكن الغريب (وان كان الوطن العربى فى اول فهمه لمشاكل السياسة
وما كان عليه الوضع الدولى من تعقيد بالنسبة لقضايا العرب الكبرى
ولوضعهم كعرب اولا وكبشر يحاول ان يحصل على حريته ثانيا) ان يقع
بعض العرب فى حبال المكائد اليهودية فقد جرت اتصالات بين الملك فيصل
الاول وكان اميرا انذاك والداعية اليهودى هرتزل ثم قام حسين مؤسس
الاسرة الهاشمية بمفاوضات مع الماسونى مكماهون سفير بريطانيا فى مصر
انذاك وقد اوقع قسم من العرب انفسهم عن رغبة او غباء فى المخططات
اليهودية واصبحوا اعضاء فى الجمعيات الواقعة تحت النفوذ اليهودى او
النوادى التى تمول من قبل اليهود انفسهم ومن المؤكد ان مجموعة من
الحكام التقليديين فى مصر والعراق وسوريا ولبنان والاردن وكذلك امراء
بعض المشيخات فى الخليج العربى اتصلوا او كانوا اعضاء فى هذه الجمعيات
الخطرة •

ولعل من المناسب ان نذكر بان اليهودية العالمية فى تسييرها لهذه
الجمعيات والنوادى واقامة الروابط بينها وبين شركات النفط والشركات
الاحتكارية الاخرى فى العالم قد ضمنت السيطرة او التأثير على الاقل على
مسرح السياسة وسوق المال ودوائره ومؤسساته فى اكثر بلدان العالم
والامثلة على ذلك كثيرة منها بنوك فى كثير من اقطار المعمورة اقربها الى
الذهن بنك باركليز الذى خنق اقتصاديات مصر فترة طويلة والبنوك
الانكليزية والامريكية والالمانية والسويسرية والفرنسية الاخرى وكذلك
بعض البيوتات المالية كروتشيلد وروزنبرك وكوهين ولني وغيرهم ممن
يتملكون الكثير من الاسهم والسندات والموجودات النقدية والمعدنية ذات
القيمة •

وليس سرا أن اسرائيل تسيطر بشكل او آخر على المؤسسات المالية

في جنوب افريقيا وروديسيا وانها تدير اكبر تجارة في العالم لصناعة
الماس ذي الاحجام الصغيرة بينما تحاول شركة (سوليل بونيه) اليهودية
مد اخطبوطها في الابعاد المختلفة لافريقيا متعاونة مع وزارة خارجية اسرائيل
التي تقدم الجنس والكحول والمؤامرات ومطبوعات حول كيفية انشاء
المستعمرات اليهودية - الكيبوتس - في اقطار افريقية حديثة العهد
بالاستقلال مما يجعل من سلاح مقاطعة اسرائيل وسيلة ناجحة وقاطعة
في الوقت نفسه للقضاء على الرثة الاقتصادية التي تريد المؤسسات اليهودية
ان تنفس فيها في قارات افريقيا وآسيا لتنثف في الوقت نفسه سمومها
ودسائسها • الا ان نجاح المقاطعة العربية لاسرائيل يحتاج الى اجهزة
مخلصة وكفوءة والى ان تصاحب اجراءات المقاطعة تهيئة نفسية على صعيد
الوطن العربي والصعيد العالمي لكي لا يقع البعض في الارض العربية أو
العالمية تحت ثقل الدعاوى اليهودية المظلمة ولكن هذه المخططات العربية لو
افترض تمام الاعداد لها فان المقاطعة تبقى بعيدة عن النجاح الكلي ما دامت
هناك شركات للنفط تعتمد على ما تقدمه الكثير من ميزانيات الدول العربية
وتتصل بهذه الشركات سفارات ووكالات تجسس للعمل باسم الاقتصاد أو
العلم أو حتى الروح والمحبة بالاضافة الى حاجة البلدان العربية الى ما يسمى
بالقروض الاجنبية والخبرة الفنية وتهيئة الجو الملائم للسياحة والسائحين
مفصح المجال امامهم للتعرف على ما لا يعرفه ابناء الوطن العربي انفسهم
بل اكثر من ذلك تشجيعهم على فتح مدارس ومؤسسات تتراوح اعمالها بين
التعليم والصحافة ونشر تعاليم المحبة وبين التجسس كما هي الحال في
مدرسة شملان في لبنان •

الاسلام ومعارك القومية العربية التاريخية والمعاصرة :

تمتاز القومية العربية بانها حياة وحضارة ومصير وقد عاشت القومية
العربية في ظل حضارات ابنتها في الجزيرة العربية وخصوصا في جنوبها
ثم ازدهرت في شمال الجزيرة نفسها متمثلة في حضارات وادي الرافدين

ووادى النيل والحضارة الفينيقية فى الشام وسواحلها والكنعانية فى ارض كنعان (فلسطين) ثم قبعت القومية العربية فى خيام من الشعر غطت مناطق كثيرة من شبه جزيرة العرب ولكنها (القومية العربية) لم تفقد قوة انطلاقها وان اتخذت سبلا مختلفة للحفاظ على ذاتها مثلها مثل الطاقة لا تبنى ولا تستهلك وان كانت تتخذ اشكالا مختلفة قد تتعايش مع الظروف المحيطة بها ولكنها لم تلبث ان تخرج ثانية لتعلن عن نفسها وتلعب دورها المصيرى فى تاريخ الفكر والواقع العالميين .

وبصورة مختصرة فالقومية العربية قدر له قوة السيطرة على التاريخ والافراد وقد تصور الفيلسوف الالماني هيگل ان الدولة الالمانية هى التى خلقت التاريخ ثم بدأت تتفاعل واياها وقد سخر هيگل من نظرية العقد الاجتماعى لان التعاقد يجب ان يتم بين اطراف متكافئة على الاقل فى الوقت الذى ينجح فيه نفر من العباقرة فى الوصول الى مراكز القيادة لانهم يمثلون ما سماه هيگل بروح التاريخ الذى يعكس فى واقعه خلود الدولة الالمانية حسب وجهة نظره .

والحقيقة ان مسألة التعاقد كما حاول ان يكتب عنها الفكر الفرنسى لا تتفق وعالم الواقع لان مسيرة التاريخ اوضحت ان هناك افرادا لهم قوة دافعة تستطيع ان تستحوذ على المسيرة نفسها فى الوقت الذى يتبع فيه هؤلاء القادة مجاميع كبيرة من البشر انفسهم ويصعب جدا ان يتم التعاقد بين عباقرة من النوع القائد وبين بشر من النوع التابع الا ان نقطة الضعف فى فلسفة هيگل هى اعتماده الدولة الالمانية لتمثل روح التاريخ لان فكرة الروح وعلى الاخص فى مجال الفلسفة السياسية المتصل بحقل من التاريخ تعنى وخيالات تبعد هذا الفكر الاجتماعى ذا البعد الزمنى من ان يكون علما ينسجم مع متطلبات العلوم الحديثة وعلى الاخص الطبيعية منها .

يتبين لنا من ذلك ان هيگل وان نجح فى نقد نظرية التعاقد الاجتماعى الا انه فشل فى تفسير الاحداث التاريخية وان كان يحس بغموض له اثره فى تسير الحدث التاريخى هذا الغموض هو الذى دفع هيگل الى فكرة

• ميثافيزيقية يستطيع عن طريقها تحليل الاحداث التاريخية •

وإذا درسنا الاشكال الخاص بالتاريخ وبالعبقرية والحدث التاريخي بالنسبة للواقع العربي فاننا سنجد حتما بان هناك قوة تدفع بالعرب وتهمى المجال لحضاراتهم وعبقرياتهم وتحفزهم من وقت لآخر على العمل والحركة والتضحية هذه القوة يصعب ان تحلل وفق منهج البحث العلمى لانها لا تخضع لمفهوم الحدث التاريخى فهى اقوى من أن تهزم واصعب من ان تستسلم ولم تخضع قط لقوانين الضعف والتحدى او تقع تحت السيطرة فتعاني الذل والانكسار ، كما انها ليست قوة غيبية ميثافيزيقية لها اصولها وجذورها فى عالم من الغيبيات مما يجعل واقع وحركة هذه القوة غير مفهومين وخاضعين لعامل الصدفة تماما مما يؤكد ان وجهة نظر هيگل فيما يختص بفكرة الروح لا تنطبق على القومية العربية ومن الاصول ان توصف القومية العربية بانها اللاشعور التاريخى لاحداث الامة العربية وبذلك تتخلص من ميثافيزيقية هيگل من جهة ومن الخلط بين الاحداث التاريخية العادية التى تخضع لعوامل الضعف والقوة والانكسار والانتصار وبين قوة تسمو فوق هذه العوامل تمثل حصيلة الفكر والجهد لقدوة من العقول العربية التى لم تغير واقعها فحسب وانما بدلت وجه العالم بما انتجت وخطت وانجزت من فكر وعمل وحضارة من جهة اخرى •

فالقومية العربية اذن لا شعور تاريخى عربى يعيش فى كل ذات عربية وقطر عربى وهى فى الوقت ذاته صفة من صفات العرب فقط ومن هنا ينشأ التمييز بين العرب وغير العرب فالنفر الاخير من غير العرب الذين يستعربون ويتبنون الصفات العربية يكونون لهم بالفعل شعورا عربيا قد يربك الامر على غير العرب فيتصورونهم عربا بالفعل ولكن هؤلاء مهما حاولوا ان يكونوا شعورا قويا ينسجم مع متطلبات الشعور العربى فان شعورهم لا يتسع الى دائرة اعمق ويظل مظهرا فى الفكر والسلوك فقط أما اللا شعور القومى الذى يعكس الصفة الاصلية للقومية العربية فانه يبقى بعيدا عن اولئك المستعربين •

وكما اوضحنا ان القومية العربية هي طاقة عربية لا شعورية وانها تتأثر وتؤثر بالعوامل المحيطة بها فان هذه القومية استطاعت ان تبلور طاقتها بشكل حضارات عربية قديمة ثم اخترلت الى حياة بدوية واكبت حياة العرب الرحل فى شبه الجزيرة العربية الا ان المؤثرات الخارجية ما لبثت ان طغت على الطاقة الدافعة للقومية العربية • وبعبارة اوضح فان القومية كقوة لا شعورية تحاول ان تقيم نوعا من التوازن بينها وبين المحيط الخارجي ونظرا لقوتها الدافعة فانها تسعى دوما ان يكون التوازن في صالحها وهذا ما ظهر فعلا بالنسبة للحضارات القديمة التى اخذت مكانها فى جنوب الجزيرة العربية وفى الرقعة الخصبة الممتدة فى شمالها ثم لم تلبث المؤثرات الخارجية ان طغت مرة ثانية وبذلك انكسرت القومية العربية وعاشت بشكل قبائل متفرقة لكى تكون اقدر على حفظ ذاتها واشد تأثرا بالارض العربية وبالظروف الجغرافية التى تعد بحق اعظم وعاء لاقوى قوة قومية فى تاريخ العالم وحاضره •

الا ان القوة الدافعة فى القومية العربية اخذت تشعر بما يحيط بها من مؤثرات خارجية حاولت ان تتعدى حدود الموازنة بين المؤثر الخارجي وقوة المطاوعة للقومية العربية فقد استولت الامبراطوريتان الفارسية والبيزنطية على رقعة واسعة من الارض العربية واخذت تلك الامبراطوريات تبسط نفوذها على مركز الثقل العربى المتمثل انذاك فى شبه الجزيرة العربية فقد استطاعت الامبراطوريتان كسب بعض مناطق النفوذ وعلى الاخص فيما يقع بين حدود شبه جزيرة العرب وبين المناطق العربية التى كانت تحتلها قوى الفرس والبيزنطيين فى ارض العرب الا انهما لم يستطيعا التوغل فى قلب الارض العربية •

ويحاول بعض المؤرخين ان يعلل السبب فى عدم لجوء الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية لمغامرات عسكرية فى شبه جزيرة العرب الى ما نطلق عليه اليوم ببعد خطوط التكوين وصعوبة ادامة الجيوش المحاربة من جهة وفقر المنطقة من جهة اخرى • والواقع ان هذه الاسباب تبدو منطقية ولكنها

لا تتفق والموضوعية التاريخية فان الكثير من السواحل العربية كانت تتمتع
بمركزين الاول استراتيجى عسكري يؤمن السيطرة البحرية على السفن المارة
فى البحر بشبه الجزيرة العربية والثانى اقتصادى يتمثل بمناطق كثيرة
خصبة منها جنوب الجزيرة العربية حيث تقع ارض اليمن وحيث يكون
الطقس ملائما لقيام حياة زراعية مزدهرة •

والحقيقة ان تراجع الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ينبع من
خوف تلك الامبراطوريتين وغيرهم من الغزاة الطامعين من قوة القومية
العربية وعلى الاخص فى مكنها الاصيل فقد وجدت حدود فاصلة بين
الفرس والروم من جهة وبين العرب من جهة اخرى تماما كما هو الحال فى
العصر الحاضر حيث تقوم الحدود بين الشرق والغرب فقد توفقت جيوش
الحلفاء عند نقطة معينة فى الحرب العالمية الثانية وذلك يوحى بانها أتت
الى الحدود التى يجب ان تنتهى اليها فقد كانت هناك فواصل فى مخيلة
قادة كل من الدول الشرقية والغربية فيما يختص بتخطيط الحدود بينهما ،
وبذلك توقفت الامبراطوريتان الفارسية والبيزنطية من المحاولة فى ارض
العرب انفسهم •

الا ان بوادر التسلل الاجنبى ما لبثت ان سلكت طريق التجارة اولا
وطريق بث التعاليم الدينية الغربية عن الارض العربية ثانيا وبدون شك
فان رجال المال من قريش مسؤولون مسؤولة قومية وتاريخية لانهم فتحوا
ابواب الوطن العربى امام الغزو التجارى والدينى لقوى تعمل قواعدها
خارج حدود مركز الوطن العربى فى ذلك الوقت وهذا هو بالضبط مفهوم
الجاهلية ومعناها جهل العرب وبالتحديد (المتنفذين منهم) بالمركبات
الاصيلة للقومية العربية ووضع مصالحهم التجارية والخاصة فوق مصالح
امنهم فقد اتشتر التجار فى مكة وغيرها من المدن وسادت فى المجتمع المكي
روح من عدم المساواة لا تتفق باية حال من الاحوال مع المفاهيم الاصيلة
للقومية العربية وبدأ قسم من العرب يتعاملون مع العناصر الاجنبية دون وعى
منهم واخذت القيم الدينية الاجنبية تتسلل الى تلك الارض من الوطن

العربي وأخذت تكسب المؤيدين وان جوبهت في كثير من الاحيان بالقوة الدافعة للقومية العربية التي تميل الى البروز عندما تبدأ التحديات بتوجيه الضربات اليها . فقد نشأ نتيجة قيام المدن التجارية في شبه الجزيرة العربية اختلال في التوازن الاجتماعي بين قوة المدينة التجارية وبين سلطة القبيلة التقليدية وبذلك اصبح لزاما اعادة بناء المجتمع العربي بشكل يكفل توازنا اجتماعيا سليما يعود بالفائدة على الفرد والمجموع وبهذه فقد ظهرت تحديات للقومية العربية على صعيد السياسة الدولية الخاصة بمنطقها تمثلت فى التحركات الاستعمارية للامبراطوريتين البيزنطية والفارسية وما لحق بهامن ذيول انعكست فى المغامرات التجارية والدينية التى لم تكتف بالعمل خارج حدود المجال الحيوى للقومية العربية وانما حاولت ان تهاجم مركز الاشعاع القومى انداك بالاضافة الى تحديات داخلية بدأ اثرها فى اختلال التوازن الاجتماعى بين القوى القبلية التقليدية وبين حياة المدينة ممثلة فى المدن التجارية مما دفع بالقومية العربية الى اعادة تخطيط مركزها بالنسبة للداخل (الاجتماعى) والخارج (السياسى) ولم يكن تركيب الواقع والفكر العربيين ملائما لقيام حضارة تستطيع ان تجعل القومية العربية منها وقاء لما يحيط بها من تحديات كما حدث بالنسبة للصرخة الحضارية العظيمة ممثلة فى مجموعة الحضارات العربية القديمة فالتحديات اصعب من ان تواجهه عن طريق بناء سد حضارى وعلى الاخص تلك التى اصبحت قريبة من مركز المجال الحيوى للقومية العربية واصطبغت على الاكثر بالصبغة الدينية الامر الذى حدى بالقومية العربية ان تدلل على وجودها من جديد وتوقف ما يحيط بها وما يؤثر فى تركيب مجتمعها الداخلى من صعوبات .

فبالاسلام اذن رد فعل جديد للقومية العربية أستطاعت عن طريقه ان توقف ما وجه اليها من تحديات فقد اتسم الاسلام منذ اليوم الاول من انتشار دعوته بانه حركة يراد منها اعادة تركيب المجتمع والانتقال به من حالة التصادم بين القبيلة والمدينة الى صعيد جديد من التفاهم والحركة

الاجتماعيين •

وبعد ان نجح الاسلام فى التغلب على عقبات التنظيم الاجتماعى الجديد وقضى على المشاكل التى حالت دون قيام مجتمع مستقر ومتحرك فى آن واحد ، تطلعت الدعوة الاسلامية بعد ان شملت المجتمع بكامله وانتقلت من التبشير والاقناع ، الى البناء والعمل ثم القضاء على التحديات الخارجية •

وهنا تبرز اهمية الحروب التى خاضتها الجيوش العربية المسلمة فقد حاول الكثر من المستشرقين والمهتمين فى شؤون التاريخ والفكر الاسلامى ان يصوروا تلك الحروب بشكل غزوات قصد منها الاستيلاء والسيطرة ونشر النفوذ الاسلامى بالقوة ولكن الواقع لا يبرر هذه الادعاءات لان الاسلام كان من الممكن له اقامة دولة فى شبه جزيرة العرب تستطيع ان تعول نفسها بنفسها وتكتفى اكتفاء ذاتيا فى متطلباتها الاقتصادية ومنظمتها الاجتماعية بشكل يعود عليها بالفائدة بينما تكون فى الوقت ذاته بعيدة عن التحديات الخارجية نظرا لما يحيط بالارض العربية التى انتشرت فيها الدعوة الاسلامية من حواجز وعقبات طبيعية •

فالحروب التى خاضتها الجيوش العربية المسلمة كانت فى اساسها تنفيذا لما جاءت به الشريعة الاسلامية التى اكدت على ان قيمها الدينية بما حوته من معان اجتماعية يمكن ان تكون ذات نفع للبشر كلهم دون تمييز فى الوقت الذى ضمنت فيه حرية كاملة للاديان الاخرى •

ومن الطبيعى ان هذه التحالف المقدسة كانت بمثابة عهد قطعه العرب على انفسهم ولا بد لهذا العهد من ان ينجز لان العربى اذا وعد وفى ، ومن جهة ثانية فان الحروب الاسلامية تعكس دون شك جانبا نفسيا يتلخص بان الغزوات وما يتصل بها من الحياة العدائية الحربية التى كانت منتشرة فى شبه جزيرة العرب قبل الاسلام مر على ممارستها وقت طويل بحيث اصبحت من العادات الاجتماعية والنفسية المستحكمة وعندما جاء الاسلام ليؤكد على قانون يزيل بواسطته التقاليد المرعية فقد تجمعت قوة عدائية

لدى العرب كان من الصعب اظهارها نظرا لان القيم الاسلامية تحول دون ذلك فاذا ما بقيت هذه الاحساسات النفسية العدائية مكبوتة فانها قد توجه ضد المجتمع الاسلامي فكان لا بد من توجيهها الوجهة النافعة التي تعود على المسلمين بالفائدة وتمنع بالوقت نفسه من حدوث ردة على الصعيدين الديني والاجتماعي نتيجة لما احده الاسلام العظيم من تغيير جذري في عادات العرب وتقاليدهم •

وبكل تأكيد فقد تمكن الاسلام من ان يترجم قيمه الدينية الى واقع سياسى تمثل فى الدولة الاسلامية كما نجح فى اعادة تركيب المجتمع بجوانبه المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وبذلك يصبح الاسلام ديناً يتميز عن غيره من الاديان السماوية بقابليته للتنظيم الاجتماعى ومروته لبناء التشكيلات السياسية وزاد الاسلام على ذلك بان ترك الباب مفتوحاً لحركة فكرية قوية امدها بالرعاية الكاملة وبذلك التقت الثقافات الاغريقية القديمة بالفكر العربى الاصيل كما اثرت القيم الدينية الاسلامية فى تحويل الركائز الوثنية للفلسفة اليونانية الى مستويات وقواعد خلقية اعتمدت على التعاليم الاسلامية دون ان تلجأ الى ما تميز به الفكر الاغريقى من وثنية أو خرافات وهنا يتضح الفارق بين الدين الاسلامى والديانات الاخرى فاليهودية تأثرت الى حد كبير بالتفكير البابلي القديم وعلى الاخص فى التخطيط لجوانب الدين اليهودى الاجتماعى والسياسية والاقتصادية اما المسيحية فانها وقعت تحت تسلط الفكر الاغريقى وبالاخص مثالية افلاطون ومنطق ارسطو التى تبلورت فيما بعد فى تفكير الافلاطونية الجديدة والشروح التى وضعها افلوطين لكتب ارسطو بينما انفرد الاسلام بسموه فوق الفلسفة بشكل عام والاغريقية بشكل خاص بل انه ارتقى فوق هذه الفلسفة وما وصلت اليه من محاورات فلسفية اختلط فيها اللاهوت بالشك فقد ازال الاسلام الجانب الوثنى من الفلسفة الاغريقية وبذلك وضع الدين وقيمه قبل الفلسفة وما تبثته من امور ميتافيزيقية او تلك المستندة على التأمل • ويرجع السبب فى ارتفاع الاسلام فوق صروح الفلسفة الاغريقية

الى انه دين أمة ذات قومية عريقة هي القومية العربية •
ونظرا لان القيم الاسلامية اكثر واجراً واكثر مرونة من غيرها من
القيم الدينية المماثلة في طرح تجربتها على الواقع فقد نشأت بعض الصعوبات
وبعض ردود الفعل التي اعتبرها الكثير من المستشرقين علامات مرض
مثلت التفاوت بين القيم الدينية وبين واقع الحياة السياسية
والاجتماعية والاقتصادية ولكن هذا اللون من التفكير يخالطه الكثير من
الخطأ فان الدين الاسلامي قد وضع القيم التي جاء بها للاختبار في عالم
الواقع وطرحها كاعمق واوسع ما تكون هذه العملية فكان طبيعيا ان تنشأ
ردود الفعل وتحدث بعض الصعوبات التي اختلفت من كونها شكا الى قيام
حروب اهلية وحزازات تمثلت في بعض الانقسامات الفكرية والمذهبية
ولكن عوامل الانقسام هذه خضعت لظل الاسلام العظيم فقد كانت قوة
العمل المشترك اقوى دوما من الانقسامات التي ظهرت في فترات مختلفة
من التفاعل بين الدين الاسلامي وحياة الواقع •

وقبل ان نسمي ما حدث للاسلام عند تفاعله بالحياة ، ردود فعل طبيعية
تحدث لكل نظام مثالي يحاول ان يحدد معالم الواقع حسب ما يتميز به من
مستويات ونظم واهداف، علينا ان نتعرف على الارض التي طرح فيها الاسلام
قيمه للاختبار ونحص التركيب البشري لسكانها وبدون تردد فان القيم
الاسلامية انتشرت في رقعة واسعة من الارض لا يمكن ان يناسب بينها وبين
المساحة التي اظلمتھا القيم الدينية اليهودية او المسيحية • اما البنية
السكانية للمجتمعات التي نشر الاسلام مبادئه بينها فانها تكونت من عرب
ومستعربين وبهذا فقد استطاع الاسلام ان يسرع في انجاز نجاحاته في
ارض الغالبية فيها من العرب لان القومية العربية عملت بشكل فعال في
مد الاسلام بما احتاج اليه من سند في الفداء والتضحية وبذلك تلاحمت
قوة القومية العربية بالقيم الدينية الاسلامية فقد عمل الدين الاسلامي على
ان يكون المظلة الاخلاقية التي جنبت القومية العربية من ان تشتت في
الفكر والعمل فابتعدت بذلك عن كل زيغ او انحراف او خروج على القيم
الاسلامية ذات المحتوى الانساني العميق •

ولكن الدين الاسلامي بوصفه دينا شاملا يمثل حركة خلقية عالمية سعت في سبيل تفاهم أفضل بين بني الانسان ، قد طرح بوحي في هذه القيم المقدسة مبادئ مشبعة بالرحمة والاتساع في شمول الاسلام لاولئك الذين يتمسكون بما نادى به من قيم . وقد اختلفت التراكيب البشرية التي دخلت في الاسلام في تفسير هذه المبادئ فالعربية منها اخذتها على طبيعتها واعتبرتها سندا للقومية العربية في هدفها الرامي الى اتساع تأثير العرب في الفكر والعلاقات الدولية القائمة على اساس من التفاهم والمنفعة المتبادلة بين الاطراف المعنية بوحي من القيم الدينية الاسلامية المتماثلة بينما جنحت التراكيب البشرية غير العربية في تفسير جوانب الرحمة والشمول في الديانة الاسلامية واتخذت منها مبررات لعمل تخريبي في الفكر والواقع .

ففي مجال الفكر ظهرت الكثير من التخريجات والتفسير الغامضة التي تتنافى وما هو موجود من نصوص الى حد التشكيك في وجود معان باطنية لما هو ظاهر في النصوص وبذلك قطعت كل صلة بين الدين الاسلامي وبين هذه المحاولات البعيدة عنه روحا وواقعا لان الباطن اذا انفصل عما هو متعارف عليه بدهاة او عقلا فانه من الصعوبة بمكان ان تحصر المعاني التي يراد بها تفسير النص ويخرج الامر من كونه محاولة عقلية لفهم قيم ذات معان سامية الى الغاز وتخريجات تهدف بشكل فعال الى التقليل من شأن العرب في فهم الاسلام ورميهم بالضحالة من جهة والعبث بالنصوص الدينية من جهة اخرى لذا فان اكثر الجمعيات السرية في الاسلام تأثرت بناحية او باخرى مما يعطي في تفاسير اصبحت بمر الزمن مبطنات لحركات تراوحت بين الزندقة والاعتقالات وان كانت كلها تدخل تحت عنوان الشعوبية .

وسقطت بغداد على يد المغول ولكن الاسلام بقوميته العربية كان اقوى من جحافل الاقوام الغازية نظرا للتفاوت الحضاري الواسع بين الحضارة العربية وبين المغول الذين لم يبدعوا الا بالحرب وكونهم في عز حركتهم الرامية الى توحيد القبائل ضد عدو مشترك فالحضارة العربية وان اتناها ضعفت سياسيا الا انها كانت تمثل حضارة متكاملة ومرونة في تلك الفترة من

التاريخ العالمى مما جعلها فى حالة جذب عظيم لهمجية المغول وغزوات التتر وان تمكنت من صدهم عسكريا وكسرت حدة اندفاعهم كما شنتت خرافة الحروب الصليبية •

ولكن هذه العملية الحربية الاخيرة قد استنفذت ما لدى القومية العربية من مرونة على الصعيد القومى فانفصلت الاجزاء المختلفة للامة العربية واصبح المسرح السياسى خاليا فظهر السلاجقة الا انهم كانوا اضعف من أن يسدوا الفراغ السياسى الهائل الذى نشأ باضعاف التركيب السياسى للحضارة العربية مما فسح المجال لظهور العثمانيين الذين اختلفوا فى اساليب عملهم عن التتر والمغول أو السلاجقة فقد جمع العثمانيون بين الغزو والسياسة فى محاولة لبناء تشكيلات سياسية جديدة ونجحوا فى اقامة قاعدة فى الاناضول الا انهم لجأوا كغيرهم من غير العرب الى فصل الاسلام عن القومية العربية ظنا منهم ان هذه المحاولة تمكنهم من استغلال مبادئ الرحمة والشمول فى الدين الاسلامى دون التفاف لمعانها القومية النابعة من واقع الامة العربية وبذلك اختزل العثمانيون الاسلام العظيم الى واجهة سياسية لاضفاء شرعية وروحية على حكمهم الذى بدأ يتصدع بعد ان ابتعدت الشقة بين الاسلام كدين سماوي ذى مبادئ سامية عميقة وبينه كأداة سياسية عثمانية •

ومما يؤكده بعد العثمانيين عن القيم الدينية الاسلامية الاختلاف بين واقع الحياة العثمانية السياسى والفكرى وبين مفاهيم الدين الاسلامى سواء اكان ذلك فى الاجراءات والخطوات التى اتخذت واتبعت فى تسيير دفة السياسة والحياة فى الدولة العثمانية أو فيما ظهر فى سلوك الحكام العثمانيين الذين يخلفون اختلافا بينا عن ادعاءاتهم فى تبنى مقاييس الخلافة والالتزام بالنهج الاسلامى بالاضافة الى أن المتنفذين من آل عثمان اضطهدوا القوميات الاخرى وفى مقدمتها قومية الدين الاسلامى (القومية العربية) •
ولعل حير دليل على اختزال العثمانيين للدين الاسلامى الى مجرد ولعل خير دليل على اختزال العثمانيين للدين الاسلامى الى مجرد

وعد ذلك من وسائل الاصلاح والنهوض بالمجتمع التركي ذي السياسة التقليدية •

وقد ظهر هذا الاتجاه في شعارات حزب الاتحاد والترقي ومحاولة رجال هذا الحزب تبني مبادئ الثورة الفرنسية • ثم ظهر التباين بين العثمانيين كدولة وكتفكير سياسى واجتماعى وبين الاسلام كما فهموه هم في الحل العلمانى الذي جاء به كمال اتاتورك واعتبره المخرج السليم للازمة التي كان يمر بها الفكر والمجتمع في بلاد الاناضول انذاك •

وقد اورثت السياسة العثمانية التي فسرت الاسلام بشكل يسند مصالحها ارتباكا شديدا في الفكر والواقع الاسلاميين وان خضع المسلمون من غير العرب لما عكسه العثمانيون من تفكير ديني امتزج بالسياسة الى حد بعيد لان اكثر المسلمين من غير العرب ينظرون الى الاسلام نظرتهم الى مصدر يسمو بهم فوق مشاغل الحياة العادية في الوقت الذي يملأ فيه الفراغ العاطفى الذي تولد نتيجة انقطاعهم عن مفاهيم وثنية ذات مدلولات فلسفية امتزجت بالكثير من الاوهام والخرافات عاشت على شكل تقاليد توارثتها اجيال كثيرة في اسيا والشرق الاوسط لذا فان المسلمين من غير العرب اكنفوا بما مثله العثمانيون من دور على مسرح السياسة الدينية فخليفة الاستانة يمثل المحور الدينى والسياسى لكثير من المسلمين في وقت اختلطت فيه التعاليم الدينية الاسلامية بمفاهيم السياسة العثمانية •

أما العرب فأنهم نظروا وما زالوا ينظرون الى الاسلام كعقيدة لامتهم يمثل وسيظل كذلك الجانب الروحى من القومية العربية لذا فان اية محاولة للاضرار بالقومية العربية معناها أضرار بالاسلام نفسه مما دفع بالعرب لمقاومة التسلط العثماني فقد ادرك العرب قبل غيرهم من القوميات أن العثمانيين انما يسعون من وراء رفع الشعارات الاسلامية وطرح بعضها كالجهاد وطاعة صاحب الامر في الاستانة ايجاد ركائز يستطيع ان يبقى فوقها ومستندا عليها الحكم العثماني الذي تعرض في تلك الفترة ذات العلاقات الدولية المرتبكة للكثير من عوامل الضعف الداخلية والخارجية • وقد

تمثل رد الفعل العربي للتحديات العثمانية بالاسلوبيين التاليين :

أ - اسلوب العنف ويمثل ذروة هذا الاسلوب الحركة الوهابية في الجزيرة العربية فقد حاول محمد بن عبد الوهاب ان ينتفض ضد العثمانيين وان يعيد بناء الاسلام . وقد عكست الحركة الوهابية الروح القبلية الا انها لم تستند الى فهم دقيق للظروف المحيطة بها فقد رغبت بالاصلاح الديني بوجه خاص ولكنها لم تلتفت الى عاملين اساسيين الاول هو الاختلاف في الزمن بين صدر الاسلام وبين الفترة التي حاول فيها الوهابيون ان يعودوا الى تلك الحقبة الاسلامية المتقدمة . والثاني هو جهل الوهابيين بالصعوبات التي كانت تنتاب الوطن العربي في ذلك الوقت وقصر وجهة نظرهم في فهم السياسة العثمانية ومحاولة ايجاد روابط على الصعيد العربي تستطيع ان تعزل السلطان في الاستانة وتمنع عنه تأييد العرب وكذلك المسلمين ، هذا بالإضافة الى عدم وضوح الهدف لدى الوهابيين وطغيان العمل السريع الحاسم وما صحبه من انفعالية طغت على اكثر ما انجزه الوهابيون من عمل لهم يتعد نطاق الجزيرة العربية . واتتهت الوهابية كما بدأت حركة سريعة لم تترك اثرا واضحا في الاصلاح الديني والاجتماعي الذي قامت من اجله وعادت هذه الحركة لتفسح المجال لتنظيم سياسى اتخذ منها فلسفة يقيم حكمه عليها .

الا ان الحركة الوهابية تعكس الى حد بعيد رد الفعل العربي للتحديات العثمانية من جهة وللتدهور في الفكر والمجتمع الذي اصيب به مجتمع الامة العربية تحت تسلط الحكم العثماني من جهة اخرى .

ويتفق مع الحركة الوهابية في عفويتها التاريخية وافتقارها الى الفكر الاجتماعي والتخطيط الثوري وفهم للصعوبات الداخلية والخارجية التي احاطت بالوطن العربي في تلك الفترة من تاريخ الامة العربية ، الحركتان المهديّة التي قادها المهدي في السودان والسنوسية بقيادة السنوسي في ليبيا .

وقد قامت المهديّة في السودان والتي تسمى بثورة الدراويش كرد فعل

لمحاولات الاحتلال الانكليزية لارض السودان ثم بلغت اوجها بعد نجاحها في قتل (كوردن) في الخرطوم ولكنها لم تلبث ان اختزلت الى مجرد شعور سياسى ديني تمثل في طائفة الانتصار وحزب الامة السوداني الا ان هذه النهاية لم تتفق ومنطق محاولة كحركة الدراويش قصد منها بالفعل تخلص السودان العربي من التحديات الاستعمارية وكان طبيعيا ان تنقلب الحركة المهدية الى محاولة ثورية ناجحة تعم وادي النيل من الجنوب الى الشمال الا ان عفويتها واقتارها الى الفكر والتنظيم جعلها مندفعة وسريعة وعنيفة لان جانبها العاطفي قد شحن بما فيه الكفاية وبان العمل وكأنه محاولة هادفة في سبيل تخلص ارض السودان العربية من الدخلاء الا ان الجانب العقلي للحركة لم يكن قد طعم بما يضمن الاستمرارية وبلوغ الاهداف البعيدة الاجل .

اما السنوسية في ليبيا فانها تمثل حلقة اخرى من سلسلة الثورات ذات الطابع الديني الا انها قامت بوحى ظروفها المحلية مما مكن المستعمرين الايطاليين من القضاء عليها والفتك بزعمائها لان هذه الحركة افتقرت هي الاخرى الى التنظيم والى العمل المشترك على صعيد الوطن العربي .

ب - اسلوب الاصلاح الديني عن طريق الحجة الفكرية ويمثل هذا الاسلوب السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده وقد تميز هذا الاسلوب بانه محاولة لكشف زيف الخلافة العثمانية اولا والعمل على انهاض المسلمين عن طريق تعريفهم بالاسلام وقيمه الاصلية ثانيا .

وعلى الرغم من ان الافغاني ولد في (كابل) حيث تسود نزعة تقليدية في اتباع السلطان العثماني فانه ادرك في مصر ان هناك خلافا بين ما يعكسه السلطان في استانبول كخليفة وبين الاسلام كدين ذي قيم سماوية واجتماعية خالدة .

من هذا المنطلق شرع جمال الدين الافغاني يبث افكاره التي هدفت الى التعريف بالاسلام وبهديه وتعاليمه وقد سار على هذا النهج تلميذه الشيخ محمد عبده وحاول كلاهما ان يعيد الشباب للفكر الاسلامي فقد اصدرا جريدة (العروة الوثقى) في باريس في محاولة للافض الغبار عن

الفكر الاسلامي وفسح المجال امام القيم الاسلامية لكي ترتفع بالمسلمين الى متطلبات الفترة التي يعيشون فيها .
الا ان هذا الاسلوب وان ارتكز الى الفكر المنظم والعمل الهادىء الا أنه افتقر الى فهم عميق لطبيعة الحركات الاصلاحية وعلى الاقل كما تفهمها في عصر الحاضر فقد حاول كل من الافغاني ومحمد عبده ان يتبع طريق الاصلاح وأن يخطط في سبيل مستقبل افضل ولكنهما لم يعرفا البداية السليمة لمشاريعهم الاصلاحية مما حال دون ترجمة محاولاتهم الفكرية الى تنظيم سياسي يستطيعون بواسطته اتياد اعمال جديدة تتراوح بين العمل الفكري الحاد وبين الثورة التي كانت لازمة في ذلك الوقت لتبديل الكثير من المفاهيم السياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت تعيشها الملايين من ابناء الامة العربية .

وبعبارة اوضح لم يتمكن جمال الدين الافغاني بحكم ولادته او محمد عبده بحكم تفكيره والتزامه الفكري ادراك قوة القومية العربية وما تستطيع ان تقوم به لو تمكن كل منهما من تطعيم الاصلاحات التي نادى بها بحوافز قومية تعكس ما تلاقيه القومية العربية تحت التسلط العثماني من صعوبات وتحديات .

وبهذا فقد انقطعت الصلة تماما بين الحركات الثورية التي ارادت أن تغير المجتمع العربي متأثرة بالنواحي الدينية ومؤكدة على التزام القيم الاسلامية والرجوع اليها بعد النسيان الطويل الذي انتهى بالمسلمين الى التأخر والانحطاط وبين الحركات الهادفة الى اصلاح الفكر الاسلامي وتخليصه مما علق به من مفاهيم واوهام جعلت من الاسلام مجرد واجهات سياسية لحكم قائم انذاك وتفسيرات اقترنت بالكثير من الجهل والخرافات فلم تكن والحالة هذه صلة بين العمل الثوري وبين الفكر الثوري في مطلع العصر الحديث مما جعل العمل الثوري يقضى عليه في مهده اما الفكر الثوري الاسلامي فقد اختزل الى مجرد مقالات ذات طابع ديني اصلاحي لم تكن تتعدى مجالات الاصلاح التقليدية في الوقت الذي انصرف فيه

الكثيرون من ناشئة الامة العربية عن التفاعل مع الحركة الفكرية الاصلاحية التي مهد لها جمال الدين الافغاني وتلاميذه الازهريون كمحمد عبده ومصطفى عبدالرازق مما أدى الى دفع حركة اصلاح الفكر الديني الى محاولات دينية فلسفية لايجاد فكر اسلامي وذلك عن طريق تخليص الفكر الاسلامي من شوائب الفلسفة الاغريقية والبحث في ثنايا ما خلقه المفكرون المسلمون وعلى الاخص في عصور النضج الفكري وفي الفترة التي ضعفت فيها التراكيب السياسية للحضارة العربية والاستفادة من هذا النهج في البحث للتعريف بالتراث الاسلامي الاصيل وملخص القول فقد اقتضت الحركة الاصلاحية للفكر الاسلامي الى مجرد منهج للبحث في التراث الاسلامي والتعرف على ما يمثل هذا الفكر باصالة وامانة .

القومية العربية والعمل العربي

نظرا لما وصلت اليه ردود الفعل على الصعيد الديني للتأخر والجمود الذي ساد الوطن العربي في مفتح العصر الحاضر وتشعب الجهد في دفع ثورة تهدف الى بناء مجتمع جديد في الوطن العربي الى ردود فعل دينية اتسمت بالسرعة وافتقرت الى التخطيط او تم اختزالها الى محاولة فكرية لاصلاح ديني عكست نفسها بشكل بحوث دينية فلسفية لم تلبث ان تحولت الى مدارس للفكر الديني والفلسفي تأثرت الى حد كبير بالفلسفات الاوربية وفي دور الدين في الاصلاح الاجتماعي .

وبذلك فقد اتجهت الجهود الدينية في ايقاظ المجتمع وجهات لم تتجاوب تجاوبا كليا مع متطلبات التغيير الاجتماعي وعلى الاخص الاسلوب الجذري الذي كان المجتمع العربي في ذلك الوقت بامس الحاجة اليه لكي يقيم ثورة في نظم حياته وتفكيره واتجاهه . وعلى الرغم من قيام الحركات ذات المحتوى الديني التي طالبت بالاصلاح فان الكثير من مواطني الشرق العربي ما زالوا متمسكين بشكل او باخر بالاستانه وبسلطانها الذي اسبغ على نفسه طابعا دينيا لكي يستغل عطف العامة من الناس في فترة انخفضت نسبة

الثقافة فيها وانتشرت الاوهام والخرافات وآمن الفرد العربي كليا بالقضاء
والقدر فقد انعكست هذه المفاهيم على الفكر والسلوك الاجتماعيين لدى
الكثير من ابناء الامة العربية بالاضافة الى عوامل اليأس والتراجع والخوف
والتردد وقصر الاهداف التي كانت ملائمة للحركة العربية المحدودة في تلك
الفترة التاريخية الراكدة من تاريخ العرب • هذه المؤثرات السلبية ونظرا
لما قامت به الاستانة من عمل اربك مفهوم الدين لدى مواطني الشرق العربي
فان الفرد العربي لم يكن ليفرق بين الدين الاسلامي بنصوصه وقيمه
القدسية وبين استغلال الدين من قبل الحكام العثمانيين بالاضافة الى ان
الحركات الدينية ذات الطبيعة الثورية لم تشمل الارض العربية بكاملها
وفى بعض الاحيان لم تترك المنطقة التي نشأت فيها نظرا لقيام تجزئة قوية
زادتها فترات التأخر والتردد قوة مع ضعف او موت فى وسائل الاعلام ونقل
الافكار او الاخبار من منطقة الى منطقة اخرى مما افقد القيمة المتوخاة من
وراء قيام حركات اصلاحية سواء تلك التي اتخذت من العمل السريع اسلوبا
لتحقيق اهدافها او تلك التي انتهجت سبيل التفكير الاصلاحى وفتح المجال
واسعا فى الاسلام وخصوصا الجوانب الاجتماعية منه لكي يتم التلاقح بينها
وبين ما ساد اوربا من تطور اجتماعى وسياسى وفكرى واقتصادى • الا ان
الصعوبات التي اعترضت الابعاد الجديدة لردود الفعل ذات الصبغة الاسلامية
ووجود العدد الكبير الذى ما زال مؤمنا بحكام الاستانة كممثلين للمسلمين
وللتنظيم السياسى الاسلامى اضفى على الحركات ذات الصبغة الدينية طابعا
تقليديا ابتعد بها عن مجال الكفاح والحركة فى سبيل التغيير الاجتماعى
والاستغلال السياسى وبذلك بدأت القومية العربية تتحمل عبء المعركة لانها
تمثل روح التكتل العربي كما انها لم تدخل فى اى نوع من التصالح مع
السلطة العثمانية الحاكمة بل انها بالعكس وقعت تحت ثقل التسايط العثماني
واضطهدت كما كان الحال بالنسبة للقوميات الاخرى الداخلة فى تركيب
الدولة العثمانية مع تميز القومية العربية بالاسلام الذي اعتبره العثمانيون
او بالاحرى استغلوه فى سبيل مكاسبهم الخاصة بتدعيم الحكم والسلطة •

وكان لا بد للقومية العربية وهي تبرز ثانية على مسرح السياسة في منطقتها وعلى صعيد المعترك الدولي ان تجد لها معادلة ناجحة تستطيع بواسطتها ان تكون قوة لها اثرها فى تاريخ الامة العربية وواقعها الاجتماعى وتبعاً لهذه الصورة الجديدة التى سعت الى رسمها القومية العربية فانها اتبعت الاسلوب الآتى :- لقد جعلت الخط واضحاً بين الفكر القومى الذى يضم الايمان بقوة القومية العربية وما تبنته على مر تاريخها من قيم اسلامية مقدسة مع احترام للاديان الاخرى التى عاشت فى الارض العربية وبين التفكير بالاسلام كما فهمته السلطات العثمانية وبذلك وضع الاختلاف بين القومية العربية كقوة تعمل للمستقبل وبين التفكير العثماني ومناصريه الذين يعملون لماض هو فى الحقيقة حين الى فترة متقدمة مرت بها الدولة العثمانية وبذا حق ان يطلق على هذه القوة الهادفة الى ابقاء القديم على قدمه اسم (القوى الرجعية) .

ولم تقف حركة العمل القومى العربى عند هذا الحد وانما حاولت ان تفتح نوافذ الفكر القومى العربى على ما هو جديد فى اوربا وبذلك تمكنت من ان تجتذب ريكزتين اوربيتين الاولى هى تلخيص لمبادئ الثورة الفرنسية الخاصة بالتأكد على الحرية والاخاء والمساواة وقد نبعت عن هذه الركيزة الفكرية الاوربية الجديدة (فكرة الاستقلال) . فالاستقلال يجب ان يتم ويجب ان تتخلص الامة العربية من السيطرة العثمانية وان تتحكم هي بنفسها فى ظروفها المادية والبشرية واضعة نصب عينها متطلبات الشعب العربى من جهة وما يفرضه الوضع العالمى من مسؤوليات والتزامات من جهة اخرى .

اما الركيزة الثانية التى اقتبستها القومية العربية من الفكر الاوربى فانها تتمثل فى التفكير الهيكلى الذى يؤكد بان التاريخ هو السفر الذى يضم أعمال العباقرة وان العبقري يستطيع أن يسمو فوق التاريخ بينما يقوم المؤرخون بترجمة أعمال العبقري نفسه جاعلين من ذلك كله تاريخاً تداوله الاجيال وقد ترجمت الافكار (الهيكلية) وما فيها من ديناميكية والعمل فى سبيل الافضل والتأكد على صفة (القائد) مع الاهتمام بشكل اصيل بالتغيير

الاجتماعى والبعد عن الركود لان هيكل يعتبر الحركة قانونا للحياة باجمعها وقد اتفقت الفلسفة الهيكلية مع التفكير المتعارف عليه فى القومية العربية الا وهو ابراز الالهية المناسبة للبطل او القائد وجعله فى مركز يستطيع ان يوجه منه البشر والتاريخ على حد سواء .

وقد اثرت الفلسفة الهيكلية فى ايجاد معيار او مقياس للتعرف على المستقبل فقد اكد هيكل بان القومية كما يفهمها تتمثل فى روح الدولة شخصية القائد الذي يجسم الام والامته ناظرا بقوة وتصميم نحو قوميته الالمانية اما بالنسبة للقومية العربية فان القائد هو الذي يمثل بالفعل المحور للحركة فى الحاضر والمستقبل ونجاحه ينبع من مقدار تمثيله لروح القومية العربية وبذلك تصبح هذه الروح هى الاساس فى المفاضلة بين شخص وآخر عند اختيار الاصلح ليقود المسيرة العربية نحو التحرر والوحدة الشاملة . وبالنسبة للفظ الاختيار فليس المقصود به الانتخاب فحسب لان البطل الذى يترجم روح القومية العربية يستطيع ان يرغم الاحداث بما فيها عمليات الانتخاب الشكلية لكي تخضع لمشيئته وتتجاوب مع ما يخططه لحاضر امته ومستقبلها . وفى الوقت نفسه فان القومية العربية لم تتأثر بالفكر والواقع فى العالم الانكلو سكسونى لانهما (الفكر والواقع) قد قاما على تجربة فى نفس الانكلو - سكسون خضعت لقيم اكثرها يوجه عن طريق الاخذ والرد وما يسمى بسياسة ارضاء الاطراف المختلفة ولو على سبيل المجموع .بالاضافة الى بروز بعض المؤثرات السلبية التى اضعفت من أهمية التفكير السياسى الانكليزى واوجدت الكثير من التناقض بين العمل والواقع والفلسفة الانكلو سكسونية . فقد كانت انكلترا كاثوليكية ولكنها قطعت صلتها بروما لسبب متعلق بملك اسمه هنري الثامن وبحادثة شخصية لا تتعدى طلاق زوجته (كاترين) والزواج من (آن بولين) وان كان هناك العديد من المشاكل التى اوجدت فراغا بين انكلترا والبابوية فى روما اهمها العداء بين اسبانيا الكاثوليكية وقوتها البحرية التى نافست الاسطول التجارى والحربى فى بريطانيا فى ذلك الوقت الا ان رد الفعل الانكليزى

لم يكن ليعكس رغبة الشعب نفسه اكثر من اشباعه لرغبات ملوكه فقد جرت اضطهادات للكاثوليك والبروتستانت على حد سواء • أما تجربة الانكلو سكسون الثورية فانها لم تكن هي الاخرى نابعة عن تصميم فقد امتصت (حرب الوردتين) بين الاسر البريطانية الحاكمة قوة التصميم لدى الشعب البريطاني وبذلك كانت ثورة (كرومويل) حدثا باهتا لم يترك أى اثر على مسرح السياستين الانكليزية والعالمية بينما ورث الانكلو سكسون اسلوبا فى العمل السياسى يهدف الى ضم الاطراف ذات المصالح ولكن اشباع رغبات كل هذه الاطراف بدأ يصعب كلما ازداد ابتعادها عن بعضها مما ادى فى نهاية هذا الخلط وتعقيداته السياسية ان تولد وسيلة عملت على ارضاء أكبر عدد ممكن من الجهات ذات الصلة بالموضوع وقد سميت هذه الوسيلة الجديدة باسم (الديمقراطية) لانها تحاول ان تترجم رأى معظم الناس فلم تعد تعني كما كانت خلال الفترة اليونانية المتقدمة (حكم العامة) وأما آكتست معنى جديدا هو ايجاد المصالحة بين الاكثرية او الاغلبية من الاطراف المتنازعة • وفى مجال الفلسفة والفكر فان اكثر الفلاسفة الانكلو سكسون لم يكن لهم خط فلسفي يلتزمون به (فتوماس هوبز) يمجد الملوك والملكية بينما يعمل (هيوم ولوك) على الاهتمام بالفرد والفردية التي تبلغ مداها فى الاهمية على يد (جون ستيورت مل) •

وفى مجالات الاقتصاد فان الفكر الانكلو سكسونى اضطرب بين حرية التجارة وفلسفة اليد غير المنظورة التي نادى بها آدم سميث فى كتابه (ثروة الامم) وبين نظريات اللورد كينز التي اكد فيها على اهمية القطاع العام ورأى أن تدخل الدولة امر لا مفر منه فى سبيل انعاش الاقتصاد الوطنى وذلك عن طريق ما تستثمره الدولة من أموال فى المشاريع التي لا يقصد من ورائها فائدة بقدر ما تدفع بعجلة الاقتصاد الى الازدهار وزيادة الانتاج وقد اثر هذا التفكير الاقتصادى فيما اتخذ من اجراءات خلال فترة الثلاثينات فى الولايات المتحدة عندما ساد (الكساد العظيم) واصبحت آراء كينز المخرج لتلك الازمات •

بهذه الاسلحة واجهت القومية العربية مسؤولياتها فى العصر الحاضر
فمن الناحية الفكرية جمعت بين النظر الى المستقبل العربى من خلال اهمية
القومية العربية بعد ان فصلت بين الاسلام الاصيل وبين ما يدعيه العثمانيون
من تبنى للقيم الاسلامية وتوجيهها وجهة سياسية وشخصية ضيقة بالاضافة
الى ما اقتبسته القومية العربية من فكر تجسم فى مبادئ الثورة الفرنسية
وذلك لضمان استقلال البلاد العربية وما جاء به هيكل من تأكيد لاهمية
القومية كعنصر من العناصر المكونة (للذات القائدة) ذات الاثر فى توجيه
أمتها لذا لم تهتم القومية العربية بشكل اساسى بما أتصف به الفكر الانكلو
سكسونسى *

ويعتبر المؤتمر العربى الاول الذى عقد فى باريس سنة ١٩١٣ م
تجسيدا للابعاد الجديدة التى أختطتها القومية العربية فى مسيرتها لضمان
دور يتناسب والاهمية التاريخية للامة العربية حضاريا وتاريخيا وواقعيا
ويمكن ان نفهم المقررات التى توصل اليها المؤتمر العربى الاول فى باريس
على ضوء الابعاد الجديدة للقومية العربية فقد ضجرت القومية العربية
من محاولات الاتراك الرامية لاستغلال قيم الدين الاسلامى المقدسة كما
تأكد لديها أن الانفصال عن الدولة العثمانية هو حجر الاساس فى بناء
المجتمع العربى فى المستقبل وبذا يعكس المؤتمر العربى الاول الذى دعا الى
أن تكون القومية العربية هى المنطلق السليم لبناء الامة العربية وتوجيه
مسيرتها نحو المستقبل وتأكيد استقلالها وأنفصالها عن تركيب الدولة العثمانية
المتآكل خطوة على الطريق السليم. وينفى ما أوضحناه عن المتطلبات العربية فى
ذلك الوقت والاهتمام بالقومية كمرکز لتكتيل القوى العربية فى سبيل عمل مشترك
ما يذكر من ان المؤتمر العربى الاول قد ابتعد عن القيم الدينية والواقع ان
الدولة العثمانية نفسها ابتعدت عن الدين الاسلامى ووضح ابتعادها اخيرا فى
اتباعها العلمانية فى الوقت الذى حاول فيه المؤتمر العربى الاول فى باريس
ان يجد الحل السليم للمشاكل التى جمعت بين التأخر والتردد والاقسام
السائدة فى الوطن العربى انذاك ، فقد اكد المؤتمر العربى الاول على القومية

العربية بالذات لانها تمثل الحد الفاصل بين الاستقلال والتبعية فتقطع الطريق على محاولات الالتفاف التي قد يستغلها الحكام العثمانيون للعبث بعواطف العامة من الناس في وقت انخفضت او انعدمت فيه نواحي الوعي والثقافة بين ابناء الامة العربية ، لذا فمن الاصوب ان نصف الحكام العثمانيين او الدولة العثمانية بشكل اوسع بانها هي التي انحرفت عن القيم الاسلامية وليس المؤتمر العربي الاول في باريس ، لان اعضاء ذلك المؤتمر انما كانوا يفتشون عن اسلم السبل واصلحها لبناء كيان عربي جديد وهو امر ما زال الجيل العربي الحاضر يحاول ان يجد الحل المناسب وبكل وضوح فقد توصل المؤتمر الى ان المنطلق السليم هو احياء القومية العربية باجنتها المختلفة من فكر وتاريخ وحضارة والتأكيد على قيمتها الروحية المتمثلة في الاسلام واحترام عميق للديانات الاخرى التي تستظل بظل القومية العربية وتعمل في مسيل خير العرب تربطها واياهم روابط تاريخية ومصيرية مشتركة . وعلى صعيد الحركة فقد رسمت التنظيمات السياسية العربية السرية والعلانية سياسة تتراوح بين التأكيد على القومية العربية او تهياة علائق افضل بين الوطن العربي وبين الدولة العثمانية ويرجع سبب هذا التردد الى تأثير الروح العسكرية لدى الضباط العرب ممن خدموا في الجيش العثماني مما ولد لديهم ولاء للدولة العثمانية . ومن وجهة النظر التاريخية فان الجيل الذي سيطر على مقاليد الامور سواء اكان منها في الفكر او المجتمع او الحياة في مطلع العصر العربي الحديث كان من التقليديين الذين لم يعرفوا اكثر من ان السلطان يمثل مركزا دينيا معينا لا بد من طاعته حتى لقد وصل الامر بالبعض من ابناء الجيل السابق الى تكذيب كل ما ثبتت صحته عن الاختلاف بين ما يدعيه وما يقوم به السلاطين العثمانيون ورجال حكومتهم بالفعل واعتبروا تلك الاحداث من عمل الشيطان الذي يغوى الاخرين فيصور لهم غير ما عليه واقع الفساد في الحكم وفي الحياة في الدولة العثمانية .

وتنتيجة للتغيرات الهائلة التي اتتبت الوضع السياسي في العالم قبل الحرب العالمية الاولى وتركزها بشكل رئيسي على الدولة العثمانية التي

سميت في ذلك الوقت بالرجل المريض لا لضعفها فقط ولكن لانها لم تستطع رغم وقوع قسم من اراضيها في اوربا ان تدخل في حضيرة الدول الاوربية وبذلك وجدت القومية العربية نفسها امام امتحان عسير لانها لم تكن قد وجدت لها الطريق بين صعاب الماضي ومشاكل الحاضر فهي مع الدولة العثمانية وليست معها وهي تريد التأكيد على قوميتها ولكن الوسائل تعوزها لنشر الوعي القومي الا ان ذلك الوضع الشاذ لم يمنع القومية العربية من تشكيل تنظيمات سياسية تركزت في بلاد الشام نظرا لوقوعها بشكل مباشر في مهب ريح سياسية جعلتها (بلاد الشام) مصدر جذب لكثير من النظريات السياسية التي سادت اوربا وتسربت بعض مكوناتها الى الدولة العثمانية نفسها الا ان الجيل العربي التقليدي كان اكثر وضوحا في تقليديته من جيل القومية العربية فقد ظهرت في شبه جزيرة العرب دعوة لخلافة جديدة تبنتها (الاسرة الهاشمية) ونظرا لما للمركز الديني للمنطقة التي ظهرت فيها هذه الدعوة وما اشاعته عن نفسها بانها ضد الاتراك فقد عملت الاسرة الهاشمية على أجهاض العمل القومي العربي وذلك بتبني شعاراته الداعية الى استقلال البلاد العربية تحت تسلط لاسرة الهاشمية وقد تمكن فيصل احد أفراد هذه الاسرة من ان يغتال الشعور القومي العربي في بلاد الشام وان يستغله لصالح الدعوة الهاشمية التي تبناها والده في الحجاز .

وهنا وقفت القومية العربية على مفرق طرق بين ان تؤكد على خطها القومي في العمل وان تناضل في مسيرتها حتى يسبح للروح القومية من يمثلها فيوجه التيار الجديد وبين ان تقبل بزعامة تقليدية تريد ان تمشي في ركاب المبادئ التي نادى بها وكافحت من اجلها القومية العربية وقد اثبت التاريخ خطأ الحكم الذي قبل به دعاة القومية العربية في ذلك الوقت عندما انحازوا الى صف الدعوة الهاشمية وبذلك تسببوا في خلق رغبة ما لبثت ان تحولت الى نوع من السياسة التقليدية لدى اكثر الدوائر السياسية العربية وهي قبول انصاف الحلول والنظر الى التقليديين او حتى الرجعيين نظرة ان لم يكن يؤثر فيها عنصر التبعية فان مجال العطف او التعاطف مع هذا الجيل

التقليدي له انصاره ومؤيدوه •

وقد فشلت بالطبع الدعوة الهاشمية واخذ افرادها يعمل كل منهم لضمان ملك او زعامة يحصل عليها عن طريق الايقاع بمن تربطه وايامهم صلات الاخوة او القرابة القريبة • وقد دلت الاسرة الهاشمية على فشلها في العمل الثوري الخيبة التي لاقاها فيصل في سوية وانكشفت للامة العربية النوايا التي دفعت هذه الاسرة لان تؤثر تأثيرها السلبي على التاريخ العربي المعاصر فقد طردت من الحجاز وقبل ان تطرد لعبت ادوارا تقمصت فيها شخص القيم على الامة العربية فمن اباح لحسين مؤسس الاسرة الهاشمية ان يتفاوض باسم العرب مع الانكليز وان يتفق مع مكماهون السفير البريطاني في القاهرة على حدود الوطن العربي في الوقت الذي كان يجهل فيه افراد الاسرة الهاشمية الحدود الطبيعية للامة العربية ؟ ثم عندما ظهرت للعالم اجمع مخططات السياسة الانكليزية الفرنسية الاجرامية ممثلة في (معاهدة سايكس - بيكو) وعرف بها مؤسس الاسرة الهاشمية ، لماذا لم يتخذ اجراء يتفق والمصلحة العربية او يكشف على الاقل زيف الوعود البريطانية مما يمكن ان يجنب العرب اكثر احابيل السياسة البريطانية التي عانى منها العرب وما زالوا يعانون منها حتى الوقت الحاضر ؟ وحقا كيف قبل افراد الاسرة الهاشمية الذين يدعون في مناسبة او اخرى بانهم يمثلون (الضمير الثوري) للعرب بان يقبلوا مناصب تحت ظل ورعاية ان لم يكن توجيهه وتسلط رجال الاستخبارات والادارة الانكليز كما حدث بالنسبة للعراق والاردن ؟

ان هذه التساؤلات وكثير غيرها توضح دون شك ان الاسرة الهاشمية التي حاولت ان تقوم بثورة عربية لم تكن تقصد من هذه الثورة الا تمكينها من اقامة مجد شخصي للاسرة ذاتها فقد البس مؤسسها بردة الخلافة لفترة وجيزة ثم نزعت عنه وارسل ليقتضى ايامه الاخيرة بين الشيخوخة والمرض في جزيرة قبرص ولم تلبث العراق ان اعطيت هبة (لعبقرية) فيصل ومنحت

شرق الاردن لعبدالله نتيجة ما قدمه من خدمات للانكليز وما تركه من انطباعات ناجحة فى نفس لورنس عندما كان يعمل معه جنبا الى جنب فى المعارك التى خاضها ضد العثمانيين وانتهت باحتلال الانكليز لدمشق • وبدون شك فقد اثبت الواقع والتاريخ ان الاسرة الهاشمية عملت بشكل سلبي فى ابطاء مسيرة القومية العربية واوجدت مكانا للسياسة التقليدية لكي تسيطر او توجه الواقع العربي نحو العمل المستند على ما يسمى بسياسة المباحثات والمعاهدات والعمل السياسى القانع بانصاف الحلول مع تأكيد على الفكرة القائلة بان العرب امة مجزأة وان الوحدة العربية من اصعب الاهداف التى يسعى لتحقيقها العرب وان مركز العرب بالنسبة للظروف العالمية ضعيف ان لم يكن متخاذلا لذا فمن الخير (كما كان اعضاء الاسرة الهاشمية يدعون) ان يقنع العرب بما يمنح او يعطى لهم لان الدول المحيطة بهم وعلى الاخص (بريطانيا العظمى) لا قبل لهم فى محاربتها او الوقوف ضدها على الاقل •

ولما اجهضت الاسرة الهاشمية العمل العربي على الصعيد القومى ظهرت بوادر التجزئة لكى تعمل الامة العربية بشكل يحقق نجاحها ضمن حدود ضيقة اوجدتها بعض الرواسب الوطنية الا ان الحافز الوطنى بالنسبة للاجزاء العربية المختلفة كان دوما يستمد قوته من الحافز القومى فى الوقت الذى يسعى فيه الحافز القومى الى اضعاف الدافع الوطنى لكى تتم الصلة فى عمل مشترك بين الامة العربية بكاملها • ونظرا للاخطار المحدقة بالوطن العربي فى مفتتح اطلالته على العصر الحاضر فقد وجدت قواعد مختلفة للكفاح القومى اختلفت بالنسبة للظروف المحيطة بها من قطر الى قطر اخر فى الارض العربية التى تمتد من المحيط الاطلسى حتى بحر العرب والمحيط الهندى وتتوغل فى قلب القارة الافريقية محاولة الوصول الى منابع النيل ضامة اليها الصومال واريتيريا • واذا درسنا الوطن العربي بشكله المجزأ فاننا يمكن ان نتعرف على ظروف كل قطر من الاقطار العربية ولكن دراستنا تبقى ناقصة لان التجزئة وما تتبعها من وطنية واقليمية وما تشوبها من

عنصرية وطائفية تعاون على خلقها الضعف والتجزئة والركود في الوطن العربي من جهة والاستعمار والاستغلال ومحاولة توسيع مناطق النفوذ الاجنبى من جهة اخرى ، تعنى التأكيد على الجوانب السلبية فى الجهد العربى الا ان الغاية ستكون لوجه البحث فقط . واذا حاولنا ان نتبع فى دراستنا الكثافة السكانية بالنسبة للاقطار العربية فان مصر ستكون اول بلد عربى تهتم به هذه الدراسة . ومصر كحضارة وجدت منذ فترة قد تمتد الى الالف الخامس او الرابع ق.م وتكوين سكانها خليط من عناصر افريقية وعربية الا ان العنصر العربى ما لبث ان طغى نظرا لاهليته فى الحياة وبقيت عروبة مصر قوية وخالدة كبقاء اهراماته ونيله والواقع ان حياة القطر المصرى تتأثر بعوامل ثلاث الاول : الاهرامات وهى تلخص حضارة مصر القديمة وتعكس جهد الفلاح والعامل المصرى فانها لا تمثل كما ارادها خوفوا وفرادى اسرته الحاكمة مقبرة لجشهم وانها مثلت ما يمكن لجهد الفلاح المصرى ان يعمل كما عززت النضج فى الهندسة والبناء لدى مصر القديمة . وللتدليل على القيمة الحضارية للاهرامات فان ارتفاع اهرام الجيزة يبلغ ٤٥٠ قدما فى الوقت الذى تبلغ فيه اعلى عمارة فى العالم التى بنيت بعده ب (٥) آلف سنة (عمارة امبار ستيت فى نيويورك فى الولايات المتحدة) ١٢٤٨ قدما فى ارتفاعها . اما العامل الثانى فهو النيل ويمثل البركة واللعنة فى مصر فى آن واحد ففي فيضه تجديد للتربة المصرية ولكن فيضانه قد يودى الى تدمير ما قدمه فيضه من خيرات وقد ادى النيل الى بقاء مصر زراعية وجعل من الفلاح المصرى اداة خاضعة لجبروت الطبيعة التى تمثلت بنهر النيل لذا فان اى سيطرة على مياه هذا النهر معناه احداث انقلاب جذرى فى اقتصاد القطر المصرى وفى تفكير ابناءه ونظم حياتهم وصلاتهم الاجتماعية التى طبعتها الزراعة بطابع الركود والاستسلام للقضاء والقدر وما يسبب هذا الرضوخ للقوى الغيبية من فقر ومرض وجهل وخرافات . وقد درج الكتاب فى مصر وخارجها على تسمية القطر المصرى بانه هبة النيل ولكن هذه التسمية لا تنطبق على الواقع لان النيل انانى يأخذ ما يعطى فمصر هبة

الفلاح المصرى وكفاحه بادوانه البدائية عبر السنين فى سبيل زيادة شريط
 الارض المزروعة وانتاج ما يكفى يومه ويدفع عنه غائلة الفقر والحرمان •
 اما العامل الثالث فهو العروبة ومصر بحكم موقعها الجغرافى تتصل بافريقيا
 حيث ينبع نهر النيل ، فى الوقت الذى تمتلك فيه صلات قوية بالجزيرة
 العربية ولكن صلتها بافريقيا عميقة الى حد التأثير والتأثر بينما انحصرت
 صلاتها بالجزيرة العربية عن طريق مضيق السويس • الا ان الواقع الجغرافى
 لا يمكن ان يتخذ اساسا للحكم على البنية البشرية لسكان مصر فقد دخلها
 العنصر العربى منذ ازمة سحيقة واستطاع ان يترك طابعه واضحا فى مجال
 الحياة والفكر فى هذا القطر من ارض العرب ثم نجح العرب بمشاركتهم
 فى بناء الحضارات القديمة فى وادى النيل واخذت مصر تحتل مركزا
 حساسا فى قلب الوطن العربى ودخل الاسلام مصر فلقى قبولا شاملا وهكذا
 فقد جمع الفرد المصرى بين حضارته القديمة والاختلاط الافريقى العربى
 وازضاف الى هذا المركب القيم الدينية الاسلامية وبذلك وجدت الشخصية
 المصرية • والسؤال الذى يراود الذهن ما هو مقدار عروبة مصر ؟ وبدون
 شك ان المصريين عرب لانهم عاشوا وهم يحملون هذه الصفة خلال قرون
 طويلة شاركوا فيها فى آمال وآلام الامة العربية فقد استطاع الظاهر بيبرس
 ان يصد المغول كما تمكن صلاح الدين عن طريق جمع كلمة العراق وسوريا
 ومصر أن يكسر شوكة الصليبيين فى معركة حطين مما يؤيد اختلاط الدم
 العربى فى مصر بمثيله فى العراق وسوريا • الا ان حكم المماليك لمصر
 وابتعادها عن السيطرة العثمانية ولد نوعا من البعد بين مصر وبقيّة أجزاء
 الوطن العربى وقد اكد محمد على فى مصر على هذه العزلة وحاول ان
 يجعل من القطر المصرى دولة مستقلة توقفت تطلعاتها بعد مغامرة (نافاريتو)
 التى نجح السلطان العثمانى فيها فى تحطيم الاسطول المصرى عن طريق
 زجه فى معركة غير متكافئة مع الاساطيل الاوربية • ودون ريب فقد اثرت
 هذه العزلة فى نفس الفرد المصرى وانعكست بشكل أعمق فى كتابات بعض
 المفكرين المصريين نتيجة لما طبع عليه بعض المصريين من خضوع لولاية

أمورهم فقد حاول الخديوي اسماعيل جعل مصر قطعة من اوربا وبذلك عمل على قطع الصلات التي تربط القطر المصري بالوطن العربي وبالقارة الافريقية وقد ظهرت نتيجة تأثير حكم أسرة محمد علي والحملة النابوليونية وما تركه الازهر من اثر في الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية ان قامت ثلاث مدارس في مصر :- المدرسة الاولى اتبعت (الباب العالي) في الاستانة فهي مدرسة تقليدية لانها رأت ان حياة مصر تتوقف بشكل رئيس على مقدار صلتها بالباب العالي وتأبيدها للسلطات العثمانية وقد نشأ كرد فعل لهذه المدرسة منشقون عنها وان ساروا على هذا النهج متأثرين باسلوب التفكير الجديد في الازهر الذي نشأ عن طريق ما بثه السيد جمال الدين الافغانى وتلاميذه الازهريون الذين فكروا في توسيع الازهر وضم المسلمين تحت لوائه دون التقييد بالسلطان الذي ظهر جموده وتأخره ومعاداته لكل حركة ترمي الى التحرر والانفتاح في الفكر والتجربة على ما هو جديد في اوربا .

أما المدرسة السياسية الثانية فانها اندفعت للعمل السياسى بشعور من السعى لاستقلال القطر المصري من التدخلات الاجنبية التي فرضت عليه نتيجة لاختفاء أسرة محمد علي وعلى الاخص اسماعيل الذي اوقع مصر في ضائقة مالية عن طريق اسرافه في المشاريع الانشائية غير المنتجة (كمدار الاوپرا) والمشروعات الاخرى التي لم تكن لتتمشى او تتفق مع متطلبات الاصلاح في الحياة المصرية وعلى الاخص في الريف حيث تكمن العينة الممثلة للشعب المصري باسره . وقد نتج عن السياسة العفوية الى مارسها اسماعيل ان تدخلت انكلترا وفرنسا باسم حماية مصالحها فاصبح وزير المالية فرنسى ووزير الداخلية انكليزى ووزعت الاراضى فى القطر المصرى بين افراد أسرة محمد علي وكبار ضباط الجيش الذين ينتمون الى أصل البانى او شركيى مما أدى الى تقسيم الارض المصرية الصالحة للزراعة وغياب اصحابها عنها فى القاهرة أو الاسكندرية وترك الفلاحين تحت رحمة الوسطاء والعمد الذين دفنوا الفلاح المصري فى تراب الارض (الطيبة)

التي يعمل فيها •

وأتسعت الشقة بين الحاكمين الغرباء عن المصريين وبين المحكومين من سكان مصر فاندلعت (الثورة العراقية) التي تقترب في وجوه كثيرة من حركة الاتحاد والترقى في اول امرها نظرا لانها طالبت باصلاحات تحت ظل الحكم القائم الا ان الخديوى والاجانب وقفوا في وجه عرابي الذي اعتمد على تأييده في الجيش ولم يدخل في حسابه قوة القاعدة الشعبية التي تسنده فلم تنجح الحركة العراقية في تحقيق مطالبيها الروتينية ولكنها حفرت أخدودا عميقا في أرض الخوف والخضوع التي أوجدها الفراغة والماليك واسرة محمد علي في لا شعور الفرد المصري • فقد تمكن ابن فلاح هو عرابي ان يقف في وجه (مولانا الخديوى) وان يؤلب عليه قسوات الجيش التي خضعت للخديوي ورضيت بما اقطعها (جنابه) من ارض وأغدق عليها من مال • والواقع أن هذه القوات لم تتجاوز بأية حال ما رسم لها من حراسة للخديوي وقصوره والسير في المواكب والمناسبات وعلى الاخص اشتراكها في حمل الكسوة الشريفة وحراسة مولانا وهو يقدم خضوعه للمندوب الانكليزي في قصر الدوبارة او عند صلاته في احد جوامع القاهرة •

وقد اثرت الحركة العراقية في ايقاظ الوعي لدى القاعدة الشعبية وتحرك فيها شعور المطالبة بالعزة والكرامة وهما من مقومات الاستقلال وترجمت هذه المطالب بشكل عمل ثوري تبلور في ثورة سنة ١٩١٩م التي تعتبر بحق الحد الفاصل بين عهد الخضوع والاستغلال وعهد التصدي والعمل في سبيل مجتمع متحرر •

لذا فان ثورة سنة ١٩١٩م في مصر تعتبر من نقاط التحول الرئيسة في تاريخ مصر الحديثة لانها لم تكن مجرد ثورة او مظاهرة صاخبة وانما مثلت عملا ثوريا اشتركت فيه قطاعات الشعب باسرها وامتدت الثورة الى البيوت نفسها فوضعت المرأة المصرية في مجال الحركة والنشاط السياسيين ويعتبر التاريخ الذي امتد بعد ثورة سنة ١٩١٩م تاريخا واقعا مثل الشعب

المصري اصدق تمثيل لان تلك الثورة عملت بكل واقعية وحدية على تسمية القوى الشعبية والقوى المعادية لها وابانت الفرق الكبير بين الحكام والمحكومين وكيف ان الحكام خضعوا للمؤثرات الاجنبية بل دخلوا معها في حلف غير مقدس في سبيل ضرب القوى الشعبية والقضاء على مكاسبها التي تركزت في حياة افضل للملايين من ابناء وادى النيل •

وقد فوجئت الطبقة الحاكمة في مصر بالثورة كما فوجئت القوى الاجنبية التي عملت يدا بيد مع القوى المتسلطة وبذلك بدأت خطوط جديدة من العلاقات السياسية تربط الحاكمين بالمحكومين فقد اخذت أسرة محمد علي بمصر تشعر بانها باتت معزولة عن الشعب المصري وبان ايامها يمكن أن تكون معدودة مما ادى الى أن يحيط افراد هذه الاسرة انفسهم بالعديد من الاعوان والجواسيس لكي يصبحوا عيوننا لهم على غالبية أبناء الشعب المصري كما زادت ثورة ١٩١٩م من تمسك أسرة محمد علي بالقوى الاجنبية وعملت في الوقت ذاته على تكديس رؤوس الاموال وتهريبها خارج البلاد وشراء العديد من الامتيازات النفطية في اميركا الجنوبية وتوظيف بعض رؤوس الاموال التي سرقت من ابناء مصر في مغامرات تجارية في اوربا وامريكا •

وقد ادى البعد بين الحاكمين والمحكومين وأقامة الحواجز بينهم بان أهملت شقوق أستخدمت من قبل الحاكمين لكي يأمنوا من غضبة الشعب المصري بعدان ظهرت حاجة الى وجود وسائل تنفذ من خلال الشقوق الضيقة التي تركت لتصل بين الحاكمين ومحكوميههم وقد استغلت هذه الشقوق من قبل ما سمي بالاحزاب السياسية •

وتدين احزاب مصر السياسية التي تهدمت سنة ١٩٥٢م الى مصدرين فكريين وسياسيين أساسيين هما العمل في سبيل ربط مصر بالدولة العثمانية وقد مثل هذا الاتجاه مصطفى كامل ومحمد فريد ابو حديد وظهرت هذه المفاهيم في مبادئ الحزب الوطني الذي أسسه ابو حديد نفسه وأن

انعظت بعد ذلك الى مطالبة فى أستقلال مصر •

أما المصدر الثانى فانه ينبع من المطالبة بالاستقلال فقد شكّل وفد للمفاوضة حاول أن يذهب الى انكلترا ويستفيد من الطرف التاريخى الذى تهيأ له سيما وأن حزب الاحرار البريطانى كان برئاسة (كلادستون) على دست الحكم الامر الذى جعل المصريين يظنون بان الفرصة سانحة لهم للمطالبة وقاتهم أن الاحزاب البريطانية على أختلافها من التوري (المحافظين) حتى الاحرار وما تضمنه من اجحة يمينية او يسارية تتفق فى هدف واحد هو الحفاظ على الامبراطورية البريطانية وأن أختلفت فى تحقيق هذا الهدف فسلك بعضها طريق السيطرة المباشرة او الكومنولث او الدخول فى أحلاف أو محالفات ثنائية تحول بريطانيا التدخل فى شؤون ما تسميه ممتلكاتها أو مستعمراتها واستغلال موارد تلك المستعمرات الى حد اعتصار دمائها أبناءها فى محاولة لتغذية (شجرة الديمقراطية) فى ارض الضباب (انكلترا) •

ومن الصعب أن نحكم على الاحزاب المصرية بانها فشلت فى كل خطواتها الا ان الموازنة بين فشلها ونجاحها يجعلنا نميل الى انها لم تستطع أن تحقق الاهداف التى تشكلت من اجلها فقد منح الاستقلال لمصر ولم يستطع حزب ما أن يعبىء الجهود لقرض هذا المطلب الوطنى على القوى الاجنبية على الرغم من وجود الكثير من الاحداث الوطنية التى كان من المناسب سياسيا أستغلالها وعلى الاخص الاختلاف فى المواطنة بين الفلاحين وهم العصب السكانى الاصيل فى القطر المصرى وبين الاجانب من اليونانيين والمالطيين والقبارصة • فقد عملت القوى الاستعمارية الانكليزية والفرنسية على تصنيف مواطنى مصر الى درجات ورسمت خطوطا بل فراغات عميقة بين مواطن ومواطن فقد وجدت (المحاكم المختلطة) قضاتها من الاجانب لكى تفصل فى القضايا المتنازع عليها بين المصريين والغرباء عن أهل البلاد ، كما كانت أكثر الدوائر الاقتصادية خاضعة لليهود او الخواجات من الانكليز والفرنسيين •

وقد ارتكب الجيش البريطاني المستعمر حماقات كثيرة منها حادثة دنشواي التي علقت فيها جثث ابناء لشعب المصرى بوحشية لا تقل عما ارتكبه الحاكم التركى جمال السفاح فى سوريا أضف الى ان التعليم وما اليه من حقوق المواطنة الاساسية كالحريات فى الرأى والحياة وتطمين الحاجات البسيطة للفرد المصرى لم تكن متوفرة ، مما هياً المجال واسعا للعمل السياسى الا ان الاحزاب لم تستطع ان تستغل هذه الصعوبات فتوجه ابناء مصر نحو عدو مشترك ويرجع سبب ذلك الى ان اكثر سياسى الاحزاب هم من الطبقة ما فوق المتوسطة او المتوسطة نفسها فهم بطبيعتهم يميلون الى انصاف الحلول ويحاولون بسرعة ان يتحولوا من سياسيين الى مناورين ثم لم يلبثوا ان يصبحوا نفعيين او آتتهازيين يسعون وراء مكاسبهم الشخصية أو العائلية فى الوقت الذى يؤكدون فيه بان عملهم هو افضل ما يمكن انجازة وان الشعب المصرى صعب المراس فيه العديد من عوامل الضعف والتأخر تتراوح بين الفقر والادمان على المخدرات وبين التناحر والانقسام وعدم الشعور بالمسؤولية لذا فان السياسة فى مصر تحتاج الى قوة هائلة لتغيير الاوضاع على صعيدها فاذا حاولت ان تمد نشاطاتها فى مجالات الاقتصاد وفى النواحي الاجتماعية فانها تحتاج الى طاقة فوق طاقة البشر ويضيف السياسيون التقليديون من ابناء هذه المدرسة ذات التفكير الحزبى بان شيئاً افضل من لا شىء وان ما يحصلون عليه ولو انه قليل فانه يمثل كسبا قد تضاف اليه مكاسب فى المستقبل لذا فاكثر سياسى مصر فى الفترة ما قبل سنة ١٩٥٢م يحاولون ان يوهموا ابناء وادي النيل بان عمل هذا الجيل لا يتعدى بناء القواعد والاسس وأن المسؤوليات الضخام هي من واجب الاجيال القادمة وما دامت تلك الاجيال فى ضمير الغيب فان نبوءة السياسة المصرين التقليدية لم تكن موضع نقد أو رد .

أما المدرسة السياسية الثالثة فانها تبدأ فى سنة ١٩٥٢م بعد أن افلست السياسة التقليدية القائمة على المفاوضات وعلى القبول بانصاف الحلول

فقد أستطاعت الثورة المصرية فى ٢٣ تموز سنة ١٩٥٢ م أن تبدأ مسيرتها بالجيش وطبعى أن الجيش ليس منظمة سياسية بالمفهوم التقليدى للمنظمات السياسية فهو يخضع للضبط والربط العسكريين ويعمل على تنفيذ الأوامر التى تلقى إليه الا أن السياسة لم تكن فى يوم ما ولن تكون وقفا على فئة دون اخرى وعلى الاخص السياسة فى وطننا العربى فانها حرفة يستطيع كل الهواة ان يتقدموا بطلب للعمل فيها دون ان تعوزهم شروط القبول لانها لم تصل بعد الى مستوى الدراسة أو التجربة والدراسة معا هذا مع تأكيدنا بان السياسة بصرف النظر عن البلد الذى تمارس فيه لا يمكن ان تسلس قيادها لاساتذة فى علم السياسة لان هؤلاء يتركز عملهم فى بحث النتائج التى يتركها تطبيق فكر سياسى معين على الواقع لمعرفة فشل ونجاح التجربة نفسها فاذا نجح سياسى معين فيما قام به من عمل فان الساسة والمؤرخين سيصلون حتما الى نتيجة مفادها أن هذا السياسى ناجح بالفعل بينما يوصم السياسى بالفشل اذا لم يستطع أن يتوصل الى نتائج ايجابية لذا فان فشل هتلر كسياسى لم يكن بسبب غبائه او ضعف موهبته الخطائية وانما كان لاختفاقه فى كسب الحرب العالمية الثانية .

ونظرا للتركة السياسية المتمثلة فى الاقطاع لسياسى وانتهازية واستغلال نفوذ رجال الحكم والاحزاب فى مصر قبل الثورة والتركة الاقتصادية التى انعكست فى اقتصاد زراعى قام على اقطاع ورأسمال مستغل يعتمر قابليات وجهد الفرد المصرى بينما تذهب الخيرات والمنافع الى الشركات الاجنبية وبعض العوائل ذات الاصل الاجنبى التى طغت على السوق المصرية وجعلت من مصر بلدا مستهلكا وفقيرا بينما زاد عدد الاطفال بشكل لم يتناسب قط مع البطء الشديد فى زيادة الانتاج مما أدى الى انتشار المرض والفقر والجهل والجريمة باشكالها المختلفة .

أما على الصعيد الاجتماعى فان تركته تكونت من محاولة أسرة محمد علي بمساعدة القوى الاجنبية على فصل الريف عن المدينة والتمييز بين الوجه القبلى وبين الوجه البحرى والنظر الى الفلاحين بشكل لا يختلف عما

ينظر به الى حيوانات الحقل حتى ان لفظه (فلاح) أستعملت فى اكثر كتب السياسة والاقتصاد والاجتماع فى اللغات الاجنبية وذلك لعدم وجود ما يشابهها فى تلك اللغات فقد عاشت القرى المصرية بحالة من الفقر لم تكن لتشبه قرى اخرى على وجه المعمورة ما خلا الحياة التى يعيشها الريف فى شبه القارة الهندية . وقد اثرت هذه الحالة الاجتماعية فى التركيب النفسى للفرد المصرى فقد اخذ نظرا (لطول ادمانه على الفقر) يعتقد بان الفقر قدر محتوم وبان هذه الدنيا الفانية يجب ان لا يطلب فيها الانسان اكثر مما يكفى ضرورياته مع ايمان مطلق بالقضاء والقدر والعمل فى سبيل الاهداف القصيرة الاجل مع توقع المكروه والموت فى كل لحظة وقد تسببت هذه المفاهيم وما قام به الاستعمار من ظلم واضطهاد فى انتشار المخدرات وذلك لبناء عالم خيالى يستطيع فيه الفرد ان يجد متنفسا له يتقله الى محيط غير المحيط الذى يعيش فيه وقد شجعت السلطات الاستعمارية الانكليزية انتشار المخدرات وذلك للقضاء على كل حافز يدفع بشباب وادى النيل نحو المطالبة بحياة أفضل .

هذه هى الصعوبات التى واجهتها ثورة سنة ١٩٥٢م فى مصر وقد ادرك الثوار المصريون بان التنظيمات السياسية التقليدية لم تكن لترتفع الى مستوى المسؤولية وكان عليهم ان يتحولوا من قوة عسكرية الى قوة سياسية وقد حدث هذا التحول بشكل لم يدع مجالاً للتاريخ لكى يكتب فى غير صالح الثورة المصرية فى تموز سنة ١٩٥٢م . وقد ادرك الساسة المحاربون بان مسؤولياتهم يجب أن تمتد فى ثلاثة أبعاد البعد العربى لان مصر جزء من الامة العربية والبعد الافريقى فمصر ترتبط بافريقيا تاريخيا وجغرافيا ثم البعد الدينى حيث تتصل مصر المسلمة بالعالم الاسلامى وقد كان على رجال الثورة أن يرتبوا هذه الابعاد حسب أهميتها وبان لهم ان هدف دور مصر فى أفريقيا وصلتها بالعالم الاسلامى لا يمكن ان يكون اساسيا وهاما يمكنها من الانطلاق من محيط الشرق الاوسط حيث ترتفع الى مسؤولياتها الدولية الا بعد أن تثبت جدارتها على الارض العربية وقد فات الحكام التقليديون

من سبقوا الثورة ادراك الصلة بين مصر والامة العربية وحاولوا دوماً أن يؤكدوا على وحدة وادى النيل ولكنهم فشلوا عندما وقفت جهودهم عند الحدود المصرية الا ان الثوار السياسيين الجدد أتجهوا بابصارهم الى الارض العربية عبر سيناء وتمكنوا من أن يثبتوا مركز مصر فى الوطن العربي فقد خرجت مصر الجمهورية منتصرة فى (معركة السويس) عام ١٩٥٦م وتمثل هذه المعركة بالذات انتقال مصر من تفكيرها التقليدى وصلتها بافريقيا وبالعلم الاسلامى الى صلة عضوية بالامة العربية وقد ساعد مركز الجمهورية العربية المتحدة كقوة عربية لها اهميتها فى منطقة الشرق العربى أن تلعب دورا رئيسا فى الشرق الاوسط وفى افريقيا وعلى صعيد الامم المتحدة او عن طريق مؤتمرات التضامن الاسيوية الافريقية • وتسعى الجمهورية العربية المتحدة فى الوقت الحاضر الى الوفاء بالتزاماتها فى الارض العربية وفى المجالات السياسية كمنظمة الوحدة الافريقية ومنظمة الدول الافرو اسىوية وعلى صعيد الامم المتحدة كما تحاول وبجهد وتخطيط أن ترتفع باتتاجها الى حد الزيادة فيه على مشاكلها وذلك للانتقال بمجتمع وادى النيل من الزراعة الى الصناعة ومن الصناعة الخفيفة الى الصناعة الثقيلة فالذرية واستكشاف الفضاء حيث يتحقق حلم الشعب العربى فى مصر فى حياة أفضل له وللعروبة التى يعمل من أجلها ، ولو لم يكن للثورة المصرية فضل يذكر لكان ما عملته على نقل اكثر من ثلاثين مليون مصرى الى الشعور العميق بالعروبة والتزاماتها اخلد عمل يسجله لها التاريخ • واذا احتلت مصر مركز الثقل العربى فى القارة الافريقية فان العراق يحتل نفس المركز بالنسبة للشرق الاوسط بكامله وتتشابه الظروف الحضارية الى حد كبير بين مصر والعراق فحضارة العراق تمتد الى آلاف متقدمة قبل ميلاد السيد المسيح حيث ظهرت حضارة كان لها مكانة فى تلك الفترة السحيقة تمتعت بطاقة حضارية تغلبت على عوامل الزمان والمكان انتقلت من جيل الى جيل آخر واستطاعت أن تواكب العصر الصناعى وستظل تشهد على عظم المدنية التى تمتعت بها بلاد ما بين النهرين والتى كانت بحق

المهد الاول لا قدم حضارة عرفها التاريخ • لقد عرضت حديثا فى متحف اللوفر فى باريس قطع اثرية تمثل مراحل مختلفة من التاريخ العراقى وقد مثلت تلك القطع الاثرية ما مر به العراق من حياة ثقافية وفكرية واجتماعية ولكن العرض لم يكمل الا بعد أن أضيفت اليه آثار عراقية يحتفظ بها متحف اللوفر فى باريس فى الوقت الذى ضم فيه جناح المعروضات آثارا اسلامية تصور ما تركته انظمة الحكم والفكر تحت ظل الاسلام من اثر فى بلاد الرافدين •

وهذه المعروضات تلخص تاريخ العراق فقد جمعت بين الماضى الحضارى والفترة الاسلامية فى الوقت الذى اضيفت فيه قطع وجدت فى بلد اجنبى هو فرنسا مما يوضح أن الاوربيين حاولوا دوما ان يؤثروا بشكل أو بآخر فى توجيه الفكر السياسى والثقافى والاقتصادى والاجتماعى وكان تأثيرهم يتفق تماما ووجود قطع الآثار العراقية فى مكان بعيد عن موطنها السدى عاشت فيه سنين طوال •

ولكى يكمل تلخيص تاريخ العراق لا بد من أن تضاف نماذج للحاضر العراقى وللمستقبل تكون بشكل انجازات ومخططات يسعى أبناء الرافدين الى تطبيقها او التوصل اليها فى فترات زمنية تتناسب مع مفهوم تلك المخططات وما هو موجود فعلا من موارد وطاقة بشرية ووعى فني وعملي وما يدفع هذا كله من تصميم وتأكيد للوصول الى مستقبل أفضل عن طريق الفكر والعمل المنظم والتضحية فى سبيل المجموع •

ومن وجهة نظر الواقع فان ارض العراق تجمع بين متناقضات عدة فهى جبلية لا تلبث ان تصبح هضبة ثم تنخفض الى مستوى البحر فى الجنوب حيث تطفى حركة المد والجزر ويوجد بين هذه الاقسام المختلفة التضاريس نهران حضاريان هما دجلة والفرات وعلى الرغم من أن هذين النهرين ينبعان من مناطق خارج الحدود العراقية الا انهما يسعيان الى التقارب وتكوين مسيرات مائية موحدة ايذانا بوحدة الارض التى يجريان فيها ثم يسيران متحدين حتى يتحديان الخليج العربى بتكوينهما شط العرب

وكما اهتم التاريخ القديم بالعراق فقد اهتمت الكتب السماوية المقدسة بارضه وانهاره فقد ذكر اسم الفرات بتأكيد عظيم كما ان جنة عدن اشير الى مكانها في البقعة التي يلتقى فيها النهران بينما تعتبر منطقة الناصرية في العراق الجنوبي وعلى الاخص تابعتها (اور) التي تزخر بالآثار القديمة وتحكي حفرياتها قصة اقدم حضارة على سطح هذه الارض ، المكان الذي توقفت فيه سفينة (نوح) بعد الطوفان الغامر الذي تعرضت له منطقة الشرق العربي في تلك الازمنة التاريخية المتقدمة .

ولكن هذه الحضارة الراسخة الجذور في الماضي وما تضمه من ادوار اسلامية ما زالت بحاجة الى أن تكتب فصولها الحديثة بشكل يتناسب والمد الحضاري العظيم القديم مع اتقاء دروس حضارية تساعدنا في فهم الواقع الحاضر للعراق؟ والحقيقة ان الآثار وشظايا الصوان والكسر الحجرية والمدن المدرسة تحتزن العديد من الدروس التي تلقي ضوءا كشافا على العلاقات السياسية والفكرية والاجتماعية في العراق الحديث . واول هذه الدروس أن الارض العراقية لا تنحصر فيما بين النهرين وانما تندفع في جميع الاتجاهات لكي تضم الارض التي يجري فيها النهران وفروعهما حيث تمتد ارض العراق الى الشرق والشمال الشرقي حتى تصطمم بالجبال الصخرية العالية فترتد نحو الغرب، والجنوب مناسبة في رمال الصحراء كي تتصل وعلى الاخص في جنوبها بشبه الجزيرة العربية . وهذا الوضع الجغرافي المتميز لم يظهر بشكل عفوى وانما نشأ نتيجة التفاعل بين سكان العراق وتاريخهم القديم فقد عملت الصحراء الجنوبية على تقديم المادة البشرية للعراق بينما وقفت جبال الشرق والشمال الشرقي بوجه القوة المحركة لطموح سكان العراق في القديم لذا فقد مثل كل من الانبساط الصحراوي والحاجز الجبلي مصدر صعوبة وسلبية عادت على العراق بالقلق وفقدان الاستقرار الهادف النشيط . فالصحراء الممتدة في الجنوب وضعت المدن والمدنية في العراق تحت رحمة غزوات البدو ولما كانت البداوة تمتلك القدرة على تجديد حركتها بشكل افضل من الحياة الحضرية فقد

تتابعت تأثيرات الغزو البدوية مما افقد حياة المدن في العراق أي نصيب من الاستقرار والتعود على حياة المدنية . وليس بجديد ان اكثر المدن في العراق انشأت على حدود البوادي مما جعل تأثير البداوة عميقا عن طرق الانساب أو الفوائد الاقتصادية والسياسية المتبادلة وحافظ على الصلة القائمة بين رجال القبائل من جهة ومتحضرى المدن من جهة ثانية مع تأكيد على الاصل القبلى للفرد العراقى يفقد بدونه ذاته المتميزة التى تأبى أن تذوب فى طاحونة الحياة فى المدنية ، وبمعنى اوضح فقد ظلت القبيلة وباديتها بمثابة (الهو) لانا الفرد العراقى بينما عكست المدينة ذاتا عليا مصطنعة لا يرتبط العراقى بها الا عن طريق المصالح والمنافع المادية التى لا ترتفع بأى حال من الاحوال الى منزلة الهو القبلية بالنسبة اليه .

أما الحاجز الجبلى فانه عمل كحافز واقعى وتاريخى لصهر العناصر الحضرية والبدوية فى وسط العراق وجنوبه والوقوفه بشكل مشترك ضد الغزو الخارجى . ولم تقف جبال الحدود فى وجه تصميم سكان العراق فى القديم فقد عبرت التشكيلات العسكرية العراقية فى تلك الفترات القديمة هذه الحواجز الجبلية فى محاولات ناجحة لتوسيع رقعة الارض العراقية الا ان الحدود ما لبثت ان عادت عقبة تصد الزحف العراقى نحو عوالم اوسع تتفق ورسالة العراق الحضارية . ولعل التركيب السياسى والعسكرى فى العراق القديم والذي تميز بقيام حكومات قوية لها القدرة على تجهيز جيوش عظيمة فى المنطقة الشمالية مما يؤكد قوة العدو وراء الحاجز الجبلى والحاجة الى اتباع سياسة التصدى لوقف ما قد تتعرض له ارض العراق من عدوان مفاجىء تنجم عنه مضاعفات تفقد الوحدة العراقية تماسكها الداخلى وقدرتها على العمل على الصعيدين السياسى والعسكرى وتعود بالتالى على التوازن السياسى فى العالم القديم بالضرر نتيجة لما قد يعترى بلدا له من الاهمية الثقافية والحضارية والكثافة السكانية كالعراق من ضعف أو ارباك فى جوانب حياته السياسية والعسكرية والفكرية التى كانت تحتل مركزا من مراكز الاهمية فى ذلك العالم ذى التاريخ القديم . ونظرا لما شعر به

العراقيون من ضغوط بحكم موقفهم الجغرافي وحاجتهم الى بذل المزيد من الجهود في سبيل ابقاء من يحيط بهم بحالة من الخوف او التردد الشديد مثل الاتيان بعمل من شأنه الاعتداء على الارض العراقية ، فان بناء حضارات لها رقى الحضارات القديمة في العراق لم يكن شيئاً هيناً وانما كان عملاً جباراً استنزف طاقة واستعداداً هائلتين فقد حمل العراقيون القدماء السيف في يد والمحراث في اليد الثانية لكي يدافعوا ويبنوا في آن واحد . ولكن حالة التأهب هذه لم تلبث ان اضعفت التركيب السياسي والاداري للمجتمع العراقي واخذ يقع تحت ثقل عوامل السيطرة الخارجية انتهت به ليصبح قطراً ضمن منطقة نفوذ الدولة الفارسية القديمة التي حاربها واتصر عليها ثم وقف منها موقف الند حضارياً وعسكرياً وسياسياً .

الا ان الخاصية الاصلية للشعب العراقي انه وان يخضع لقوة غاشمة داخل حدوده او ظلمه من خارج هذه الحدود فانه لن يستسلم لهذه القوى بل يعمل على تجميع قواه والتخلص من القيود التي فرضت عليه . ولما كان الحافظ الاصيل لدفع طاقة العمل والثورة في العراق ينبع من تصميمه القومي وشعوره بمسئوليته العربية التي تحتم عليه مقاومة التسلط الاستعماري فقد ابتكر الفرس وكذلك البيزنطيون بالنسبة لبلاد الشام اقامة سد من العرب انفسهم يمنع تلاقى القوة العربية من جهة ويمكن هذه القوى العربية على العرب من الانفراد بالعراق وغيره من اقطار الامة العربية وطمس كل شعور قومي فيها من جهة اخرى .

وقد عانى العراق في ظل الحكم الفارسي القديم من وضع قاس لانه كان ضيعة فارسية بعيدة عن حاضره الحكم الفارسي مما زاد في المصاعب السياسية والادارية وتردي الوضع الاقتصادي فقد افقر الفرس العراق وعاشوا على موارده الاساسية دون ان يعملوا على العناية بارضه لكي تواصل در خيراتها كما ادى التنافر بين الديانات الفارسية كالمزديكية والمانيية والزدشنية واجبار العامة من الناس على قبولها ان يعيش العراق سلسلة من الكوارث والمآسى زادتها الاوبئة والفيضانات والبطالة وطرق

جباية الضرائب سوء وترديا •

وتجربة العراق تحت ظل التسلط الفارسي هي اقدم تجربة يمر بها قطر عربي تحت نفوذ استعماري الامر الذي اثر في رد الفعل العراقى تجاه المخططات الاستعمارية ومكنه من ان يكتشف الايدى التى تحاول جره الى حفر الاستعمار ووضعه فى مناطق النفوذ وكان التاريخ هو الاخر يعرف هذه الميزة للشعب العراقى فيسعى الى تعريضه الى هذه التجربة القاسية ثم يترك له التغلب على هذه المحنة • والواقع ان تاريخ العراق منذ ان دب الضعف الى كيانه فى اواخر الحكم العربى الاسلامى المتمثل بالدولة الاسلامية سلسلة من المآسي والنكبات والكوارث وحمامات الدم مما جعل العراق موطناً لحركات التطرف لكي تتم عن طريقها أمتصاص نزعات الالم والرغبات الجامحة التى ولدها الضغط الاجنبى ممثلاً بالتسلط والاستعمار واستغلال القوى البشرية والموارد الطبيعية •

لذا فقد نشأ العراقى حذراً متوقفاً مندفعاً متردداً طيباً منطوياً انايياً يعمل للمجتمع وبشكل اخصر فهو مجموعة من المتناقضات واشد ما يتميز به الفرد العراقى انه لا يكتفي بان يحزن ولكنه يعيش حزنه فيبته بشكل اغان ذات نفس طويل ومد فترات الحزن عن طريق تعقيد وتضخيم النقاط التي يقف عندها كاسيا اياها بدوافع من الحزن والخوف من المجهول والمستقبل وبشكل اوضح فان العراق الحديث تدخل فى نسيج تاريخه المعاصر عوامل منها :

١ - التسلط العثمانى : وقد اثر هذا العامل فى اختلاط مفهوم القيم الدينية لدى القابلية من أفراد المجتمع العراقى فلم يستطع الكثرة منهم ان يفرق بين الاسلام الدين الحق وبين التفسير العثمانى للدين واتخاذة وسيلة سياسية لتدعيم قواعد حكمه التى اخذت تتعرض لكثير من الهزات عندما تعرضت الدولة العثمانية لضغط التغيير الفكرى والسياسى الذى ساد اوربا بنتيجة حركات الاصلاح الدينى والسياسى والاجتماعى والثورات السياسية التى هزت قواعد الحكم التقليدى فى اوربا • وثلت العديد من

العروش ودوائر السياسة التقليدية •

٢ - وقوع العراق في منطقة تنافر قوميتين احدهما تمثلت في الدولة العثمانية والثانية الدولة الفارسية وقد سيطرت الدولة العثمانية بشكل استعماري على العراق وضمته الى مناطق نفوذها وبذا اصبح ابناء العراق من رعايا السلطان وان لم يكونوا في الواقع الا كمية مهملة في حساب الادارة العثمانية الا ان الدولة الفارسية ما لبثت هي الاخرى ان طالبت بحصتها في العراق طانة انه فريسة سهلة لانه خضع للدولة العثمانية وقد دفع الوضع الجديد بعدد من سكان العراق ليلعبوا دور من يستغل أحد هذين الغريبين فيضرب به الغريم الاخر في سبيل كسب شخصي او منفعة ممثلة في حكم او جاه وقد نتج عن الوضع الجديد ان اصبح افراد عديدون من المجتمع العراقي يميلون الى هذا الجانب او ذاك في الوقت الذي بقيت اكثرية ترى ان اللابالية هي اسلم حل للظرف الذي يخيم على القطر العراقي فهم بذلك اكثر قابلية للكسب وعلى الاخص عندما تبدأ كل من القوتين تكره عملاءها في الداخل وتنبع حاجة الى استخدام عناصر (نظيفة) تعود بالفائدة على الجهة التي تستغلها او تستخدمها •

ولم يقف الاربك في الحياة السياسية والاجتماعية العراقية عند هذا الحد بل تعداه الى نزاع مسلح وصدام عسكري بين العثمانيين والفرس كانت ساحة الحرب فيه ارض الرافدين واكثر الضحايا من ابناء العراق انفسهم فاذا رجحت كفة احدى القوتين المتخاصمتين فان الكفة الراجحة تسعى الى افناء من قاومها وحرقت بيوتهم والاستيلاء على اموالهم وحریمهم انسجاما مع اخلص التعليم الميكافيلية التي تحث على الابدانة •

وطبيعي ان من يعيش الصدام المسلح لا بد وان ينحاز بكليته الى القوى المنتصرة والا تعرض للقتل او الابدانة والذكي من يستطيع ان يخفي مشاعره ويموه ما يراه صوابا فاذا ما دنت اللحظة المناسبة اظهر ولاءه وبذلك يضمن كسب عطف سادته الجدد •

٣ - استقلال العراق والمراد به تحرره من نفوذ الدولتين العثمانية

والفارسية والا تكون أرضه ساحة حرب لهاتين الدولتين كما ان موارده الطبيعية تبقى ملكا لابنائها . وسنحت الفرصة بعد أن تهدمت القوة العسكرية العثمانية في الحرب العالمية الاولى الا ان طرق الاستقلال ما لبثت ان اصبحت خطره بعد ان دفنت فيها العديد من الالغام منها اتفاقات الحسين - مكماهون ، معاهدة سايكس بيكو ، خط الشرق السريع وتأمين طريق الهند وما يجره هذا كله من صراع بين بريطانيا والمانيا ، فقط العراق ومساعي المستر كولنكيان (الحميدة) واثر امتيازات دراسي في فتح موارد الذهب الاسود في الشرق الاوسط أمام الاطماع الاجنبية ، النزاع الداخلي في العراق بين اولئك الضالعين مع العثمانيين او الفرس ، تقسيم العراق الى ولايات ثلاث البصرة وبغداد والموصل ، ثم هناك البادية والحاضرة والسياسة العشائرية التي اتبعها العثمانيون في ضرب شيوخ العشائر بعضهم ببعض في سبيل اضعافهم اولا وسهولة السيطرة على الوضع العشائري ثانيا .

وخلا الجو للدول الاوربية وعلى الاخص بريطانيا وفرنسا لاقتسام الوطن العربي عامة ولم يكلف السياسة الاوربيون انفسهم برسم خرائط لمناطق غنائمهم المقبلة وانما اکتفوا بخارطة واحدة لعب (القلم الاحمر) دوره في تقسيم مناطق نفوذ كل دولة والاسلوب التي ستحصل عليها .

وكان العراق من (حصّة) بريطانيا التي استغلت كل خبرتها الاستعمارية في الهند ومخططات السياسة الانكليزية منذ عهد هنري الثامن والملكة اليزابيث الاولى وفكتوريا وما اضيف اليها في ١٠ داونك ستريت من اساليب المكر السياسي والتفنن في وسائل الاستغلال والتسلط تحت اقنعة يقبلها الرأي العام (الاوربي) .

وقد وقعت المنظمات الدولية - كما هي دوما - تحت تأثير ثقل الدول الغالبة ووافقت عصبة الامم على اقرار مبدأ الائتداب وبذلك اصبحت الدول المستعمرة وصية لها شرعية زودتها بها (عصابة) الامم واجبها الاساسي لا يتجاوز (اعداد) الاقطار التي انسلخت عن جسم الدولة العثمانية لكي تصبح اهلا للاستقلال وعند ذلك تتركها الدول المنتدبة لتدير شؤونها وفق

حاجاتها ومطامحها •

وقد يرى البعض ان المبدأ سليم نظرا للطريقة التي صيغ بها ولكن الواقع ان الاقطار التي برزت على المسرح السياسي بعد الحرب العالمية الاولى لم تكن مجرد توابع للدولة العثمانية وانما كانت دولا عريقة في الحضارة لها قوميتها وارضها ولغتها واديانها وسكانها مما يؤهلها للاستقلال الذي لم يكن في ذاته الا رد اعتبار هذه الاقطار التي دفعها حظها المنكود لكي تصبح جزءا من ارباك هائل هو الامبراطورية العثمانية •

وقاوم العراق وكان طبيعيا ان تبدأ المقاومة فقد انتقل العراق من الاستعمار العثماني الى الاستغلال البريطاني ومن ورائه دول عصبة الامم الاوربية وتردت الحياة الاقتصادية والثقافية بشكل لم يسبق له مثل فقد حاول الساسة الانكليز ممن عاشوا حياتهم في الهند ان يطبقوا اسوء ما تعلموه خلال سني استعمارهم لشبه القارة الهندية ولكن الشعب العراقي يختلف عن غيره فهو لم ولن يخضع لمستعمر أو طاغية ولا يمكن ان يفسر سكوته بالخوف او الاستسلام ولكن كثرة الضربات التي تلقاها العراقيون افقدتهم سرعة العمل والحركة فاذا ما وضحت الصعوبات امامهم اندفعوا الى تذليلها •

وقد بدأت الثورة في المدينة (العاصمة بغداد) واخذت الزمرة المثقفة تنظم المظاهرات والاضرابات وشعر الحاكم البريطاني في بغداد بحاجة موقف الحكومة البريطانية المستعمرة في العراق ولكن الادارة البريطانية لم تكن لتراجع بسرعة نظرا لماضيها في ظلام الاضطهاد والتسلط مما اوجد حاجة ماسة الى عمل اكثر حدية الا ان فقدان التنظيمات السياسية والوعي الثقافي في العراق يضاف اليهما انعدام وسائل الاتصال بين اجزاء القطر المتباعد مما اربك توقيت الثورة ولكن ارادة الشعب العراقي كانت اقوى من عوامل الضعف والتردد فاذا بثورة ١٩٢٠م تكتسح الاستعمار والمستعمرين واشتعلت نار المطالبة بالاستقلال في اجزاء عديدة من القطر العراقي مما دفع الحكومة البريطانية الى اعادة موقعها من العراق •

والواقع ان ثورة سنة ١٩٢٠م في العراق لاقتل في روعتها عن الثورة الارلندية مع وجود تقارب كبير بينهما فكلتا الثورتين ترجمت ما يحس به شعب كل منهما مع تصميم وعناد وعنف في مقاومة عدو غادر هو انكلترا ويخطىء في حق التأريخ وحق العراق وحق نفسه من يظن ان ثورة ١٩٢٠م مجرد حركة عشائرية عفوية •

فاما كونها عشائرية فذلك واضح لاقتنار العراق في تلك الفترة المتقدمة من تكوينه الحديث الى تنظيم سياسى مدعوم بوعى فكري وثقافي الا ان عفويتها تعبير لا محل له في عالمي الواقع والتاريخ لان معظم ثورات البشرية منذ سبارتكوس حتى الوقت الحاضر تلعب العفوية دورا فعلا فيها فالثورة الفرنسية التي تعد حدا فاصلا في الفكر والواقع في اوربا والعالم لم تكن في بدايتها اكثر من حركة للتخلص من ضريبة الملح والمطالبة باعادة توزيع الضرائب بشكل يتفق ومدخولات طبقات المجتمع في فرنسا الملكية •

ومن وجهة النظر الموضوعية فان ثورة سنة ١٩٢٠م في العراق افترقت الى وحي ثوري تمهيدي وتنظيم يسند العملية الثورية في الوقت الذي تسعى اجهزة ثورية اخرى لتوثيق الصلة بين المدن والعشائر ومد الشوار بالاسلحة والعتاد والمواد التسوينية كما تسعى هذه الاجهزة نفسها الى طرح مساوىء ومظالم الاستعمار البريطاني على الصعيدين العربي والعالمي •

أما في المناطق التي التهمت فيها الثورة وهي الفرات الاوسط فانها كانت بحاجة الى تنسيق في العمل الثوري وتمويله والتخطيط لادارة دفة الحرب وتعبئة القبائل بشكل مجموعات صغيرة تمتلك القدرة على الحركة السريعة والتدمير دون التعرض الى قوات العدو • ومن المؤكد ان هذا الاسلوب في القتال وعلى الاخص في منطقة الفرات الاوسط وفي احراش المنطقة وغابات نخيلها وتجاوب المقاتلين مع مواطنيهم من ابناء المنطقة كان سيعمل على كسب المعركة في ساحة قتالها بدلا من تحويلها الى مصالحة سياسية انتهت بقيام حكومة عراقية فرضت من خارج حدود العراق •

٤ - مهزلة الحكم الوطني وامتيازات النفط •

وكما هو دأب الاسرة الهاشمية في وأد الحركات التحررية العربية فقد عين فرد من اعضاء هذه الاسرة لكي يكون اداة للنفوذ البريطاني في العراق يعمل على تهدئة القوة الثائرة في هذا البلد في الوقت الذي يتصرف فيه كفناع للتدخل البريطاني . فقد وافق السير برسي كوكس بعد ان الحث سكرتيرته الشرقية (المس بيل) باستيراد فيصل ووضعه على دست التنظيم السياسي المصطنع .

والغريب ان الاسرة المالكة في العراق لم تسلم بالفرضية القائلة بان التاريخ سيحكم عليهم ويضعهم في المحل الذي ينتمون اليه سلبا او ايجابيا لذا يترتب عليهم ان يتصرفوا وفقا لخطوط واضحة من العقل والضمير . ولكن العكس هو الذي حصل فان افراد العائلة المالكة في العراق ظلوا في مخططاتهم الاجيرة يعتبرون انفسهم غرباء على العراق واهله لذا ازداد اعتمادهم على حاشيتهم وغرباء اخرين منهم وتوثقت صلاتهم بالقوى الاستعمارية لكي تستخدم عند الضرورة فقد كانوا يتوقعون نهايتهم . لذا حاولت الاسرة خلال تاريخ تسلطها ان تعبت بالموارد العراقية فتم الاستيلاء على الارض الصالحة للزراعة من قبل العائلة المالكة ووضعت تحت ادارات خاصة وثم تهريب العديد من الاموال والمعادن النادرة والاثار القيمة الى خارج القطر العراقي حيث البنوك والمتاحف السويسرية او البريطانية .

أما التعليم والتقدم الزراعي والصناعي والاهتمام بالصحة والتنظيم الاجتماعي فانها كانت في قائمة المهملات لان الزيادة منها - كما كان يظن أفراد الاسرة المالكة - معناه التطويق بالموازنة القائمة بين التقدم وبين قابلية المجتمع لاستيعاب التقدم وكان الامر لا يتعدى وجود مريض هو العراق تعطى او تمنح له جرعات دواء تسيطر عليها أفراد العائلة المنتفذة فقد آمنت الاسرة المالكة بان المجتمع العراقي لا يمكن تغييره وان قابليات الفرد العراقي محدودة وهو بطبعه لا يميل الى العمل والتضحية وانما يسعى نحو الكسب القريب الهدف تهمة مصلحته الخاصة في الوقت الذي يتكالب المثقفون من ابناء المجتمع العراقي على المناصب همهم الحصول على (زعامة) ولو كان

ذلك على حساب الشعب الذي نبعوا منه فقد يتجسس ويكذب ويوقع
احدهم بالآخر لكي يخلو له الجو وبذلك اصبح مفهوم السياسية والانتهازية
واستغلال النفوذ والحصول على الوظائف او اجازات التصدير والاستيراد
واحتكار السلع والمواد الغذائية والعبث بالقضاء واستغلال النفوذ والاثراء
غير المشروع من الظواهر المألوفة للعمل اليومي للسلطة الحاكمة واجهزتها
الادارية وانقلبت المقاييس في الحياة والمجتمع فلم يعد هناك مجال لعمل فكري
او ابداع فني لان الفكر والتحصيل العلمي اصبحا من جوانب الحياة الهامشية
التي تودى الى ضياع الوقت لان النجاح او المركز الاجتماعي لا يرتبط بهما
من قريب او بعيد فقد يكون الزواج التجاري واجادة النفاق والقدرة على
التلون وانتهاز الفرص دون خلق او وازع من دين او ضمير هي السبل
المؤدية الى بلوغ الاهداف المطلوبة وباقصر زمن وجهد .

وليس غريبا ان تؤثر على هذا الخلط بين قيم الخير والشر في نظرة
الناس الى النجاح والفشل وحشهم من يسعى في سبيل كسب علمي او اجتماعي
ان يتعلم فن النفاق والخداع وحضور المجالس الخاصة والجلسات العائلية
وندوات المتاجرة بالضمائر والذمم والاموال والمناصب .

اما اذا اراد البعض من ذوي الرؤوس الصعبة ان يثبتوا مكائهم بما لهم
من معرفة وشخصية تعرضوا الردود فعل من المجتمع نفسه قد تتراوح بين
رميهم بالغباء او الجنون او الاستهزاء منهم اذا لم تقم السلطات الحكومية
بمحاربتهم او وضعهم تحت طائلة روتينها .

وبذا اصبح الروتين يعني في المفهوم العادي الوظيفة واصبحت السرقة
والرشوة والغباء والغش والنفاق من صفات الموظف والتاجر والمدرس والمحامي
الناجحين .

أما النفط فانه جانب اساسي لاكمال صورة العراق الحديث ومنذ ان
استخرجت هذه المادة الثمينة والعراق لا يعرف معنى العمل السياسي والاداري
المنظم في الوقت الذي يتعرض فيه اقتصاده الى هزات عنيفة واهمال للموارد
الطبيعية الاخرى مما اربك المخططات الاقتصادية الهادفة الى زيادة الانتاج

والاكتفاء الذاتي ومواجهة مطالب التصنع • ولو لم اتهم من قبل المهتمين بالاقتصاد بنوعيه السياسي والاقتصادي باننى متحامل او متطرف لطالبت بارجاع عقارب الساعة الى الوراء واغلاق آبار النفط فى العراق فاحفظ لهذا البلد ثروة ضاعت فى دنيا المضاربات المالية والاحتكارات العالمية بينما يحترق قسم منها (الغاز الطبيعي) ليتم رسم المأساة التي يعانى منها الذهب الاسود فى شعب لم يتمكن من الارتفاع الى مسؤولية حصوله على هذا المورد الحيوى الهام •

والنفط العراقى يرتبط بالفقر والتردى فى المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي عاشها العراق المعاصر • ففي الحقل السياسى شددت الدول الاوربية وفى مقدمتها انكلترا التي تمتلك أكثر أسهم الشركات المشتركة لنفط العراق على ابقاء العراق ضمن منطقة نفوذها وأمتدت أيدي عملائها وبعثاتها الدبلوماسية لكي تحرك كل صغيرة وكبيرة فى الاجهزة السياسية سواء آكان ذلك فى مجال العمل الحكومى أو على صعيد الصلات الاجتماعية وما يتصل بها من نوادى وجمعيات تخدم اغراض التاج البريطانى أما فى المجال الاقتصادى فان النفط وصناعته المعقدة لم تكن تتناسب مع ما كان عليه العراق من تأخر فى نواحي الصناعة المختلفة مما ادى الى قلة الانتفاع بالايدي العاملة المحلية وظهور ردود فعل سلبية بالنسبة لمفاهيم الصناعة والتصنيع • زد على ذلك أن عائدات النفط لم تكن لتتناسب مع متطلبات التخطيط الاقتصادى فى العراق وإنما خضعت الى مضاربات بورصة الاحتكارات الاجنبية فى السوق العالمى للنفط فى الوقت الذي قلت فيه الرساميل التي اعيد استثمارها فى صناعة النفط بغية رفع الارباح التي كانت معفوة من الضريبة وفقدان مبدأ الملكية بالنسبة للدول المنتجة بعد ان أطلقت أيدي شركات النفط فى طول الارض العراقية وعرضها •

وعلى الصعيد الاجتماعى فان شركات النفط العاملة فى العراق غدت النزعات الطائفية والعنصرية وأخذت تنفق عليها فى الوقت الذي انتهجت فيه خططا تمنح حق التوظيف للاجانب وبعدهم يأتي أفراد أقليات عراقية وعلى الاخص اليهود

الذين لعبوا دورا مجرما خلال فترة الانتداب البريطاني وبذلك سدت شركات النفط ابواب العمل في مرافقها على أصحاب النفط أنفسهم خلقت منهم طبقات اجتماعية متنافسة حالت دون قيام تفاهم مثمر بين ابناء المجتمع في العراق • وبتعبير آخر فقد كانت شركات النفط حكومات داخل الحكومات من ذوات السلطة والتسلط وان كانت ذات أثر اقوى واعمق في آن واحد •

وفي الوقت الذي تمثل فيه كل من مصر والعراق العمود الفقري للامة العربية فان بلاد الشام وسواحلها والمغرب العربي باقطاره ليبيا وتونس والجزائر ومراكش وموريتانيا وشبه جزيرة العرب والسودان واليمن وجنوبها والخليج العربي هي الاضلاع التي تكون مع عمودها الفقري الهيكل العظمي للقومية العربية بما يتجسم فيه من روح تستقى حياتها من تاريخ وحضارة وآلام وآمال العرب في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم •

وقد مثلت بلاد الشام وسواحلها حركة نشيطة في سبيل العمل القومي العربي وابدت نكرانا للذات ضرب اروع الامثلة في التضحية وتكوين فكر ثوري عربي مشترك على الرغم من صغر الارض التي تحتلها وقلة عدد نفوسها فلم يستطع الاستعمار العثماني اخياد جذوة القومية العربية في بلاد الشام وسواحلها فقد شهدت ساحات دمشق وبيروت العديد من الشهداء ممن اغتالتهم السلطات العثمانية لانهم آمنوا بحق الامة العربية في الحرية والحياة والتقدم •

ونظرا للصعوبات التي تعرضت لها بلاد الشام وسواحلها فقد جاء كفاحها موحدا ضد التسلط العثماني ضرب اروع الامثلة في الفداء من أجل رفع لواء القومية العربية فقد انطلق العمل العربي في مراحل الاولي من بلاد الشام وتأسست العديد من الجمعيات ذات الصبغتين المدنية والعسكرية مما لا يدع مجالا للشك بان بلاد الشام هي الدائمو الذي حرك الوعي القومي لولا أن أجهضت اندفاعاتها القومية موآمرات أسهمت فيها قوى سوداء منها الاسرة الهاشمية والاستعمار الاوربي بامواله

ودوائر استخباراته ومستشرقيه وجمعياته التبشيرية •
وقد تعرضت بلاد الشام وسواحلها الى شباك السياسة الاوربية بعد
الحرب العالمية الاولى فقد أجرت معاهدة سايكس - بيكو بوضع سوريا
ولبنان فى مناطق النفوذ الفرنسية بينما (منحت) فلسطين للاستعمار
الانكليزي !

وقد ادرك الاستعمار الاوربي قوة الدفع القومي فى بلاد الشام وسواحلها
وانتفع بالاخطاء التى ارتكبها العثمانيون خلال فترة تسلطهم فعمدوا الى
أسلوب تمزيق الصف القومي باستغلال بعض النزعات الطائفية والمذهبية
التي غذاها الاستعمار نفسه فكما تدخلت روسيا القيصرية فى الشرق العربي
باسم (حماية الارثوذكس) طالبت فرنسا بحماية الموارنه فى لبنان وبذلك
أضطرب العمل القومي وبرزت الحدود المصطنعة باسم الحفاظ على التوازن
الطائفي والمذهبي تلك الدعوة الزائفة التي اختزلت بلاد الشام وسواحلها
الى مناطق متنافرة برزت فيها أسماء من تحت رماد التفرقة والتصارع منها :
موارثة ، كاثوليك ، دروز فقد ضعف الرباط القومي الذي جعل من هذه
القوى ذات القيمة الثانوية فى مجال الحركة والعمل مجرد مسميات
لا تجد ما يترجمها فى عالم الواقع •

وبتشجيع من القوى المستعمرة وبفعل الفراغ الذى وجد بفقدان
الخيمة القومية فقد استغللت الاتجاهات الاقليمية والطائفية أسلوب العمل
السياسى فانشأت (الكثائب) وحزب الرجوع الى الوطن الام فرنسا فى لبنان
بينما ظهرت فى سوريا حركة الحزب القومي السورى التى استهدفت الى
فصل سوريا عن الوطن العربي فى الوقت الذى ضمت فيه هذه الحركة
الاقليمية المجرمة أجزاء من الشرق الاوسط لاعتبارات مذهبية ضيقة مما
انتهى بها الى التطرف والاغتيالات السياسية عجلت بنهاية الحزب فى
سوريا وأن بقيت بعض ذبوله فى لبنان واوروبا بعد أن انتظمت فى حلقات
للتجسس والتخريب والاغتيالات مترسمة الطريق الوعر الذي تسير فيه
منظمات الارهاب الدولية كمنظمة الجيش السرى الفرنسية والفاشية

الصقلية - الامريكية •

أما الجناح العربي في الوطن العربي المتمثل بالشمال الافريقي فانه شكل وما يزال يشكل مقدمة مهمة من مقدمات الوجود العربي وقد تعرض كغيره من الاجزاء العربية لئير الحكم العثماني والتسلط الاوربي مثلما في الاستعمار الفرنسي الذي حاول أن يطمس عروبة المغرب العربي الا أن المقاومة العنيفة التي حفزتها الروح القومية لدى عرب هذه المنطقة أجبث المخططات الاستعمارية سواء أكان في ليبيا أو الجزائر أو المغرب وأن تسبب الاستعمار في العبث باللغة العربية وشوهت المعالم العربية في أقطار الجناح الغربي من الوطن العربي ضمانا لانفصال تام بين مشرق الوطن العربي ومغربه •

أما الجزيرة واليمن وجنوبه والخليج العربي فانها الاجزاء الام للقومية العربية من وجهة النظر الحضارية وقد قفزت شبه الجزيرة العربية الى مرتبة الاهمية بعد أن اكتشفت آبار النفط الغنية في اماكن شتى من الجزيرة العربية مما اثار حمى المنافسة بين الشركات الاوربية المحتكرة ودفعتها لاقامة ستار يفصل الجزيرة العربية عن الحياة ومن الوطن العربي والعالم الخارجى لكي تعمل الشركات في جو استعماري يلائم أطماعها التي لاتقف عند حدود وبذلك تم الاتفاق بين شركات النفط المحتكرة والقوى التقليدية والرجعية لكي تبقى القديم على قدمه في الوقت الذي تحصل فيه على امتيازات نفطية تعود عليها بارباح خيالية مع أفقار تام للشعب العربي وجزيرته وقتل روح التطوع فيه نحو حياة أفضل تعود بالضرر على الاستعمار والرجعية والارباح الخيالية للشركات المحتكرة والاسر الحاكمة ومن معهم من سلاطين وامراء ومرترقة • ولم يكن اليمن باحسن حالا من شبه الجزيرة العربية فقد كانت أسرة حميد الدين بالية في فكرها وتفكيرها وكانت العاصمة صنعاء تغلق فسى وجه العالم الخارجى عن طريق سورها وفي ساعات مبكرة من ليل القرن العشرين فهل نحن نشهد مسرحية عن القرون الوسطى تلعب فيها شخوص شكسبير كالمملك لير وماكبث وهاملت الادوار الرئيسية أو نحن امام واقع

متخلف؟ والحقيقة ان اليمن السعيد الذي يحتل مركزا استراتيجيا واقتصاديا مهما يعيش في عزلة عن منطقتة وعن العالم ولم يكن هناك من طريق فسى طول اليمن وعرضها خلال الفترة التي قامت فيها ثورة اليمن الا الطريق الممتد من صنعاء العاصمة الى الحديدة في الوقت الذي أنقسم فيه الشعب اليمني الى عشائر وطوائف تغذى نار فتنتها اسرة حميدالدين لتزداد أقساما وبذلك تحتفظ الاسرة المالكة بنفوذها ولو على حساب دم الشعب وقوته • أما الخليج العربي فانه منطقة عربية غنية وخطيرة في آن واحد ، و ثروتها النفطية الهائلة تملع لها قلوب وجيوب الدوائر الاستعمارية الاوربية فتبدأ بالتنافس وجبك المؤامرات والمغامرات في سبيل الاستئثار بالموارد النفطية للخليج العربي •

وقد اتخذت المنافسة في فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى أسلوب (الاحتكار المركز) عن طريق الاتفاق بين الرؤوس الاستعمارية المحتكرة الكبيرة والسيطرة على السوق العالمية للنفط وبذلك تم لملوك البترول ومحتكريه من التلاعب بالاسعار وفرضها بشكل يسد الباب على من يحاول دخول حقول الاستثمار مع فرض سياسة افقار على الدول المنتجة لهذه المادة الحيوية •

ولم تكن الشركات المحتكرة لوحدها في ميدان القرصنة النفطية وإنما ضمنت كعون لها دوائر السياسة والحرب في الدول الاوربية التي تتنفع بدورها مما تقدمه الشركات المحتكرة وبذلك ظهرت اللعبة الاستعمارية التي سمت اقطار الخليج العربي بالمحميات ضمانا لاستغلال السلطة البريطانية والعبث بحياة ومستقبل الخليج العربي • والواقع ان ما تعاني منه منطقة الخليج من فقر وتناقض في مستويات المعيشة بين الحاكمين والمحكومين وانعدام للتعليم وانتشار للمرض يجعلنا نفهم الحماية بشكل اخر هو ان المحميات بحاجة الى حمايتها من التسلط السياسي والاقتصادي الانكليزي • اما خطورة منطقة الخليج العربي في معركة العرب المصرية فانها تنبع من كون الخليج نفسه النافذة التي تطل منها القومية العربية في العراق على العالم الخارجي

ومن الخطورة بمكان ان يفتقر العراق الى منفذ على الخليج في الوقت الذي يتعاون فيه الاستعمار البريطاني مع قوى اجنبية لجعل الخليج العربي بحيرة اجنبية عن طريق محو عروبه وتشجيع الهجرة الاجنبية اليه مما يجعل مسؤولية العراق والاقطار العربية الاخرى من الاهمية والصعوبة بمكان للابقاء على العروبة قوية في اقطار الخليج من جهة وتأمين شريان حيوي للمواصلات والتجارة العربية من جهة اخرى .

ولكى تكمل الصورة التخطيطية للوطن العربي لا بد وان نذكر الارض العربية التي تمتد في قلب القارة الافريقية لتثبت للعالم اجمع ان القومية العربية هي اول من حمل لواء الحرية وعمل على دعم الاخوة بين البشر كافة وبذلك نجحت قوة الدفع القومي العربي في فتح نوافذها على القارة الافريقية لتمر منها الصداقة العربية والتعاون في سبيل التحرر والمستقبل الافضل فقد امتزجت الدماء العربية بدماء الافارقة في طول القارة الافريقية وعرضها دفاعا عن عزة افريقيا وحرية ابنائها والوقوف بحزم في وجه ما يدبر ضدهم في عواصم الدول الاوربية حيث المال والجنس واللصوصية والجاسوسية .

ويمثل السودان المنفذ الحيوي للقومية العربية التي تعانق عن طريقة الافارقة لكي تتعاقد الايدي والعزائم في مجالات العمل لصالح افريقيا والانسانية اجمع .

والواقع ان السودان قطر متسع بمساحته وعدد سكانه ووفرة موارده الا ان هذا القطر العربي ذا المسؤولية الافريقية في الوقت نفسه تنتظره مهام جليلة تجعل منه همزة الوصل التي تربط بين الكفاح في سبيل الحرية والمستقبل الافضل في الوطن العربي وكفاح الافارقة الهادف الى حكم انفسهم واسترجاع ثروات القارة الافريقية التي نهبت على يد الاستعمار وشركائه وجمعياته التبشيرية . وبعبارة اوضح اذا كانت مصر هي مفتاح القارة الافريقية الذي يدخل منه الضوء والحرية الى القارة الافريقية فان السودان

هـ الوسط الناقل الذي يتم عن طريقه ايصال اقباس الحرية والتقدم والثورة الى اقطار افريقيا التي عانت وما زالت تعاني من الاستعمار الاوربي الذي يتراوح بين السيطرة السياسية والاستغلال كما كان الحال في كينيا وغانا والجمهورية العربية المتحدة وبين الاستيطان وحكم الاقلية كما هو الوضع المريض السائد في جنوب افريقيا وروديسيا وانكولا وموزامبيق حيث يعامل الافارقة كحيوانات الحقل المريضة في الوقت الذي ينعم فيه المستعمرون البيض بفردوس مفقود تحدث عنه الخيال وجسمته مخيلات الفلاسفة لاستحالة وجوده في عالم الواقع •

الفصل الخامس

اليوم والمصير : فى سبيل عمل للغد

عنوان هذا الفصل مأخوذ من كتاب للمفكر الالماني (ازولد شبنجلر) نعى فيه على الحضارة الاوربية تدهورها وانحطاطها فقد وصف اليوم الاوربى ، ويريد به الحاضر ، بانه قاتم ويزداد قتامة لكي يفسح مجالا للظلام المستقبل الذي عبر عنه شبنجلر باسم (الغد) .

والواقع ان نبوءة (شبنجلر) لها سند من الواقع والفكر فى اوربا وامريكا وبعبارة مختصرة فان الفكر الاوربى وقد بلغ الحد الاعلى فى نجاحاته لا بد له ان ينحدر فى طريق التدهور والانحطاط ، ويمكن اكمال الصورة التى رسمها شبنجلر فى كتابه (اليوم المصير) بما ذكره هيگل عن روح الحضارة التى تحل فى امة من الامم فتدفعها الى اعلى مراتب الرقي ولكن هذه الروح لا تلبث ان تترك تلك الامة لتحل فى امة ثانية ، وبذلك يسير فكر كل من هيگل وشبنجلر فى خط واحد يؤكد بداية النهاية بالنسبة للحضارة الاوربية .

وهذا النبوء مع وجود الكثير من نواحي الخيالية فيه وعلى الاخص فى العصر التكنولوجى الحاضر الذي تسد ثغراته فى الفكر والواقع بما يتحقق من تطور وتقدم واختراع فى مجالات العلوم النظرية والتطبيقية الا ان هذه النجاحات فى حقول العلم والصناعة والسيطرة على المادة تركت فراغا كبيرا فى نفس الفرد الاوربى ادى الى ازدياد شعوره بعدم الاستقرار النفسى وززع اركان المجتمع فى اوربا على اختلاف ايدولوجيات هذا المجتمع ، وقد هسرت الصعوبات التى تقف فى وجه التقدم المتكافئ ماديا وروحيا فى اوربا

بواسطة ما يسمى بفكرة (التقاعس الحضاري) وفحوى هذه الفكرة انه
التقدم في مجالات السيطرة على المادة عن طريق الصناعة والانتاج على نطاق
واسع جعل من التطور المادي حقيقة سريعة الحركة تملك القابلية على التمدد
الواسع في جميع الاتجاهات في الوقت الذي يعجز فيه التطور المادي الاوربي
الكبير عن سد الفراغات العاطفية والروحية في حياة المجتمع الاوربي بالاضافة
الى ان التطور المادي لم يكن ليصاحبه تطور فكري بنفس سرعته مما ولد
ازدواجا في الشخصية لدى الفرد والمجموع في اوربا بشكل عام وفي
الولايات المتحدة الامريكية بشكل خاص فالتقدم الآلي وتطور الانتاج من
وسائل وادوات واختلاف التصاميم في مجالات الصناعة المتعددة التي تحاول
ان تتغير تبعا لظروفه المكان والزمان وحاجة السوق لم تكن لتتسجم مع
ازدياد في الحصيلة الثقافية لدى الفرد العادي في اكثر مجتمعات اوربا وامريكا
وقد ستر هذا الضعف تحت ما يسمى بالاختصاص فثمة الحجة القائلة بان
التعمق في المعرفة هو من عمل النفر الذي يكرس اكثر حياته وقسا كبيرا
من وقته في سبيل الخوض في المسائل الفكرية المعقدة .

وهذا هو بداية الانحطاط الحقيقي لان الهوة بين التطور المادي والتقدم
الفكري وخصوصا على مستوى عامة الناس في المجتمعات ذات الثقافة
الاوربية والامريكية ستزداد عمقا لان (النخبة المثقفة) تعمل دوما على اغناء
حصيلتها من المعرفة في الوقت الذي يتسع فيه جهل او غباء الاكثرية الكاثرة
مما يسمى بالافراد العاديين في اوربا وامريكا الامر الذي سيقود حتما الى
(ثورة للاغبياء) تسيطر على العالم الاوربي الثقافي باسم سد الفراغ العاطفي
وهدم العقلانية والتعلم او بالعكس تنتقم النخبة المثقفة من الاغلبية التي
عانت منها ومن المصالحة معها فتلقى بها في البحر او تعمل على ابادتها .

فالثقافة في العالم الاوربي بايديولوجياتها المختلفة في طريقها الى
الانحطاط فسن هي الامة التي ستحل فيها روح التقدم والحضارة بعد أن
تخرج من نطاق المجتمع الاوربي سواء أكان في اوربا او اميركا ؟ وهنا
تبرز امكانيات عديدة لا بد ان نستثنى منها الاقطار الاوربية بكاملها لانها

تمثل بشكل او اخر فعلا او رد فعل اوربي، يمتد هذا التأثير الى جنوب شرق اسيا حيث تتصارع المشاكل الاقتصادية والسياسية مع الايديولوجيات الفكرية مما يجعل الدول الاسيوية في وضع بعيد عن مجال جذب الروح الحضارية اما افريقيا واميركا اللاتينية فانهما تمثلان قارتين تمتلكان العديد من اسباب الثروة الطبيعية مع وفرة في الايدي العاملة غير المدربة الا ان هاتين القارتين على الرغم من وفرة مواردهما لا تمتلكان الدافع القومي الذي يجعل من كل منهما وعاء مهينا لاستقبال الروح الحضارية بعد خروجها من جسد الحضارة الاوربية وتركها للمجتمع الاوربي الاميركي .

بقيت الامة العربية اذن كمرشح طبيعي لاستقبال الروح الحضارية والعمل على احتضانها وبذلك اتفق مع (سبجلر) فيما ذهب اليه من ان الحضارة الاوربية في طريقها الى الغروب في الوقت الذي ارى فيه قابلية الامة العربية لاستيعاب الروح الحضارية واستضافتها لكي تتم الاهداف، التي تعمل الحضارة دوما من اجلها وهي التأكيد على تقدم الانسان والانسانية بخطى اوسع مما هي عليه في الوقت الحاضر لكي يتم التغلب نهائيا على الخوف والفاقة والجريمة والمرض والتأخر .

ولكن الامة العربية تبدو وكأنها ليست متكافئة مع الدور الذي تم تخطيطه لها في هذا الفصل بعد ان اوضحنا تدهور الحضارة الاوربية وقابلية الامة العربية للاستفادة من الفرصة التاريخية المتاحة لها لضم روح الحضارة اليها ومساعدتها في نشر رسالة الحضارة الانسانية فما هي العوامل السلبية التي تباعد بين الامة العربية وبين مسؤولياتها الحضارية في المستقبل :-

١ - التفكك السياسي فالوطن العربي ما زال يعيش واقعا فرض عليه فقد وجدت الحدود المصطنعة لكي تباعد بين قطر عربي وقطر عربي آخر وقد تظافرت عوامل عدة على ابقاء الوطن العربي مجزءا فقد تعرضت الارض العربية الى هزات عنيفة تمثلت في نتائج المطامع القديمة للدولتين الفارسية والبنظية مما بذر بذور الشقاق بين العرب انفسهم واستخدمت الطاقات العربية في ضرب بعضها والعمل لمصلحة المستعمر المستغل كما حدث بالنسبة

للمناذرة وللغاسنة •

وقد استطاع الاسلام العظيم ان يوحد العرب ويجعل منهم امة متماسكة استطاعت أن تمتد بوحى من رسالتها المقدسة وبدافع من الاستعداد النفسى العربى المتمثل بالشجاعة والتضحية بالذات فى سبيل التأكيد على قيم القومية العربية فقد تمكنت الجيوش العربية من اكساح قوات الاحتلال الفارسية والبيزنطية مع الاختلاف الكبير بين العدد وبين التسليح والخطط الحربية لكل من الجيوش العربية وجيوش الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ولعل من أهم اسباب النصر الحاسم الذى احرزته قوة العرب الحربية هو ايمانها يانسانية القيم الدينية الاسلامية من جهة والتجاوب مع الشعور القومى الذى اضطهد من قبل الامبراطورية الفارسية والبيزنطية من جهة اخرى فقد استطاعت القومية العربية التي بقيت رازحة تحت ثقل التسلط البيزنطى والظلم الفارسى من الظهور ثانية فالتقت مع الاندفاع العربى الجديد وبذلك سجل التاريخ الحربى العالمى اروع الانتصارات فى جبهات العراق والشام ومصر انهزمت او تداعت فيها قوى مسلحة لم تكن لتقل فى قوتها وثقلها فى السياسة الدولية انداك عن مثيلاتها من القوى العسكرية للدول الحديثة وعلى الاخص روسيا وامريكا •

وقد ترجم الانتصار العسكرى الى واقع سياسى تبلور بشكل تنظيمى ادارى الا ان العرب لم يتمكنوا من وقف التيارات التى عملت ضدهم وتفسر خاصية الضعف العربى هذه بانها نفسية تتعلق بالتركيب العقلى والخلقى للفرد العربى وبعبارة اوضح فان العرب بعد ان تم انتصارهم فى معارك متكافئة ظنوا أن تلك الانتصارات وفوق الارض العربية تكسبهم شرعية لكي يمارسوا حقوقهم كاملة دون ان يكون هناك مجال لشك او تدخل من جانب القوى التى تم الانتصار عليها ثم ان تلك القوى قد خسرت المعركة العسكرية التى يعتبرها الانسان العربى الحد الفاصل فى احقاق الحق وفى تأكيد الافضل لذا فان بقايا تلك القوى المحطمة لا اهمية لها !
وبوحى من هذه النظرة التى تتجاوب والخطوط العامة للنفسية والخلق

العربيين فقد أهمل العرب جانبا أساسيا هو الحفاظ على المكاسب التي حصلوا عليها وبذلك تسربت القوى الغربية من خلال هذه الشقوق واخذت تعمل بقوة وتصميم على هدم الكيان العربى ولما لم تستطع ان تقوم بحركة قوية من الداخل فقد عملت على التحالف مع اعداء الامة العربية فى الخارج وانتهى امر هذا التحالف بوقوع الحروب الصليبية التى جاء توقيتها متناسبا مع ادوار الضعف التى مرت بها التشكيلات السياسية والادارية العربية ثم بدأت مؤامرة اخرى للقضاء على الوطن العربى تمثلت بغزو المغول والتتر لبعداد واكتساحهم لكل ما شادته الامة العربية خلال السنين الطوال من معرفة فى مجالي الفكر والواقع •

وقد تبع انهيار الحضارة العربية بقيمها الاسلامية تفكك اجتماعى خطير ضعفت فيه الروح القومية وسيطرت عليها النزعات المحلية والطائفية الضيقة وعلى الرغم من ان القومية قدر ومصير الا انها تحتاج الى ارتفاع بالنسبة للمسؤولية الفردية وعلى الصعيد القومى لكي تستطيع ان تترجم روحها الى عمل او فكر لذا فقد بقيت القومية العربية بشكل لا شعورى يعيش فى ضمير الشعب العربى فى الوقت الذى يدفع فيه الانسان العربى لاستعادة مجده •

وقد جاءت فترة التسلط العثمانى ممثلة لطمة اخرى وجهت الى القومية العربية فمن المناسب تاريخيا وواقعا التأكيد بان القومية العربية كانت فى طريقها الى استعادة قابليتها على العمل لو لا ان ظهر التسلط العثمانى على مسرح السياسة فى الوطن العربى فقد تمكن العثمانيون من تجريد القومية العربية من امضى اسلحتها وهو الاسلام مما سبب شعورا بالارباك وتزعزع الولاء الفكرى لدى اعداد كبيرة من ابناء الامة العربية فبدافع من قوميتهم يجب عليهم ان يقاوموا الاستعمار التركى ولكن دعوة الاثراك بوجود الصلة الدينية بينهم وبين الاسلام ولد قوة ثانية لدى الفرد العربى وازنت اذا لم تعرقل اندفاعه فى سبيل احياء واقعه القومى •

وبذلك عاشت الغالبية من افراد الامة العربية فى مجال جذب قوتين صعب

عليهم التوفيق بينهما وقد أثر هذا الانقسام في الولاء في بناء شخصية الاجيال العربية التي تلت فترات الضعف والانحلال هذه كما لم يبرأ منها الجيل العربي المعاصر على الرغم من اقتضاء فترة طويلة على انهيـسار الدولة العثمانية وانحسار ظلها القائم عن الوطن العربي فقد تنطلق صيحات تنادى بما نادى به العثمانيون وزعزوا عن طريقه ثقة العرب انفسهم وبذلك تتجه بعض القوى في الوطن العربي صوب هذه الصيحات ظنا منها انها صادرة عن مصادر تؤمن بالافكار القيمة التي تنادى بها وكما كانت هذه الاساليب في الماضي تصدر عن عروش ومكامن للقوة تمثلت في حكام مطلقى النفوذ ولم تتمكن تلك الدعوات من النفاذ الى اكثر من بث الاربكـ والتفرقة بين ابناء الامة العربية ومس بعض الاوتار العاطفية في شخصية الانسان العربي في الماضي فان هذه الاساليب ما زالت بنفس اهدافها القديمة تستخدم لضرب القومية العربية المتحررة من جهة ولاضفاء نوع من الشرعية على وجود العروش التي تفصلها عن شعوبها فجوات واسعة من جهة اخرى .

فقد نادى السلطان عبد الحميد بفكرة الجامعة الاسلامية في الوقت الذي كان فيه نفس هذا السلطان بعيدا عن كل ما يمت الى الاسلام والمسلمين بصلة مع كونه شخصية سايكوبائية ترى فيمن تتعامل معه من اشخاص وجمادات مصادر للخطر توجه لتهديم ذات السلطان عن طريق اغتياله او التخلص منه وما زالت الممرات السرية الرهيبة في قصر يلدز (مقر السلطان عبد الحميد) شاهدا حيا على العقلية التي عاش بها ذلك الحاكم من آل عثمان في الوقت الذي تنطلق فيه صيحات مماثلة تحت اقنعة اخرى ولكن الوسائل مهما اختلفت فان القصد واحد وهو على طرفي تقيض مع كل حركة عربية يراد بها بناء كيان عربي يستطيع ان يتحمل مسؤولية حضارية تجعل منه مصدرا حضاريا مشعا يعكس اصالة الحضارة العربية في الماضي وقدرتها في الحاضر على تجديد ذاتها واجتياز العقبات التي يضعها الحاقدون على اختلاف اشكالهم ومخططاتهم ناسين ان القومية العربية اقوى من ان

تناهيا الاعيب الافراد لانها واقع يتحدى التسلط الفردى والتخطيط الحاقـد
فى الوقت الذى تمتلك فيه القومية العربية قابلية الكشف عن اعدائها والتغلب
عليهم وسوقهم الى محاكم التاريخ لكي تتم تعريفهم تماما وبذلك يقبعون فى ركن
مظلم ليصبحوا عبرة لمن تسول له نفسه العبث او التطاول على قوة مصيرية
كالقومية العربية ولم يرحل الاستعمار العثماني بنفس السهولة التى تمكن
بها من السيطرة على الامة العربية • لقد دخل هذا الاستعمار الوطن العربى
بعد ان تمت له الغلبة على السلاجقة ولكنه حاول ان يعتصم بالوطن العربى
بعد ان عاش حكام الاستانة وموظفوها وولاتها فى البلاد العربية على
(المكونات الاساسية) للارض العربية واشاعوا الجهل والخرافة والمرض
والفقر والتسيب فى صفوف ابناء الامة العربية •

ولما انكشف زيف الدعوة العثمانية التى اتخذت من الدين ستارا سياسيا
لاخفاء اهدافها الاساسية، وظهر الوجه الحقيقى للعثمانيين ممثلا فى سياسة
التتريك التى اتتهجها (حزب الاتحاد الترقى) كان طبيعيا ان يقدر العرب
موقفهم على ضوء تلك التطورات الدموية والاجرامية للسياسة الطورانية
وبالفعل فقد اخذت حركة التحرير العربية تسير فى خط قومى كان من
تائجه تأسيس العديد من الجمعيات ذات الصبغة المدنية او العسكرية
وانعقاد المؤتمر العربى الاول فى باريس •

الا ان المحاولة التى سارت فيها الثورة العربية لم تسلم من انتكاسات
وعلى الاخص عندما بدأت القوات الرجعية ممثلة فى ترسبات مشبعة بالفكر
والسياسة العثمانيين ومن تبعها من ابناء الامة العربية مع اتجاه مضاد سار
فيه المثقفون من ابناء الوطن العربى مؤكدين على شخصيتهم القومية
وأهدافهم الموصلة الى وحدة التراب العربى •

وبالنظر لطول الفترة التى عاشها الشعب العربى تحت تسلط العثمانيين
وعدم وضوح الرؤية لدى الفرد العربى نتيجة للدعاوى الباطلة التى بثها
الحكام العثمانيون من جهة والجهل السائد بين العرب من جهة اخرى فقد
بقى عدد من ابناء الشعب العربى متمسكين بالحكم العثماني او على الاقل
بالتبعية للحكام من آل عثمان ظنا منهم ان السياسة الطورانية ناتج لحركة

سياسية قامت بها جمعية مناهضة للسلطان نفسه •
وقد ادى الارباك الذي ساد العديد من ابناء الامة العربية في مرحلة حرجة
من مراحل التصميم على طريق للعمل العربي مع صعوبة الاتصال بين الجمعيات
العربية ذات الاتجاه القومي وبين القواعد الشعبية ان ظهر فراغ كبير استطاعت
بعض العناصر التي اسبغت على رجعتها رداء قوميا ودينيا من ملء هذا
الفراغ واتتهاز الفرصة للعب دور مصلحي انتفعت منه تلك القوى في بناء
مجد شخصى للأفراد وللأسر التي كانت وراء عملية أستغلال الفراغ • ومن
اصدق الأدلة على وجهة النظر هذه ان فيصل احد أفراد الأسرة الهاشمية
استطاع ان يخدع الجمعيات العربية في سوريا فجعلها تؤيد والده وبذلك
أجهضت محاولة كان المقدر لها ان تكون فاتحة لعمل عربي ثوري يستطيع ان
يقضى على التناقض الفكري القائم انذاك ويبعد الطريق امام بناء الشخصية
العربية المتحررة والمستقلة في آن واحد •

وفي الوقت الذي كان فيه الوطن العربي يصارع الاستعمار العثماني
وما يتصف به من دعوات مضللة وسياسة طورانية تدعو الى تترك القوميات
الآخري الداخلة في تركيب الدولة العثمانية ظهرت قوة استعمارية جديدة
تمثلت في مخططات الاستعمار الأوربي •

والواقع التاريخي يؤكد ان العثمانيين كانوا يعتقدون بانهم الامناء
على الارض العربية، مما ادى الى ابقاء حدود الوطن العربي دون تغيير
على الرغم من الفوضى الادارية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي جمعت
في تركه مثقلة ما زالت الامة العربية تشكو من سلبيته مضاعفاتها حتى الوقت
الحاضر •

اما عملية القرصنة التي مثلت على مسرح السياسة العالمية والتي ذهبت
ضحيتها اجزاء من الارض العربية فقد اشترك فيها التسلط العثماني
والاستعمار الأوربي ثم الضعف العربي • ويمثل الاستعمار الأوربي تكالب
الدول الأوربية لايجاد مناطق نفوذ لها في افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية •
ومن الصعب ان تفصل المحاولات الاستعمارية في هذه القارات عن بعضها

لانها كلها مثلت اغتصابا بالارض دونما شرعية والعمل على افقارها وأستعباد
اهلها والعبث بمصيرهم في الوقت الذي ينعم فيه ابناء المستعمرات بالخيرات
التي اغتصبوها ويعيش اهل الارض المغتصبة غرباء او اجراء في وطنهم •
وقد اقترف الاستعمار الاوربي اظلم انواع الاغتصاب في الوطن
العربي ، فقد أنتهت الدولة العثمانية بدخولها الحرب الكونية الاولى وبدأت
الدول الاوربية تطالب باسلاط الحرب وكانت الارض العربية تابعة للسلطان
العثماني آلت اليه بالوراثة او الاغتصاب لذا فانها يجب ان تنزع عنه وتقدم
للجهة التي تم لها الانتصار في قتال العثمانيين ألم تتم تسمية الدولة العثمانية
بالرجل المريض لكي يتسنى للدول الاوربية اقتسام (الاقطاعات) التابعة
له قبل موته مما دفع الدول الاوربية للعمل بجد لرسم المخططات الكفيلة
لضمان حصتها من تركة الدولة العثمانية •

وبوحي من هذا الشعور فقد تم عقد المعاهدات السرية بين الدول
الاوربية تخطط بموجبها ما تحصل عليه كل دولة من الغنائم بعد الحرب
دون ان تدخل تلك الدول في حسابها حق العرب في ارضهم كبشر اولاً
وكمواطنين لقومية من اعرق قوميات العالم حضارة وتاريخاً ومقدرة على
تحمل المسؤوليات الثقافية المستقبلية ثانياً • فنتجت عن تلك المحاولات
السياسية المشبوهة معاهدة سايكس بيكو التي وقعها نكرتان الاول انكليزي
والثاني فرنسي وبموجبها (حددت) مناطق نفوذ كل في من هاتين الدولتين
وما يدخل ضمن هذه المناطق من اقطار عربية !

ولما كان العرب في بداية نهضتهم الحديثة وليس لديهم القدرة الكافية
على العمل السياسي فانهم لم يستطيعوا كشف تلك اللاعيب الاستعمارية حتى
وقعوا فعلاً في الفخ ولكن الغريب ان الفرصة سنحت للعرب للخروج من
المأزق الذي اعد لاذلالهم بعد ان كشفت معاهدة سايكس بيكو واتضح ان
الحلفاء الاوربيين لم يقصدوا في سياستهم المعادية للدولة العثمانية الانتصار
للقوميات المضطهدة والعمل على تخليصها من السيطرة العثمانية وانما
عملوا على اضعاف العثمانيين لكي يتسنى لهم اغتصاب الارض العربية

واقسامها كغنيمة بادرة بينهم •

والتاريخ دون شك يحمل المثقفين العرب مسؤولية تجزئة الارض العربية من جهة وضياع بعضها من جهة اخرى لان ذلك الجيل ممن يعول عليهم لم يرتفعوا قط الى مستوى المسؤولية التي تطلبها عصرهم منهم فقد كانوا موزعين بين من يرى التفاهم مع العثمانيين او الانحياز الى الدول الاوربية اما جماعة الوسط فانهم كانوا كثرة عديدة دون رأى واضح المعالم طبع الوسط بطابعي اللابالية والانتهازية فى الآن نفسه • فلما عرضت عليهم حلول جاهزة تتولى بموجبها افراد الاسرة الهاشمية فى العراق ومحمد علي فى مصر واسر على نفس الشاكلة فى ارجاء مختلفة من الوطن العربى قبلوا بما طرح عليهم فى الوقت الذى عادت فيه الاجنحة العربية المطالبة بالابقاء على الصلة مع الدولة العثمانية او الانحياز الى الدول الاوربية لتتخبط بالوسط مبقية على وجهات نظرها مما ميز الصف العربى على الصعيدين الوطنى والقومى بالضعف والارتباك •

وبعد ان تكشفت للامة العربية الادوار التى لعبتها الاسر ذات الصبغات الملكية فى مقدرات الوطن العربى نشأت امتدادات جديدة للفكر العربى السياسى وليس ذلك بامر يصعب فهمه بالنسبة للعرب انفسهم او من يهتمون بالمنطقة العربية من خارج حدود الوطن العربى فقد أقحمت الاسرة الهاشمية نفسها على مسرح السياسة العالمية فى الوقت الذى لم يكن لدى مؤسسها او افراد العائلة كلهم أى وعى سياسى او فهم لتعقيدات السياسة فى العالم وعلى الاخص فى الفترة المضطربة التى بدأت بضعف الدولة العثمانية وانهت بظهور ما يسمى بالانتداب • فقد اندفعت الاسرة الهاشمية بوحي من مطامعها لكى تلعب بمقدرات الامة العربية ودون ريب فان اتفاقيات (حسين - مكماهون) بينت البون الشاسع بين رجل ما زال يعيش فى وسط تغلب عليه الروح العشائرية يفهم العالم من خلال ما يحفظ من شعر وثر وما يعيش من تجربة محدودة تتعلق بوسطه الذى حوى كل شىء الا الثقافة السياسية بوجه خاص وبين سفير دولة اجنبية هو مكماهون جمع

بين الدهاء السياسى وبين الخبرة العملية التى اكتسبتها السياسة البريطانية الاستعمارية خلال استغلالها للهند والعديد من الاقطار التى وقعت تحت السيطرة والظلم البريطانيين •

فقد اثبت مؤسس الاسرة الهاشمية بانه يجهل حدود الوطن العربى وجازت عليه مسألة (الجمع بين العرب واليهود فى فلسطين) كما انه لم يكن بوضع يمكنه من مفاوضة الانكليز بشكل ند لهم • فكيف صدق حسين مؤسس الاسرة الهاشمية ان بريطانيا ستلتزم باقوالها الشفوية او بما توصل اليه مع المستر مكماهون فى الوقت الذى كان يجهل فيه كل من الطرفين الغير المتكافئين لغة الطرف الآخر فى وقت أعتمد فيه كل جانب على ترجمته الخاصة لبنود الاتفاقية واخيرا يمكن ان نطرح السؤال التالى وهو : من خول الاسرة الهاشمية حق التفاوض عن العرب ؟

وللتاريخ فان الاسرة الهاشمية باخطائها وجهلها واطماعها فتحت باب الوطن العربى امام الاستعمار الاوربى لانها اكسبته شرعية خاصة لكى يتدخل فى شؤون الوطن العربى الداخلية •

فاذا سلطنا بان قصد الاسرة الهاشمية كان التخلص من الظلم التركى فان الطريقة التى تم بها ذلك التخلص لم يكن ليتمشى ومفهوم اقامة وحدة عربية ذات روابط قومية تؤكد شخصيتها كقوة مستقلة •

فقد حاولت الاسرة الهاشمية اذن ان تخرج الاستعمار التركى عن طريق ادخال استعمار آخر لم يقتصر على دولة بعينها كما كان الحال بالنسبة للدولة العثمانية وانما فتح الباب امام استعمار ساهمت فيه الدول الاوربية بكاملها وما زال الوطن العربى يشكو منه ومن الرواسب التى خلفها •

وقد نسجت على المنوال نفسه اسرة آل محمد علي فى مصر فلم تكن هذه الاسرة لتتحسس آلام الشعب المصرى وتقدر موقف مصر من العروبة لانها كانت ألبانية الاصل بعيدة عن العروبة والارض العربية فقد افسدت اسرة محمد علي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وجعلت من القطر المصرى ركاما تندر فيه الحركة ويصعب خلاله العمل او ما يؤدي الى انتقدم

والحياة الفضلى في المستقبل ففي الوقت الذي كان فيه حسين رأس الاسرة الهاشمية أميا في ابجديات السياسة لم يكن محمد علي ليعرف القراءة والكتابة لا بلغته الاصلية وليس باللغة العربية او لهجتها الدارجة في مصر وبذلك ارتفع سياج منيع بين اسرة محمد علي وعامة الشعب دفع بهذه الاسرة لكي تقرب بعض الغرباء عن ارض وادي النيل فتحتضنهم وتجعلهم على رأس الجيش او تترك تحت رحمتهم الفلاح المصرى واطيانه وكل اماله وآلامه مما ادى الى نشوء طبقة من ملاكى الارض من الغائبين اكثرهم من الترك او الشراكسة منحت اليهم الارض المصرية دون ان تربطهم واياها رابطة قومية او حياتية ودون ان يعرفوا قيمة الارض الطيبة في كسب حاجات الانسان الاساسية والكمالية لذا فقد عاشوا بعيدا عن الارض التي وهبت لهم بواسطة اسرة محمد علي بينما اقيمت جسور من المحاسيب وعملاء الملاك الغائبين وممثلهم لكى تعتصر اخر قطرة من دم الفلاح المصري وتدفنه في الارض التي شقى في تخليصها من النيل والزمن .

وتاريخ اسرة محمد علي في مصر طافح بالغرور والعجرفة والغباء والظلم وارهاق الشعب وفتح ابوابه للاستعمار وجعل اقتصاده ضعيفا مما حول مصر الى مزرعة قطنية للمصانع الانكليزية .

وهناك ظاهرة مريضة عكستها اسرة آل محمد علي توضح بجلاء موقف هذه الاسرة للمهتمين بالسياسة والبحث السياسى في الوقت الحاضر تسمى (الخديوى اسماعيل) فقد يؤكد بعض المتصلين بالسياسة والاصلاح الاجتماعي في ايماننا هذه بان ذوى النفوذ من الممكن ان يتصرفوا تبعا لظروف عصرهم وبذلك يتمكنوا من الظهور بمظهر الحكام الثوريين الذين ينشرون الاصلاح على صعيدى البناء الفكي والمادى .

فقد حاول اسماعيل الخديوى ان ينحو هذا النحو ويصبح (ملكا عصريا) ويعمل على جعل مصر قطعة من اوربا ولكن الواقع اثبت بانه فشل فى كل ما سعى اليه وتركزت مشروعاته فى نواح غير منتجة كدار الاوبرا والحفلات الباذخة التى اقيمت بمناسبة افتتاح قناة السويس .

والحقيقة ان الخديوى اسماعيل لم يستطع ان يبعد عنه عقليته التقليدية التى توارثها عن اسرة محمد على فقد اعتبر نفسه حاكما مطلقا او قوة فوق قوى البشرية فى الوقت الذى لم يكن فيه اكثر من (شيخ حارة) كما كان يصوره الصحفى المصرى يعقوب بن صنوع فى جريدته اللاذعة (ابو نظارة) وقد استدان الخديوى لارضاء غروره فلم يكن هناك تخطيط اقتصادى او على الاقل ادراك سليم لموارد مصر وما تستطيع استيعابه فى تلك الفترة من مشاريع وعمل نوع من التناسب بين القدرة الفنية ورؤوس الاموال والموارد الخام من جهة وبين النضج الاجتماعى ومتطلبات المركز الاقليمى والسياسى الخاص بمصر من جهة ثانية مما اسلم البلاد ثانية للاستعمار وانتهى حكم الخديوى بتعيين انكليز وفرنسيين فى مناصب وزارية وعلى الاخص فى مجالى الداخلية والشؤون المالية ثم وقع الانسان المصرى تحت سيطرة القضاء المختلط الذى قصد منه خلق نوعين من المواطنين الاول يحتل المركز الافضل الذى خصص للاجانب بينما يترسب المواطن المصرى فى المراكز المتخلفة •

ونظرا لموقف اسرة محمد علي الغامض فيما يخص صلاتها بالدولة العثمانية والعالم الاسلامى والامة العربية فقد نشأت انحرافات فكرية تريد ان تربط مصر باية عجلة فكرية شرط ان تكون على منزلة ثقافية مقبولة دوليا ومن تلك الدعوات المنحرفة الفرعونية والصلة اليونانية ثم الاقليمية المصرية وليس بمستغرب ان اكثر من دعا لمثل هذه الانحرافات فى الفكر والواقع كانوا يحسون بانهم تتاج اقلية فى مصر وبان ولاءهم يرتبط بقوى اجنبية خارج حدود ارض وادى النيل • وانطلقت صيحات آخر فى العراق ولبنان وسوريا منادية بفكر وواقع محليين فقد اشتدت حساسية بعض العراقيين نظرا لوقوعهم فى مهب الريح التركية الفارسية فاتجهوا بولائهم صوب احدى هاتين القوتين ولكن الدعوة لم تطلق كما حدث بالنسبة الى مصر عندما دعا نفر الى الفرعونية واصالة الحضارة المصرية القديمة ثم ربطوا بينها وبين حضارة اليونان والحضارة الاوربية الحاضرة • اما فى

لبنان فقد اثر موقعها الساحلى فى تكوين فكرها الحضارى وانعكس على مفاهيمها فى السياسة وعلاقتها الاجتماعية التى وقعت نفسها تحت ثقل الانقسامات فى الاتجاهات الفكرية او الدينية . والواقع ان لبنان مضوح اكثر من اى قطر عربى اخر للتأثير الاجنبى وتحاول الكثير من الفئات التقليدية العربية وصفه بانه سويسرا الشرق العربى ! فهل تحتاج الاممة العربية الى سويسرا فى قلب وطنها يمكن ان يستخدم فى الجاسوسية او التهتك الاجتماعى او التجمع الرجعى لضرب الحركة العربية المتحررة ؟ والحق ان وضع لبنان لا يخدم العروبة بقدر ما يضر بالوحدة الداخلية اللبنانية فقد اثرت النزعات المعادية للقومية العربية التى حفزها العثمانيون بسياستهم التسلطية واستغلها الاورييون لكى يضعفوا الصف العربى بجره الى معارك جانبية وتفتت قواه وظهور نزعات منحرفة نادى قسم منها بالفينيقية لكى يدل على انفصال لبنان حضاريا عن الوطن العربى الام ناسيا ان الفينيقية موجة عربية استوطنت سواحل بلاد الشام فاختلطت بحسب موقعها الجغرافى مع اقوام عدة كانت تعمر سواحل البحر الابيض المتوسط . ولما فقدت الدعوة الى (فينيقية لبنان) اهميتها قامت صيحة جديدة مؤكدة على ان لبنان اوربى تربطه بفرنسا صلات حضارية قومية وثقافية وبذلك انشأ حزب الكتائب لكى يترجم هذه الفلسفة المنحرفة الى تنظيم وحركة ذات أهداف سياسية غايتها الكبرى اقتطاع لبنان من دنيا العروبة .

وبالنسبة لسوريا فانها تحتل مركزا حساسا فى الوطن العربى نظرا لحدودها مع تركيا من جهة وكونها سندا لعروبة لبنان تمده باسباب حياته القومية من جهة اخرى . ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى الوقت الحاضر تشكل سوريا خطا دفاعيا حيويا عن الوطن العربى بوقوفها فى وجه المخططات الصهيونية، وبعبارة موجزة فان القطر السورى يمثل حلقة الوصل بين العراق ولبنان والاردن وفلسطين كما تقوم الموانئ السورية بتسهيل حركة التصدير والاستيراد العربية لذا فقد نشأت محاولات لعزل سوريا عن

الامة العربية تمثلت فى حركة الحزب القومى السورى الذى يعكس فى حقيقته واجهة سياسية متطرفة لمشروع اوربى عريق فى اهدافه الاستعمارية هو (مشروع الهلال الخصب) فقد ادعى هذا الحزب ان الشعب السورى يكون قومية بمفرده فى ارضه المسماة (سورستان) وتمتد القومية السورية حتى تدخل فى حسابها جزيرة قبرص ثم عدلت الحدود السورية لتضم قناة السويس لا على اساس قومى متحرر وانما يرجع ذلك الى متطلبات اقتصادية صرفة لا تعدو كونها موردا ماليا مهما بالنسبة لامتدادات القومية السورية ! وقد فشل الحزب القومى السورى على الرغم من اخذته بالتشكيلات العسكرية فى التنظيم وأشاعة روح الجندية التى تربط أعضاء الحزب ببعضهم ثم بالحفنة التى تمسك بخيوط المؤامرات السياسية والاستغلال وما يشد اليها من مناورات سياسية اتخذت فى بعض الاحيان سبيل العنف والاعتقالات . الا ان طرد الحزب من سوريا وانكشاف عمالته للقوى الاجنبية واحلافها فى الشرق العربى أدى الى توارى حركة حزب القوميين السوريين عن المسرح السياسى العربى .

ومن المفيد أن ندرس الوضع السياسى العربى فى نهاية فترة التسلط العثمانى لانها ستلقى ضوءا كاشفا على ما تم من فكر وواقع سياسيين كان لهما اثرهما فى تكوين الشخصية العربية التى نحس بصعوباتها وتطلعاتها فى الوقت الحاضر .

وبدون شك فقد اسهم العثمانيون بشكل سلبي فى شق الصف العربى وفى بث عوامل التفرقة بين ابناء القطر الواحد كما حدث بالنسبة للعراق وببلاد الشام كما انهم رسموا الفرق واضحا بين المدينة والبادية وبذلك شعرت القبائل التى تتحرك على نهايات المدن تربطها بها عوامل حضارية ودينية واقتصادية بان المدينة تحاول ان تتسلط على تلك القبائل وأن تستغلها لمصلحتها وذلك طبعا من رواسب الادارة العثمانية القائمة على التفسخ والظلم والتعسف وبشكل خاص فيما يتعلق بفرض الضرائب وطريقة جبايتها وقد كونت هذه الصورة السلبية للادارة المدنية فى عقول الكثير من

أبناء القبائل انطباعاً سيئاً جعلهم يعملون ضد المدينة محاولين نفض سلطتها عنهم فلما انحسر الظلم العثماني عن اقطار الوطن العربي وخصوصاً تلك التي تجمع بين البداوة والمدينة في تركيبها الاجتماعي بدأت القبائل تقطن مناطق الريف الا انها احتفظت بنفس الشعور القديم مما جعل من القرية وهي الوحدة الاجتماعية التي ورثت (حياة القبيلة وتقاليدها) على غير اتفاق مع المدينة التي تجاورها وبالتالي مع انظمة الحكم المركزة في المدن الكبرى أو العواصم .

وقد غذيت نواحي الخلاف بين القرية والمدينة بحيث تطرفت القرية في كرهها للمدينة وحياتها رامية اياها بالخروج على التقاليد والاعراف أو استباحة الكثير من المحرمات مما لا ينسجم وقواعد الشرف والتراث المتوارثة وزادت القرية في تطرفها بان تبنت وجهات نظر وصلت بها الى حد الطائفية أو الانقسام المذهبي لكي تؤكد ذاتها المستقلة وتربك الاتصال الفكري والاجتماعي بين المدينة والريف حيث يوجد فراغ حياتي كبير لم تستطع الشكليات السياسية في اوائل تكوين هذه الاقطار العربية من سده ومحاولة صهر الريف والمدن في بوتقة الشعور المشترك مما ميز الحياة في الريف عن مثلتها في المدينة وجعل من الريف مصدر تعب ومصاعب للحكومات المركزية وزاد من صعوبة صلة الريف بالمدينة محاولة المدن في أكثر الاقطار العربية التوسع على حساب معونة الارياف وجهل سكان هذه المناطق الذين افترض بهم العمل لسد حاجات التوسع الهائل في حجم المدن وازدياد كثافة سكانها في الوقت الذي لم يكن يشعر أبناء الريف بصلتهم العميقة بالمدن بل بالعكس شعر الريفيون بالتحرج الشديد عند دخولهم للمدن واطلقت عليهم اسماء وصفات خاصة لكي يتم تأييد المفاهيم الاجتماعية المتناقضة بين الريف والمدينة بمسميات تكتسب صفة الثبوت .

أما العامل الثاني الذي اثر في التركيب والعمل السياسيين في الوطن العربي ونقل تأثيره ليعيش في وقتنا الحاضر بشكل صعوبات أو تناقضات فانه يتصل بصفة اكيده بموقف الاسر المالكة التي لعبت ادواراً سلبية في حكم

اقطار عديدة من الوطن العربي فقد سيطرت أسرتان منها وهما اسرة محمد علي والاسرة الهاشمية على مقاليد الامور في أكبر بلدين عربيين هما مصر والعراق ولم تكن تلك الاسر لتتمتع بالاهلية والكفاءة مما يمكنها من لعب دورها بشكل اكمل في سياسة وادارة الاقطار التي وقعت تحت حكمها فقد دخلت اسرة محمد علي الى مصر عن طريق الصدفة وتمكنت من اخضاع ارض وادي النيل لسيطرتها دون ان تعمل على جعل قوى الشعب العاملة في القطر المصري ترتفع بمفاهيمها العامة عن الحياة بجوانبها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية فلم يكن هناك عمل مشترك بين الحكام وعامة الناس يقصد منه خير الشعب المصري فقد انشأ محمد علي المعامل الحرية وقام ببعض الاصلاحات التي كانت موجهة لبناء مجده الشخصي وقد أتجه الحاكمون في مصر الى أحاطة أنفسهم بالاعوان والحاشية والخدم مما خلق فراغا كبيرا حاول (أحمد عرابي) عن طريق الجيش ومصطفى كامل ومحمد فريد عن طريق استعداد الرأي العام الاوربي ضد الحكم الفردي في مصر وسعد زغلول بواسطة التنظيمات السياسية وعلى الاخص تشكيله الوفد الذي ذهب لمفاوضة الانكليز ثم أصبح فيما بعد حزبا سياسيا يعكس وجهة نظر الشعب المصري حتى وفاة مؤسسة سعد زغلول ، هذه المحاولات قصد منها القضاء على الفواصل بين الحاكمين والمحكومين والعمل على جعل الحاكم أكثر ديمقراطية عن طريق ربطه بالشعب أو وصل الشعب به .

أما الاسرة الهاشمية فانها جاءت بتزكية من السلطات البريطانية المحتلة بعد أن عملت تلك السلطات على ايجاد تكافؤ بين الشخصيات العراقية المختلفة وبذلك توازنت القوى بين من كانوا يستطيعون أن يصلوا الى مراكز الحكم والسلطة من العراقيين في الوقت الذي حاربت سلطات الاحتلال البريطاني المجموعة المتنورة المخلصة التي كان بمقدورها ان تأخذ بيد البلاد وعلى الاخص بعد ثورة سنة ١٩٢٠ م الى شاطئ الاستقرار والتقدم . ولكن السلطة المحتلة انذاك لم تترك للعراقيين تدبير شؤونهم الخاصة بالمسؤولية السياسية وتوزيع السلطة بين الاطراف المعنية وانما قامت بتضخيم

الخلافات ونقلها من مجالها الفردي على صعيد التكتلات التي تميزت بارتباك
 السياسى او الطائفية او كليهما معا لكي تثبت للعراقيين انهم لا يستطيعون
 حكم انفسهم وان الافضل بالنسبة اليهم ان يستوردوا حاكما من خارج
 الحدود ترضى عنه الفئات التي جعلتها السلطات البريطانية مختلفة فيما بينها
 وكانت السياسة البريطانية المتأثرة بمدرسة الهند قد فهمت نتيجة خبرتها
 فى حكم شبه القارة الهندية ان اسلوبها الناجح لتعميق الخلافات بين
 الجوانب المختلفة الاثيان باحد الجوانب وجعله فى مركز السلطة حتى ينم
 التنافر بينه وبين الاطراف المعنية الاخرى وبعبارة اوضح فقد عمدت
 سلطات الاحتلال البريطانية فى العراق على استغلال ما ترسب فى العراق
 من خلافات نتيجة عقود الظلم والاستبداد الطويلة وتزعزع ثقة العراقيين
 بانفسهم نتيجة وقوعهم فى منطقة حرب بين قوتين تختلفان جذريا فى كل
 شىء وان اتفقتا فى محاولتهما للسيطرة على الارض العراقية وبذلك فقد
 عمدت السلطات البريطانية المحتلة للقطر العراقى الى زيادة وجهات الخلاف
 حدة عن طريق الاثيان برئيس وزراء يمثل اتجاهين الاول خاص بمركزه
 الاجتماعى والدينى والثانى يعكس طابعا رجعيا وسلبيا فيما يتعلق بالاتجاهات
 السياسية التى بدأت تؤثر فى منطقة الوطن العربى انذاك وعلى الاخص نمو
 الفئات المفكرة ذات الاتجاه القومى المتحرر • وقد أدى عمل السلطات
 البريطانية الى نشوء نوع من الحساسية بالنسبة للتركيب الاجتماعى فى
 العراق مما جعل الطريق ممهدا للخطوة البريطانية الثانية وهى الاثيان بحاكم
 غريب عن الارض العراقية يكون فى اتجاهه جامعا بين ما تريده الاطراف
 التى خطط الاستعمار لاختلافها مع كونه ينتمى الى أسرة ذات أصل دينى
 ويقوم فى أرض مقدسة فى الوقت الذى لم يكن هناك اتصال بين الأسرة
 الهاشمية وبين ما تدعى من انساب ثم هى لم تحافظ على الاراضى المقدسة
 وامتدت ايادى افرادها لتصافح الصهيونية واليهودية وما اليها من قوى
 الاستعمار العالمى مما دفع بالقوى الاستعمارية (عرفانا بالجميل) ان تمنح
 العراق والاردن للأسرة الهاشمية فى الوقت الذى عملت فيه على استغلال

عملائها من افراد هذه الاسرة لكى تضرب بهم حركات التحرر فى الوطن العربى أو تستر وراء سمعتهم لدى بعض العامة من غير المتعلمين فتجعل من افراد اسرة الهاشميين اندادا للمثقفين العرب الثوريين محاولة فى ذلك اقامة توازن بين هذه الاتجاهات الفكرية الثورية والرجعية الا ان اتجاه الفكر والواقع فى الوطن العربى صوب المصدر الثورى وما يحمله من فكر ناضج واخلاص فى سبيل وحدة العرب وتقدمهم عصف بالسياسة البريطانية ذات الموازنات التقليدية فقامت ثورة سنة ١٩٥٢م لكى تقضى على القوى التى خلقها الاستعمار فى مصر ممثلة بالملك المصرى والسياسيين التقليديين الذين يحسنون المفاوضات فيقنعون بما يلقي اليهم من فئات موائدها كما قوضت ثورة سنة ١٩٥٨م فى العراق اركان السياسة التقليدية فمحت الملكية وبذلك واجه الشعب العراقى لأول مرة فى تاريخه مسؤولياته الكاملة وأخذ يعمل على ايجاد الوسيلة السليمة التى يستطيع عن طريقها جمع صفه الوطنى بعد فترة طويلة من التفكك والضعف والغباء السياسى وأنعدام ثقة الحاكمين بالمحكومين فى الوقت الذى ينطلق فيه العراق فى الاجواء العربية ليتسنى مسؤوليته السياسية الكاملة على صعيد العمل القومى المشترك الهادف الى الوحدة الشاملة .

وتيجة لتأثير رواسب الحكم العثمانى من جهة وما لاقته القومية العربية من ضغط عليها فى اواخر حكم العثمانيين وفشل الاسر المالكة فى الوطن العربى التى حاولت أن تبقى فى مركز السلطة والحكم فاتتهجت فى سياستها اسلوب المحافظة على الوضع كما هو وابقاء القديم على قدمه فى الوقت الذى لم تسمح فيه للتقدم فى الفكر والاجتماع والاقتصاد والصناعة بشكل خاص ان تدخل بشكل واسع الى الاقطار العربية من جهة اخرى ، فقد درج العديد من الكتاب العرب والاوربيين على وصف الوطن العربى بانه زراعى فى اقتصاده وفى تفكيره وفى نواحي حياته المختلفة التى ترتبط بالزراعة كحرفة وكحياة وان حظه فى الحضارة الحديثة ودوره فيها ثانوى ان لم يكن ولد ضعيفا .

ومن وجهة نظر الواقع التاريخي فقد حالف الاستعمار اولئك الذين فتحوا ابواب الوطن العربي له وعلى الاخص أفراد الاسر التي حكمت بعض أقطار الامة العربية فتوزعت السلطة بين الملك وحاشيته وبين سفير تلك الدولة المستعمرة ممن تعرف على القطر الذي عاش فيه مكملا لسلطة الانتداب أما الطرف الثالث فيتمثل بالقوى الرجعية من شيوخ القبائل التقليديين وأصحاب الاقطاعيات الواسعة او ممن يتميزون بانفوذ التجارى وبعض من استغل مكاتته الدينية فى سبيل ارضاء شهوته الى المال او السلطة .

هذه الفئات هي التي كانت تسيير سياسة اكثر الاقطار العربية حتى تلك التي لم تحكم من قبل أسرة مالكة كسورية ولبنان فقد لعبت نفس الاصابع التقليدية الثلاث فى التأثير على سياسات الدول العربية الاخرى ومحاولة شراء الفئات المختلفة لكي يتم اتساع مناطق نفوذ الاسر الحاكمة فى الوطن العربي فقد كان الملك عبدالله فى الاردن والساسة التقليديون فى العراق فى الفترة الملكية يحاولون أخراج فكرة الهلال الخصيب الى حيز الوجود يساعدهم فى ذلك الاستعمار البريطانى فلما فشلت تلك المحاولات أخذوا يتجهون بسياساتهم نحو آفاق عالمية لكي يتم القضاء كليا على قوى التحرر فى الداخل وتصبح القوى النائرة تحت رحمة الاسماء الضخمة (كحلف الاطلسي) وحلف (جنوب شرق آسيا) و (حلف بغداد) ! لا ان هذه الاحلاف لم تكن لتنتج فى ترجمة أهداف السياسة التقليدية الضالعة مع الاستعمار الاوربي وعلى الاخص فى خنق قوى التقدم الداخلية فى الوطن العربي واوضح الادلة على فشل تلك السياسة فى الهاء القوى المتحررة عن معركتها ضد الرجعية والتأخر والاستعمار وتسليط ضغوط عن طريق الاحلاف عليها وأقامة الاتحاد الهاشمى بين العراق والاردن ومد الحزب القومى السورى بالمال والسلاح مع الاتفاق الكلى بين القوى التقليدية والملكية وبين كل من الاحزاب الانفصالية كحزب الكتائب اللبنانى والتكتل الاستعماري الرجعى فى مصر تحت توجيه اسماعيل صدقى والعمل

على كسب أمراء الخليج العربي وضمان مساعدة الاسر المالكة الاخرى
وشركات النفط المحتكرة في حملة موحدة متكاتفه ضد القومية العربية
والقوى التحررية التي تعمل وتضحى من أجلها •

وبهذا الوضع السياسى المشوه خاضت الدول العربية حربا حدية ضد
الصهيونية العالمية وما يسندها من القوى الاستعمارية ممثلة فى الاسلحة
والاموال والجنود والضباط من اوربا عامة وبريطانيا والولايات المتحدة
الامريكية بشكل خاص •

حدث هذا كله فى سنة ١٩٤٧م وهذه السنة لا تقف لوحدها فى سفر
التاريخ العربى او العالمى فان الارض التى دارت فيها معركة فلسطين هى
أرض عربية لم تطأها قدم يهودية او صهيونية فهى الوعاء الجغرافى لحضارة
عربية تسمى بالحضارة الكنعانية فى وقت لم يكن فيه العبريون فى الخرافة
أو التاريخ لانهم لم يعبروا حتى ذلك الوقت نهر الفرات ليكتسبوا أسمهم
ويتشردوا فى الآفاق •

وعاشت فلسطين كغيرها من الاقطار العربية على هامش التاريخ وحسب
متطلبات الصدفة فى الفترات التى ركد فيها الشعور العربى نتيجة للضربات
المتلاحقة التى تعرض لها ابناء العروبة مما افقدهم المرونة والقدرة على العمل
ولكنهم بقوا محتفظين بالحافز القومى لان القومية العربية روح أقوى من
المكان ومن الزمان ومن الملوك والرؤساء فهى تمثل قدرا ومصيرا يحمى
بشكل منفصل عن الطاقة المحدودة للفرد العادى وحتى طاقات الدولة
المنفردة بمجموعها لذا فقد بقيت القومية العربية حية فى الارض الفلسطينية
شأنها فى ذلك شأن الشعور القومى فى الاقطار العربية كافة الا ان محاولة
العثمانيين تفتيت القومية العربية وعمل الاستعمار الاوروبى على شق الفكر
القومى الى واجهتين تقليدية وتحررية واطماع افراد الاسر الحاكمة فى الوطن
العربى التى هدفت الى وضع مصالحها الخاصة والشخصية فوق المصلحة
القومية ، شل حركة القومية العربية بشكل عام •

من هذا نستطيع ان نتبين عدم وجود الصلة بين فعالية العمل القومى

العربي المشترك وبين معركة سنة ١٩٤٧م فلم تحدد القومية العربية زمن
المعركة وظروفها ولم يكن الاستعداد لها يتفق وما بناه الصهاينة منذ القرن
السابع عشر من مكنات في مجالات السياسة وتجميع الاموال وتكديس
السلاح وخلق ظروف المعركة النفسية والاجتماعية وكسب ود الدول
الاستعمارية لكي تؤتي النتائج المترتبة على المعركة الحربية ثمارها فقد
كانت فلسطين ارضا عربية خاضعة للاستعمار العثماني ثم وقعت في قبضة
الاتداب البريطاني واشتعلت فيها نار المقاومة للسلطات الانكليزية كما كان
الحال بالنسبة للاجزاء الاخرى من الوطن العربي ثم برزت الصهيونية كقوة
وبديل للاتداب البريطاني هدفها اقامة ما دعاه وعد بلفور المتضمن في كتاب
وجهه الى البارون اليهودي روتشيلد (اقامة وطن لليهود) وبذلك فقد
وقعت معركة غير متكافئة بين الحكام التقليديين للوطن العربي في ذلك
الوقت وبين قوى صهيونية تدعمها اليهودية العالمية والنفوذ البريطاني
السياسي والمالي الاميركي لان القومية العربية التي تمثل روح العمل العربي
الشعبي الهادف لم تكن لترضى ان تزج في معركة لا تتجاوب فيها مع من
يدير تلك المعركة من قوى ملكية ورجعية واقطاعية تحاول ان تحصل لنفسها
على مكاسب شخصية في الوقت الذي تتعرض فيه القومية العربية ممثلة
بابنائها لافدح الخسائر والنكبات تجاه جيوش يهودية او متهودة قد
امت فترات تسليحها وتدريبها ويخطيء من يظن ان الجيش اليهودي نسخة
اخرى لليهود الذين عاشوا في الوطن العربي فقد انضم فيلق من اليهود
للجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية بالاضافة الى الجنود اليهود
الذين عملوا مع جيوش الحلفاء في جبهات اوربا المختلفة تساندهم قوى
الاستعمار العالمي المتمثل برجال السياسة من الانكليز والامريكيين
والفرنسيين ومن يعطفون على اليهودية العالمية ويتصورون انفسهم
مسؤولين عما تسميه المصادر والوكالات اليهودية بحملة القضاء على العنصر اليهودي
ابان الحكم النازي لالمانيا ويؤيد هذا الحشد من الامكانيات بيوت المال
والاقتصاد وشركات النفط العاملة في البلاد العربية ومن اشترت ذممهم

من الحكام وبعض الملوك ورجال السياسة فقد كان (كلوب باشا) قائدا عاما للجيش الاردنى فى الوقت الذى كان فيه الملك عبدالله القائد الاعلى للجيش العربية التى دخلت لخوض معركة بناء الامجاد الشخصية للملوك بعض اجزاء الوطن العربى فى ذلك الوقت فكيف يمكن الاطمئنان الى ان الاسرار والخطط العسكرية لم تكن لتتسرب الى الصهاينة واركان حربهم عن طريق (كلوب) او المستشارين العسكريين الانكليز الموجودين فى الجيوش الاردنية والعراقية والمصرية انذاك ؟

والحقيقة انه تم تخطيط مهزلة حرب فلسطين فى الوقت الذى كانت فيه قوى الشعب العربى العاملة تعرف جيدا انها بعيدة كل البعد عن حكامها ومالوكها وبان هناك فجوة متسعد وعميقة بين الساسة التقليديين وبين عامة الشعب الذين يغذون الجيوش العربية بمادتها الاساسية (الجنود) .
فلما زجت القوى العربية فى معركة غير متكافئة اتضحت الفروق الكبيرة فى التسليح والاستعدادات وظهرت بكل تأكيد نواحي التفكك فى وحدة الصف العربى وفى التفاوت بالنسبة لقتال الجبهات فقد يركز اليهود كل هجومهم على الجبهة الاردنية او العراقية او السورية او المصرية وبذلك يستطيعون اصابتها بالضرر الكبير فى الوقت الذى تقف فيه بقية الجيوش العربية موقف المتفرج .

وكان أهم ما تميزت به محنة الحرب الفلسطينية الاسلحة الفاسدة التى ذهبت ضحيتها من بين أفراد الجيش المصرى اعداد كانت لا تقل عن من فقد منهم فى سوح الحرب .

وعلى الرغم من ان القومية العربية قد ارغمت بقواعدها الشعبية المثلثة بالقوات العسكرية على خوض معركة لا تمتلك فيها زمام المبادرة فقد اخذ الشعور القومى بعد ان تعرض لمصاعب النكبة القاسية التى يعيشها السير بخط مضاد للخط الذى رسمه الحكام والملوك التقليديون مما أدى الى ظهور لعبة المطالبة بالهدنة او الهدنات المتقطعة لكى يسهل على الصهيونية والاستعمار كسر شوكة الجيوش العربية والتخفيف من حدة الاندفاع

القومي في الوقت الذي يستطيع فيه الملوك والحكام التقليديون من استعادة سيطرتهم على القوات العربية التي ارسلت الى فلسطين •
والدرس الذي انتهت به محنة فلسطين هو ان القومية العربية ما زالت قوية تستطيع ان تعمل متحدية صعوبات تفكك الصفوف الوطنية في الاقطار العربية في الوقت الذي تتحول فيه هذه القومية نفسها الى قوة دافعة ذات طاقة ثورية هائلة لا تستطيع العناصر التقليدية أو الرجعية أو العميلة ان تسيطر عليها أو توجهها بالشكل التي تريده وبذلك ظهر زيف ادعاءات الاسر المالكة في البلاد العربية بانها تعمل في سبيل ما سمته (بقضايا العرب الكبرى) والحقيقة ان اكبر القضايا العربية هي التخلص من الحكام والملوك التقليديين وما يتصل بهم من حلقات أستعمارية ورجعية توقف مسيرة الامة العربية في تقدمها نحو مستقبل افضل •

فقد كانت محنة فلسطين محكا رسم الخط واضحا بين القوى التقليدية ذات السلطة والنفوذ المفتقر الى قواعد شعبية عربية تستطيع ان تسنده وبين القوى الثورية المتطلعة نحو الغد في الوقت الذي باعدت فيه نتائج الحرب الفلسطينية بين الزمرة المتسلطة والمستغلة وبين عامة ابناء الامة العربية التي اخذت على عاتقها تحقيق الرسالة الحضارية للقومية العربية وقد ساعدت معركة سنة ١٩٤٧م بوجه خاص في القضاء على الوهم الذي كان متمكنا من نفوس عدد من الاوساط غير المثقفة أو المتعلمة في الوطن العربي والذي يتلخص بان الملوك والحكام اهم صفات ميثافيزيقية يستمدونها من قوى خفية لذا يجب على عامة الناس طاعتهم والامتثال لاوامرهم وبمعنى اوضح فقد بدأ الفرد العاى بعد ان قُتل الحكام والملوك العرب خلال سني المحنة من ان يكسبوا الجولة وذلك بحكم ضعفهم وعمالتهم للمخططات الاستعمارية ، يشعر بانه هو المسؤول عن بناء واقعه على الصعيدين الوطنى والقومى وانه ليس بحاجة الى اشخاص من الحكام يتم استيرادهم من خارج حدود الوطن العربي لكي يصبحوا بين عشية وضحاها مالكين لاراضى المنطقة في الوقت الذي ينشرون

فيه سطوتهم وسلطانهم على الارض العربية وابنائها فيجعلون من أهل البلاد تابعين ان لم يكونوا اجراء فى ارضهم وبلدهم • ومن اصدق الامثلة على تشويه صورة الملك والحكم الملكى فى البلاد العربية نجاح الثورة العربية فى مصر سنة ١٩٥٢م فقد تعود الفرد المصرى نظرا لطول عهد الاستبداد ان يخضع للحاكم وان يقدم له الهبات والعطايا فان لم يستطع لقصر ذات يده منها فما عليه الا ان يختار افخم الالفاظ واجل الكلمات لكي يصفه بها ذلك الجالس على العرش او فوق منصة الحكم وبذلك كثرت كلمات التبجيل والاحترام فى اللهجة المصرية واخذت تلقى بمناسبة او غير مناسبة بينما اتسعت النكتة لى تعمل هى الاخرى على توازن نفسى لدى الفرد المصرى يمتص بواسطته ما يشعر به من ضعف او هوان تجاه الملك او صاحب النفوذ.

وعلى الرغم من الوسائل التى اتبعت لتهديم الانسان العربى فى مصر وما اتصل بهامن التشجيع على ادمان المخدرات تحت سمع وبصر قوات الاحتلال البريطانية ودخول هذه الآفات الى اماكن عدة فى بيوت ونفوس المجتمع المصرى فقد استطاعت نفس المادة البشرية التى عبث بمقدراتها من قبل أصحاب الجلالة والرفعة والفخامة ان تثور فى يوم ٢٣ تموز سنة ١٩٥٢م وان تنفض عنها غبار آالف من السنين عاشها المصريون يقاسون من الفقر والجهل والمرض والحرمان والتسلط الاجنبى •

معركة فلسطين وتغيير مستقبل الواقع العربى :

تمثل فترة ما بعد الحرب الفلسطينية مرحلة حاسمة فى تاريخ الاممة العربية فقد ظهرت القوى من ملكية مستبدة ورجعية من جهة وقومية متحررة من جهة اخرى وبذلك حددت معالم المعركة السياسية فالسلطات التقليدية ذات النفوذ يدعمها الاستعمار وتساندها الرجعية هذه القوى السوداء تعمل على ابقاء القديم على قدمه جاعلة من التقدم بنواحيه المختلفة الاجتماعى والاقتصادى هبة تمنح من قبل الحكام التقليديين للقوى الشعبية عندما تنضج دون ان تعلم

القوى ذات النفوذ والتسلط ، أن مسألة النضج على الصعيد الشعبي مسألة نسبية يعود امر تقديرها للشعب المتمثل بالامة العربية ولكن الذى حصل ان القوى التقليدية ازدادت تصلبا فى موقفها فى الوقت الذى ازدادت مطالبة القوى العربية على صعيد الشعب بحقوقها الحياتية والقومية واخذت الهوة تطول وتعمق بين هاتين القوتين فى الوقت الذى حاولت فيه القوى التقليدية ان تقيم جسورا من الحكم البوليسى والارهاب لابقاء الهرم الاجتماعى قائما بشكل تستطيع القوى السوداء ان تجلس على قمته . وانفجر الوضع الجديد واستطاعت القوى الشعبية العربية ان تكسب معركة الثورة وهى تسير اليوم نحو بلورة اهدافها واختيار اسلم طريق يقودها نحو وحدتها الحتمية .

الا ان الصعوبات التى تواجه القوى التحررية فى الوطن العربى التى تمتلك الان القوة السياسية تنحصر فى أن هذه القوى انبثقت من الطبقة الوسطى وتركيب هذه الطبقة فى المجتمع العربى شأنه شأن اكثر المجتمعات النامية خليط من العسكريين والمثقفين وصغار التجار والعمال والفلاحين فلا بد اذن لمثل هذه المركبات الانسانية من رابطة فكرية تكون دعامة لشعورها القومى وبذلك تصبح القومية العربية بعد ان تضم مستلزماتها الفلسفية والسياسية والدينية خيمة ينضوى تحتها الركب العربى المتحرر دون ان تبدأ الفئات المختلفة الثقافة والتجربة فى الانسياق وراء بعض التخريجات التى قد تجر القوى المنحرة الى معارك جانبية على صعيدى الفكر والواقع وبذلك تفقد القومية العربية التى دقت ناقوس اليقظة بالنسبة للامة العربية فترة تاريخية مناسبة لتقدمها تتناسب والهدف القومى ذى الرسالة الحضارية العربية فى المستقبل .

فالمشكلة الاساسية التى تجابه الوطن العربى بوجه خاص والبلدان النامية بمجتمعاتها المتطورة بشكل عام هى ايجاد فلسفة واضحة المعالم للطبقة الوسطى التى بدأت تتحمل زمام المسؤولية فى كافة نواحي النشاط الانسانى الاجتماعى والاقتصادية والفكرية لان الطبقة التقليدية لم تعد تلائم

روح العصر الذي نعيش فيه فقد ابتعدت عن الحياة بسبب عمرها الزمني وغلبته على عمرها العقلي بالاضافة الى حنينها الى الماضي الذي لم يكن في حقيقته الا سرايا خادعا واحداثا مضطربة لا تترك على صفحات التاريخ الا ظلالات باهتة . اما الطبقات التي تعيش على الكفاف فانها تنغمر في كسب ما يكفي حاجاتها وما دامت حاجاتها في تزايد فان الوقت بالنسبة لها أضحي ضئيلا بشكل لم يعد يمكنها من توسيع مدركاتها الفكرية وأساليب تفاعلها مع الواقع بالاضافة الى ضجرها من العصر وما يسوده من تقدم سريع وتعقيد في تركيب الحياة واسلوب تفاعل مكوناتها المختلفة .

فالطبقة الوسطى مهيأة للحركة والثورة والبناء بحكم ظروفها التي تجمع بين المرونة في العمل والنظرة الى المستقبل بشكل اكثر واقعية من الطبقتين الاولى التي تعيش في ماضيها والثالثة التي لا تخرج عن نطاق حاضرها الا لتعود ثانية نظرا لكثرة ما تواجهه من مصاعب في حياتها وفي كسب ضروريات عيشها .

الا ان ما يؤخذ على الطبقة الوسطى في المجتمعات النامية هو ان طموحها يفوق كثيرا مالمديها من طاقات وبعبارة اخرى هناك فارق كبير بين ما تستطيع عمله وما تريد ان تعمله وما ينشأ من فراغ بين هاتين الموجهتين لواقع وفكر الطبقة الوسطى يؤثر كثيرا في تماسكها بل يجعل منها في بعض الاحيان قوة مفككة اذا ما قورنت بالطبقة التقليدية او الطبقة العامة اللتين تبدوان اكثر تماسكا نظرا لتشابه مركبات كل منهما من جهة ووضوح الفترة الزمنية التي تعيشان بها .

فالانتهازية اذن من الصفات المميزة دون شك للطبقة الوسطى على الرغم من ارتباك مفهومها لدى استعمالها في المجالات الاجتماعية او السياسية والواقع ان هذا الارتباك ناتج عن عدم فهم طبيعة الطبقة الوسطى لان هذه الطبقة تحاول دوما ان تجعل من اهدافها نهايات مرنة تخضع للمؤثرات الزمانية والمكانية وليس في ذلك من خطر اذا كانت الخطوط العامة باهدافها ثابتة لان الانتهازية اذا اريد بها انتهاز الامكانيات المتاحة في سبيل عمل افضل أو مستقبل احسن في تهيأته لفرص نجاح اعظم تعود على المجموع

بالفائدة وتعمل على تحقيق الاهداف الكبيرة للمجتمع فان الخط المتبع انذاك يكون اكثر قبولاً اما اذا قصد بالانتهازية المساومة على المصلحة العامة فى سبيل الكسب الفردى فان المفهوم يتغير كلياً ويصبح دالاً على العبث بمقدرات الافراد او المجتمعات الا ان هذه الحالات وان كانت ليست نادرة فانها لا بد وان تكشف نفسها وبذلك يفقد الفرد من الطبقة الوسطى مكائده الاجتماعية ويصبح غير مؤهل للعمل السياسى او الفكرى .

ولكى نعمل على تجنب الانتهازية العنثية او ذات المصلحة الخاصة وعلى الاخص فيما يتعلق بالطبقة الوسطى التى تخطط لمستقبل الامة العربية السياسية والاجتماعى والاقتصادى والفكرى فما علينا الا ان نرسم حدوداً واضحة للفكر العربى بكافة جوانبه ونجعل من هذا المخطط وسيلة لقياس قابليات الافراد الذين يحاولون ان يقوموا بدور فى معركة البناء الحالية فنقدر كفاءتهم وفهمهم من جهة ثم اخلاصهم لمبادئ القومية العربية من جهة اخرى ، وبذلك تتجنب القومية العربية النكسات التى تصاب بها من وقت لآخر .

وبدون شك فان الوحدة بين سوريا ومصر سنة ١٩٥٧م كانت اعظم عمل مر فى تاريخ الامة العربية منذ ان اتحدت قوى سوريا ومصر تحت قيادة صلاح الدين الذى خلف نور الدين زنكى والى الموصل فى العراق والتى تمكنت من كسر شوكة الصليبيين فى حطين، فان انبثاق ظاهرة العمل القومى الموحد فى وقت كان الشعور السائد فيه ان الوحدة العربية وما يتبعها من آمال وآلام انما اصبحت لعبة سياسية تتخذ منها الفئات الرجعية وحكامها التقليديون فى الوطن العربى ستاراً لاختفاء أوضاعهم الداخلىة الهزيلة ، أثبت امكانية الخروج من الحلقات المفرغة المتصلة بالاستعمار ودوائر استخباراته وشركات نفطه الا ان الاتصال بين مصر وسوريا جاء كضربة موجهة الى ذلك العمل القومى الجبار أستغلت نتائجه العكسية لدعم وجهات نظر الساسة التقليديين فى استحالة قيام عمل مشترك على الصعيد القومى مع تأكيد دعاة الانهزامية والتبعية والخوف فى

الوطن العربي على نواحي الضعف في شخصية المواطن العربي وتقوى ما يستطيع ان يقوم به في الوقت الذي يصرون فيه على ان السبيل السليم في العمل للقضايا العربية هو ربط الوطن العربي بالدوائر الاستعمارية والاعتماد على افتراضات مشبوهة وموثيق ميتة كميثاق سعد آباد وما ينادى به في الوقت الحاضر تحت أسم الحلف الاسلامى !

وليس من الصعوبة بمكان ان تناقش دعوات التقليديين والرجعيين ودعاة الهزيمة لان مسألة الموثيق والاحلاف اثبتت عدم جدواها منذ اللحظة التي برزت فيها تلك الوصفات على المسرح السياسى فى منطقة الشرق العربى فان هذه التدابير السياسيه قد خطط لها من قبل الدوائر الاستعمارية وترك امر تنفيذها الى رجال السياسة وموظفى سفارات الدول الاجنبية ومن يستطيعون كسبه من اصحاب النفوذ السياسى والاجتماعى فى الاقطار التي يريدون اتمام تلك المخططات فيها • هذا فى الوقت الذي ينعدم فيه تشابه الظروف بين الاقطار المختلفة التي يراد لها ان تنظم تحت لواء حلف، او ترتبط بموثيق ومعاهدات ناسين او متناسين ان للوطن العربى قضايا قومية مثل فلسطين والاسكندرونة وعربستان لا يمكن ان يقبل فيها حل سياسى لانها حدود قومية ذات صبغة حضارية ومصيرية فى آن واحد فهل يمكن للاقطار التي يراد خلق حلف مشترك منها ان تعتبر مسألة فلسطين او عربستان او الاسكندرونة مسألة حياة او موت كما يراها العرب انفسهم ؟ والحقيقة ان الشعور القومى هو السبيل الوحيد الذي يصلح ان يكون مقياسا للعمل فى سبيل القضايا العربية دون اعتماد او تبعية على قوى السياسة فى الشرق او الغرب •

ونعود ثانية فنؤكد بان الفكر القومى يحتاج الى وضوح فى تركيبه ويقودنا هذا المفهوم الى ايجاد الركائز التي ينهض عليها مثل هذا الفكر ويمكن تسميتها حسب الترتيب التالى الاشتراكية ، الوحدة ثم الانسانية •

ويعنى هذا الاستعمال للتعبير السابقة ان الاشتراكية تأتي في المقدمة
فاذا نضجت اهدافها التي تتلخص في التحرر الاقتصادي والاستغلال السليم
لموارد الاقطار العربية فان الوحدة تكون معقولة فعلا لان الجو النفسي قد
تهيأ لها ولكي تجمع الوحدة بين الهدف السياسي والنزوع الى خير بني
البشر عن طريق الفكر العربي الناضج فان الانسانية تأتي كمرحلة مثالية
بعيدة عن الطوبائية لانها تركز على الوحدة في الوقت الذي توازن فيه
المفهوم السياسي للوحدة العربية وبذلك يستطيع الانسان العربي ان ينجز
مسؤولياته الحضارية على صعيد عالمي .

وبدون صعوبة فان لفظ الاشتراكية قد ارتبك استعماله في اكثر
المجتمعات النامية وعلى الاخص في المجتمع العربي فقد اعتبرت الاشتراكية
وسيلة للشيوعية بينما اعتبرها الشيوعيون وانصار الفكر الماركسي وسيلة
للكوص الى الرأسمالية ، فاللفظة اذن حائرة بين قوتين تشداتها وتحكمان
عليها دون ان يكون لها حق الدفاع عن مفاهيمها بنفسها ومما يزيد الموقف
صعوبة ان البعض يحاول وصم الاشتراكية بالفشل نظرا لمصاعب نشأت عن
طريق التطبيق الاشتراكي وهذا دون شك خلط بين الفكر الاشتراكي
والواقع الاشتراكي .

فالاشتراكية وهذه مخنتها تطبيق قبل ان تكون نظرية فقد عاش
الناس وفق المفاهيم الاشتراكية في فترات تميزت بالاخوة والمحبة بين الناس
فقد أكدت المسيحية على الاشتراكية كما حرمت استغلال الناس عن طريق
الفوائض والكسب غير المشروع فقد قال القديس اوغسطين ان (الفلوس لا
تلد) وتميزت حياة الكثير من الطوائف المسيحية كالدمنيك والفرنسيسكان
والبنديكتين باشكال مختلفة من التقشف تشبه الى حد كبير مبدأ توزيع
الثروة بين الافراد في محاولة لاخضاع رأسمال ممثل في الغذاء وما يسد
الحاجات الضرورية والكمالية للمجتمع مع ضمان الهدف الروحي او تربية
الذات السليمة .

وقد كان الاسلام العظيم مؤكدا على الاشتراكية بشكل لم يجعلها

وقفا على الاديرة و حياة التقشف وانما نزل بها الى الحياة العامة فجعل العمل في سبيل الخير العام او صالح الامة يفضل على المكاسب وحتى الاحتياجات الفردية فالمسلمون اخوة وهم سواسية وعليهم واجبات ولهم حقوق والعمل في مجتمعهم حق والسعي فضيلة والتضحية شرف وهذه كلها تبين ان المجموع يقدم على الفرد • هذه هي الفلسفة الاسلامية ذات الانعكاسات الاجتماعية والاقتصادية حتى لقد تم التأكيد على ان الناس يشتركون في امور ثلاثة هي : الماء والعشب والنار وهذه المسيمات على بساطتها تحمل الكثير من معاني العمل المشترك والسعي في سبيل الخير العام •

وقد ظهرت دعوات للاشتراكية في اوربا اتصفت بالطوباوية نادى بها سان سيمون واتباعه في فرنسا الا ان اشتراكيتهم تميزت بالخيالية وبانشاء ما سماه سيمون (المسيحية الجديدة) وقد حاول روبرت اوين المصلح والاقتصادي الانكليزي ان يصل بمجتمعه الى حد نجاح النظرية الاشتراكية ولكنه فشل وانتهت حياته بعدما بعد ان جرب سيلا لنجاح فكرته في الولايات المتحدة •

اما الجمعية الفابية في انكلترا فانها سلكت طريقا اكثر واقعية من سان سيمون او روبرت اوين لانها فكرت فيما نسميه في الوقت الحاضر (القطاع العام) ويختص القطاع العام بالادارة السياسية ذات القوة والنفوذ ويعنى ذلك بشكل اوسع تدخل الدولة في امتلاك واستثمار ما يسمى بادوات الانتاج فقد نادى الفاييون بتأميم المرافق العامة كالسكك الحديدية والمنتزهات واماكن العلاج وما يتبعها من طب وعقاقير وكذلك جوانب الحياة الاقتصادية التي يعود نفعها على اكبر عدد ممكن من الافراد فهى والحالة هذه لا يمكن ان تترك تحت رحمة شخص او فئة تثرى على حساب المجموع •

وسارت الاشتراكية في هذا السبيل بمحاولات خيرة قام بها الناس خبروا مساوىء الحياة ففكروا في طرق افضل لحل مشاكل الانسان الاقتصادية

عن طريق وضع المال والثروة في خدمة المجتمع •
وبرزت الماركسية لكي تؤكد بشكل حتمي وحدي النزاع الطبقي
واتصار طبقة من الطبقات لانها تسمى (البروليتاريا) فهي بذلك تمك
وسائل الاتاج وان كانت تملك فانها متحررة من الملكية ! هذا على الصعيد
النظري اما على الصعيد العملي فان البروليتاريا ما زالت اجيرة - كما هو
الحال في اكثر الدول الشيوعية - للدولة ممثلة في البيروقراطية الادارية
والحزبية في الوقت الذي نصت فيه التعاليم الماركسية على ان الدولة
وسيلة وليست غاية فهي ستذبل حتما ثم تصفر وتموت فتذروها الرياح !
ونظرا للوضع العالمي المضطرب وقلق الكثير من المهتمين في الشؤون
السياسية والاقتصادية وعلى الاخص في الفترة التي سبقت الحرب العالمية
الاولى فقد احتاج هؤلاء كما شعر غيرهم ممن اثقلت كواهلهم صعوبات
الحياة وعاشوا حياتهم كلها يعانون من الفقر او التسلط ، الى مفاهيم حديثة
ومتطرفة للخروج من الصعوبات التي هم فيها •

فالتبقة الوسطى في اوربا كانت بحاجة الى الثورة السياسية اما الطبقة
المستغلة فانها كانت بحاجة الى ضمان حياتها الاقتصادية ومركزها الاجتماعي
ولما لم تستطع النظرية الماركسية ان تقدم الحلول الجاهزة لتلك المطالب
فقد برز العنف كرد على احتياجات الثورة السياسية في الوقت الذي
استعيرت فيه لفظة الاشتراكية لكي تستعمل كمخدر لمطالب الطبقات العاملة
والفلاحية التي لم تدخلها الرفاهية كما كان يحاول وصفها دعاة الفكر
الماركسي •

واستغل الماركسيون والنهليستيون المفاهيم الاشتراكية وجعلوا منها
ولاول مرة في تاريخ الفكر الانساني نظرية محددة تعني خضوع الموارد
الاقتصادية والطاقت البشرية لاهداف ترسم من قبل حفنة من المنتفذين في
الحزب او الاجهزة السياسية ذات القوة والنفوذ فاذا حدث تناقض بين
متطلبات الفئة المسيطرة وبين انجازات الطبقات العاملة والمنتجة فان هذا
التنافس يحل عن طريق استعمال القوة لكي يتم تحريك القوى المنتجة

بشكل يكاد يكون تلقائيا لمتطلبات الفئة المترتبة على صعيد القوة السياسية
وادواتها المتمثلة في القمع العسكرى والارهاب •

وقد اساء النظام الرأسمالى الى الاشتراكية وعلى الاخص فى الولايات
المتحدة الامريكية فقد فهمت لفظة الاشتراكية بانها محاولة لايقاف تطوير
تصاميم السيارات والادوات المنزلية وما اليها من لوازم يستعملها الفرد
العادى فى اميركا فى الوقت الذى تزداد فيه فكرة الضمان الجماعى وتدخل
الدولة عن طريق مشاريعها التى تختلف من اقامة متنزهات حتى انجاز
مشاريع فضائية ضخمة التكاليف • وليس ببعيد عن الازهان كيف خرجت
الولايات المتحدة من كساد الثلاثينيات القاتل فقد اقترح الاقتصادى
البريطانى المشهور اللورد مينرد كينز على فرانكلن ديلاانو روزفلت رئيس
الجمهورية الامريكية ان تلعب الدولة دورا اكبر فى العملية الانتاجية
عن طريق توظيف و صرفه كميات اكثر من المال تكون كالدعم الجديد الذى
يغذى ويحرك الاقتصاد الاميركى الراكد خلال تلك الفترة • ومن المؤكد
ان الولايات المتحدة الامريكية تسير باقتصادها اليوم نحو نوع خاص من
الاشتراكية سيكتسب تعبير الاشتراكية الامريكية عندما يصبح من غير
المستطاع للشركات الامريكية ذات الرئات المالية المتضخمة ان تتنافس ويكون
الفرق عندئذ بين العمال وبين المديرين وارباب العمل فى طول الولايات المتحدة
وعرضها قليلا مما يترك مجالاً ضيقاً أو يتلاشى المجال عند ذلك تنهدم
خرافة (التفاوض الحر) بين القوى العاملة والقوى المديرة والممتلكة •

القرن العشرون ونظمه السياسية وصلتها بالاشتراكية :

من الميزات الرئيسية للقرن العشرين وخصوصا النصف الثانى منه
وجود التشابه الشديد فى النظم السياسية والاقتصادية بين كل من الولايات
المتحدة الامريكية وروسيا وفى الاولى تتحكم فئة من اصحاب رؤوس

الاموال الضخمة في مقدرات الملايين من ابناء الشعب الامريكى جاعلة من المجتمع تابعا ذليلا لرؤوس اموالهم اما في روسيا فان الفئة التى تسيطر على مفاتيح القوة والسلطة فى المجتمع لا تتعدى كونها قلة من الافراد يمثلون العصب الموجه للحزب الروسى ومن غير المستحيل ان تأخذ المتنفذين فى الحزب الروسى ونضعهم على رأس الهرم الاجتماعى والمادى فى الولايات المتحدة فى الوقت الذى يستبدل هؤلاء مراكزهم مع الفئة التى تسيطر على القوة والمال فى المجتمع الامريكى وبدون شك فان ضمان سير كل من هذين المجتمعين حسب طريقته المألوفة لن يتغير بهذا التبديل ما خلا بعض الصعوبات اللغوية وتلك المتعلقة بطريقة النطق بالاسماء والاختلاف فى بعض الاذواق الفردية .

ونستطيع ان ندرك من هذا التشابه ان النظامين الرأسمالى والشيوعى كلاهما يحارب الاشتراكية وقد يتحدان فى حلف غير مقدس لضرب الاشتراكية وخلق التطبيق الاشتراكى فالرأسمالية تخشى الاشتراكية لانها تقف بقوة ضد استغلال الانسان للانسان كما انها تحارب التفاوت الطبقي وتضمن تكافؤا للفرص يستطيع بواسطته الفرد العادى أن يجد له طريقا فى الحياة يتفق وما يمتلكه من القابليات والاستعدادات وما يحصل عليه من مؤهلات دون ان ينظر الى صلته ببعض من المسيطرين على صمامات القوة والثروة فى المجتمع كما تحول الاشتراكية دون استخدام المال أو التفاوت المادى لفرض وجهة نظر خاصة بالنسبة للحريات الاساسية للانسان فقد نص الدستور الامريكى على أن حق الانتخاب يجب ان يربط بمقدار التزام الفرد فى الولايات المتحدة بدفع ما يستحق عليه من الضرائب وقد أستغل هذا المبدأ فى جنوب الولايات المتحدة حيث تكثر العناصر الملونة فقد حاول المتطرفون من البيض فى الولايات الجنوبية أن يباعدوا بين الزنوج وبين دفعهم للضرائب عن طريق خفض اجورهم من جهة ووضعهم فى مأزق مالية من جهة اخرى وبذلك سقط حق الملايين ممن الملونين فى جنوب الولايات المتحدة فى ممارسة الانتخاب وبالتالي أسمع

صوتهم وما يقاسونه لكى يشعر الرأي العام الامريكى والعالمى بما هم عليه من صعوبات وما يتعرضون له من معاملة لا تتفق والطريقة التى تعامل بها الحيوانات فى الحدائق الخاصة بها • وتذهب الاشتراكية فى تحديدها للنظام الرأسمالى الى ابعد من الناحية الاجتماعية وذلك عن طريق مطالبتها بتخطيط الشركات الكبيرة التى أصبحت تعاني من تضخم شديد من أعمالها ونفقات هائلة فى مصروفاتها وعلى الاخص المخفية منها مما دفع بالعديد من هذه الشركات الى محاولة الاحتكار للاستئثار بالسوق وقتل الروح المحركة للرغبة الفردية او مد نفوذها الى اقطار بعيدة عن الدولة التى تتبعها وبذلك تنتقل سموم الاستغلال من الصعيد الوطنى لتلتهم قابليات وموارد شعوب لم تسمح لها ظروفها الداخلية والظروف الدولية المحيطة بها الى تطوير نفسها بشكل يجعلها ندا للاقطار المتكاملة النمو •

ومما زاد فى صعوبة موقف الاشتراكية فى العالم بالاضافة الى أنها تتبع الواقع فتحضع بذلك نتائج التطبيق الاشتراكى للظروف المتأثرة بها متجنبة فرض النظرية المحددة على الواقع بشكل قد يصل الى حد العبث والاكراه بكل القيم لكى يصبح الواقع مطابقا للفكر النظرى كما هى الحال بالنسبة للشيعوية ، وانها قديمة قدم الفكر والمجتمع الانسانيين ووجود جذور لها فى مجتمعات مختلفة فانها لم تستطع ان تتسلم زمام المبادرة فتحضع التشكيلات السياسية وما يتصل بها من اجهزة توزيع السلطة لنفوذها المباشر وان استطاعت ان تسيطر على الفكر والمجتمع وما يتصل بهما من تعريف للشؤون الاقتصادية واقرار للعدالة الاجتماعية •

فاذا أستعرضنا تاريخ الاشتراكية الطويل فاننا نراها تمثل ردود الفعل ضد أى تسلط سياسى يقصد به توجيه المجتمع عن طريق أستعمال قوى المال والتسلط وبذلك مثلت الاشتراكية المساعى الجماعية للرد على التحديات الفردية فقد قامت الدعوات الهادفة لاصلاح المجتمع وعلى الاخص فى منطقة جنوب شرقى آسيا فى محاولة للحد من تسلط الافراد وتسخيرهم لخطوط القوة والحكم فى المجتمع مثلت الاشتراكية فى آسيا اكثر من مجرد رد

فعل فهي نكران للذات وتجرد من مباحج الدنيا وتعكس قصة بوذا الذي تقضى عنه غبار الدنيا وسار طالبا للحقيقة جانبا من الفكر الاشتراكي الاسيوى فقد سمي بوذا أتباعه بالفقراء فى الوقت الذى نبذ فيه حياة الامراء التى كان يعيشها فلما حاول ابنه التعرف عليه وتم له الوصول الى حيث يقيم بوذا ومريدوه أشار الاب على ابنه أن يلبس ملابس الفقراء وأن يحمل الوعاء الذى يجمع فيه العطاء من الناس •

وفى الفكر الاوربى كانت الاشتراكية موجودة على درجات تفاوتت من مرحلة فكرية الى مرحلة فكرية أخرى فقد بلغت الحياة السياسية فى اليونان أعلى مراحل نجاحها خلال فترة حكم المدن اليونانية التى ابتكرت للفكر العالمى لفظة الديمقراطية ولكن الفكر اليونانى اختلف كثيرا عن واقعها لانه كان فكرا أرستقراطيا حاول أن يؤكد على نماذج مثالية أو قلة من النماذج الناجحة فى الوقت الذى ترك فيه قاعدة الحكم تعمل على تركيبها عوامل خضعت لموجهاة الصدفة والتسلط •

والواقع ان افلاطون كان متأثرا فى فكره وكذلك ارسطو من بعده يدافعين رئيسين الاول هو عصر بريكليس الذى كان يسمى بالعصر الذهبى فى اثينا والثانى هو فثل اثينا فى الحروب (البلوبونية) التى رجحت كفة اسبارطة ذات النظام العسكرى فى حياتها ولكن الحل الذى افترضه افلاطون وطوره من بعده تلميذه ارسطو وضع مركز الثقل فى العبقرية أو مجموعة العبقريات التى تمتلك طاقة فوق طاقة البشر تستطيع بما لها من مميزات ان ترتفع بالمجتمع الى مستوى فى الواقع وفى الفكر يتخلص فيه من الصعوبات اليومية والمعقدة • ولكن الفكر الاثينى اغفل ناحية هامة هى ان قاعدة الحكم لا تقل اهمية عن القيادة الملهمة بالاضافة الى انها التربة التى انبتتها وبكل تأكيد لو ان بركليس عمل على ان ينمى مسوعولية فى الحكم على صعيد القاعدة الشعبية لكان اضمن له فى استمرار سلطته وسلطة اثينا كقاعدة فكرية وسياسية يونانية •

وقد خلت الفترة التى ارتفع فيها اسم الاسكندر المقدونى من محاولات

في سبيل اتخاذ مقاييس اشتراكية لان حركة الاسكندر السريعة لم تكن لتعطي مجالاً للتاريخ او الواقع لكي يتفاعل معها وجاءت فترة الامبراطورية الرومانية وهي الاخرى سارت على نهج الاسكندر المقدوني في سياسته التوسعية ولم تفكر قط فيما نسميه اليوم بالاشتراكية لان مبدأ الشجاعة والتسلط كان هو المقياس لقيام اداة الحكم والقوة مفعماً بقوة تختلف عما لدى البشر تدفع به الى ان يسيطر وان يجعل من نفسه حاكماً مطلقاً . اما رعاياه فانهم اقل شأناً منه وهم لا يملكون الا ان يكونوا خاضعين لمشيئته وتلبية ما يصدره من اوامر وقرارات . وتمثل شخصية يوليوس قيصر اعلى ما وصلت اليه محاولة تجسيم النفوذ الفردي والسيطرة الذاتية في الامبراطورية الرومانية ولكن الاعتماد على مثل هذه الشخصيات الخارقة والنادرة في تكرارها بالنسبة للتاريخ وللاجتماع الانساني فسح المجال امام ردود فعل عكسية وعلى الاخص بالنسبة لمن استذلتهم او استعبدتهم روما عن طريق سيطرتها على مناطق نفوذ سياسية بعيدة عن عاصمة امبراطورتها (روما) .

فقد بدأت العناصر المغلوبة على امرها تتجمع مكونة من ردود الفعل الفردية حركة جماعية قصد منها التخلص من السيطرة الرومانية . وتمثل المسيحية دون ريب جانباً من جوانب العمل الهادف الى نزع سيطرة روما وهي بذلك تعكس حركة اشتراكية ذات تعاليم دينية مقدسة استهدفت خلاص الكثير من الطبقات الفقيرة والمعدمة وعلى الاخص تلك التي كانت تكسب قوتها عن طريق جهدها العضلي . ويمثل المسيحيون الاوائل الفقر والفاقة والتشرد ولكنهم استطاعوا على الرغم مما كانوا يتصفون به من ضعف مادي ونبذ اجتماعي ان يكسبوا الجولة ضد الامبراطورية الرومانية لانهم كانوا يمثلون دون شك روح المقاومة لسلطة روما مما يفسر ازدياد عدد المسيحيين بازدياد سيطرة روما ومحاولتها تعذيب هموءاء المسيحيين او التنكيل بهم عن طريق حرقهم او القاءهم للاسود في مهرجانات عامة كانت الحد الفاصل بين سيطرة روما القوية وبين حركة دينية اشتراكية لم يكن ينقصها الا ازدياد قوة المقاومة لها لكي تمتلك

اسباب النجاح في عصر كان الاتجاه السائد فيه نحو اشتراكية عادلة يقصد منها رعاية الطبقات المغلوبة على امرها وفتح ابواب الفرص امامها لكي تستطيع ان ترتفع الى ما يناسب قابلياتها واتجاهها في المجتمعات التي تعيش فيها .

وبذلك استطاعت المسيحية ان تنتشر نظرا لفهما روح العصر السذي عاشت فيه اكثر مما فهمته القوة السياسية للامبراطورية الرومانية . وقد عاشت الاشتراكية بشكل متلازم مع التعاليم الدينية المسيحية ممثلة في الوصايا العشر التي تنص احداها على الا تسرق ومفهوم السرقة لا ينحصر في الجريمة كما نفهمها قديما وفي الوقت الحاضر وانما يتعداها الى مفهوم اجتماعي هو الحث على عدم اغتصاب الثورة او تجميعها نتيجة للاستحواذ والسيطرة على ثروات الغير وما يتبع ذلك من استغلال المنفوذ يفتح المجال امام طبقة بعينها لتسود المجتمع بكامله .

ولكن انتقال المسيحية من حركة اشتراكية شاملة الى محاولة كنسية ضيقة جعل من فكرة توزيع الثروة بشكل يتناسب وحاجات الافراد في المجتمع عن طريق تكافؤ فرصهم ، مجرد مظهر لسيطرة فئة من رجال الدين المسيحيين على مقاليد امور الكنيسة جعل منهم سلطة لا تختلف في واقعها عن اباطرة روما التي ثارت المسيحية ضدهم وبذلك بدأت حركات الاصلاح الديني التي بلغت اوجها على الصعيد السياسي متمثلة في ثورة سنة ١٧٨٩م في فرنسا .

ومنذ ان نجحت تلك الثورة في هدم الملكية في فرنسا بسرزت المحاولات الاشتراكية ممثلة في فكر سان سيمون وتلميذه فورييه وغيرهم من رجال الاصلاح الاجتماعي الفرنسي ثم قامت الجمعية الفابية في انكلترا التي مثلت دون شك رد الفعل لدى المجتمع الانكليزي تجاه الحكم الملكي المزمع في الجزر البريطانية .

وعلى الرغم من ظهور الحركات المتطرفة التي حاولت ان تحصل على حقوق الطبقات المستغلة عن طريق تعميق التفاوت الطبقي والتهيأة لثورة

طبقية كما هو الحال بالنسبة للفكر الماركسي فان الاشتراكية مازالت تعيش لتتصف اولئك الذين هم بحاجة الى الانصاف وتعكس في الوقت ذاته الضمير الاصلاحى للطبقات المغلوبة على امرها . وبشكل ادق فان السبب وراء استمرار الفكر والواقع الاشتراكيين مع وجود الحركات المتطرفة هو ان الاشتراكية تمثل المحرك الاصيل الذي ينتصر للفئات العاملة او التي تم استغلالها بشكل لا يحاول اثاره الحقد عن طريق تغليب طبقة على طبقة وبذلك يفقد المجتمع توازنه الى الابد او بواسطة افقار الاغنياء واغناء الفقراء وهي وجهة نظر اثبتت الواقع خطأها لانها لا تنظر الى المجتمع بطبقاته المختلفة كواقع حي يراد له أن يتفاعل وأن يثمر وأن يطرح جانبا التفاوت الهائل بين الطبقات في الوقت الذي يمنع فيه التسلسل والاستغلال او الاثراء غير المعقول او المشروع .

وبعبارة اوضح فان الفكر المتطرف سواء أكان على الصعيد الاجتماعى او السياسى يحاول ان ينظر الى طبقة بعينها فيتصورها وكأنها جزيرة تعيش في البحر الاجتماعى وبذلك يعمد الى اقتطاع هذه الجزيرة او الطبقة الاجتماعية ياسيا ان عمله هذا يخالف الواقع الاجتماعى حيث يصبح التفاعل بين جزيرته الطبقية الموهومة وبين مركبات المجتمع الاخرى واجبا بعد ان يتم للفكر المتطرف رفع ما يحاول رفعه الى منزلة الصدارة الاجتماعية . وزيادة على ذلك فان استمرار الاشتراكية في الفكر وتطبيقها واكتسابها حيوية متجددة وعدم ضعفها امام الحركات المتطرفة يعود الى الاشتراكية تؤكد على المجتمع بالدرجة الاولى جاعلة من اصلاحه الهدف الرئيس لجهودها فاذا تم ما نسميه بالتخطيط الاجتماعى فان الجوانب السياسية والاقتصادية تأخذ هي الاخرى بالنمو ولا تلبث هذه الاتجاهات المختلفة ان تجتمع لتؤكد قيام المجتمع السليم الذي تسعى اليه الاشتراكية .

اما الاتجاهات المتطرفة فانها تهتم بالابعاد الاقتصادية او السياسية وبذلك تفقد هذه الابعاد واقعها الاجتماعى وتتحول الى مجرد واجهات لسلطة سياسية كما هو الحال بالنسبة للفكر الماركسي والتطبيق الشيوعى

او سيطرة الرأسمال وشركاته المحتكرة كما هو واضح في المجتمعات ذات
الانظمة الرأسمالية •

وعلى الرغم من ان الاشتراكية لا تلتزم بالقوالب الجامدة ولا تضع
العربة امام الحصان كما يقول المثل الانكليزي فانها لم تستطع ان تنجح
على صعيد العمل السياسى •

وبعبارة اوضح فان الاشتراكية اكدت منذ ان ظهرت كحقيقة اساسية
في حياة المجتمع الانساني على اهمية الواقع والانسان قبل الهدف والنجاح ،
فان هذه التعاليم ذات الجذور الانسانية والمفاهيم الاجتماعية والاقتصادية
لم تستطع ان تصب نفسها في خطوط سياسية تمسك بموجهات القوة
والسلطة في المجتمعات المختلفة •

ففى العالم الاوربى تراوحت الاشتراكية بين حركات اصلاحية وفكرية
وبين ردود فعل حاولت ان تصلح ما اختل من التوازن الاجتماعى والسياسى
والاقتصادى ثم ظهرت فى اوربا بشكل دعوات خيرة كان هدفها الاخذ
بايدي الطبقات المستغلة فى سبيل مستقبل افضل ينبع من خلال تعاون بين
الاطراف الاجتماعية ذات العلاقة بمعارك الحياة والمجتمع •

اما فى عالم الفكر الشرقى فانها تجلت بشكل دعوات للاصلاح الاجتماعى
اتصلت بها بعض المفاهيم الدينية والخلقية ولكنها لم تصل الى حد السيطرة
المطلقة على مفاتيح السياسة والسلطة بل بالعكس صبغت الاشتراكية فى
الشرق قديما اولئك نفر المؤمن بها باشكال مختلفة من التجرد والتشف
والزهة والعزوف عن السلطة والحكم والمادة •

ومن الملاحظ بالنسبة للواقع والفكر الاشتراكيين بصرف النظر عن
المكان الذي يترعرعان به ان حاجات الافراد تبدأ بالتفاعل مع الخطوط
الاشتراكية التى يحاول المجتمع السير على نهجها لكي تتم اشباعات افضل
للفرد والمجموع فاذا بدأت هذه التفاعلات تأخذ جانب العمل الجماعى
وتحاول ان تترجم نفسها بشكل ثورة اجتماعية تقفز الى المسرح فى تلك
اللحظة التاريخية الحرجة بعض العناصر المتطرفة فتدفع بالثورة فى الطريق

الذي تفرضه عليها حوافزها الذاتية او تصاميمها الفكرية ذات الطاقة
الاندفاعية العالية ثم تبدأ صفحة جديدة في مجتمع الثورة نفسه لا تلبث
ان تجعل من هذه العناصر طبقة تعيش لنفسها بعيدة عن ان تترجم الالام
والآمال التي علقها عليها القواعد الشعبية •

ومعنى ذلك ان العناصر المتطرفة وان استغلت النضج الاشتراكي في
المجتمع الا انها لا تلبث ان تنفصل عن المفاهيم الاشتراكية التي ارتفعت
على اكتافها وبذلك تنقلب القوة المسيطرة الى مجموعة تستخدم التسلط
والارهاب في سبيل بقائها في مراكز السياسة والحكم في الوقت الذي فقدت
فيه اية صلة تربطها بالاشتراكية التي مهدت وفتحت الازدهان الى الثورة وما
يصاحبها من تغيير اجتماعي يترجم متطلبات القواعد الشعبية ونزوعها نحو
غدها الافضل • ومن الادلة على عدم نجاح الاشتراكية في حركتها الرامية
الى احداث تغيير اجتماعي يستند ويوجه من قبل طاقات تؤمن كلياً
بالاشتراكية ما حدث للثورة الروسية عام ١٩١٧ م •

فقد خرجت روسيا متأثرة بما قاسته في الحرب العالمية الاولى وظهر ان
السلطة التقليدية في روسيا القيصرية اصبحت بعيدة كل البعد عن المجتمع
ذو الجهد العضلي والدخل المحدود في روسيا وعلى الاخص بعد ان فشلت
المحاولات ذات الصبغة الدينية واهمها تلك التي قادها رجال الدين في
صبيحة يوم احد من سنة ١٩٠٥ م •

فقد تصورت قوى الكنيسة ان القيصر نيقولا الثاني سيستجيب لنداء
التعاليم الارثوذكسية فيعمد الى اتخاذ مقاييس لاصلاحات شاملة في الادارة
واوجه الحياة العامة ولكن اجهزة السياسة القيصرية لم تكن لتفهم مغزى
تلك المحاولة الدينية فاستخدمت القوة المتناهية للقضاء على تلك المحاولة
الكنسية مما ادى الى وقوع العديد من الضحايا وتسميه يوم المحاولة
باسم (الاحد الدموي) • وقد عملت الكارثة التي وقعت سنة ١٩٠٥ م في
روسيا القيصرية وما تبعها من عدم اهتمام بسلطة الكنيسة الارثوذكسية ،
والاستخفاف بمكانة هذه الكنيسة في المجتمع الروسى ان تكتلت الجهود

للقضاء على القيصرية وامتزجت بغيرها من المحاولات العلنية والسرية وما كتب من فكر ثورى وبذلك تهيأت تربة المجتمع الروسى الى حركة تغيير اجتماعية شاملة كان من نتائجها انهيار قيصر روسيا فظهرت على المسرح السياسى مجموعة تؤمن بالاشتراكية منهاجاً ووسيلة للإصلاح الاجتماعى تمثلت فى حكومة (كرينسكى) الا ان عناصر تمثل فيها التطرف ما لبث ان استغلت النضج الاجتماعى بمفاهيمه الاشتراكية وحولت الاهداف الاصلاحية الكبيرة الى وسيلة قصد منها الوصول الى مراكز السلطة والحكم عن طريق القوة والميكافيلية المتطرفة وبذلك قضى على ما تم انجازه فى المجتمع الروسى من محاولات اشتراكية لفتح صفحة جديدة فى حياة المجتمع والفكر فى روسيا .

ومن الامثلة الاخرى لاختفاق الاشتراكية فى تحقيق ذاتها عن طريق السيطرة على خطوط السياسة والحكم ما حدث فى فرنسا خلال ثورة سنة ١٧٨٩م فقد سرقت نتائج الوعى الاشتراكى الفرنسى عن طريق تولى بعض الشخصيات المتطرفة لمقاييد السلطة والانتقال بالحكم الى تسلط وارهاب دموى امتد من روبسيير حتى نهاية نابليون الثالث وقيام اولى الجمهوريات الفرنسية .

وفى بريطانيا يصعب ان تتبع خط نجاح الاشتراكية لان التكوين النفسى والاجتماعى والتاريخى للفرد الانكليزي تطفى عليه مسحة ثقيلة من الغموض والتداخل تعزي من بعض الاحيان الى جو بلاد الانكليز الملبد بالغيوم ولكن مهما كان اثر هذا الجو على الفكر والواقع الانكليزيين فأن الجمعية الفابية كانت ذات اثر مباشر فيما ظهر فى بريطانيا من قوانين الإصلاح الاجتماعى وما اتبع من ضمانات خاصة بالطبقات المعدمة وفسح المجال لها لتعبير عن ذاتها بواسطة المظاهرات والاضرابات والانتخابات ، فان الانجازات الاشتراكية ذات الصلة بالحركة الفابية ما لبثت ان سرقت واستغلت من قبل حزب الاحرار البريطانى اولا ثم ابتلعها حزب العمال لكي يجمع بين شخصية المحافظين وسلوك الجمعية الفابية مما يربك فى كثير من

الاحيان من يحاول فهم سياسة حزب العمال البريطاني التي تتفق كليا مع حزب المحافظين في محاولتها للابقاء على حظام الامبراطورية البريطانية وان سلكت في سبيل هدفها هذا طرقا تختلف عن تلك التي يتمسك بها حزب المحافظين البريطاني •

وعلى صعيد الولايات المتحدة فان المقاييس الاشتراكية وجدت لها اكثر من فرصة للنجاح على الرغم من التشكيلات والاحتكارات المالية والاقتصادية المتمثلة في البنوك الضخمة والشركات ذات الرأسمال المخيف والاصابع الممتدة في كل صغيرة وكبيرة في المجتمع الامريكى وما يتصل بمنافع تلك الشركات من بشر او يابسة بصرف النظر عن بعدهما او قربهما من الولايات المتحدة ، ظهرت بشكل اصلاحات اجتماعية او على صعيد السلطة السياسية في الدنيا الجديدة فقد برزت الى الوجود نقابات العمال وحركات الاصلاح الاجتماعى على الرغم من ارتباطها بالشعور الكنسى كما نجحت بعض المحاولات السياسية الرامية الى التأكيد على حق العمل والحركة الاجتماعية لكافة افراد المجتمع الامريكى بصرف النظر عن جنسهم او لغتهم أو شعورهم الديني •

ولكن هذه النجاحات التي تمثل تصويرا لا بأس به للمفاهيم الاشتراكية ما لبثت ان سرقت او استغلت لمصالح فردية أو حزبية فقد سيطرت حفنة من ذوى النفوذ ممثلة فى عصابات الاجرام على مقاليد الامور فى نقابات العمال الامريكية واخذت هذه الزمر الانتهازية والمسلحة بالقوة الارهابية تعبت بمقدرات الملايين من عمال امريكا فى الوقت الذي لا تقدم لهؤلاء العمال سوى فوائد ضئيلة تنتزع عن طريق ما يسمى (التفاوض الحر) بين العمال أو مثليهم على وجه الدقة وبين ارباب العمل •

أما على الصعيد السياسى فان الحزبين التقليديين فى امريكا وهما : الحزب الديمقراطى والجمهورى قد استغل كل منهما النجاح الذي اصابته الاشتراكية فى الولايات المتحدة وتمثل الشعارات الحزبية وعلى الاخص تلك التي يرفعها من وقت لآخر الحزب الديمقراطى الامريكى مثل السياسة

الجديدة (نيو ديل) التي استطاع بواسطتها فرانكلين دي لانو روزفلت ان يتغلب على الجمهوريين في امريكا وان يبقى في الحكم الفترة التي اراد ان يبقى بها وكذلك شعار الذي رفعه جون كندى الافق الجديد (نيو فرانثير) والذي تغلب بواسطته على منافسيه من الجمهوريين ، استغلال الاشتراكية في سبيل كسب نجاحات فردية او تنظيمية ولكن الفارق بين التعبئة الذهنية والاجتماعية لتلك النجاحات ذات الطابع الاشتراكي وبين الحركات السريعة على صعيد الفرد والتنظيم السياسي التي يقصد منها سرقة او استغلال ثمار النجاح الاشتراكي في المجتمع الامريكى لا يلبث ان يتقلب الى حاجز يفصل المجتمع عن السلطة ويدفع بكل منهما الى اتخاذ طريق يختلف في اسلوبه وهدفه عن ذلك الذي يتخذه الطرف الاخر .

ومجمل القول ان الاشتراكية عملت خلال تاريخ الانسانية الطويل على تمثيل الدوافع العملية الخيرة ولكنها لم تنجح في محاولتها للسيطرة على موجات السياسة والقوة وما يتبعها من حكم وادارة .

وبشكل اوضح فان الاشتراكية بتأكيدھا على التطبيق قبل النظرية وتجاوبها كلياً مع التطور في الحاجات والمطالب الانسانية ابعدت عن نفسها صفة التزمت وقبلت ان تكون كالجندى المجهول او ذلك الحى الذي لا يريد ان يذكر اسمه في الوقت الذي استغل او سرق فيه متطرفون وانتهازيون ثمار النجاحات الاشتراكية وبذلك وجهت مركبات التطور الاشتراكي نحو خدمة مصالح ذاتية او حزبية مما شوه الى حد كبير مفهوم الاشتراكية ووصمها بالطوبائية من قبل الفكر والمفكرين من ذوى النزعات المتطرفة لانهم يعلمون جيداً بان الاشتراكية هي التي تهدد بكشف الزيف في شعاراتهم واعمالهم فماركس وانجلز كانا يخشيان الفكر الاشتراكي اكثر مما يخافان من الرأسمالية ، لان الرأسمالية تحمل في طياتها بذور فانها اما الاشتراكية فانها تضم في بنائها دوافع تطورها في الوقت الذي تمتلك فيه صفات تجعلها اكثر ملائمة وانسانية، في تهمة ودفاعها عن الفرد والمجموع .

اما الرأسماليون فانهم يخافون من الاشتراكية لانها تقضى على الاستغلال

الذي يترجم في القاموس الرأسمالي بأنه (حرية الرأسمال) وبذلك يحاول الرأسماليون عن طريق الفكر والواقع ارباك مفاهيم الاشتراكية والخلط بينها وبين الشيوعية والدكتاتورية والتسلط والاستحواذ غير المشروع على اموال الغير عن طريق ما يسميه الرأسماليون بالتأميم في الوقت الذي يتبعون فيه وسائل اقصى بكثير من تأمين بعض المرافق ذات النفع العام اثناء التطبيق الاشتراكي لابعادها من ان تكون في حوزة فرد او نفر مما يعود بالضرر على المجموع .

ففي الولايات المتحدة تخضع الاستثمارات لضربات تصاعديّة خائفة (قصد منها إعادة توزيع الثروة في المجتمع!) في وقت تدين فيه الولايات المتحدة بنجاحاتها صناعيا وزراعيًا الى مشاريعها ذات الصبغة التسلطية الحقّة كقانون مساعدة الولايات الفقيرة عن طريق سرقة أموال الولايات الغنية او ما يسمى بروح (الحكم الفدرالي) وكذلك فرض بعض القيود على مساعدة الحكومة الأمريكية للمدارس التي لا تخلط بين السود والبيض وضمان حياة العمال عن طريق التشريعات العمالية وفوق كل هذا الفائدة التي جنتها الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية من وراء تأسيسها لما يسمى (بسلطة وادى تنسى) التي غيرت الى حد كبير مجرى نهر تنسى وبذلك روت مساحات شاسعة من الارض البور مما رفع من مستوى الانتاج الزراعي في الولايات المتحدة ولكن على حساب آلاف العوائل التي شردت واغرقت بيوتها ومحيت أراضيها لكي يتم ضمان نجاح المشروع .

الفكر والواقع الاشتراكيين في الوطن العربي :

ليس هناك من دراسة منظمة لتتبع خطوات الفكر والواقع الاشتراكيين في الوطن العربي ولكن جوانب من المحاولات الاشتراكية أحتلت أماكن مرموقة في الكتابة التاريخية وفي الكتابات ذات الصلة بالمجتمع والحياة الاقتصادية .

والواقع أن الملاحظ بالنسبة للفكر العربي هو تأكيد الاشتراكية فيه على النواحي الانسانية قبل اهتمامها بمشكلات الفرد العادية وبعبارة أوضح

فقد اعتبرت الاشتراكية السلوك الامثل للانسان بصرف النظر عن الظروف المحيطة به بل بالعكس فان الانسان العربي تبدأ قيمته الاصلية بالظهور كما كان الظرف المحيط عصيبا وشحيجا •

وبذلك لونت الاشتراكية بصفتها الواقعية نظرة الانسان العربي بالنسبة لصلته بالانسان الآخر وتعامله مع الطبيعة في سد حاجاته وما ينظر اليه من متطلبات في المستقبل • وليست هذه النظرة بالنسبة للاشتراكية في التفكير العربي التي تؤكد على أنسانية في سلوك الفرد الا حصيلة حضارات قديمة أتحد الانسان في الوطن العربي مع أخيه الانسان لمجابهة صعوبات الطبيعة فلما أستتب الامر للحضارة ولما كتنتها السياسية ممثلة في الدولة وأجهزتها الادارية تولد لدى العامة من الناس شعور بنبذ كل ما يمكن أن يؤدي الى زيادة جمع الانسان للثروة أو السلطة ثم العمل في الوقت نفسه على مد يد العون في جميع الاحوال والسير بهذه السياسة الى حد التضحية الكلية ضمانا للارتفاع فوق المستوى المادى أو النفى الضيق •

وبصفة أكثر وضوحا فان انسان الحضارات القديمة في الوطن العربي ذلك الذى أبتعد عن المال والسلطة حاول أن يتخذ من الاشتراكية سلوكا عاما يترجم ما يشعر أو يفكر به في الوقت الذى كانت كل جهود الافراد مدفوعة لما نسيمه بالتكافل الاجتماعى ومساعدة من يحتاج الى المساعدة ضمانا لحياة اجتماعية مثمرة •

وخلال فترة الجاهلية حاولت الرأسمالية أن تتسلل بقيمها المستندة على أستغلال الانسان للانسان فى سبيل جمع الثروات الضخمة فقد شرعت قوى اليهود التجارية فى توجيه الواقع نحو الكسب غير المشروع والابتزاز وما يتصل بهما من ظلم وسرقة وأغتصاب وارتباك فى فكر الانسان وسلوكه ونظرا لتفكك المجتمع العربى خلال فترة الجاهلية وغياب الروح الجماعية الاصلية فقد تمكنت قوى المال والاستغلال اليهودية من تسميم بعض العقول ودفعها نحو وضع المال والثروة قبل الانسان والمجتمع وبذلك سادت حياة تجارية فى مدن الجزيرة وبالاخص مكة التى ررخت تحت حكم فئة

اوليجاركية تضم مجموعة من متنفذى السياسة القبلية وأصحاب رؤوس الاموال للسيطرة على العلاقات الاقتصادية وجعلها تتحكم فى الصلات الاجتماعية وبالتالي تتربع على كرسى السلطة .

ونظرا للاختلاف البين بين أنسانية الاشتراكية العربية ورأسمالية القوى اليهودية والرجعية العربية فى ذلك الوقت ومحاولة القوى المادية السوداء استغلال الانسان العربى والعبث بمقدرات الامة العربية فقد جاء الاسلام الخالد كلطمة قوية للقوى الرأسمالية المستغلة يهدف فى الوقت ذاته الى إعادة النهج الاشتراكى واعتبار الانسان قاعدة للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع العربى الذى افتقر الى مثلها منذ أن أسلمت الصدفة قياده الى فئات غريبة جعلت حافزها العمل على أستغلال العرب وثرواتهم باسم حرية رأسمال فى المجتمع .

نستنتج من ذلك أن الاشتراكية بمعناها المؤكد على تكافؤ الفرص وفتح مجالات العمل للجميع دون فارق معتمد على عائلة أو مركز اجتماعى أو قرب وبعد عن السلطة ذات المال والنفوذ ، كانت هى القوى الدافعة وراء سلوك الانسان العربى سواء أكان ذلك فى الحضارات القديمة أو بعد نجاح الدعوة الاسلامية ما خلا الفترة التى حاولت فيها الرأسمالية ممثلة فى اليهود والطبقة التجارية المستغلة التى كانت متمركزة فى مكة أن تتسلل الى الفكر والواقع العربيين .

وقد أكد الاسلام العظيم على أن أنسانية الانسان ليس مجالها الفرد نفسه وذلك عن طريق التقشف والزهد والتصوف والاقطاع عن المجتمع حيث يسهل اتخاذ مقاييس تستطيع فيها نفس الانسان ان تسمو فوق المطالب المادية والذاتية ، وأما جعل الاسلام من صلات الفرد بالمجتمع ومن سلوك كل الاطراف ذات العلاقة بالحياة وجوانبها الاخلاقية والفكرية محكاً لمبلغ الانسان فى الانسان مما يؤكد دون شك على ان الاسلام لم يقف عند حد الاشتراكية ذات الطابع الفردى كما كان الحال بالنسبة لاشتراكية الحضارات القديمة وانما حاول ان ينقل الاشتراكية الى مجال العلاقة بين

الفرد والمجموع وباختصار فقد حث الاسلام على إقامة مجتمع اشتراكى يستدل فيه رأس المال وتكافؤاً فيه الفرص لا لتعود بالنفع على فرد أو فئة وإنما ليعم العدل الجميع ولينتقل التنافس من المضاربة والتضاد الى محاولات يقصد منها الارتفاع بفوائد الجهد الانسانى بحيث تحقق أكبر نصيب من النجاح فى الوقت الذى يخضع هذا النجاح فيه لمقاييس خلقية ذات طابع دينى يترجم قيم الدين الاسلامى فى واقع الحياة العملية .

ولكن فترة الرأسمالية القصيرة التى وجدت طريقا الى حياة العرب الاجتماعية والاقتصادية فى العصر الجاهلى تركت مفاهيمها لتعيش فى جوانب الضياع والأهمال الى جانب الاشتراكية المتبعة فى الحياة بشكل التزامات اجتماعية خيرة وفى مجالات العلاقات المالية كضوابط خلقية وانسانية . وبذلك عانت فترة الحضارة العربية الاسلامية من التصادم بين أتهازية الرأسمالية واصالة الاشتراكية فى الوقت الذى ارتفعت فيه الصيحات للحد من الثروة والاثراء فى المجتمع وتكرار عمق ووخامة العاقبة التى سينتهى اليها من يكتنزون حطام الدنيا جاعلين من المال وسيلة للارتفاع بحياتهم ومركزهم فوق منزلة أترابهم فى الوقت الذى يتمتع فيه هؤلاء بقابليات خلاقة اذا تم منح الفرص لها وتكافؤها فانها ستصل الى غايات تتناسب وتلك القابليات .

ولما استيقظت الامة العربية فى مطلع نهضتها الحاضرة وجدت نفسها فى مؤخرة الركب الحضارى فى العالم ووجدت أمامها طريقا طويلا لتسلكه فى سبيل مستقبل أفضل .

وفى هذا المفترق بالذات كان العرب يواجهون صعوبتين رئيسيتين الاولى كانت الاستقلال على صعيد الوطن العربى بكامله والثانية محاربة التخلف لدفع الامة العربية فى طريق التطور الحضارى المنشود . ولما لم تكن للعرب فى مطلع محاولاتهم الحضارية الحاضرة القوة القادرة على العمل فى سبيل هدف مزدوج وقفز الاستعمار الاوربى يزيد المشكلة تعقيدا فقد

أنتقلت معركة المصير في الوطن العربي الى معارك ذات صبغة وطنية أو محلية أو اقليمية ضيقة لم تسلم على حدودها المصطنعة • أما في مجال التخلف فان الصعوبة بدت وكأنها تتم في وقت ضيق وبجهد قليل فالوطن العربي يتميز بثروات طبيعية هائلة وتربة خصبة وليس اسهل من استغلال تلك الثروات والاستفادة من خصوبة الارض لكي يعم الرخاء وعلى الاخص في الاقطار العربية التي يقل فيها عدد السكان بينما تتوفر العديد من فرص النجاح والحياة الراقية كالعراق وارض الشام وبلاد المغرب العربي • ولكن الواقع أثبت عكس هذه الرغبة المتفائلة التي بنيت على غباء أو مغالاة من أشاعوا السهولة والسير والبساطة في استغلال الارض واستخراج الموارد الطبيعية دون أن يحسبوا الأثر النفسى لهذه الدعوات التي اقل ما توصف به انها أدت الى التردد والركود والتوقع وهى أمراض مازال المجتمع العربي يشكو منها حتى هذا اليوم • فالتردد يظهر فيما يشرع فيه من اعمال والركود يسود مجال الرغبة فى الانتاج والاستثمار اما التوقع فانه الزيادة فى التفاؤل استنادا الى طاقة الارض الانتاجية وما يمكن ان تدره بعض الموارد الطبيعية فاذا لم تتفق نظرات التفاؤل هذه مع واقع الانتاج وبدا البون بينهما شاسعا فالضجر او سبل التفكير المتئوية لا تلبث ان تظهر لكي تزيد الصورة قتامة وتهز اخر ما بقى للانسان العربي من ثقة فى مستقبله •

وبكل تأكيد فان البلدان النامية عموما واقطار الوطن العربي بشكل خاص كان عليها ان تحارب فى جبهتين الاولى خارجية ضد الاستعمار والسيطرة الاجنبية والثانية داخلية ضد التخلف والركود والوصول الى المستوى الاقتصادى للبلدان المتكاملة النمو • ومن الملاحظ ان طول فترة كفاح البلدان النامية فى سبيل نيل استقلالها الذاتى وتحررها امتص العديد من رجالها وقابلياتها التي كانت ستستعملها فى فترة البناء الحاضرة ، بالاضافة الى أن الاستقلال السياسى لا يصبح ذا قيمة اذا لم يواكبه استقلال اقتصادى وتطوير شامل للحياة الاجتماعية والفكرية لكي تسير

المجتمعات النامية بخطوط متوازية تصب كلها في بحيرة التطور العظيم في المستقبل • ولما لم تمتلك المجتمعات النامية الخبرة الكافية في تدبير جوانب حياتها الاقتصادية فقد تركت هذه المجالات الحيوية تحت رحمة الصدفة أو الحاجة الا أن صفحات جديدة في حياة العديد من المجتمعات النامية قد فتحت مما ترتب عليه اتخاذ إجراءات تكفل اشباع الحاجات الاجتماعية المتزايدة والوفاء بالالتزامات المترتبة على الدول النامية في الحقلين الداخلى والدولى مما فتح ابواب معركة التحرر الاقتصادى على مصراعيه وهنا برزت صعوبات جديدة في وجه العديد من الاقطار النامية فى العالم ازدادت تعقدا عندما بدأ تفاوت كبير بين واقع ما تستطيع الطاقات الانتاجية تقديمه وبين ما يتوقع ان تقدمه مما أدى الى اصابة الاجهزة السياسية والاقتصادية فى كثير من مجتمعات الدول النامية بخيبة أمل كبيرة دفعها الى التماس طريق يوفر لها الزيادة المطلوبة فى الانتاج ويواجه فى الوقت ذاته ما قد يظهر من حاجات أو تغيير فى السلوك الاقتصادى قد يعصف بالتوازن السياسى أو الفكرى ويعرض المجتمع للكسبات أو المصاعب •

ومن وجهة النظر الموضوعية ذات الانعكاس الواقعى يمكن تحديد أبعاد المشكلة الحضارية الراهنة التى تمر بها معظم البلدان النامية حديثا وأقطار الوطن العربى بالتعرف على منحنيات الخطوط العامة للتقدم الحضارى فى القرن العشرين الامر الذى سينتهى بنا حتما الى مواجهة ظاهرة التفاوت فى الحركة الحضارية لكل من البلدان المتكاملة التطور وتلك التى ما زالت تسعى لبناء الظروف التى تجعل منها أكثر قبولا فى المحيط الحضارى العالمى الراهن •

ولكن التفاوت الحضارى الكبير الذى يهدد أمن العالم فى الوقت الحاضر لا يمس مجرد اختلاف بين مجاميع من دول المعمورة تباعدت بينها مجالات العمل الحضارى فى سبيل الافضل والمستقبل وأنا يترجم لنا المعضلة الحقيقية لعصرنا الراهن والتمثلة بوجود نماذج حضارية فرضت عن طريق الاستعمار او تكوين عرف حضارى يخضع لما تمليه عقدة.

التعالى لدى الدول المتكاملة النمو في الوقت الذي تشعر فيه الدول النامية بانها ضحية مؤامرة حضارية قصد منها ضرب القيم الحضارية التقليدية لهذه الحضارات عن طريق جرّها الى معارك لا تمتلك فيها الدول النامية حديثاً ما يؤمن لها الكسب أو على الأقل الخروج بشرف التعادل . لذا فإن أكثر المجتمعات النامية تتمسك بما ورثته لكي يتسنى لها حفظ ذاتها على الأقل بعد أن يئست من تكوين مركز حضارى لها .

فالمعضلة الحضارية في عصرنا الحاضر لا تكمن تعقيداتها في التناقض الحضارى الراهن بين بلدان العالم اليوم لان التباين في مسيرة المجتمعات الحضارية من بديهيات التاريخ نظرا للاختلافات الظاهرة بين الاقطار نفسها وما يترتب على ذلك من تفاوت في الاستعدادات والمطاوعة الحضارية بشكل يقرب مما هو واضح لدى الافراد من فروق ولكن جذور التعقيد في القرن الحالى تنطلق من الحاجة الى خط بداية حضارى يتم الاتفاق عليه دوليا وهو امر يصعب تحقيقه في الوقت الحاضر نظرا للانقسامات الايديولوجية الحادة في الفكر العالمى من جهة وفقدان الثقة بين البلدان المتكاملة النمو وتلك التى ما زالت تتحسس طريقها للنمو من جهة ثانية . وعند هذا المشرق الحضارى المشحون بالخوف والتردد والتشاؤم تظل الاشتراكية كحل موفق للتخفيف من تناقضات العالم الحضارية هادفة فى الوقت ذاته الى تقليل الصراع بين المجتمعات المتفاوتة النمو عن طريق إعادة توزيع ثروات العالم بعد تأمين فرص العمل والنجاح لكتل من البشر أضناها الخوف والترقب .

فالاشتراكية بهذا المعنى وعلى صعيد انساني تعيد الكرامة للانسان في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية مؤكدة بان استغلال الانسان لآخيه الانسان لايجر على العالم الا الخراب والدمار لان الاستغلال والاعتصاب شأنه شأن اية نزعة لا أنسانية تبدأقوية بفعل نزعة الشر فيها الا انها لا تلبث أن تفقد قوتها مخلفة فيمن تعرضوا لهذه التجربة القاسية احقادا تعيش

للاتنقام وبذلك سيتعرض العالم وحضارته لهزات عنيفة هي في حقيقتها معارك جانبية لا تعود على المعرفة الانسانية الا يكسب مادي واقعه الفكرى ضئيل أو مشوه .

وعلى صعيد الوطن العربى بوجه خاص والاقطار النامية بوجه أعم فان الاشتراكية هي الرد الامثل لما تقاسيه هذه المجتمعات في فترة تمتد فيها جهودها نحو المستقبل الافضل لانها لا تؤمن بالظفرة مما قد يربك التراكيب التقليدية للبلدان النامية فى الوقت الذى تفتح الطريق واضحا للعمل فى سبيل غد حضارى يتجاوب وطموح الاقطار الحديثة النمو .

وبالنسبة للامة العربية فان بحث الدور الذى يمكن للاشتراكية ان تلعبه فى مجتمعها يقودنا للتعرف على صعوبات ثلاث : الاولى زيادة الانتاج الزراعى والثانية التوسع بالتنمية الصناعية اما الثالثة فانها تتعلق بالتوعية الاجتماعية وخلق وجدانية اشتراكية .

فزيادة الانتاج الزراعى صعوبة تتميز بصفقتها الشاملة لاكثر مجتمعات العالم الحديث الكامل نموه منها وذلك الذى لم يزل يسعى لتحقيق هذا الهدف وليس هناك تقسيم أصدق على عالم اليوم من تسمية بعض الاقطار بالفقيرة والبعض الاخر بالغنية وترك قسم من بلدان العالم يتراوح فى فقره او غناه بين هذه المحاور المتطرفة .

والواقع أن الزراعة مشكلة واجهت الانسان منذ ان عرف الحياة الزراعية فقد ورد ذكر الزراعة فى سفر التكوين فى العهد القديم الذى أشار الى الرعى والزراعة ممثلين فى هاييل واخيه قاين اللذين اختلفا فيما بينهما مما دفع قاين المزارع الى قتل أخيه هاييل الراعى . وتبين هذه القصة الصراع بين البداوة والحضارة لان من المنفق عليه بالنسبة للدوار التى مر بها الاجتماع الانسانى ان دور الرعى يسبق دور الزراعة لذا فقد أستطاعت الزراعة أن تجدها مكانا فى الاجتماع الانسانى أفضل من ذلك المكان الذى احتله الرعاة .

ولكن قصة العهد القديم لا تقف عند حد تبيان الاختلاف بين الفلاحين والرعاة وانما تجرم قايين مثلاً للمزارعين بانه واتباعه سينتقم منهم (سبعة أضعاف ثم جعلت لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده فخرج قايين من لدن الرب وسكن في ارض (نود) شرقى عدن ، ثم يسترسل العهد القديم فيقول عن قايين انه بنى مدينة ودعاها كاسم ابنه (سفر التكوين الاصحاح الرابع ١٥ : ١٦ : ١٧ : ١٨) .

يتبين لنا مما اورده العهد القديم ان الزراعة لم تأت بشكل سهل كما هو الحال بالنسبة للرعى فقد ولدت بعد آلاف مخاض قاسية تمثلت في قتل الاخ أخيه وهى أمور تصدق على دنيا الزراعة فى القرن العشرين وفى اكثر المجتمعات تقدما ثم ان قايين على الرغم من ارتكابه جريمة لم يؤخذ منه الحق بقتله وانما ترك لكى يتعذب وبذلك يصبح الانتقام منه سبعة أضعاف الفعل الذى ارتكبه مصورا ما يلاقيه المشتغلون بالارض من تعب وكد وعناء ولعل إحدى الاضعاف السبعة التى يقتل فيها المزارع ممثلاً بقايين هو بناء الحياة المدنية وفى ذلك تعاسة تنبع من حقيقة واقعه هي ان هذه الحياة لا بد وأن تجمع بين المزارعين وبين من يستغلونهم مما يفسح المجال واسعا لكى يؤدى الفلاحون الغرم الذى ترتب عليهم نتيجة تلك الهفوة المرتكبة من قبل قايين تجاه اخيه هايل .

ومن وجهة النظر التاريخية فان الزراعة أستطاعت ان تفسح المجال واسعا امام قيام حياة مدنية مجتمعتها يتخذ من الشكل الهرمى طريقة لبنائها فقد تميزت المجتمعات فى الحضارات القديمة وعلى الاخص تلك التى نشأت فى منطقة الشرق باكملة بانها قامت على اكتاف الفلاحين ولكنهم وان عملوا على تقديم ثمار جهودهم وواصلوا كدهم فى سبيل أستثمار الارض والحصول على خيراتها فانهم بقوا فى اسفل السلم الاجتماعى فى الوقت الذى ارتفع فيه آخرون فوق ظهورهم حتى استطاعوا ان ينتصبوا فوق قمة الهرم ويمسكوا بالسلطة والمال .

وطبيعى ان الزراعة اختلفت فى الشرق عنها فى الغرب ولكن اوربا

وهي العينة الممثلة للعالم الغربي لم تسلم من تأثير الزراعة في حياتها الاجتماعية والسياسية فقد رزحت القارة الاوربية خلال القرون الوسطى تحت سيطرة الاقطاعيين وهم الملاك من اصحاب الاراضى الشاسعة الذين جمعوا بين ملكية الارض والمركز الاجتماعى والسياسى المتميز وبذلك لعب الاقطاعيون دورا كبيرا فى حياة الاوربيين سواء اكان ذلك على صعيد المجتمع ممثلا فى السيطرة التى يفرضها السيد الاقطاعى على تابعه او امتلاكه لهذا التابع وعلى الصعيد السياسى منعكسا فى السلطة التى يمارسها الاقطاعى ضمن نفوذ الارض العائدة اليه وبذلك عانت اوربا الكثير من ضروب الظلم والتعسف وعلى الاخص عندما بدأ الاقطاعى يفقد سيطرته واحتاج الى ما يؤكد صلة تابعة به فاستخدم اشع صور القوة والتحكم والاعتصاب .

ثم برزت على مسرح الحياة فى اوربا دول وممالك قوية استطاعت ان تبدل مبدأ الحماية الذى كان موصولا بين التابع والقطاعى بمبدأ المواطنة وبذلك اصبح الفلاح ذأ حرية محدودة فى الارض التى يزرعها ولم يترتب على عمله هذا سوى ما يدفعه الى السلطة فى وطنه نظير الحماية أو تقديم الخدمات العامة التى اختلفت بين العناية بالفلاح وبحقله وبين تسويق الحاصل ودفع الانتاج الزراعى عن طريق المساعدة او الحماية او تأمين الاسواق على الصعيدين المحلى والخارجى .

وجاءت الثورة الصناعية فى اوربا فاخذ الفكر الاوربى يتجه صوب الصناعة نظرا لانها اكثر مطاوعة لآمال ومطامح الطبقة الوسطى الاوربية بالاضافة الى سهولة التحكم فى ظروف الصناعة عن طريق السيطرة على وسائل الانتاج وتحسين ادواته وتهيئة الظروف الملائمة لانجاح العملية الانتاجية عن طريق تقليل النفقات وزيادة الارباح .

وقد ادى انتقال مركز الثقل فى المجتمعات الاوربية من الزراعة الى الصناعة وعلى الاخص فيما يتصل بالحياة والانتاج ان تغير مفهوم الزراعة لدى الكثير من الاوربيين مما فصح المجال لما يسمى بالزراعة الصناعية التى اكدت على انتاج السلع ذات الكسب النقدى السريع المرتبط بعملية الانتاج والتوزيع ثم اخذ المصنع فى أوربا يسيطر على الحقل سيطرة تامة

ويسعى الى تقليل الجهد الانساني فبرزت بوضوح ونجاح محاولات
(مكنة الزراعة) وشرع باستعمال الآلات الزراعية على نطاق واسع في
كل مراحل عملية الانتاج الزراعى وبدأت محاولة صعبة لتحويل الفلاح
الاوربى الذى ارتبط لسنين عدة بالارض بادواته البسيطة واتجاهها
الاستهلاكى المحدود الى مزارع يستطيع ان يتحكم بالحقل ويستغل فى
الوقت ذاته أحدث ما توصلت اليه المكاسب التكنولوجية الهادفة الى
تحسين العملية الانتاجية فى الحقل • وبعبارة اكثر وضوحا فقد اعتبر
الحقل معملا يزاول فيه الانتاج بنفس الخطوط التى يتم وفقها العمل فى
المصنع مع محاولات جديدة للتحكم فى العملية الانتاجية والاستفادة من الطبيعة
فى زيادة المحاصيل المنتجة وتنويعها بحيث تتفق وما يتطلبه الانتاج من
جودة وتنوع وسرعة بصرف النظر عن الارض والظروف المناخية المحيطة بها •
ونستطيع أن نتبين التقدم الهائل لما حدث فى الانتاج الزراعى اذا
تعرفنا على الحقول الزراعية فى اواسط وغرب الولايات المتحدة الامريكية
فعلى الرغم من التخلف الفكرى والثقافى للمزارعين فى وسط وغرب
الولايات الامريكية المتحدة فان وفرة الانتاج والتحكم فى نوع المحاصيل
وزراعة ما يمكن نقله وتسويقه ، تعكس بعض المفاهيم الجديدة للتطور
الذى حدث فى بناء شخصية المزارع الجديد فى العالم الغربى وثبتت البون
الشاسع بين المزارعين الامريكىين فى الوقت الحاضر وبين اسلافهم عبيد
الارض والاقنان ممن عاشوا فى اوربا خلال فترة القرون الوسطى ، وحتى
اولئك النفر من المهاجرين الامريكىين الذين وفدوا الى ما يسمى فى ذلك
الوقت بالدنيا الجديدة •

ويعود الفضل فيما حدث من تغير سريع وهائل فى اساليب وأدوات
الزراعة الاوربية الى اقتراب الشقة بين الزراعة والصناعة واستخدام
وسائل الصناعة وأدواتها فى تطوير العملية الانتاجية والتخلص من سيطرة
الارض بظروفها القاسية على الانسان وتحويل الفلاح من مزارع يخضع لما
يمليه عليه طبيعته القاسية الى مستثمر مزود بالمعرفة الفنية والادوات التى

تجعل منه سيدا للارض متحكما فيما يريد ان تنتج وبالقدر الذى يراه
مناسبا وحاجة السوق •

ومن وجهة النظر الاكثر موضوعية فان الزراعة فى العالم الاوروبى
واميركا قد مرت خلال فترات طويلة من الصعوبات والمشاكل التى انعكست
على المجتمع عندما كان يستند استنادا كليا فى حياته وحضارته على ما
يسمى بالزراعة البدائية ثم بدأت الصورة تتغير ولكنها بقيت تحتفظ
باطاراتها التقليدية • فالفلاح الاوروبى وان تخلص من سيطرة الاقطاعى
واصبح يعمل بالارض بحرية يحسده عليها اسلافه الا انه بقى خاضعا لما
يسمى بـ (العقلية الزراعية) ولم تحدث الانطلاقة الكبيرة فى عالم الانتاج
الزراعى الا بعد ان فصل بين الزراعة كحرفة وبينها كحياة ثم اتجه المصنع
نحو الحقل وهنا بدأت صفحة جديدة فى عملية الانتاج الزراعى وأستطاعت
الآلة دخول كل مرحلة من مراحل العمل الزراعى وبدأت الحياة فى الحقل
تميل نحو الدقة والسيطرة التامة على كل جوانب العملية الانتاجية فى
الزراعة • وكلما أزداد التحكم فى الارض وأنتاج الحاصل كلما أمكن
تقدير ما تنتجه الارض فعلا وبذلك دخلت فكرة (الكمية) فى عالم الانتاج
الزراعى وشرع بطرح المخاوف والصعوبات وما يتبع ذلك من تردد فى
معرفة ما سيحصل عليه قطاع الزراعة من انتاج خلال المواسم
الخاصة به •

أما المصاعب التى تتعرض لها عملية الانتاج الزراعى فى العالم الاوروبى
بوجه عام وفى اميركا بوجه خاص فانها تكمن فى الموازنة بين الصناعة
والزراعة من جهة وفى السيطرة على مستويات الانتاج الزراعى من جهة
أخرى نظرا لان الآلة قد أستخدمت على صعيد واسع لكى تؤمن أستغلالا
كليا للارض مما دفع بعض الحكومات فى اوربا والحكومة الامريكية بالذات
الى تنظيم أنتاج المحاصيل الزراعية عن طريق الحد منها بمساعدة المزارعين
لكى يخفضوا من مساحات الارض المزروعة وبذلك تتم المحافظة على حركة
متموازنة للعرض والطلب تساعد فى رسم سياسة خاصة بالاسعار تعود على

الدول ذات العلاقة بالكسب والفائدة •

أما فى الوطن العربى وفى الارض التى ما زالت تحتفظ بآثار الخلاف بين هاييل وأخيه قاين فان اللعنة التى أنصبت على رأس قاين انجرت على أبنائه من بعده لان منطقة الوطن العربى تكثر فيها فرص النجاح الخاصة بالانتاج الزراعى ولكن الزراعة وأدواتها ما زالت تعيش بنفس المستوى الذى عاشت به على أيام الاخوين هاييل وقاين •

فالارض فى الوطن العربى تمثل النعيم والجريمة والعقاب فى آن واحد فهى مصدر الحياة والحضارة منذ بزغت شمس الحياة الاولى على الارض العربية ثم حدث الصراع بين البداوة والحضارة فاقتتل البدو مع من أستوطن منهم وبذلك حدثت الجريمة الاولى كما يصورها العهد القديم فى ارض الوطن العربى وكانت بسبب الارض وملكيته واحاصلاتها ثم بدأت فترة العقاب متمثلة فى مجاميع ضخمة من الفلاحين حملت كتلا ضخمة من الطين سارت بها فى طريق فرش بالشوك والمأساة عبر قرون طويلة من الزمن •

فقد عاش الفلاحون فى اكثر ارجاء الوطن العربى قديما وفى فترات طويلة من حياتهم تحت ويلات الظلم والارهاب والاستغلال لم يتخلصوا منها الا فى الفترة التى سادت فيها تعاليم الديانة الاسلامية ثم اظلم وجه التاريخ فى منطقة الوطن العربى وبدأ الفلاحون فى هذا الجزء من المعمورة يعيشون كما كان اسلافهم فى القرون السحيقة من تاريخ الامة العربية •

ومن وجهة النظر الموضوعية فان مشكلة الارض فى الوطن العربى تمثل مأساة العرب لان هذه الارض كانت وما تزال محورا للرزق والحياة فى الوطن العربى وقد افقرت فى فترات مختلفة وبدلا من أن تستغل بطريقة تؤمن أستمرار قابليتها على الانتاج لجأ المستعمرون خلال حقب طوال الى عصر خيرات هذه الارض وتركها رملية جرداء لا تحمل من أسباب الحياة الا تاريخا ضاع اكثره فى زوايا النسيان ومياها غارت فى باطن الارض تدعو من يعمل على استخراجها واحياء ما مات من ارض العرب عن طريق تأمين سقيها وبزلها والعناية بها •

وليس بجديد ان الارض العربية تقع في المنطقة المدارية الشمالية وتمتاز
بقلة امطارها مما ادى الى انتشار الجفاف وازدياد الصحراوات واهتمام
الانسان العربي بشكل كلي على تلك الاشرطة الخصبة التي تقع قرب الانهار
او في المناطق التي يؤمن فيها سقوط الامطار .

ولاعادة رسم المأساة الزراعية في الوطن العربي علينا ان نحدد خطوط
هذه المأساة ونبين واقعها بالنسبة للمجتمع العربي المعاصر واول هذه الخطوط
هو الخلط بين الزراعة كحرفة وبينها كحياة فما زال الرأي السائد في معظم
اقطار الوطن العربي هو ان الارض تعتبر المصدر الرئيسي للاتاج والفكر
والبناء الحضارى وبذلك ينشأ ارباك شديد لما يفهمه الفكر الأوربي عن
الزراعة وما يدركه ابنا الوطن العربي عن الصلة التي تربط الانسان بالارض .
فالفرد العربي ينظر الى الارض كمحور لحياته حيث يستغلها في كسب
حاصلاته متخذاً منها سكناً له ومقبرة لموتاه وبذلك تحتل الارض وما يتصل
بها من زراعة ومحاصيل مكانة قد تكون قدسية في ذهن الفرد العربي بينما
يعتبر الفرد الاوربي الارض مجرد واسطة للاتاج الزراعي بشكل خاص .
ونشأ عن هذا الاختلاف بالنسبة لنظرة الفرد في كل من المجتمعين الاوربي
والعربي ان اصبحت الارض في الفكر والواقع الاوربيين مجرد واسطة
للاتاج وبذلك تفتحت السبل امام عمليات الاتاج الزراعي واستخدمت
نتائج التكنولوجيا الحديثة في تطوير وتسهيل وزيادة الخدمات في كافة خطوات
العملية الاتاجية الزراعية .

اما في المجتمع العربي فان الارض كانت وما زالت مصدراً للحياة بجوانبها
المختلفة من اقتصادية وسياسية واجتماعية فمن وجهة النظر الاقتصادية اعتبرت
الارض مصدر الكسب الحلال وبذلك نشأت التقاليد التي تجعل من الزراعة
مصدراً للبركة والفائدة وما يتصل بها من نظرات تختص بالقضاء والقدر
والقناعة والرضا والصبر والتباطوء والخوف والتردد تجمعت كلها في سلسلة
من العقد احيطت بها الذات العربية فانقلب العمل في الارض من مجرد حرفة
الى حياة للنكد والشقاء وتسليم مطلق لما يضره الغيب واعتياد على المكاره

وتردد او خوف عند العمل في سبيل افضل كراهة ان يؤدي الطموح الى ضده.
فنبغ الى طمع يحسد عليه الانسان وبذلك يتبخر الخير عنه وعن أسرته
ان لم يتبخر عن سلالته ايضا .

وترتبط بالعامل الاقتصادي جوانب اخرى منها استعمال الادوات القديمة
واساليب الزراعة البدائية وتردى وسائل الخزن والنقل وما اليها من
مستلزمات الزراعة الحديثة .

اما الجانب السياسي فانه ينعكس على فكرة الملكية في المجتمع العربي
فقد اصبحت الارض وسعتها وغلتها مجالا للمفاضلة بين انسان وآخر ثم
تطورت هذه الملكية في نطاق أسر لم تتأخر في تحويل ملكيتها للارض الى سلطة
سياسية ساعدتها كي تمارس ضروبا من القوة لم تلبث ان ظهرت فيما مارسه
افرادها من ذوى الاقطاعيات كتلك التي وجدت في مصر والعراق وسوريا .
ونظرا لما للارض من اهمية اقتصادية ساندتها سلطة سياسية فقد تكونت
نتيجة لهاتين الدعامين مكانة اجتماعية تمثلت في مركز الاسر ذات الاراضي
والاطيان التي مارست ثقلا اجتماعيا من خصائصه التأثير على حركة الافراد
ضمن منظومة المجتمع واستغلال المقاييس الاجتماعية التي وجدت بفعل ملكية
الاراضي في سبيل تسخير من يفتقر الى الملكية واستغلالهم لكي ينتفع نفر من
افراد الاسر وبذا يتركز نفوذهم التقليدي .

وقد اقلبت سبل التأثير الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي مارستها
الاسر ذات النفوذ المعتمد على ملكية الاراضي ، الى عقبة قللت من الانتاج
الزراعي وجعلت من العمل في الارض لعنة لا يصيب من ورائها الفلاحون الا
النكد والاعياء والفقر . فاذا اضفنا الى التعقيدات السياسية والاقتصادية
والاجتماعية ما نسميه بالبطالة الموسمية وتعطل الكثير من الايدي العاملة
واقْتِصَار عملها على موسمي الزرع والحصاد مع تقص في خصوبة الارض
وصعوبة في النقل وما يعترى الانتاج الزراعي من آفات وصعوبات في الري
والبزل وما يعاينه الفلاح في الوطن العربي من ضيق في وجهة نظره تجاه المجتمع
والمستقبل وضعف في قواه الجسمية نتيجة للأمراض المتوطنة كالملازما

والبهارزية والانكستوما وامراض العين مع كثرة في عدد الاطفال وضعف الام
وجهلها وانعدام ابسط وسائل الصحة والراحة في بيوت الفلاحين ادركنا
مبلغ التشويه في الصورة التي ترسم للارض ودورها الانتاجى في الوطن
العربى •

وقد ادت هذه العوامل مجتمعة الى النظر الى الفلاح والزراعة في الوطن
العربى نظرة وضيفة من الناحيتين الاجتماعية والسياسية، فما ان فتحت الطرق
التي تصل الريف بالمدينة وشرع باستخدام وسائل النقل الحديثة حتى بدأت
جموع الفلاحين تهجر الارض التي عاشت فوقها قرونا عدة لكي تحث خطاه
صوب المدينة وبانت على صعيد التغيير الاجتماعى معضلة الهجرة من الريف
الى المدينة ولكن هذه الظاهرة اهملت في اول امرها نظرا لانخفاض
مستوى العلم والفهم الاجتماعيين في الوطن العربى من جهة وخوفا من ان
تستغل آثار هذه المعضلات في سبيل كسب سياسى او اطلاق (للمهدوء
السياسى) من جهة اخرى •

والواقع ان طوفان الهجرة الى المدينة قد اهمل في الاقطار العربية كلها
بدواع اختلفت من بلد الى اخر ففي لبنان وسوريا ترك امر التفكير فيها
نظرا للاقسامات الحادة التي قد تنفجر بين آونة واخرى أما في مصر فان
الهجرة كانت بطيئة بسبب من قوة الاقطاع اولا والفارق الكبير بين الريف
والمدينة ثانيا مما جعل من الريفيين او سكان المحافظات في الصعيد والصحراء
العربية مادة بشرية لا تصلح اطلاقا للحياة في المدينة فهم وان زاروا القاهرة
والاسكندرية فانهم لا يلبثوا ان يعودوا ثانية قبل ان يصبحوا ضحية النكتة
او الاستغلال الامر الذي ولد في نفوس الكثير من ابناء الريف في مصر وعلى
الاخص قبل قيام ثورة ٢٣ تموز سنة ١٩٥٢م شعورا بالخوف والحذر
والتردد ينتابهم هذا التعقيد النفسى عندما يطرأ على بالهم مجرد فكرة
السفر ثم تأتى مسألة بقائهم في المدينة والمكان الذي ينزلون فيه وهى صعوبات
مالبثت ان تحولت الى خط اجتماعى عميق فصل ريف مصر عن مدنها مخلقا
العديد من العقبات في اقامة مجتمع جديد في القطر المصرى • فقد تعاون

الاقطاع وسلطات الاحتلال الاجنبية من انكليزية وفرنسية وتركية في ايجاد
نوعين من اولمطين تفاوتت درجات مواظنتهم على الرغم من انهم ابناء بلد
واحد .

ولم يكن العراق باقل نصيبا من صعوبات الهجرة من الريف الى
المدينة بل بالعكس فقد قاسى هذا القطر من مشاكل الهجرة الا ان تكوينه
السكاني اضفى على ترك اهل الريف لاراضيهم طابعا خاصا تأثر بانقسام
مواطني العراق الى اهل المدن وسكنة الريف وهم قبائل مستوطنة واخرى
ما زالت لا تميل الى الاستيطان نظرا لغلبة حياة الرعي عليها فهي متصلة
بالبادية اكثر من ارتباطها بالحياة الحضرية .

وطبيعي ان صعوبات الاستيطان القديمة للعشائر العراقية لها صلات
قوية بالنسبة لما حدث من هجره من الريف الى المدينة كما ان دراسة هذه
الصعوبات له صلة واضحة بمحاولات فهم الطوفان البشري الذي يمس شطر
المدن العراقية حتى اصبحت بغداد تضم اكثر من مليون وربع المليون نسمة
حسب اخر احصاء في العراق سنة ١٩٦٥م وهو رقم يقف عقبة في وجه اي
تخطيط اقتصادي او اجتماعي لان العاصمة العراقية تضم بهذا المعنى اكثر
من ربع سكان القطر العراقي البالغين ثمانية ملايين نسمة في الوقت الذي
تتضاءل مدن العراق الاخرى في النفوس بينما تفتقر فيها الامكانيات الى
الايدي العاملة الامر الذي سيجعل من بغداد عبئا على المدن العراقية الباقية
وسيزداد هذا العبء اذا اتسعت الزيادة بالسكان على ما هي عليه في الوقت
الحاضر .

ومن وجهة النظر الاجتماعية بالنسبة للعراق فان التحول السريع الذي
حدث من القبيلة الى الريف ومن الريف الى المدينة لم يكن ليتم في فترات
ذات طول كاف تستطيع ان تتجنب بحركاتها المتتابعة ما قد ينشأ من تعقيدات
او صعوبات تحول بين هذه التغييرات العميقة في الحياة والمجتمع وبين
انتقال سريع في اغلب مناطق العراق من القبيلة الى المدينة رأسا دون ان
يمر بفترة الريف مما سبب تناقضا خطيرا بين القيم التقليدية لسكان الاحياء

الجديدة في المدن العراقية وبين متطلبات حياة المدن .
ومن أدل الامثلة على ذلك الميزات الاجتماعية التي يتصف بها سكان
الكبر حى في مدينة بغداد يطلق عليه اسم (مدينة الثورة) وهى محاولة
جرت لاعادة اسكان العديد من اهل الريف في منطقة واسعة بلغ تعداد
نفوسها مؤخرا اكثر من ثلاثة ارباع مليون نسمة يلتزم معظمهم بتقاليدهم
العشائرية المتوارثة في الوقت الذي يتعاملون فيه وفق المستويات والقوانين
المدنية ممثلة في حرفهم ذات الاتجاهات المدنية الصرفة ودوائر قضائهم
ومدارسهم التى تعمل جاهدة على تبديل المكونات العشائرية لسكان مدينة
الثورة وجعلها تنسجم وخطوط المجتمع والحياة في عاصمة العراق
بغداد .

أما في الاردن فان مشكلة الهجرة لا تكون ظاهرة اجتماعية صعبة الحل
فان نفوس القطر القليلة وفقر المدن وخلو الكثير منها الى ما يجعل المقارنة بين
الريف والمدينة معدومة افقد الهجرة دوافعها الاصلية المتمثلة في التفاوت
الثقافى والاجتماعى والاقتصادى بل على النقيض من هذا فان نقل البدو
من طورهم الاجتماعى التقليدى الى حياة تخضع لتقييدات مدنية جرى بتشجيع من
السلطات السياسية والادارية الاردنية ويرجع هذا الى الرغبة في تكوين
قوات مسلحة اردنية اعتمدت كليا على القبائل البدوية فاذا انتهت فترة
الخدمة في الجيش فان اولئك الذين تعودوا الحياة الرتيبة وانفصلوا لفترة
لبست بالقصيرة عن صلاتهم القبلية لا يريدون الرجوع ثانية الى حياتهم
البدوية مما جعل منهم لبنات اجتماعية يصلح ان تتحمل مسؤولياتها في مجتمع
حضرى .

بقيت مناطق عربية اخرى مثل السعودية والخليج العربى واماراته وشمال
افريقية العربى وبالنسبة للسعودية فان الحياة فيها بصرف النظر عن كونها
بدوية او حضرية ما زالت تتبع قوالب اجتماعية وفكرية تكاد تكون متقاربة لان
الافراد لا يهاجرون الى المدن بشكل فردى كما هو الحال لدى بعض الاقطار
العربية كالعراق والاردن وبلاد الشام وانما يحتفظ المستوطنون البدو

بتشكيلاتهم وتقاليدهم العشائرية على الرغم من انهم يعيشون في المدن
السعودية المزدهمة السكان نسبيا مثل جدة ومكة والطائف والدمام لذا فان
اكثر التجار واصحاب الحرف في هذه المدن هم من غير أهل البلاد مما يؤكد
على استمرار البداوة بين سكة التشكيلات المدنية في شبه الجزيرة
العربية •

اما مناطق الخليج العربي فان حياة سكانها اقسمت كما هو متعارف
عليه تقليديا بين البادية والبحر الا ان ظهور النفط والصناعات النفطية
وتشابك قيمة هذه المادة الحيوية مع صعوبات استعمارية سياسية واجتماعية
وفكرية ادى الى بروز مدن بدأت تشكل اهمية على صعيد اماراتها اولا وعلى
صعيد منطقة الشرق العربي ثانيا وليس هناك من مشكلة تتصل بالهجرة من
الريف الى المدن في هذه الامارات بقدر ما هناك من صراع بين قومية ذات
حق وواقع في المنطقة ومحاولات اجنبية ذات صلات استعمارية لطمس
معالم هذه القومية وحققها وواقعها •

وفي الوقت ذاته تجابه شمال افريقيا العربي صعوبات الهجرة من الريف
الى المدينة الا ان بلدان الشمال الافريقي تختلف مشاكلها باختلاف اقطارها
ففى ليبيا مازالت المدن تفتقر الى حياة مدنية مركزة يظهر الفارق واضحا
بين حياتها والحياة في الريف ونظرا لمدخولات هذا القطر من النفط فان المؤثر
الاجتماعي سيميل حتما صوب حياة المدن سيما وان اكثر عائدات النفط
تصرف في مجال الاعمار والخدمات في المدن والاماكن ذات الاهمية الاجتماعية
او السياسية •

اما تونس والجزائر ومراكش وموريتانيا فان خضوع هذه البلاد تحت
وطأة النفوذ الفرنسي رسم خطا عميقا بين الريف والمدينة بل بالعكس ابقى
سكان البادية على حياتهم التقليدية ان لم تكن البدائية كما هو واضح لدى
قبائل الطوارق في المناطق الشمالية للصحراء العربية الكبرى في وقت فتحت
فيه فرنسا باب الهجرة امام سكان افريقيا الشمالية العربية للسفر الى فرنسا
لكي تضمن حصولها على ايد عاملة رخيصة وتحقق الكفاءة العاملة الوطنية

وتعمل على تهجيرها عن مواطنها الأصلية مما يجعل من مشاكل الهجرة والاختلاف في تركيب وحراف المواطنين العرب في الشمال الافريقي ومستويات معيشتهم وتحصيلهم الثقافي مميزات تختص بها اقطار تونس والجزائر ومراكش وموريتانيا وان اتصلت بالمشكلة الكبرى التي يعاني منها الوطن العربي في الوقت الحاضر والمتمثلة بتدفق اهل الريف في اقطاره المختلفة الى حيث تعيش حياة تختلف ان لم تكن تناقض معها كليا .

ويمكن اعادة عرض مشكلة الهجرة من الريف الى المدينة بشكل ملخصة ان الوطن العربي وعلى الاخص في الفترة بين الحربين العالميتين الاولى والثانية بدأ يتعرض لمؤثرات سياسية واجتماعية واقتصادية جعلت منه مركزا تضاربت فيه قيم لنظم اجتماعية قديمة او تقليدية واخرى تتصف بالتجديد وبسرعة التغير الاجتماعي وتحاول ان تخرج من العزلة التي فرضت نفسها على الامة العربية لكي تعمل في رحاب اوسع نحو مستقبل افضل .

ولم يكن الوطن العربي حين واجه مسؤوليات الحضارة الحديثة يكون تركيبا سكانيا تتقارب فيه المستويات الاجتماعية وعلى الاخص في اسلوب تفكيرها ومعيشتها فقد اختلف السكان العرب بين البادية والريف والحواضر بما فيها المدن الكبيرة وبذلك كان رد الفعل العربي مختلفا من الناحية الحضارية لمتطلبات حضارة القرن العشرين اختلافا ينبع من البعد الحضارى بين تركيبه الثقافى والاجتماعى وبين مستويات الحضارة فى العالم الاوربى .

وقد ساهم فى احداث الفجوات الحضارية بين الوطن العربى من جهة وبين الحضارة الحديثة من جهة اخرى ظهور الاستعمار الاوربى فقد استجابت المدن فى الارض العربية بشكل يتناقض عن استجابة الريف بينما انزلت البوادرى واخذت تمثل روح المقاومة للسيطرة الاوربية بما تتضمنه من استعمار سياسى واقتصادى وفكرى مما ادى الى اختلاف بين حياة الريف التى اعتبرت معارضتها للاستعمار الاوربى وسيلة لحفظ ذاتها امام

تياراته الغربية وبين حياة المدنية وانسجامها مع متطلبات الحياة الاجنبية
وعد هذا اللون من الحياة على الرغم مما فيه من نفوذ اجنبى واتتهالك
واغتصاب لخيرات و ثروات البلاد العربية ضربا من ضروب التخصر
والمدينة !

الا ان الفترة التى بدأت بنهاية الحرب العالمية وحصول افطار كثيرة في
الوطن العربى على استقلال سياسى فقط ادى الى انهيار مركز البادية كجبهة
معارضة للنفوذ الاوربى باجنحته الاستعمارية والحضارية في الوقت الذى
اخذت فيه المدن تشكيلاتها السياسية تنظم المعارضة السياسية وفق اسلوب
العمل السياسى الحديث وبذلك بدأت حركة استيطان بالنسبة لسكان
البادية في الوقت الذى شرع فيه سكان الريف في الهجرة الى المدن •

وقد حاولت سلطات الاستعمار البريطانى التى احتلت بعض اجزاء
الوطن العربى بعد أن انحصر ظل الاستعمار العثماني عنها معالجة مشكلة
الهجرة من الريف الى المدينة بشكل تكسب فيه ود القبائل البدوية في الوقت
الذى ترسم الخط واضحا بين الريف والمدينة مما يخلق نوعين من المواطنين
يتميز كل منهم بصفات اجتماعية وسياسية واقتصادية ومستويات ثقافية تعمق
الخلاقات بين أهل الريف وسكنة المدن في الوطن العربى •

ويتضح هذا الاتجاه البريطانى في قانون دعاوى العثائر الذي طبقتة
السلطات البريطانية المحتلة في العراق ابان فترة الانتداب وبقى نافذ المفعول
حتى قيام ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ م مما يؤكد ان السياسة الاستعمارية
الانكليزية قد تمكنت بالفعل من شطر السكان في العراق ووضعهم في حقلين
جاعلة منهم مواطنين في ريف تحكمهم علاقات اجتماعية تقليدية بينما يخضع
مواطنو المدن لما يشرع من قوانين وانظمة • الا ان التفاوت الكبير في وجهات
نظر ومستويات معيشة كل من سكنة المدن واهل الريف في الوطن العربى
خلال الفترة التى بدأت بعد الحرب العالمية الثانية ادى الى قيام هجرة شاملة
من المناطق ذات الحياة القروية الى اماكن السكن في المدينة ولم تكن هناك
دراسات كافية للحد من الهجرة او تنظيمها على الاقل لكى تتفق والتقدم في
مجالات نشر التعليم وزيادة الانتاج وعلى الاخص الصناعى منه وانما تركت

امور الهجرة الى عامل الصدفة لكي يتحكم فيها في الوقت الذي زاد التأكيد فيه على السلطة التقليدية المتمثلة بشيوخ القبائل ومن اعتمدتهم الفئات الحاكمة التقليدية لكي يمارسوا ضغوطا على من يتصل بهم في مناطق الريف. فيمنعونهم عن الحركة تدفعهم في ذلك اسباب سياسية على الاكثر لان القصد من ابقاء سلطة شيخ القبيلة لم تكن لتعدو مناصرة السلطات التقليدية الحاكمة عن طريق تعاون شيوخ القبائل من ذوى الاتباع الكثيرين معها وبذلك تتمكن الفئات التقليدية من ضمان استمرار سطوتها .

وعلى الرغم من المحاولات ذات الطابع التقليدي في الوطن العربي في مفتح تطلعاته للحضارة الحديثة وخصوصا ما قصد منها بشكل عفوى ارباك الهجرة من الريف الى المدن فان بعض العوامل التي فرضتها روح العصر حتمت على السلطات التقليدية في الوطن العربي اتخاذ بعض المقاييس مثل فتح الطرق وتسهيل المواصلات او اقامة بعض المدارس مما انعكس اثره بشكل واضح على الحياة في الريف وجعل طريق الهجرة من الريف الى المدينة واضحا وميسورا ان لم يكن في متناول الواقع فان التعليم الحديث وكون المعلمين ممن تثقفوا في المدن نفسها فان رسم مستقبل الحياة بالنسبة للمتعلمين لا بد وان يدخل في اعتباره انتقالهم الى حيت تنتظرهم الحياة في المدن لكي يكملوا دراستهم اولا ويستطيعوا ان يستغلوا ما تفتح لهم من قابليات وما صقل من استعدادات ثانيا .

حتى لقد عد اولئك المتعلمون الذين يتقون في قراهم واريافهم من الناشئين وبدأت الفروق الحضارية واضحة بين الاجيال المختلفة في الريف نفسه وخاصة اولئك المتعلمين واجيال ابائهم واجدادهم وبدأت روح مقاومة غذاها ابناء الجيل الجديدة في الريف اقبلت الى رغبة في الهجرة الى المدن .

وفد كانت الهجرة في الفترة التي سبقت التحولات السياسية الخطيرة في الوطن العربي المتمثلة بثورتى العراق عام ١٩٥٨ م ومصر عام ١٩٥٢ م موسمية ومعنى ذلك ان يترك قسم من ابناء الريف قراهم في فترات التعطل

وعدم مباشرة الارض لكي يعملوا في المدن ثم يعودا ثانية في اوقات جمع الحاصل او التهيوء لموسم زراعى جديد بالاضافة الى بعض انواع هجرات دفعت اليها جوانب تقليدية في المجتمع نظرا لحدوث بعض التناقضات بين سلوك الفرد والتقليد المتعارف عليه من قبل المجتمع ذاته . وقد ساعد الاختلاف في المستويات الثقافية والتحصيل العلمى على دفع بعض الافراد للهجرة من الريف الى المدينة في الوقت الذي كانت تمنعهم فيه بعض النواحي السياسية والاجتماعية وخصوصا تلك المتمثلة بالعمل المشترك بين سلطات الحكم التقليدية وبين القوة التقليدية المتعارف عليها في المجتمعات الريفية ذات الطابع القروى في حياتها واسلوب تفكيرها .

الا ان ظهور التغييرات السياسية ذات الاثر العميق في حياة الوطن العربى نقلت الهجرة الى صعيد جديد اتصف بعدم وجود الحواجز التقليدية فقد تم القضاء على القوى الموروثة في المجتمعات الريفية في الوقت الذى سهلت فيه طرق المواصلات واصبح بالامكان الانتقال بسرعة وبطريقة مرنوق بها من الريف الى المدينة مما ادى الى ظهور ما نسميه (الهجرة الجماعية) التى جعلت من حركة الانتقال من الريف الى المدينة صعوبة اخذت بحس باثرها المجتمعات في الوطن العربى .

وكان طبيعيا بعد ان تركت المعضلة لتتحول من مجالها الفردى الى مجال جماعى ظهر بشكل حركة دائبة اسفرت عن ترك الريف وارتفاع عدد سكان المدن ونقص فى المواد الانتاجية الزراعية ان يشرع فى فهم ما نطق عليه اسم الهجرة من الريف الى المدينة اولا ثم معالجتها ثانيا .

والواقع ان معالجة هذه المشكلة تكون وفق اسلوبين الاول هو اسلوب الاكراه ويعنى ذلك فرض قيود على المهاجرين من الريف الى المدينة او تحديد الهجرة ووضع بعض العقبات فى سبيل الابقاء على اهل الريف فى قراهم لان هجرتهم معناه نقص شديد فى الانتاج الزراعى يقابله ازدياد فى حجم المدن فى الوقت الذى تميل فيه موازنة اقتصاد المدينة نحو الصناعة مما يحتم تحويل العملات النادرة التى يصعب الحصول عليها فى البلدان النامية

حديثا الى استيراد المواد الاستهلاكية الامر الذي يؤدي حتما الى ارباك سياسة التصنيع والبطء في التفاعل مع الحضارة الحديثة .

ونشيا مع اسلوب الاكراه في معالجة مشكلة الهجرة فان بعض المقاييس يمكن اتخاذها اهمها تزويد الفلاحين بهويات خاصة تذكر فيها حرفهم ثم يؤشر في حقل خاص في هذه الهويات عدد سفراتهم الى المدينة مع تحديد مدة اقامتهم للحيلولة دون تركهم لقراهم وهجرتهم عن اراضيهم . الا ان هذا الاسلوب يصطدم بعقبات جمة منها فقدان الاجهزة الادارية واجهزة التوعية التي تعمل على تبسيط فكرة الهجرة وتبيان اثرها بالاضافة الى الدقة والاخلاص من تتبع سفرات اهل الريف مع استحالة هذه المقاييس في مجتمعات حديثة التطور تتضارب فيها القيم الاجتماعية من جهة وينعدم ان لم يضعف اثر التنظيم في الحياة والمجتمع مما قد يفسر الاجراءات المتخذة عكسيا وبشكل يعود بالضرر على المجتمع او ما يسمى بوحدته الداخلية من جهة اخرى .

اما الاسلوب الثاني فانه اكثر واقعية وملائمة لظروف البلدان النامية حديثا بوجه خاص ونعني بذلك الاصلاح الزراعي والمقصود بهذا التعبير اصلا تضيق الشقة بين الريف والمدينة عن طريق زيادة الانتاج من جهة ورفع مستوى الحياة بجوانبها المختلفة السياسية والادارية والاجتماعية في الريف بحيث تنعدم الفوارق بين ما يسمى بالريف وما يدعى في المدينة في الوقت الحاضر وتضمحل ان لم تتلاشى الهجرة الجماعية في الوقت الذي تقل او تنقطع فيه الهجرة الفردية من جهة اخرى .

هذا هو المفهوم الاجتماعي للاصلاح الزراعي اما المفهوم الاقتصادي فانه ينصب على زيادة الانتاج الزراعي عن طريق استغلال الارض استفلالا كليا وفق اساليب علمية تستخدم الالات والمكائن الزراعية وتعمل في الوقت ذاته على تشر الوعي الفنى بين الفلاحين عن طريق محاولات التثقيف الزراعي وانشاء تعاونيات ترتبط بينك تسليف زراعي للانتقال بالزراعة من حرفة مرهقة ضئيلة الانتاج الى عالم تتفاعل فيه المعرفة الفنية والالات الزراعية ف

والجانب الاقتصادي الخاص بالاصلاح الزراعى يحتل المكانة الاولى
فى كل محاولة أجريت فى الوطن العربى منذ أن تنبه العرب الى أهمية
النخيط فى الزراعة والانتقال بها من طورها البدائى المتسم بالصدفة
والتوقع الى دور يخضع لتحديد دقيق فى الانتاج وفيما يستغل من الدخل
القومى فى دفع عملية الانتاج الزراعى وعلى الاخص زراعة المحاصيل ذات
الفائدة النقدية التى تصلح للتصدير وتكون عمودا فقريا للصناعة التى
أخذت هى الاخرى فى النمو فى البلدان المتطورة حديثا بوجه عام وانوطن
العربى بوجه خاص .

والواقع ان مشكلة زيادة الانتاج الزراعى من المعضلات الدقيقة التى
تجابه العالم اجمع والبلدان النامية على وجه الخصوص وقد بدأ اثرها يظهر
شكل اكثر شدة بعد أن أرتفعت نسبة المواليد وأزدادت وتغيرت حاجات
المجتمعات النامية فى العالم وبعد ان بدأت التغييرات
الاقتصادية والاجتماعية فى عالم اليوم تأخذ طريقها
الى اكثر المجتمعات الحاضرة فقد أثرت هذه التغييرات فى رفع مستوى
الطبقات الفقيرة وذات الدخل المحدود وزادت فى قوتها الشرائية الا ان
ما حصل فى البلدان المتكاملة النمو يختلف عما حدث فى المجتمعات النامية
ففى الحالة الاولى اصبحت الطبقات الفقيرة ذات اتجاه صناعى بعد ان
وصلت الى مركز الطبقات المتوسطة ثم اخذت هذه الطبقات فى معظم
البلدان المتكاملة النمو كتركز الموجودة فى اميركا الشمالية وغرب اوربا
واليابان فى قيادة انتقدم الصناعى وتسويق الانتاج والدخول فى مضاربات
سياسية واتصالات دبلوماسية قادتها الى سياسات مسدودة الطرق انتهت
بالحرب فى سبيل تأكيد مركز الطبقات الوسطى الاجتماعى والسياسى
والاقتصادى .

اما فى المجتمعات النامية فان الطبقات الفقيرة عند انتقالها الى مركز أعلى
فى السلم الاجتماعى سيطر عليها ما يسمى بـ (التقليد الطبقي) نجم عنه
أندفاع معظم الطبقات ذات الدخل المحدودة كي تنفق الزيادة فى دخولها

للحصول الى سلع استهلاكية اكثر ، مما ترك ضغطا شديدا على احتياطي الذهب والعملان النادرة في البلدان النامية تولد عن سعى السلطان السياسية فيها الى سد أكثر متطلبات الطبقات التي بدأت ترتفع في مستواها المعيشي والحياني خوفا من أن يؤدي الوقوف بوجه اندفاعات الطبقات الوسطى الجديدة الى قيام تعقيدات سياسية تزيد من حساسية الصلة بين المجتمع والسلطة في البلدان النامية .

هذه اذن هي جوانب الاصلاح الزراعي تبدأ بالتغيير الاجتماعي وتنتهي بزيادة الانتاج في المحاصيل الزراعية عن طريق تخطيط جديد للانتاج وادواته ووسائله وتسويق الحاصل على الصعيدين المحلي والعالمي الا ان هناك جانبا جديرا بالاعتبار ونحن ندرس معضلات الاصلاح الزراعي هو أن الجانب الاجتماعي يبرز فيه قبل الاقتصادي مما يستدعي تدخل الدولة أو ما يسميه (جنر مردل) في كتابه (النظرية الاقتصادية والدول النامية : ترجمة ابراهيم الشيخ ومراجعة حسين الحوت ص ١ ص ٨٥) بالمجتمع المنظم لكي يتم التخطيط الاجتماعي لعملية الاصلاح الزراعي دون أن تعترضه عقبات فردية او انحرافات تستغل لمصلحة جهة اجتماعية خاصة مما ينعكس بشكل سلبي على الاصلاح الزراعي كعملية تحويل اجتماعية واقتصادية ضخمة . فاذا تم التخطيط للاصلاح الزراعي اجتماعيا ونجحت السلطات ذات المسؤولية والاختصاص والقوة في رسم ابعاد المشاريع الاصلاحية فان الجانب الاقتصادي لا يلبث ان يبرز مما يستدعي تعاوننا بين ما نسميه بالقطاع الحكومي والقطاع الاهلي .

وليس تدخل الدولة بامر غريب او بدعة يأتي بها بعض رجال الاقتصاد ممن مروا فكريا او واقعا بظروفه الكساد العظيم التي واكبت قيام الحرب الكونية الثانية لان أصابع السلطة تدخلت قبل ذلك بوقت طويل وفسى مجتمع يؤمن بحرية رأس المال هو مجتمع الولايات المتحدة فان تنفيذ مشروع وادي تنسي وادارته او مايسمى بـ (ت . ف . أي) ليظهر بجلاء أن الحكومة الامريكية كانت على صواب عندما حولت مجرى نهر تنسي في

سبيل أستصلاح اراض اكثر عن طريق الانتفاع بمياه النهر مع ما تركه ذلك الاجراء من اثر فى هدم واغراق الكثير من بيوت الفلاحين • ويحدث الشئ نفسه عند اقامة مشروعات الري الكبرى فى اكثر بلدان العالم لان مجارى المياه التقليدية تسير وفق تسهيلات التضاريس مما يجعلها تمر فى الاراضى السهلة او المنبسطة تاركة مساحات شاسعة بامس الحاجة الى الري تنتظر جهد الانسان وتصميم المجتمع وتطور العلم والتكنولوجيا •

الاصلاح الزراعى والوطن العربى :

أن الاسلوب الذي اتبع فى الوطن العربى بالنسبة للاصلاح الزراعى لا يشكل أى شذوذ فيما يتعلق بالخطوات التى اتخذت فان الاصلاح الزراعى كنهية وتخطيط لا يقتصر على قارة او مدرسة فكرية خاصة لان اصلاح الارض للزراعة إنما هو محاولة عملية شأنها شأن كل مقياس يقصد من ورائه تغيير اجتماعى يتأثر الى حد بعيد بالاجواء المحيطة به ويؤثر بها فى الوقت ذاته لذافان دراسة ظروف الاصلاح الزراعى فى الوطن العربى من الاهمية يسكان للتعرف على الصعوبات الحاضرة والامال المستقبلية التى يعلقها المجتمع العربى على تطبيق محاولة هامة كالاصلاح الزراعى •

وبوجه عام فان الاقطاع فى الوطن العربى كان سائدا باشكاله السياسية والاجتماعية والاقتصادية ففى مصر كان الاقطاع اجتماعيا ومعنى بهذا حكم الطبقة ذات المركز الاجتماعى المتصل بالانتاج الزراعى والتسلط السياسى اما فى بلاد الشام فان الاقطاع السياسى انصب على فسح المجال لاصحاب الاقطاعات لكى يصيبوا سهما فى دوائر السياسة والسلطة •

أما فى العراق فان الاقطاع كان اقتصاديا ذا ابعاد عشائرية وسياسية فقد هدف الاقطاع فى العراق الى السيطرة على مفاتيح الانتاج الزراعى واعتبرت المناطق الخصبة فى جنوب العراق أماكن مقلدة بوجه السلطات المسؤولة حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ م فقد مارس شيوخ الاقطاع فى العراق سلطات واسعة تراوحت بين الافراد بحكم تابعيهم وبين منعهم من السفر والحصول على ابسط ضروريات الحياة •

وقامت الثورات السياسية الحديثة في الوطن العربي المتمثلة بثورتى العراق ومصر فى ١٤ تموز عام ١٩٥٨ م ومصر فى عام ٢٣ تموز سنة ١٩٥٢ م وكان طبيعيا ان تمتد الثورات العربية الى مجالات الاصلاح المختلفة وفى مقدمتها اصلاح الارض ورسم سياسة جديدة للانتاج الزراعى الا ان الصعوبات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى الوطن العربى من جهة وطول فترة الاقطاع وما يتصل به من رواسب اجتماعية وسياسية ونفسية من جهة اخرى جعل محاولات الاصلاح الزراعى مجرد واجهات اختفت خلفها المحاولات بالامال والحاجة الى الدراسة والتفهم الواقعى المخلص لمشاكل الاصلاح الزراعى تتج عنه نقص خطير فى المحاصيل الزراعية مع ازدياد الطلب عليها .

لذا فان الاصلاح الزراعى فى مصر نجح فى ضرب حكم الطبقة الاقطاعية ومعها القوى التقليدية وفتح المجال امام تجربة جديدة فى الحكم تمثلت فى الجيل الجديد وما تحمله من مسؤوليات بينما ضعف تأثير الاقطاع فى بلاد الشام وسواحلها واحتاجت الدوائر السياسية فى اماكن السلطة فيها الى دم جديد تمثل فى جيل من اهل الخبرة والاختصاص اصبح ندا لمصادر النفوذ التقليدية .

أما العراق فانه كان أكثر الاقطار العربية تأثرا بمحاولة الاصلاح الزراعى لان اقتصاده كان مرتبطا كليا بالانتاج الزراعى فلما نسفت الاطارات الاجتماعية والسياسية للاقطاع فى العراق انهار الجانب الاقتصادى منه . ما ادى الى نقص خطير فى انتاج المحاصيل رافقته هجرة جماعية من الارياف الى المدن وازدياد فى طلب المواد الاستهلاكية نتيجة تحسن الاحوال المعيشية للجماعات المهاجرة وارتفاع نسبة المواليد .

يتضح من هذا العرض ان الاصلاح الزراعى فى الوطن العربى ظهر كحقيقة واقعة بعد نجاح التغييرات السياسية الجذرية فى الارض العربية ثم حدث انتقال من المفهوم السياسى للاصلاح الزراعى الى واقع اقتصادى

هدف من ورائه زيادة الانتاج وتوزيع الاراضى بين الفلاحين الا ان انخفاض الانتاج وازدياد الطلب على مواد الاستهلاك والمواد الغذائية اختزل عملية الاصلاح الزراعى الى مجرد مقاييس سياسية قصد من ورائها تصفية المراكز التقليدية للاقطاع ودفح الفلاح نحو العمل عن طريق بنى السلطة له سياسيا واجتماعيا ومدته بما يحتاج اليه من معونة فنية او معرفة علمية قدمت فى احيان كثيرة دون تخطيط * ولوضع المشكلة بشكل افضل علينا كمجتمع عربى ان ندرك ما يأتى :-

١ - ان محاولات الاصلاح الزراعى فى الوطن العربى نشأت بفعل ضغط الظروف التى تغيرت اثر ثورات سياسية جذرية هدفت الى تبديل الاوضاع السياسية التقليدية لكى تستطيع الامة العربية اللحاق بركب الامم المتقدمة التى نجحت فى تركيز سياستها فى الداخل ولم يبق لها الا ان تلعب دورها الهام على الصعيد الدولى بعد ان تفرغت له *

٢ - ان الوطن العربى ورث عهدا طويلا من تحالف الاقطاع مع قوى الضعف والقوى التقليدية لذا فان هدم هذا التحالف فى سبيل التخلف لا بد من ان يخضع للتخطيط والاستعداد الفنى والنفسى وهما امران افتقر لهما الوطن العربى نظرا لافتقاره الى تجربة ذاتية او دراسة منظمة فى هذا المجال وصعوبة او استحالة استيراد (حلول جاهزة) لمشاكل تتصل بعملية الاصلاح الزراعى التى تعد من الصق مظاهر الاجتماع الانسانى المتعلقة بالمجتمع نفسه وما يتصل به من تاريخ وحضارة وقيم دينية وتعقيدات نفسية واقتصادية تجعل من كل محاولة للاصلاح الزراعى شيئا مرتبطا عضويا بالتفاعل بين المجتمع والحاضر والمستقبل *

٣ - كانت الحاجة ماسة عندما بدأت عمليات الاصلاح الزراعى ان تكون الدولة البديل الناجح للمركبات التقليدية المتمثلة بالاقطاع والاداة الزراعية البطيئة * الا ان تعدد مصاعب الاجهزة الحكومية انذاك وحاجتها الماسة الى الخبرة والاجهزة الكفوءة المخلصة اعاد المشكلة الى حيزها السياسى جاعلا منها محاولة لكسب سياسى مؤقت *

٤ - لقد تم توزيع الاراضى على الفلاحين وهذه الخطوة ضرورية (لان الارض للفلاح) وهو شعار قصد منه احداث تغييرات عميقة في مجتمع ذي تربة تقليدية كالمجتمع العربى لكي ترتبط الملكية بالعمل اولا ويتعد الرأى العام العربى عن الاستثمار فى الارض ليتجه نحو استغلالها فى الصناعة ثانيا وبذلك يبدأ تغيير جذرى فى وجهة نظر الفرد والمجتمع فى الوطن العربى يصب الاهتمام على الصناعة ودفع الطاقات العربية فى سبيل المستقبل ، الا ان توزيع الاراضى فى الوطن العربى جرى على اساس تقسيم الارض الصالحة للزراعة فعلا والتي تحملت المتاعب الحضارية وصعوبات التخلف والاستعمار والافقار عن طريق الاستغلال المتعمد ، وكان الاكثر اتفاقا والاسلوب الواقعى العلمى ان تؤول ملكية هذه الارض للدولة فى الوقت الذى تستصلح اراض جديدة عن طريق الاجهزة الحكومية المختصة التى تخطط للرعى والبزل واعمار الاراضى ثم تحول ملكية الاراضى الجديدة الى الفلاحين فى الوقت الذى تكون فيه مساحات الارض التقليدية مزارع نموذجية يتم فيها تدريب الفلاحين على اساليب الزراعة الحديثة عن طريق تزويدهم بالعلوم الزراعية بنوعيتها النظرى والعملى ودفع مرتبات لهم لقاء عملهم فى الارض والمشاركة فى الحلقات الدراسية التى تشرف عليها الجهات المسؤولة موزعة على انحاء كل قطر عربى فى الوقت الذى تتم فيه تأليف جمعيات ووحدات ذات صفة انتاجية واستهلاكية فى آن واحد لاعداد فلاح المستقبل • الا ان ما حدث حقا هو توزيع الاراضى الصالحة للزراعة فعلا مع اختفاء السلطة التقليدية وعدم احلال بديل محلها الامر الذى ادى الى ان يخلط الفلاح بين مفهومى (الملكية الحرة) و (المسؤولية فى زيادة الانتاج) وبذلك انخفض الانتاج وافتتح باب الهجرة الى المدينة مع زيادة فى طلب السلع الاستهلاكية وفرص العمل فى الوقت الذى قل فيه العرض وتحول مؤشر العمل الى الوظيفة مما ولد (تخمة) فى الوظائف الرسمية وشبه الرسمية وعلى الاخص تلك التى تقوم على الروتين الكتابى وتعتمد على تكرار التجربة والخمول الذهنى فاقضتها حاجة ملحة الى امكانات فنية او علمية تركت الوطن العربى تحت

رحمة عطاء المنظمات الدولية لكي تمده بالخبرة الفنية والاموال اللازمة في الوقت الذي ضعفت فيه القوة الشرائية للنقد المحلي نتيجة لندرة السلع واشتداد الطلب عليها مع حاجة قصوى الى نقد نادر تسبب عن ذلك كله تضخم في كميات النقد المتداولة دون ان تصاحبها حركة سريعة للصفقات وادخار على صعيد الفرد الامر الذي اضطر معظم اجهزة السلطة في الوطن العربي الى دعم الاقتصاد العربي عن طريق القيام بمشاريع ذات تكاليف عالية لكي تقضي على ركود السوق وتوفر فرصا افضل للانتاج والعمل . الا ان معظم الجهود الحكومية في الوطن العربي مالت نحو مشاريع الري والسيطرة على القوى المائية ومما يحتاج الى فترة طويلة لكي يترجم انجازاته بشكل فوائد تعود على الافراد مما وصم المحاولات من قبل اجهزة السلطة بالوطن العربي بالتباطوء واستغلال النفوذ وعدم الفهم . لقد نشأت هذه التعقيدات او معظمها بسبب خطأ ارتكب في تنفيذ عملية الاصلاح الزراعي دون ان يكون هناك تخطيط مسبق يعتمد على دراسة مدعمة بفهم للواقع العربي وتجربة مستمدة من مواكبة للظروف التي تحيط بالامة العربية في حاضرها وتوقع مسيرتها الحضارية في المستقبل .

والخروج من هذا المأزق يكون باعادة النظر في سياسة الاصلاح الزراعي في الوطن العربي ومعالجة المشاكل الناجمة عن تطبيق هذه العملية على ضوء واقع كل قطر عربي نظرا لخضوع صعوبات الانتاج الزراعي لضغط العوامل المحلية بشكل مباشر على عكس محاولات التصنيع فانها يجب ان تفهم على صعيد قومي نارا لان التصنيع بجوانبه النظرية والتطبيقية يخضع قبل كل شيء للدراسة المنظمة التي تركز على مفاهيم اقتصادية وصناعية ونفسية ترسمتها معظم المجتمعات الاوربية والامريكية وكل ما تحتاجه الامة هو الانتفاع بالتجارب التي مرت بها البلدان المتكاثرة .

اما المشكلة الزراعية الخاصة بالاصلاح وزيادة الانتاج فان جذورها تمتد في تربة الاقطار العربية نفسها لذا يجب ان تفهم وفق مكونات تربة هذه الجذور، والواقع ان النجاح في زيادة الانتاج الزراعي امر من الصعوبة بمكان

في الاقطار العربية لان الهدف بالنسبة للوطن العربي هو الفلاح الانسان وليس ارضه والمحاصيل التي يزرعها مما يدفعه الى التضحية بالارض في سبيل الانسان العربي الا اننا سنصطدم حقا بانخفاض الانتاج وهذا يستدعي منا ان نقف وسطا بين العناية بالانسان العربي وبالارض العربية ولبلوغ هذا الهدف النظرى علينا ان نكون جمعيات زراعية ذات طابع انتاجى تتولى ملكية الارض وادوات الانتاج في الوقت الذي تدار فيه الجمعية منها من قبل مجلس ادارة ينتخب من اعضائها باشراف السلطات المسؤولة وتكون الجمعية مسؤولة عن عدد اعضائها ومعدل انتاجهم في الوقت الذي تقوم فيه هذه الجمعيات باقامة بنوك تستخدمها في التسليف وفي مساعدة المشاريع ذات الصبغة الزراعية مع خضوعها الى هيئة تخطيطية مركزية للانتاج الزراعى تقوم برسم الهياكل العامة للانتاج الزراعى مع تقديرها ان تقدمه المصارف الحكومية من مساعدات للبنوك الخاصة بالجمعيات وما تحتاجه من ادوات والات زراعية على ان تتقاضى الجهات المسؤولة نظير خبرتها واموالها حصة من الانتاج تقدرها هيئة التخطيط الزراعى مع خضوع التصدير وعمليات التحويل الخارجى للجهات المختصة لكي تنصرف الجمعيات الزراعية الى زيادة الانتاج وتكوين مجتمع زراعى جديد والحد من الهجرة الى المدينة •
التصنيع والوطن العربي :

ليس بعسير فهم اهمية الصناعة في الاقطار النامية من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية لان الزراعة والاصلاح الزراعى لا تمثل الرد القوى والسريع على الصعوبات التى تشكو منها الاقطار الحديثة النمو فان القيام بمشروع للزراعة يستدعى الكثير من الوقت والعديد من الجهود لكى يقطف عامة الناس ثماره في مجتمعات لا تؤمن بالمشاريع الطويلة الاجل نظرا لما لاقته من صعوبات وما سمعته من وعود بدأ قائمتها الاستعمار والقوى التقليدية في محاولة تصد منها تسييط الهمم ورضح قيود تقبلة فوق تلغات الشعوب النامية في سبيل مستقبل افضل •

وفي لغة العلم الحديث فان المحاولة لزيادة الانتاج الزراعى لا يمكن ان

ترفع مستوى الانتاج على مدار السنة باكثر من ٤ او ٥ ٪ وهى نسبة كبيرة فى ارض متعبة كالارض فى معظم الاقطار النامية حيث تم استغلالها بشكل لا ينسجم وما تستطيع الارض فعلا تقديمه مما يحتم على معظم البلدان النامية استخدام المخصبات الكيماوية والالات الحديثة التى يجب ان تستورد من الخارج وبعملة صعبة هى احوج ما تكون اليها فى عملية البناء الضخمة التى تضطلع بها اكثرية البلدان النامية وعلى الاخص تلك التى حصلت على استقلالها السياسى •

لذا فان الحل السليم للتخلف والركود والتردد والفقر فى المجتمعات الحديثة النمو بوجه عام والمجتمع العربى بوجه خاص هو الالتجاء للصناعة وذلك عن طريق انتخاب اكثر المعادن توفرا وجعله محورا لعملية التصنيع مع توفير الكفاية الفنية ونشر الوعى الفنى والعلمى ورفع القوة الشرائية للافراد وتسهيل المواصلات لكى يتم النجاح للمحاولة الانتاجية • والامثلة عديدة على هذا الاسلوب فقد نجحت بريطانيا فى صناعة المنسوجات الصوفية والقطنية جاعلة من هذا الانتاج مركزا اساسيا لبناء هياكل اقتصادها ثم لم تلبث العملية الانتاجية ان تطورت فى جميع الاتجاهات لتخلق من بريطانيا دولة صناعية من طراز متقدم •

اما امريكا واليابان وروسيا فانها سارت فى الطريق نفسه وان اختلفت فى اساليب وصولها الى هدفها المتمثل فى زيادة انتاجها الى حد التصدير وضمن منافسة بضائعها فى السوق الدولية والمحاولة للسيطرة على هذه السوق او التحكم فى حركتها تجاريا ثم نقل التأثير الى مجالات السياسة والدعاية • فقد ركزت الولايات المتحدة على صناعة الصلب وبرز فيها ملوك صناعة الصلب فى العالم • اما اليابان فانها اهتمت بالصناعات الكهربائية حتى غدت على رأس دول العالم فى انتاجها من المعدات والمولدات والادوات الكهربائية فى الوقت الذى تفتقر فيه اليابان الى معدن تجعل منه قاعدة لبناء صناعتها • ويصدق القول نفسه على روسيا اذا اتخذت من صناعات الاجهزة الخاصة بالفضاء الخارجى محورا لرفع مستوى صناعتها بعد ان بقيت من

الاقطار الاوربية التي لم تفتح نوافذها للشورة الصناعية وبقية تعيش بعقلية تقليدية •

وبالنسبة للوطن العربي فان الصناعة التي يمكن ان تشمل المحور والقاعدة الصناعية هي صناعة النفط والصناعات البتروكيمياوية نظرا لتوفر النفط في مناطق عديدة في الارض العربية في الوقت الذي يكثر فيه الطلب على النفط ومشتقاته والمنتجات المتصلة به بالنسبة للسوق العربية وعلى صعيد السوق الدولية •

الا ان النفط الذي يمثل طاقة وثروة للامة العربية يتميز تاريخ استثماره بالكثير من الاثار السلبية التي تراوحت بين محاولات السيطرة والاعتصاب عن طريق استغلال النفوذ السياسى للدول الكبرى وبين الدخول في احتكارات دولية بين شركات النفط المحتكرة في سبيل تحديد سعر للنفط في السوق العالمية والتحكيم في الكمية التي ستطرح منه للبيع وما يمكن ان يستثمر منه من اماكن استخلافه في انحاء العالم التي تخضع لامتيازات حصلت عليها الشركات المحتكرة في غفلة عن الضمير العالمى • وفي الوقت الذي نبلغ تكاليف استثمار النفط من الارض العربية اقل بكثير من مثيلاتها في اماكن اخرى كفرنزويلا مثلا فان الامة العربية لا تحصل من عائدات النفط الا على البذر القليل فليست هناك ضرائب تفرضها الدول المنتجة للنفط على ما يستعمل من مواد ومصروفات تستخدم في عمليات التنقيب والاستثمار او ما ينتج ويسوق من النفط نفسه ومشتقاته ، بالاضافة الى ان الزيادة او النقص في العائدات لا يتفق ومتطلبات التخطيط الاقتصادى في الوطن العربي وانما يخضع الى ما تدبره الشركات المستغلة من مخططات للتلاعب باسعار النفط على صعيد السوق الدولية والاستفادة من فرص الطلب عليه ولا يستبعد ان تلجأ الشركات نفسها لاسباب سياسية او اقتصادية لطرح كميات كبيرة من النفط لكي تضعف الطلب عليه فيقل سعره في السوق العالمية مما يضع سلاحا بيد الشركات المحتكرة تستعمله ضد الدول المنتجة اذا رأت ان هناك اتجاها للاستقلال والتخطيط في سياساتها النفطية •

والواقع ان النفط اذا اريد له ان يكون مدار التركيز الصناعى فى الوطن العربى فانه يجب أن يبقى فى الارض العربية وأن تلغى أمتيازات الشركات المحتركة شرط ان يتم ذلك عن طريق اجماع عربى تتولى توجيهه هيئة نفط عربية هى نفسها جزء من مجلس اقتصادى عربى يخضع لجامعة عربية اكثر فعالية ونشاطا مما هى عليه اليوم لكى تنجح هيئة النفط العربية فى التخطيط والتصنيع والنقل والتسويق للنفط وايجاد مبيعات جديدة له مع ايداع ارباحه فى بنك يطلق عليه اسم بنك النفط العربى الذى سيتولى بدوره الانفاق على عمليات المسح والحفر والاستثمار والنقل وتمويل مشروعات مثل انشاء اسطول عربى للنقل واقامة مشاريع للاسمدة والغاز والصناعات البتروكيمياوية ومعامل للادوية وتشجيع البحوث فى مجالات علم الطبقات الارضية (الجيولوجيا) وهندسة النفط وتسويقه والدعاية له فى الداخل والخارج مع التوصية بادخال النفط كمادة تدرس فى المدارس الثانوية والكليات الفنية والعلمية ذات المساس بالموضوع وتوفير الخبرة اللازمة لعمليات تنقية النفط وصناعة مشتقاته عن طريق ارسال البعث الى الخارج وزيادة الكفاءات اثناء التدريب بالشكل الذى تراه هيئة النفط العربية مناسباً .

ودون شك فان الصناعة فى عالم اليوم تعتمد على طاقة تحركها ويمثل النفط او مشتقاته هذه الطاقة وليس بالامكان ان يترك الانسان العربى يحرق حزم الحطب الجاف للحصول على النار فى الوقت الذى تعوم فيه ارضه على بحر من النفط يستطيع تزويد نفس هذا الانسان بطاقة قد لا تصدق قوتها مما يجعلنا نؤكد بقوة بان البدء فى تحويل النفط من مورد يخضع للاحتكارات العالمية وتجميع الثروات العظيمة الى مادة تستغل فى «بنيان» هياكل الصناعة العربية الحديثة هى الخطوة السليمة فى طريق تحرير الاقتصاد العربى اولاً وتسخير طاقة النفط الهائلة لتسند مستقبلاً صناعياً ضخماً ثانياً .

الا ان الظروف والملاسات التمر ولدت فيها عمليات استثمار النفط العربى والفرق الكبير وبين الاستعدادات الفنية والعلمية العربية من جهة

والتعقيد والتخصص العالى فى الصناعات النفطية من جهة ثانية ولد نوعا من التردد والخوف لدى البعض فى المجتمع العربى وبدأ يتصور اعادة النظر فى السياسة النفطية على صعيد محلى او عربى امرا قد يؤدى الى محاذير سياسية او اقتصادية فان ما حدث لمصدق فى ايران سنة ١٩٥٠م ما زال ماثلا للاذهان سيما وان الرجل يقيم بالاكره فى بيته منذ سنة ١٩٥٣م ولكن الظرف قد تغير واهم ما طرأ من تبديلات ازدياد الطاقة الاستهلاكية للبلدان المنتجة للنفط مع ارتفاع فى مستوى مفاهيمها الفنية والعلمية مع الاستفادة من توازن القوى المتنافرة فى العالم ونجاح دول العالم الثالث فى تكوين جبهة سياسية واقتصادية قوية وهى امور افقدتها الدول المنتجة للنفط فى الخمسينات من هذا القرن .

فاذا تم تعريب النفط وصناعاته فان عهدا جديدا فى دنيا الصناعة العربية لاريب وان يصبح ماثلا للاذهان لان العمل والانتاج العربيين يوضعان لاول مرة فى تاريخ العرب الطويل امام مسؤولياتهم الكاملة المتعلقة بالصناعة والمستقبل الافضل وبذلك يبدأ الجمود والتحجر بالانحصار عن عالم الصناعة فى الوطن العربى ضمنا بان تسير متطلبات التصنيع الاخرى كالسج الجيولوجى والاعداد المهنى والنفسى والاجتماعى للمجتمع العربى جنبا الى جنب مع المقاييس المتخذة فى انماء وتوجيه الصناعة النفطية وبذلك تستثمر بواكير عهد صناعى يعمل على تغيير مفاهيم الانتاج والعمل والمستقبل فى الارض العربية .

تكوين وجدانية اشتراكية :

ان زيادة الانتاج الزراعى والتنمية الصناعية وما يتبعهما من ثورة فى مجالات السلم والصحة والمواصلات تبقى مجرد واجهات لبناء اجوف يخلو من الروح الحقيقى التى تعنى فى واقعها اقامة تكوين سياسى يعمل على ازالة واجهات التغيير الاجتماعى العربى حدودا كما فى وسط يجمع التناقضات بين الانتاج الزراعى الوافر والتنمية الصناعية المتسرعة وبطءها بالحياة والمجتمع والتقدم عن طريق توفير الاطارات النفسية والاجتماعية

الملائمة التي ترتفع فوق عوامل الانتهازية والتأخر والخوف والردة •
ودون ريب فان تكوين وجدانية اشتراكية سيتطلب منا ان ندرس
التجارب العربية على الطريق ذاته واول ما يقف في سبيل دراستنا تحديد
النقطة التي يمكن اعتبارها محاولة جديده نحو هدف بناء وجدانية اشتراكية •
وهناك بالطبع شروع بمحاولات لم تستطع نظرا لصعوبات في بناء
المحاولة والظروف المحيطة بها ان تغير مجرى الاحداث كالحركة التي قام
بها الضباط من ابناء العراق سنة ١٩٤١ م فقد اثبتت هذه المحاولة على
الرغم من افتقارها الى التخطيط والتركيز السياسي والفلسفي ومد خطوط
الالتقاء مع القواعد الشعبية والقيام بتعبئة نفسية وسياسية ، ان الاحاسيس
العامة من الممكن أن تترجم الى عمل سياسي هادف •

اما اذا اخذنا بمبدأ الاستفادة من الخبرات الثورية في منطقة الشرق
الاوسط فان محاولة الدكتور محمد مصدق في ايران عام ١٩٥٠ م تعتبر
محاولة رائدة لبناء فكر ثوري جديد الا ان الاسباب التي حالت دون نجاح
محاولة سنة ١٩٤١ م في العراق هي نفسها التي انتهت بحركة مصدق في
اوائل الخمسينات من هذا القرن الى الخيبة ملخصة في الموقف المتردد الذي
أخذته كل منهما في القضاء على السلطات التقليدية •

لذا يمكن اعتبار ثورة مصر في ٢٣ تموز عام ١٩٥٢ م نقطة التحول تجاه
تحقيق الهدف الثوري ذي الوجدانية الاشتراكية وبالفعل فقد عملت الثورة
في مصر على نقض غبار الخوف والتخلف عن الملايين من ابناء وادي النيل
ووفتح نوافذ المجتمع هناك للشمس والعروبة والتقدم •

وقد اكبرت الثورة في أرض النيل اداة تحقيقها : الجيش المصري ، الا ان
مهمته الضخمة انتهت عند كسر الاقفال التي خلفها الخوف والفقر والتردد
فوق عقول المصريين وطاقاتهم مما يفسح المجال لعهد بناء تشاد خلاله شخصية
الانسان الجديد باطاراته الاجتماعية المرنة المتجاوبة المتطلعة نحو الغد الافضل
وهنا شرعت الطاقات الجديدة التي صنعت ثورة الثالث والعشرين من تموز
في أرض وادي النيل في غريلة المخلفات السياسية في مصر ولكنها لم تجد الا

التناظر والاستغلال ومحاولات توزيع الارباح والمكاسب ومراكز الوظيفة والوزارة مع تطرف وتخاذل هدفا الى كل شيء خلا المصلحة العامة والعمل في سبيل مستقبل يرتفع بارض النيل واهلها الى مصاف الدول المتكاملة النمو . كما ظهر خطل مزمن بالنسبة للسياسة التقليدية في مصر قبل ثورة سنة ١٩٥٢م انصب على عدم فهم الدور الذي يمكن ان تلعبه مصر في المحيط العربي واهمية هذا الدور في كسب معارك الاستقلال والمستقبل .

وتجنبنا لهذه الهفوات فقد انطلق الوضع الجديد في مصر نحو بناء سياسى ذى فلسفة محددة المعالم وتنظيم قوى واهداف واضحة . الا ان عمق الرواسب في المجتمع المصري ونفوذ الجيل التقليدي حال دون نجاح التجربة السياسية الجديدة مما عرض الثورة في مصر لامتحان على صعيد البناء استطاعت رغمه ان تثبت قابليتها على الحركة في مجال التعبئة السياسية والفكرية فولد الاتحاد الاشتراكي العربي في الجمهورية العربية المتحدة . ومن الضعف وعدم التبصر اعتبار هذا التنظيم الجديد وريثا او بديلا لما ساد مصر من حياة سياسية تقليدية فالتسمية نفسها تعكس روحا جديدة كان ابناء وادي النيل تواقين اليها فالاتحاد افضل ما يمكن أن تتركز وتدور حوله الحياة في مصر نظرا لما اصابها سياسيا واجتماعيا وفكريا من نكسات اصلها يمتد في تربة التفرق والتناحر بين من كان يسمون انفسهم بالسياسة ورجال الدولة في مصر في عهدها ذي السياسة التقليدية فقد ندر أن تجد فيه اتفاقا فى رأى أو عمل بين الاحزاب والفئات السياسية على الرغم من تأكيدها - نظريا - على المصلحة العامة ورفع شأن الوطن ، وقد يختلف رجال الفئة الواحدة وتبدأ الاجنحة فى الظهور لان معظم الاحزاب والتكتلات السياسية انما دعت اليها ظروف طارئة لم تستطع بعدها ان تستمر فى فاعليتها فقد تغيرت الظروف المحيطة بها كما ان اكثر متنفذي الاحزاب التقليدية فى مصر من ذوي النفوذ او المتصلين بهم وممن يحتلون مراكز اجتماعية ومالية معروفة لذا فان اشتغالهم فى العمل السياسى كان مجرد (تفضل) او تنازل منهم فى سبيل الاستحواذ على مركز فى الماكنة

السياسية والادارية وبذلك يستطيع السياسي الحزبي في مصر الرجعية ان يستغل الظروف ويوجهها لمصلحته او مصلحة اسرته والمنتفعين معه .

اما لفظة (الاشتراكي) فانها تعكس بكل اصرار صفة العصر الذي نعيش فيه دون تطرف او رجعية لان هذين الانحرافين قد يلتقيان في جبهة غير مقدسة ضد مطامح المجتمع في الغد الافضل فالتطرف يريد ان يزيد الوضع سوءا لكي يستغل الظرف لمصلحته الخاصة فيثير طبقة ضد اخرى دون ان يضع في حسابه مستقبل المجتمع والاهداف التي تتوق اليها الغالبية من ابناؤه . اما الرجعية فانها تصر على ابقاء القديم على قدمه خوفا مما قد يحمله المستقبل من صعوبات او مفاجئات لذا فانها تلتقي في اهدافها مع التطرف في الدعوة الى اشاعة الروح التقليدية التي لم تعد تتجاوب بأي شكل مع متطلبات المجتمعات النامية في سبيل الغد الافضل مما يجعل من الاشتراكية الحل الامثل لترجمة امانى الغالبية من ابناء المجتمع وتحطيم حلف التطرف والرجعية لدفع المجتمع في طريق المستقبل ، مع التأكيد بان الاشتراكية ليست مجرد تعبير لفظي وانما هي تخطيط فكري يقوم على اساسين هما (الكفاية) و (العدل) ويعني ذلك زيادة الانتاج وضمان توزيعه بشكل يتناسب والطاقات الفكرية والانتاجية والا فان العدالة في التوزيع تصبح توزيعا للفقر والفاقة بين أفراد المجتمع .

اما على صعيد التنظيم فقد جربت مخططات مختلفة انفضجها جعل التنظيم على اساس حرفي : عقلي وعضلي ونبذ فكرة التنظيم باتخاذ التوزيع الجغرافي وسيلة لبناء وحدات الاتحاد الاشتراكي ومستوياته المختلفة . وقد ظهرت الحاجة في الجمهورية العربية المتحدة الى دراسة وتفرغ لدفع الاتحاد الاشتراكي في طريق العمل الخلاق . ولتحقيق جانب الدراسة فقد انشأت مدرسة فكرية خاصة لتخريج قادة للموحدات والقطاعات المختلفة للمستويات التنظيمية للاتحاد الاشتراكي من جهة واستيعاب ما يجد على الاشتراكية والفكر الاشتراكي في العالم من جهة اخرى في الوقت الذي تدرس فيه احتياجات المجتمع في الجمهورية العربية المتحدة ودور الاتحاد

الاشتراكي في حل المعضلات والمشاكل الاجتماعية وحماية مكاسب ثورة سنة ١٩٥٢م وخلق الانسان الاتحادي الاشتراكي الذي يرتفع فوق مصالحه الخاصة ويتعد عما ينزل به الى مستوى السياسة التقليدية في مجتمع ما قبل الثورة ولتلافي الصعوبات المستقبلية بالنسبة لأولئك الذين يمتلكون جذورا تشدهم الى الماضي التقليدي فيحنون اليه او ما قد يظهر نتيجة صب الجهود السياسية في ارض النيل في تصميم واحد وما قد يطرأ على هذا البناء من تحجر وبيروقراطية سياسية ووظيفية وبذلك يتعد التنظيم الموحد عن القاعدة الشعبية التي تمده باسباب الحركة والحياة كما حدث للاحزاب المنفردة بالتوجيه السياسي والفلسفي في اوربا .

الا أن الاتحاد العربي الاشتراكي في الجمهورية العربية المتحدة وضع هذه المشكلات تحت فهمه العميق فاهتم بالامور التالية :

١ - انشاء معهد يختص بالدراسات الاشتراكية المتعلقة بالاتحاد الاشتراكي العربي وهضم الجديد في الفكر الاشتراكي وما يمكن ان يترجم الى فوائد على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي بالاضافة الى اعداد الكوادر المثقفة التي تستطيع أن تكون همزة الوصل بين الفكر الاشتراكي والقواعد الشعبية مع تخطيط صلات مرنة يستطيع عن طريقها الاتحاد الاشتراكي العربي أن يمتد في كل اتجاه ويتفاعل مهما امتد فكره وتنظيمه .

٢ - احتضان الاتحاد الاشتراكي العربي للشعب في وادي النيل وفتح الفرص المتكافئة لطبقات من الناس كانت تعيش في زوايا النسيان والفاقة والمرض والجهل وكأنها طين فوق طين وبذلك كسر الاحتكار السياسي الذي جعل من العمل السياسي اقطاعا خاصا بطبقة معينة جمعت بين النفوذ التقليدي السياسي والاجتماعي والاستغلال الاقتصادي والعمالة للنفوذ الاجنبي مما جعل السبيل واضحا أمام القوى العاملة في المجتمع لكي تأخذ حقها بنفسها وتقل مركز الثقل في المجتمع من منخفاضته التقليدية الى حيث القوة صاحبة الشرعية والمستقبل .

وبوضع قوى الشعب العاملة على طريق الغد الافضل تحقق حلم

كانت فئات الشعب في مصر تعيشه في خيالها وآلامها مما يجدد للاتحاد الاشتراكي العربي عناصر تضحى في سبيل حريتها التي ولدت بعد أن أصبح الاتحاد الاشتراكي حقيقة واضحة •

٣ - وما دامت القواعد الشعبية هي صاحبة الحق الشرعي في السلطة وفي دفع دوايب المجتمع الاجتماعية والاقتصادية فقد أصبح من الخطورة بمكان تثقيف هذه القواعد لكي تستطيع التفاهم مع قياداتها مما يحول دون ايجاد ثغرات ينفذ منها الاختلاف او التنافر بين القيادة وقواعدها مما قد يعرض القواعد للدس والدعايات المعادية يقصد منها فصلها من قياداتها والتشكيك بها •

وتمشيا مع تثقيف القواعد الشعبية فقد استفيد من وسائل الاعلام في عرض المشكلات الاجتماعية والعربية والدولية والفكرية وتبسيطها لكي تستوعب من قبل اكثرية العناصر المكونة للقواعد الشعبية •

٤ - بناء مستقبل الاتحاد الاشتراكي العربي على أكتاف الشباب لانهم بحق ذخيرة المستقبل ، والواقع أن صورة الغد يرسمها ما يفكر به الشباب اليوم مما جعل ألتحاد الاشتراكي يركز على الشباب لبناء المستقبل فقد تم الاهتمام بالكتب وبرامج ألتعليم واستغلال اوقات الفراغ واقامة معسكرات الشباب ومد أفرادها بالثقافة التي تؤهلهم لمراكز القيادة في المستقبل وبذلك دخل الاتحاد الاشتراكي كل بيت وكل حقل ومعمل بل وكل رأس وقلب وجهد لكي تفتح التجربة في الجمهورية العربية المتحدة على الصعيدين العربي والافريقي •

وهنا تبرز الصعوبات التي تحول دون انفتاح تجربة الاتحاد الاشتراكي العربي على الصعيد الأفريقي حيث يجب ان تنجح على مستويين هما التنظيم والهدف في الوقت الذي تخضع فيه تجربة هذا التنظيم الشعبي السياسي لهدف كبير على صعيد أفريقيا يتمثل في وحدة الحركة والثورة والبناء الأفريقية التي ستعمل متعاونة مع القومية العربية بجوانب الفكر والعمل ألتكاملة الخاصة بها لاتتزع مكان الصدارة في اوربا والولايات المتحدة اللتين تحتكران السيطرة على صمامات الحضارة الحاضرة •

لذا فمن الاهمية بمكان دراسة امكانية مد تجربة الاتحاد الاشتراكي العربي الى الاقطار العربية الاخرى في سبيل تكوين وجدانية اشتراكية الا ان اختلاف نظم الحكم في هذه الاقطار يشكل العديد من العقبات كما أن تباين المستويات الثقافية وعلى الأخص مقدار استيعاب وهضم بعض بلدان الوطن العربي لمتطلبات الحضارة المعاصرة قد يحول دون الاستفادة من تجربة مشتركة على الصعيد القومي .

الا ان هذه العقبات لا تحول دون قيام تجربة شاملة بين الدول العربية ذات الأنظمة المتحررة . وبالفعل فقد جرت محاولة لبناء تنظيم شعبي عربي في العراق على غرار الاتحاد الاشتراكي العربي في الجمهورية العربية المتحدة ولكنها لم تنجح في اصابة أهدافها القومية والوطنية فاخترلت العملية الى مجرد محاولة خضعت للخطأ أكثر من خضوعها للتجربة مما أدى الى ضعف التنظيم المقترح واصابته بالعقم والانغلاق والعكسية في ترجمته لاماني الشعب العربي في العراق ويعود ذلك لاسباب منها :

١ - ان الاحزاب في العراق على الرغم من تفكك واقعها الفكري والتنظيمي الا أنها تتميز باشخاص لهم وزن طائفي او اجتماعي أو فكري يرتفعون به فوق التنظيمات الحزبية التي يتعاملون معها على العكس مما كان موجودا في مصر قبل الثورة فقد خضعت الشخصيات السياسية للتشكيلات الحزبية التي تنتمي اليها مما ولد فكرة (الالتزام) لدى الرأي العام في العربية المتحدة في الوقت الذي ظهرت نزعات التأكيد على الذات والفردية في العراق وانتقلت لكي تربك تجربة الاتحاد الاشتراكي الناشئة .

٢ - لقدمرت بالعراق منذ ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨م بعض المراحل قاسية شوهت واقع حياته ومجتمعه وتركت عليها اثارا سلبية وعكسية ظهر نتيجتها واضحا على تجربة الاتحاد الاشتراكي في العراق .

٣ - لم تكن التجربة في الجمهورية العربية المتحدة والخاصة بالاتحاد الاشتراكي العربي وليدة يوم وليلة ولكنها عكست محاولة ضخمة تأثرت بعوامل سلبية وايجابية ساعدتها على أن تبلور ابعادها في تنظيم شعبي شامل . الا أن التجربة في العراق حاولت ان تسير بنفس السرعة وعلى صعيد

المرحلة نفسها التي بلغها التنظيم في الجمهورية العربية المتحدة دون اعتبار لصعوبات ارساء الاسس ودراسة التعقيدات التي تقف في سبيل الاستفادة كليا بالتجربة التي قطعت شوطا ناجحا في العربية المتحدة .

٤ - لقد افترض بالاتحاد الاشتراكي في العراق ان يتسع في شموله وحركته لكي يُميد بناء المجتمع من جديد مهيا اياه للانطلاق على الصعيد القومي في الوقت الذي كان يفتقر فيه الاتحاد الاشتراكي نفسه الى كوادر تساعده على الحركة والعمل ضمن حدوده التنظيمية والفكرية مما حمل التجربة على حدوثها عكسية الانجازات الاقتصادية والثقافية وجعل منها واجهة أعتبرت مسؤولة عن البطء والارباك في جمع الصف الوطني والنجاح على الصعيد القومي .

هذه الصعوبات لا تعني ان التجربة مستحيلة التطبيق بل العكس هو الصحيح فالعراق بميراثه التاريخي والحضاري وموقعه الجغرافي احوج ما يكون لتنظيم شامل يجمع وحدة صفه ممهدا بذلك لحركة اوسع شمولاً تلتقي عندها المحاولات التي اجتازت فترات التردد في الاقطار العربية الاخرى .

وبدون شك فان الطريق طويل وصعب يستدعي جهودا مخصصة وواعية لها نصيبها من الدراسة والتجربة والتضحية فان هناك العديد من الطاقات العربية في الوطن العربي بكامله تنتظر ان يدفع بها من مجال الانطواء الى الانفعال بالحركة والتفاعل . والواقع ان الصعوبة الاساسية في الوطن العربي لا تمكن في عدم استغلاله لموارده الطبيعية الضخمة او تركها تضيع منه فحسب وانما تنعكس هذه الصعوبة في عدم ارتفاع الامة العربية بالطاقات العربية المجمدة التي تكون العصب المحرك وراء معركة الوحدة والبناء في الوطن العربي . اما تحقيق حث الطاقات العربية المجمدة ودفعها للالتقاء في عمل مشترك فانه سيبقى مسؤولية القوى الثورية في الوطن العربي التي يجب ان تدرك قبل غيرها ان المعركة التي تخوضها ليست مقتصرة على بناء تنظيم سياسي كالاتحاد الاشتراكي العربي فقط وانما هناك جهات اخر تمثل في القضاء على جيوب منها التخلف في الحياة والمجتمع والاستعمار

بأنواعه السياسى والاقتصادى والفكرى والتبشيرى ومن ورائه دوائر الاستخبارات والتجسس والتباطؤ فى بناء الفكر العربى المتميز عن طريق توضيح الصلة بين القديم والحديث وتعريف دعاة الرجعية والتخلف والتعصب والتطرف •

هذه هى مسؤوليات الانسان العربى الجديد ذى الوجدانية الاشتراكية يعلم من اين يبدأ؟ والحقيقة ان نقطة البداية التقليدية كانت تتخذ من الماضى بداية للحاضر وبذلك تضع فى تعقيدات الماضى قبل ان تصل الى مشارف الحاضر • لذا فمن الاصوب ان نبدأ من الحاضر نفسه ثم نمتد فى خطين فكريين الى الماضى والمستقبل • ومعنى ذلك اننا نفسر الماضى على ضوء متطلبات الحاضر ثم ننطلق بهذا الواقع الجديد نحو المستقبل فنكون قد وفرنا الكثير من الجهد فى تعرفنا على ما يجب او لا يجب ان تأخذه من الماضى فى الوقت الذى نفسح المجال فيه لطاقتنا العربية لكى تتجه نحو المستقبل الحضارى الافضل •

ومن وجهة النظر الاكثر واقعية يجب علينا إعادة تقييم حاضرنا على ضوء متطلبات الحاضر نفسه مستفيدين من تجارب ماضينا بدلا من ان ندور فى حلقة مفرغة بدأت خطوطها الفكرية فى المؤتمر العربى الاول فى باريس عام ١٩١٣م ولم تتوفر لما طرح فى ذلك المآثر من أسئلة وأجوبة تتفق وحاجات الحاضر والمستقبل العربى على الرغم من مرور فترة زمنية طويلة زادت سرعة الحضارة المعاصرة طولا كما انعكست سلبيتها على واقع الوطن العربى ومستقبله •

وجماع القول ان الامة العربية يجب ان تتبنى الحضارة الحديثة وعلى الاخص جوانبها التكنولوجية لتطور نواحي العلم والفن فى الوطن العربى واضعة نصب عينها العمل العربى الموحد على الصعيد القومى ، بقى على الماضى ان يدرك هذه الحقيقة وعليه ان يلحق بهذه الحاجات المتطورة فمى غير المشكوك فيه ان الجيل العربى الجديد عليه ان ينطلق نحو المستقبل فى الوقت الذى يتحتم فيه على الماضى ان يلحق به على نفس الطريق لان مسؤولية الامم تقاس بما تحققة فى مستقبلها وليس ما حققت فى ماضيها فقط او ما لم تستطيع تحقيقه فى حاضرها •

تبت المحتويات

صفحة

تمهيد

٣

الفصل الاول

العرب والتجربة التاريخية والحضارية

- ١٠ .. موقع الدولة العثمانية واثره في سياستها
١٨ .. العرب والعصر الحديث
٢٨ ..

الفصل الثاني

الانسان العربى ومعادلاته الفكرية

- ٤٩ .. تجارب العرب المرة وكتابة تاريخ لهم
٥٣ .. الفكر بين الشرق والغرب
٥٦ ..

الفصل الثالث

العرب بين التجارب والنكسات الحضارية

- ٩٦ ..

الفصل الرابع

الاسلام والديانات الاخرى والقومية العربية

- ١١٨ .. الاسلام ومعارك القومية العربية التاريخية والمعاصرة
١٥١ .. القومية العربية والعمل العربى
١٦٦ ..

الفصل الخامس

اليوم والمصير فى سبيل عمل للغد

- ٢٠٤ .. معركة فلسطين وتغيير مستقبل الواقع العربى
٢٢٨ .. القرن العشرون ونظمه السياسية وصلتها
بالاشتراكية
٢٣٦ ..
٢٧٤ .. اصلاح الزراعى الوطن العربى
٢٧٩ .. التصنيع والوطن العربى
٢٨٣ .. تكوين وجدانية اشتراكية

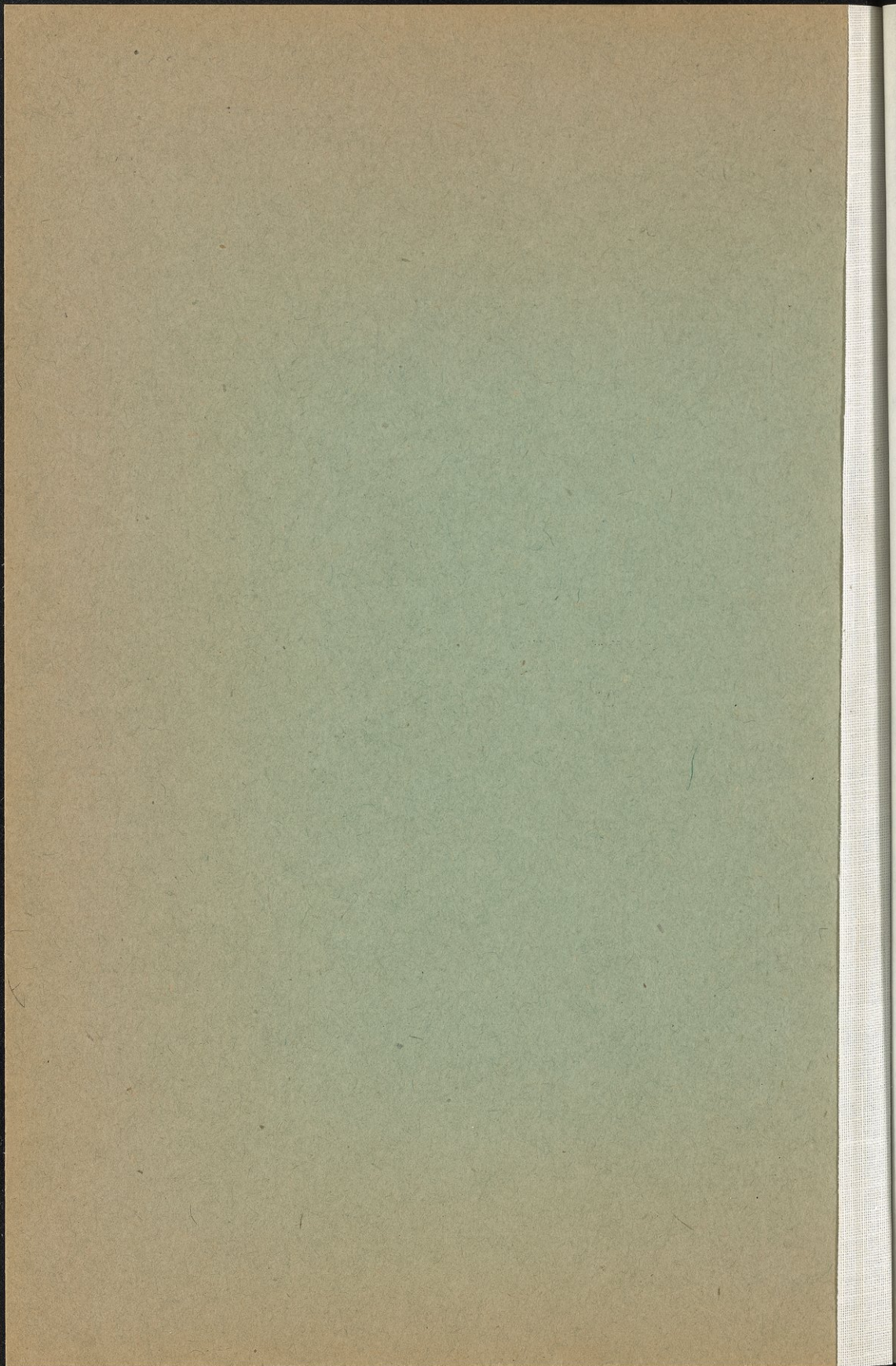
مراجع مختارة

- ابو زيد ، احمد - البناء الاجتماعي ج ١ - سنة ١٩٦٥ - دار النشر القومية - القاهرة - ص ٢٢٢
 آتكن ، هيو ج دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية - محمود زايد - سنة ١٩٦٣ - دار
 العلم للملايين - بيروت - ص ٢٣١
- ارسطو - السياسة - احمد لطفى السيد - سنة ١٩٤٧ دار الكتب - القاهرة - ص ٤٤٧
 ارسطو - الكون والفساد - سنة ١٩٢٢ - لجنة التأليف والنشر - القاهرة - ص ٣٢٧
 ارسطو - في النفس - عبدالرحمن بدوى (المحقق) - سنة ١٩٥٤ - مكتبة النهضة - القاهرة - ص ٢٩٠
 افلاطون - الجمهورية - نظلة الحكيم ومحمد مظهر سميد - سنة ١٩٦٣ - دار المعارف -
 القاهرة - ص ١٩٠
 افلاطون - المحاورات - زكى نجيب محمود - سنة ١٩٥٤ - لجنة التأليف والنشر - القاهرة -
 ص ٣٠٢
- افلاطون - رجل الدولة - اديب منصور - سنة ١٩٥٩ - دار بيروت - بيروت - ص ١٣٨
 بدوى ، عبد الرحمن - نيته - طعة ٤ - سنة ١٩٦٥ - النهضة المصرية - القاهرة - ص ٢٩٠
 بدوى ، عبد الرحمن - الاصول اليونانية للنظريات السياسية في الاسلام - سنة ١٩٥٤ - دار
 الكتب - القاهرة - ص ١٧٤
- برديايف ، نيقولاى - العزلة والمجتمع - ترجمة فؤاد كامل عبد العزيز - سنة ١٩٦٠ - النهضة
 المصرية - القاهرة - ٢٥٤
- بروكلمان - العرب والامبراطورية العربية - ترجمة نبيه امين فارس ومنير بعلبكي - طبعة ٣ - سنة
 ١٩٦٠ - دار العلم للملايين - بيروت - ص ٢٢٤
- بروكلمان - الامبراطورية الاسلامية وانحلالها - نبيه امين فارس ومنير بعلبكي - طبعة ٣ - سنة
 ١٩٦١ - دار العلم للملايين - بيروت - ص ٢٢٠
- بروكلمان - الاتراك العثمانيون وحضارتهم - ترجمة نبيه امين فارس ومنير بعلبكي - طبعة ٣ - سنة
 ١٩٦١ - دار العلم للملايين - بيروت - ص ١٩٠
- بروكلمان - الاسلام في القرية التاسع عشر - نبيه امين فارس ومنير بعلبكي - طبعة ٣ - سنة
 ١٩٦١ - دار العلم للملايين - بيروت - ص ٢٠٧
- بروكلمان - الدول الاسلامية بعد الحرب العالمية الاولى - ترجمة نبيه امين فارس ومنير بعلبكي - طبعة ٣
 - سنة ١٩٦٢ - دار العلم للملايين - بيروت - ص ١٨٢
- البغدادي ، ابن طاهر - الفرق بين الفرق - سنة ١٩٢٤ - الهلال - القاهرة - ص ١٩٢
 بوتول ، جاستون - تاريخ علم الاجتماع - ترجمة د. محمد عاطف غيث - سنة ١٩٦٤ - الدار القومية
 - القاهرة - ص ١٥٨
- بيربى ، جان جاك - جزيرة العرب - ترجمة نجدة هاجر - طبعة ١ - سنة ١٩٦٠ - المكتب التجارى -
 بيروت - ص ٣٠٣
- توينبى ، ارنولد - مختصر دراسة في التاريخ ج ١ - ترجمة فؤاد محمد شبل - طبعة ١ - سنة ١٩٦٠
 - لجنة التأليف والنشر - القاهرة - ص ٤٨٨
- توينبى ، ارنولد - مختصر دراسة في التاريخ ج ٢ - ترجمة فؤاد محمد شبل - طبعة ١ - سنة ١٩٦١
 - لجنة التأليف والنشر - القاهرة - ص ٥٠٢

- توينبى ، ارنولد - العالم والغرب - نجدة هاجر - طبعة ١ - سنة ١٩٦٠ - المكتب التجارى - بيروت - ص ١٠٢
- توينبى ، ارنولد - الحرب والمدنية - أحمد محمود سليمان - سنة ١٩٦٤ - النهضة العربية - القاهرة - ص ١٨٩
- جيمس ، وليم - ارادة الاعتقاد ج ١ - ترجمة محمود حبالله - سنة ١٩٤٦ - دار احياء الكتب - القاهرة - ص ١٤٣
- حتي ، فيليب - تاريخ العرب - مطول - ٣ اجزاء - طبعة ٣ - سنة ١٩٥٥ - دار الكشاف - بيروت
- حسن ، محمد سلمان - التطور الاقتصادى فى العراق ج ١ - المكتبة العصرية - صيدا ص ٧٢٨
- حسنى ، عبد الرزاق - العراق قديما وحديثا - طبعة ٢ - سنة ١٩٥٦ - العرفان - صيدا - ص ٣٣٠
- حسين ، طه - الفتنة الكبرى جزآن - طبعة ١ - سنة ١٩٥١ - دار المعارف - القاهرة - ص ٥٢٥
- الحصرى ، ساطع - الاقليمية - طبعة ٢ - دار العلم للملايين - بيروت - ص ٢٥٤
- الحصرى ، ساطع - آراء واحاديث فى القومية العربية - طبعة ٣ - سنة ١٩٥٩ - دار العلم للملايين - بيروت - ص ١٥٠
- الحصرى ، ساطع - دراسات عن مقدمة ابن خلدون - سنة ١٩٤٣ - الكشاف - بيروت - ص ٣١٩
- الحشّاب ، مصطفى - دراسات فى الاجتماع الاقتصادى - سنة ١٩٥٧ - لجنة البيان العربى - القاهرة - ص ٢٣٤
- دارون ، جارس - اصل الانواع - ترجمة اسماعيل مظهر - سنة ١٩١٨ - المطبعة المصرية - القاهرة - ص ٣١٢
- درويش ، يحيى حسن - السياسة الاجتماعية - طبعة ١ - سنة ١٩٦٢ - القاهرة الحديثة - القاهرة - ص ٢٩٥
- الدينورى ، ابن قتيبة - الامامة والسياسة ج ١ - طبعة ٣ - سنة ١٩٦٣ - الحلبي - مصر - ص ٢٠٩
- ديورانت ، ويل - قصة الحضارة ج ١-١٣ - زكى نجيب محمود - طبعة ٢ - سنة ١٩٥٦ - الادارة الثقافية - الجامعة العربية - ص ٢٠٤
- ديورانت ، ويل - قصة الحضارة ج ٢-٢٣ - محمد بدران - طبعة ٢ - سنة ١٩٦١ - الادارة الثقافية - الجامعة العربية - ص ٥٠٢
- ديورانت ، ويل - قصة الحضارة ج ٣ - ١٣ - زكى نجيب محمود - طبعة ٢ - سنة ١٩٥٧ - الادارة الثقافية - الجامعة العربية - ص ٤٦٥
- ديورانت ، ويل - قصة الحضارة ج ٤ - ١٣ - محمد بدران - طبعة ٢ - سنة ١٩٥٧ - الادارة الثقافية - الجامعة العربية - ص ٢٤٨
- ديورانت ، ويل - قصة الحضارة ج ٥ - ١٣ - ترجمة زكى نجيب محمود - طبعة ٢ - سنة ١٩٥٨ - الادارة الثقافية - ص ٢٢٠
- ديورانت ، ويل - قصة الحضارة ج ٦ - ثلاثة اجزاء - ترجمة محمد بدران - طبعة ٢ - سنة ١٩٦٢-٦١-٩٥ - الادارة الثقافية - الجامعة العربية - ١٢٤٠
- ديورانت ، ويل - قصة الحضارة ج ٣٣ - ثلاثة اجزاء - ترجمة محمد بدران - طبعة ٢ - سنة ١٩٦٤-٦٣ - الادارة الثقافية - الجامعة العربية - ص ١٤٤٥
- ديوزات ، ويل - قصة الحضارة ج ٤٣ - خمسة اجزاء - محمد بدران - طبعة ٢ - سنة ١٩٥٧-٩٦٤ - الادارة الثقافية - الجامعة العربية - ص ١٨٩٩

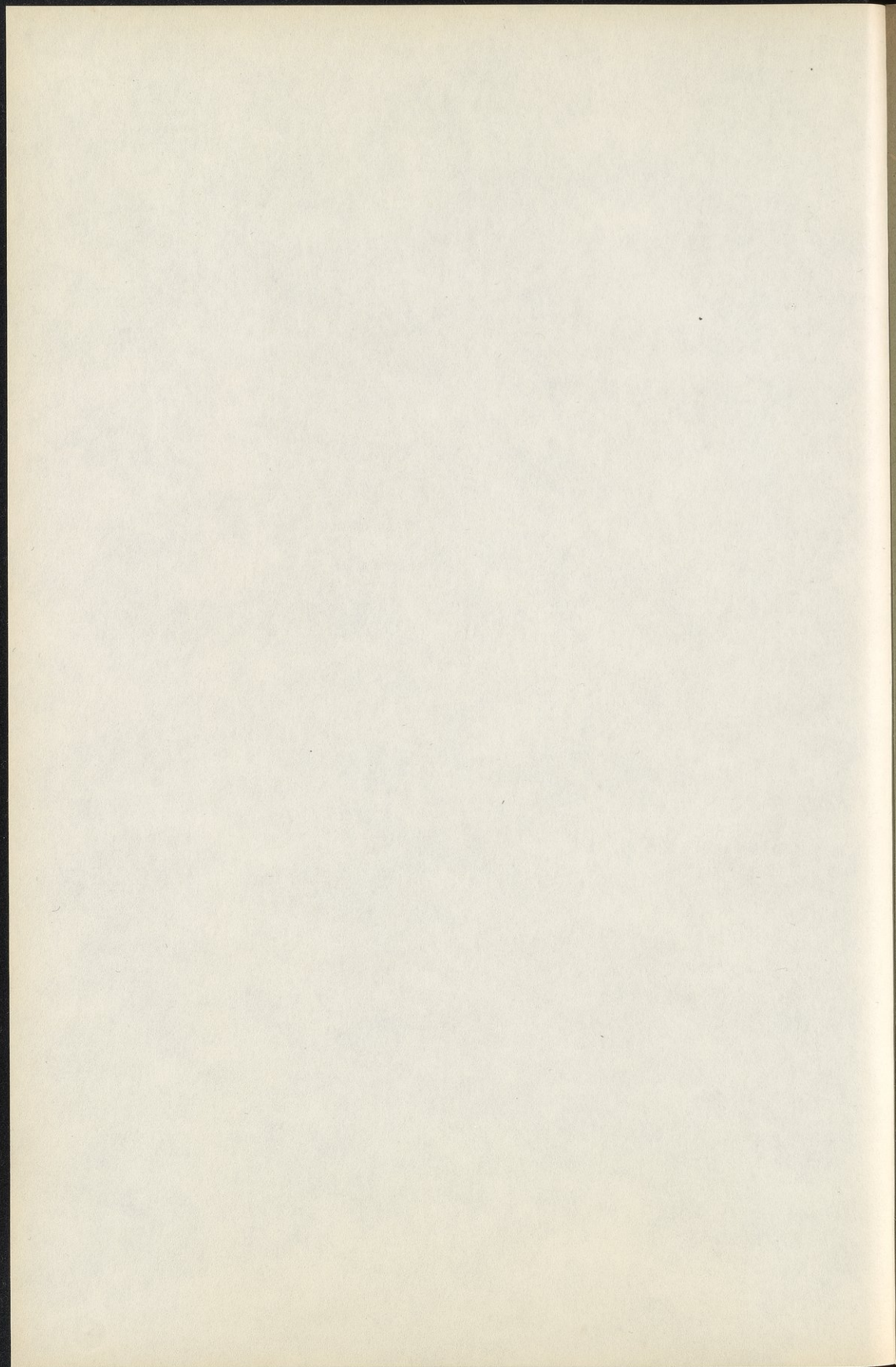
- ديورانت ، وبل قصة الحضارة ٥م - اربعة اجزاء - ترجمة محمد بدران - سنة ٥٨-٩٥٩ - الادارة - الثقافية - الجامعة العربية - ص ١٣١٩
- الرافعى ، عبد الرحمن - ثورة ١٩١٩ (تاريخ مصر القومي) ج١-٢ - طبعة ٢ - سنة ١٩٥٥ - النهضة المصرية - القاهرة - ص ٣١٤
- الرافعى ، عبد الرحمن - مصطفى كامل (تاريخ مصر القومي) - طبعة ٤ - سنة ١٩٦٢ - النهضة المصرية - القاهرة - ص ٥٢٨
- الرافعى ، عبد الرحمن - تاريخ الحركة القومية في مصر - طبعة ١ - سنة ١٩٦٣ - النهضة المصرية - القاهرة - ص ٣١٧
- الساغى ، حسن - التكنولوجيا والمجتمع - طبعة ١ - سنة ١٩٦٢ - دار المعرفة - القاهرة - ص ١٨٦
- سيابن ، جورج - تطور الفكر السياسى (جزآن) - ترجمة حسن جلال العروسى - طبعة ٢ - سنة ١٩٦٣-٩٦٤ - دار المعارف - القاهرة - ص ٤٥٥
- شبنجلر ، اوزفاند - تدهور الحضارة الغربية ٣ اجزاء - احمد الشيبانى - طبعة ١ - سنة ١٩٦٤ - دار مكتبة الحياة - بيروت - ص ١٥٣٤
- الشهرستانى - الملل والنحل اربعة اجزاء - سنة ١٣٧١ هـ الطبعة الادبية - القاهرة
- عبد الحميد ، سعد زغلول - تاريخ المغرب العربى - دار المعارف - القاهرة - ص ٥٢٠
- الامام علي - نهج البلاغة - شرح ابن ابى الحديد - سنة ١٩٥٩ - دار احياء الكتب - القاهرة - ٦ اجزاء
- عنان ، محمد عبد الله - المذاهب الاجتماعية الحديثة - طبعة ٣ - سنة ١٩٥٦ - مطبعة مصر - القاهرة - ص ٣٠٥
- العمرى ، احمد سويلم - الشرق الاوسط ومشكلة فلسطين - سنة ١٩٥٤ - الانجلو المصرية - القاهرة - ص ٤٣٥
- عوض ، لويس - دراسات في النظم والمذاهب - سنة ١٩٦٢ - المكتب التجارى - بيروت - ص ٢٦٨
- غالى ، بطرس مبادئ العلوم السياسية - سنة ٦٢-٩٦٣ - الانجلو المصرية - القاهرة - ص ٦١٧
- الغزالى ، ابي حامد - المنقذ من الضلال - جميل صليبا وكامل عياد - طبعة ٦ - سنة ١٩٦٠ - جامعة دمشق - دمشق - ص ١٢٦
- الغزالى ، ابي حامد - الرد على فضائح الباطنية - تحقيق جولدتسهير - سنة ١٩٥٦ - ليدن - بريل - ص ١١٢
- الغزالى ، ابي حامد - مقدمة تهافت الفلاسفة - تحقيق سليمان دنيا - دار المعارف - القاهرة - ص ٤٢٠
- فروم ، ايريك - المجتمع السليم - ترجمة محمود محمود - سنة ١٩٦٠ - الانجلو المصرية - القاهرة - ص ٢٥٢
- فرويد ، سيجموند - ما فوق مبدأ اللذة - اسحق رمزي - سنة ١٩٥٢ - دار المعارف - القاهرة - ص ١٤١
- فرويد ، سيجموند - اللذات والفرائز - ترجمة محمد عثمان نجاتي - طبعة ٣ - سنة ١٩٦١ - النهضة المصرية - القاهرة - ص ١٤١
- فرويد ، سيجموند - القلق - ترجمة محمد عثمان نجاتي - سنة ١٩٥٧ - النهضة المصرية - القاهرة - ص ٢١٤
- فيبر ، ماكس - [يراجع عن حياته وكتبه : المشكلات الاجتماعية في حضارة مبنذلة - د. عبد الجليل الطاهر - طبعة ١ سنة ١٩٥٣ ١٩٥٣ - دار المعرفة ، بغداد - الصفحات

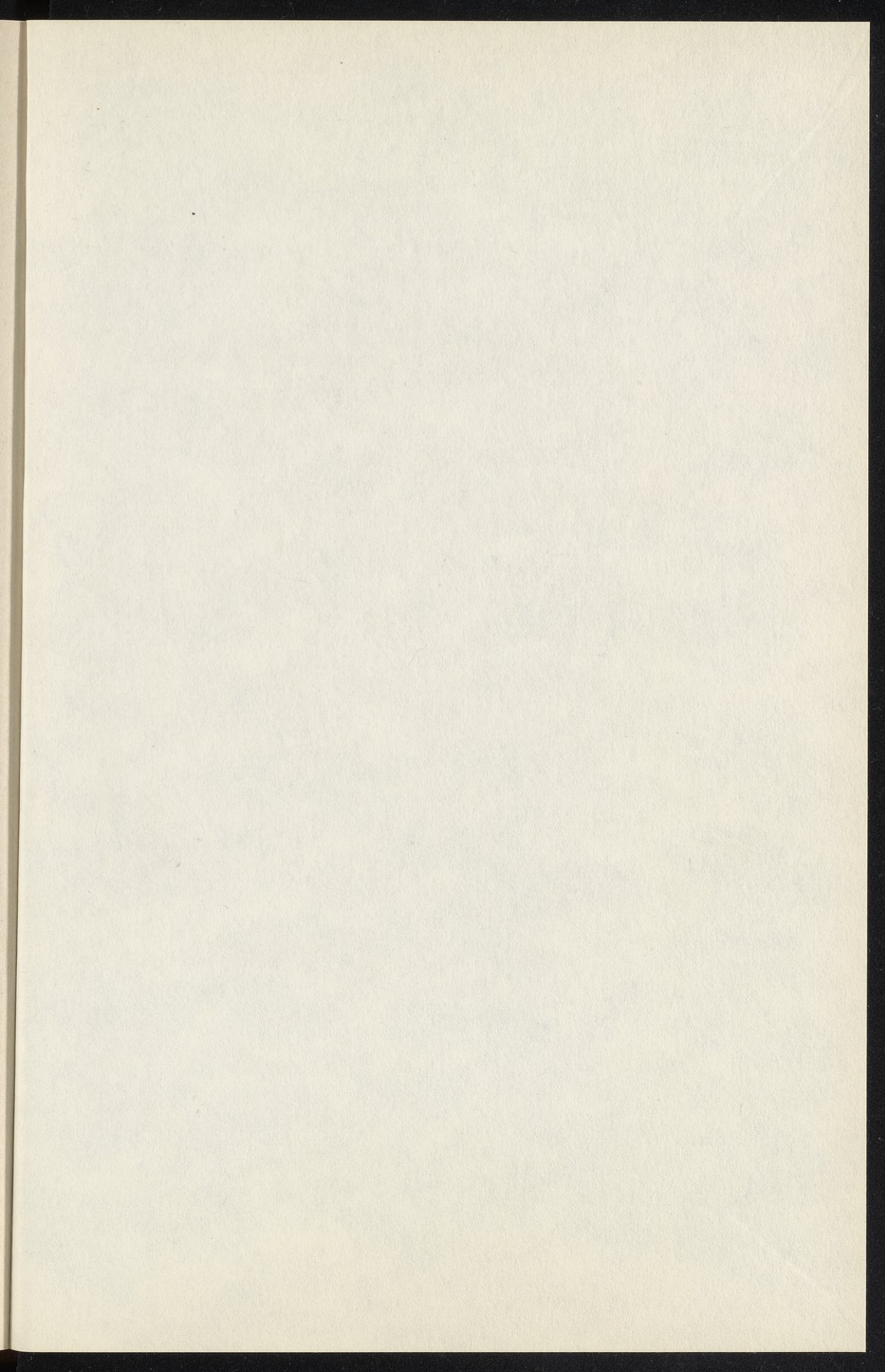
- ٢٢٨ وما بعدها ٢٦٦ وما بعدها . ويراجع ايضا تاريخ الفكر الاجتماعى والمدارس الاجتماعية - د. حسن شحاته سغان - طبعة ٣ - سنة ١٩٦٥ - دار النهضة العربية - القاهرة - ص ٢٧٢ وما بعدها . ويراجع ايضا : مجلة كلية الاداب مقال « علم الاجتماع بين الفينوفيلوجية والتجريبية » د. عبد الجليل الطاهر - العدد الرابع اب - سنة ١٩٦١ - الصفحة ٢١٣ وما بعدها] .
- الفاسى ، علل - محاضرات فى الفرب العربى - سنة ١٩٥٥ - معهد الدراسات العربية العالية - ص ١٩٧
- فروست ، رايونى - تنمية المجتمعات المتخلفة - احمد قاسم جودة - سنة ١٩٦٤ - دار الكرنك - القاهرة - ص ٢١٥
- كاسيرر ، ارنيست - مقالة فى الانسان - د. احسان عباس - سنة ١٩٦١ - دار الاندلس - بيروت . ص ٤١٤
- كامپس ، جدى . س المدخل الى علم الاقتصاد - ترجمة د. حميد القيسى - سنة ١٩٦٤ - مكتبة الوفاء - الموصل - ص ٢٣٤
- كوفيليه ، ارمان - مقدمة فى علم الاجتماع - ترجمة السيد محمد بدوى - دار المعارف - القاهرة - ص ٢٣٤
- كولبورن ، رستون - اصل المجتمعات المتحضرة - ترجمة لمى المطيعى - دار النشر القمية - القاهرة - ص ١٥٣
- كينز ، ماينرد - النظرية العامة فى الاقتصاد - ترجمة نهاد رضا - سنة ١٩٦٢ - دار الحياة - بيروت - ص ٤٢٥
- لطفى ، عبد الحميد - علم الاجتماع - سنة ١٩٦٥ - الثقافة الجامعية - الاسكندرية - ص ٢٨٤
- لورنس ، د. هـ - اعمدة الحكمة السبعة - طبعة ١ - سنة ١٩٦٢ - المكتب التجارى - بيروت - ص ٤٤٣
- ماكيفر وييج - المجتمع - ترجمة على احمد عيسى - النهضة المصرية - القاهرة - ص ٤١٢
- المسعودى ، ابنى الحسن - مروج الذهب ومعادن الجوهر - جزان - محمد محى الدين عبدالحميد - طبعة ٤ - سنة ١٩٦٤ - السعادة - مصر - ص ٨٤٤
- مطواع ، ابراهيم عصمت - تطوير مجتمعنا الريفى ودور المدرسة فيه - دار الفكر العربى - مطبعة القاهرة ص ٣٣٤
- مكاي ، دورنى - مدن العراق القديمة - ترجمة يوسف يعقوب مسكونى - طبعة ٢ - سنة ١٩٥٢ - شفيق - بغداد - ص ٢٠٤
- مناف ، منعب - ثورة على القيم - طبعة ١ - سنة ١٩٦٥ - التلغراف - بغداد - ص ٢٠٠
- النوبختى ، الحسن بن موسى - فرق الشيعة - سنة ١٩٥٩ - النجف - ص ١٦٥
- نيشمه ، فردريك - هكذا تكلم زرادشت - ترجمة فيلكس فارس - المكتبة الاهلية - بيروت - ص ٣٨١
- هتار - كفاى - ترجمة لويس الحاج - سنة ١٩٦٢ - دار صادر - بيروت - ص ٣٨٤
- واينهيدي - مفاهيم الافكار - ترجمة انيس زكى حسن - سنة ١٩٦٠ - مكتبة الحياة - بغداد - ص ٤١٨
- وصفى ، عاطف - علم الاجتماع الحضرى - طبعة ١ - سنة ١٩٦٥ - دار المعارف - القاهرة - ص ١٥١
- ولسون ، كولن - اللامنتهى - ترجمة انيس زكى حسن - سنة ١٩٥٨ - دار العلم للملايين - بيروت - ص ٣٤٨
- ولسون ، كولن - سقوط الحضارة - ترجمة انيس زكى حسن - طبعة ٢ - سنة ١٩٦٣ - دار العلم للملايين - بيروت ص ٣٩٩

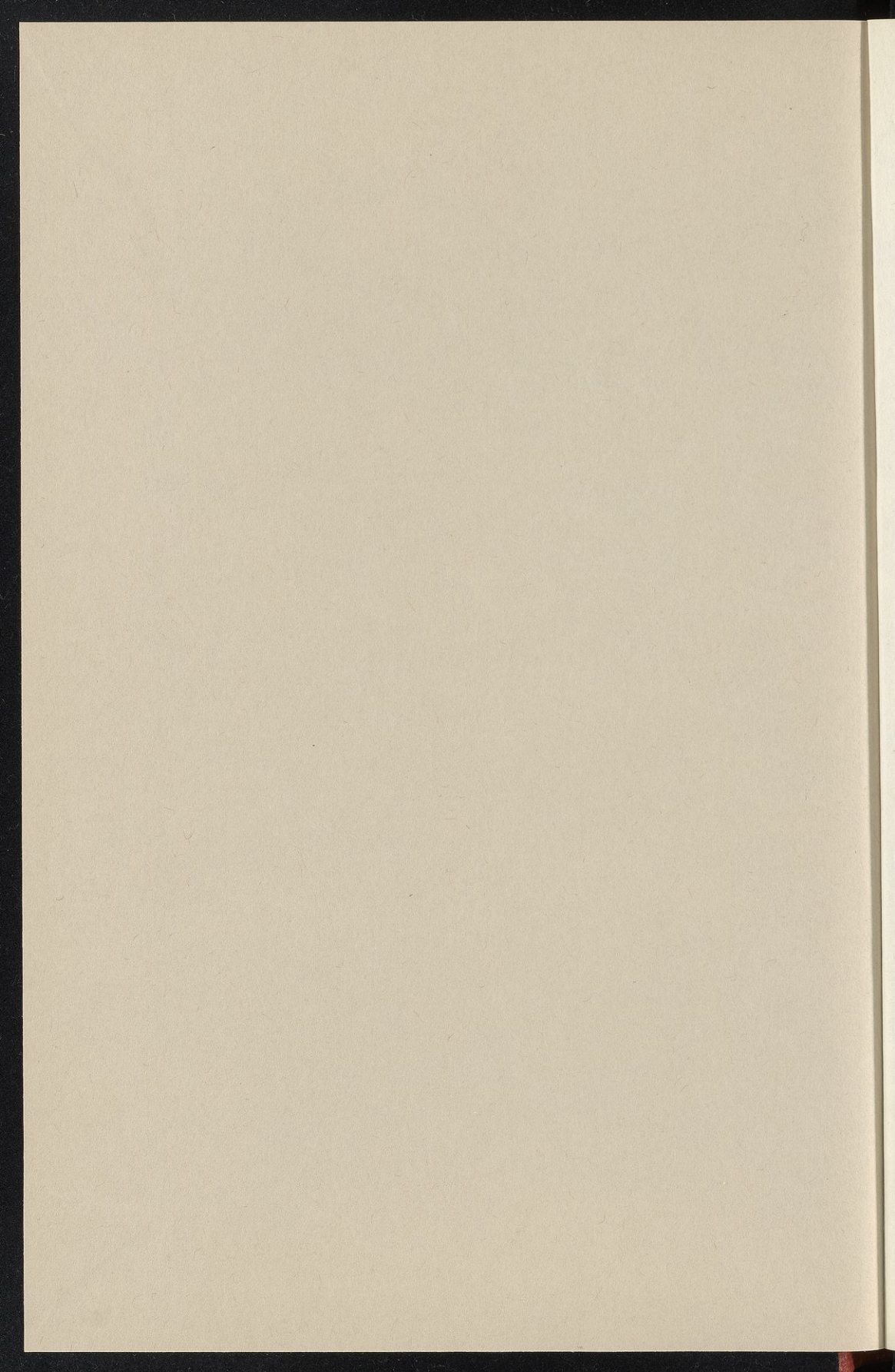


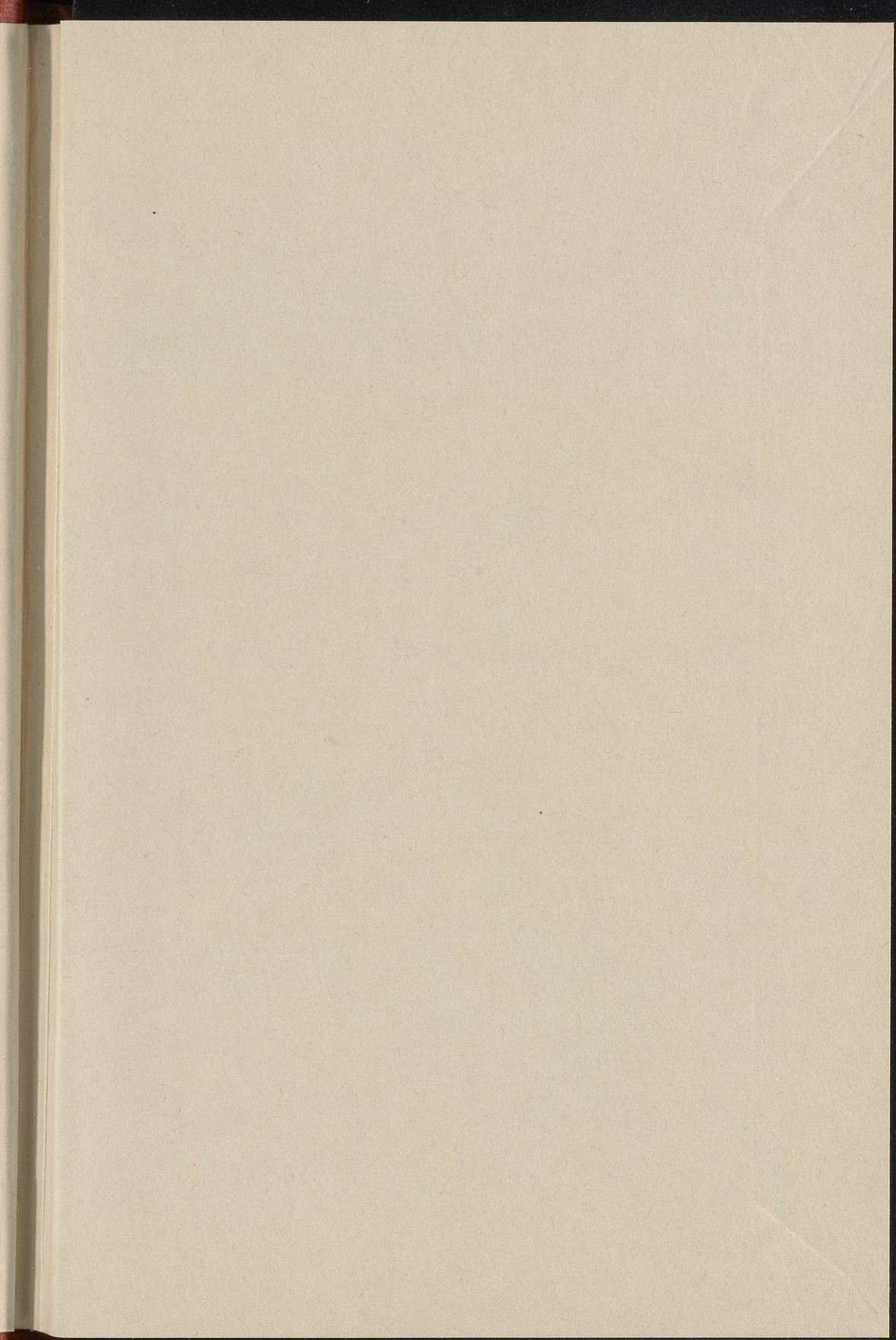
مطبعة المامل

بغداد - تلفون ٦٥٧٣٤









DS
63
.M8

02952483

DS 63
.M8

NOV 7 1969

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU52891321

DS63 .M8

al-Waqi al-fikri wa-